محمد حسنين هيكل

كلام فى السياسة



نهايات طرق:

العربى التائه ٢٠٠١





محمد حسنين هيكل

العربى التائه ٢٠٠١

نهايات طرق

نهاية الطريق!

دالعربى التالت ٢٠٠١

الطبعة الأولى : ينـاير ٢٠٠٢م
الطبعة الثانية : فبراير ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة : أكتوبر ٢٠٠٢م
الطبعة الرابعة : أغسطس ٢٠٠٣م

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٣٠٣٣
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977 - 09 - 0807 - x

© الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
- رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني : e-mail: info@alkotob.com

تصميم الغلاف والإخراج:
للفنان حلمي التوني

هذه فصولٌ مما كتبت سنة ٢٠٠١، وهى سنة طلع على الدنيا فيها قرن جديد، ومن المفارقات أن البداية فيما كتبت كانت حديثا عن مؤتمر القمة العربى فى عمان - مارس ٢٠٠٠، وكان عنوانه: «نهايات طرق». ثم إن هذه الفصول - اليوم على شكل كتاب - تصل إلى قارئها، والأمة تتطلع إلى مؤتمر قمة عربى فى بيروت - مارس ٢٠٠٢. والظاهر ولسوء الحظ أن الطرق تبدو عند نهاياتها وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق.

ومع بداية هذا القرن الجديد - القرن الحادى والعشرين - فإنه يبدو أن «العربى» أصبح هو «التائه» - وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قرونا عن «اليهودى التائه».

وفى قرن سبق - وهو القرن العشرون - فإن ذلك «اليهودى التائه» وجد لنفسه مكانا حَط فيه رحله، وحَصَّن موقعه - وفى نفس الوقت فإن «العربى» اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيَّع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائها بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز.

وهكذا بدأ القرن الحادى والعشرون واليهودى الذى كان «تائها» متحصنا فى المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، فى حين أن العربى الذى كان راسخا فى الطبيعة والتاريخ أصبح هو الشارد فى التيه: قد يعرف من أين؟ - لكنه لا يعرف إلى أين؟!

وكان ذلك هاجسى وأنا أعيد قراءة هذه الفصول حتى تظهر بين دفتى كتاب.

ورجائى ودعائى ألا أكون قد أسرفت فى القلق على الحاضر وأهله، وعلى المستقبل وأصحابه، ثم يكون الهلال قد أصبح بدرا فى كماله أمام الناس، فى حين عطلتنى الوساوس أمام الوجه الآخر - المظلم - للقمر!

محمد حسنين هيكل



قمّة عمّان القادمة نهايات طُرُق

١ - «نهـــــايـــة طـريـــق»:

لا يحتاج أى مُتابع مشغول، أو مُراقب مُهتَم - إلى مقدمات من أى نوع حتى يقول مُطمَئناً إلى صِحَّة القول - ومُشفقاً من دلالته - أن مؤتمر القمة العربى المقبل، والذى تستضيفه العاصمة الأردنية عَمَّان يومى ٢٧ و٢٨ من هذا الشهر (مارس ٢٠٠١) - سوف يكون «نهاية طريق» فى السياسة العربية.

وليس ضرورياً أن يوافق المشاركون فى القمة على صِحَّة هذه المقولة، ومن ثم يُنشِئون خطاباً مُختلفاً - أو لا يوافقون ويجىء الخطاب بعزمهم على مواصلة «المسيرة» وكأن «السياسة» العربية قافلة على طُرُق التجارة القديمة بين أوروبا وآسيا، تلتزم مسارات تُكَرِّر نفسها وتقتفى أثر بعضها حتى لا تتوه أو تتأخر عن أسواقها التى تنتظر التَّوابل والبُخور.. الذهب والحرير، وغيرها من بضائع الشرق!

والحاصل أن «التاريخ» يُواصِل حركته، ويضع نقط تَحَوُّله، ويُحَدِّد «نهايات طرُقه»، سواء تَنَبَّه أصحاب القرار فى حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك - ومثال ذلك الأشهَر فى التاريخ القريب أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ وهو «نيفل تشمبرلين» لم يكن يُدرك وهو يحمل مظلَّته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألمانى «أدولف هتلر» فى «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليُبَشِّر الشعب البريطانى (وشعوب أوروبا) - بـ«السلام فى زماننا» - أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق» - وأنه بوَهم صُنع «السلام فى زماننا» - جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافُت على السلام» دليلاً على الضعف والوَهَن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تَحَمُّل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

لم يُدرك «نيفل تشمبرلين» وهو يُبَشِّر بـ«السلام فى زماننا» أن استرضاء العَدُو «بأىّ ثمن» هو أقرب الطرُق إلى الحرب، لأن التهافُت على الطلب مثير للطمَع، ولأن الغاية النبيلة لا تُحَقِّقها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف

لنفسه أن يَستخذى فإن الطرَف الآخر مدعو لأن يَستقوى، وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع.

وتؤكد وثائق الحرب العالمية الثانية - وهى اختبار عظيم للسياسات والإرادات - أنه لم يكن مطلوباً من «تشمبرلين» عندما قصد إلى «ميونيخ» أن يصيح بـ«أنها الحرب إذا واصَل هتلر سياسة قضم أجزاء من أوروبا لُقمة لُقمة» - وإنما كان يكفيه فى ذلك الوقت إدراك أنه وَصَلَ إلى «نهاية طريق» مع «هتلر»، وأنه لم يَعُد أمامه غير القول له بوضوح كافٍ أن «بريطانيا ليس فى مقدورها قبول مَطالب التَوَسُّع الألمانى مهما كانت ذرائعه»، ثم كان عليه أن يقول كلمته فى «ميونيخ» - ويَعود منها إلى لندن ليضع «الإرادة» فى خِدمة «السياسة».

لكن «تشمبرلين» لم يَتَنَبَّه فى «ميونيخ» إلى أنها «نهاية طريق»، وتَصَوَّر أنه هناك يُواصِل «مسيرة سلام»، وكان هو أول دافع للتكاليف حين تَحَوَّل «التهافُت» على طلب السلام إلى «عاصفة» حرب تمطر دَماً - ولم يَبق له غير الخروج من رئاسة الوزارة البريطانية، وإفساح المجال لخصمه «ونستون تشرشل» ليُحَدِّد الخط السياسى ويَضَع «الإرادة» فى خدمته، بحيث تكون للسياسة قوة فِعل تَحتَرم نفسها، وتَنتَزع احترام الآخرين حين يرون السلام يَعرض نفسه واقفاً على قَدَمَيه وليس راكعا على رُكبَتَيه، مُتَنَبِّهاً إلى أنها الآن «نهاية طريق».

ولكى لا يكون هناك التباس فإن «السياسة» الواضحة تُعزِّزها «الإرادة» قد تغنى عن الحرب المسلحة ونزيفها الدَمَوى - فى حين أن «السياسة» المتَرَدِّدة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة فى التَيْه أو مذبحة فى العراء!

وفى الظرف العربى الراهن فإن اعتبار «عَمّان» وقمتها المقبلة «نهاية طريق» - ليس مُؤدّاه أن تَتَحَوَّل القمة إلى مجلس حرب. فمن الصعب عقلاً أن يكون بديل «التهافُت فى طلب السلام» هو «الاندفاع إلى حمل السلاح»، وإذا انحصر الفعل بين المطرقة والسندان على هذا النحو، فتلك دلالة إفلاس السياسة ووقوعها فى مأزق أضاعت فيه خياراتها ولم يَعُد أمامها غير بديلين: «الانتحار» أو «الشهادة» - وكلاهما ليس مطلوباً فى صراعات أزمنة جديدة لا تضع - ولا تملك أن تضع - قيداً على

البشر الأحرار فى عقلانية التفكير ومعه جسارة المعرفة، وفى حق الاختيار ومعه حِكمة الإرادة!

وربما أن الخطر الأكبر على القمة القادمة فى عَمّان أن يَفوت عليها أنها عند - أو قرب - «نهاية طريق»، ثم تأخذها أوهام شاعت أخيراً فى التمهيد لاجتماعها بزعم أنه مَطلبٌ لشعوب الأمة اشتد إلحاحه وزادَ، وهنا فإن «مجرد الاجتماع فى حَدٍّ ذاته كافٍ لتحقيق المطلوب منه».

وذلك وَهْمٌ لا تُبَرِّره حقيقة. وفوق ذلك خطأ فادح لا يَسمَح به واقع الحال.

ومقولة أن «مجرد وقوع اجتماع ما فى حَدٍّ ذاته مُحَقِّقٌ لهَدَفِه» - مقولة ليست جديدة فى العصر الحديث، وفى الواقع فإنها تَعود إلى مُنتصف الخمسينات من القرن العشرين (ولقد أتاحت لى الظروف أن أحضر مناسباتها الشهيرة شاهد عِيان - وصَدَّقتُ وصَدَّقَ الجميع) - وأضاف التاريخ مصداقيته إلى تلك المقولة مَرَّتَين على الأقل (فى زماننا!).

☐ المرة الأولى كانت فى مناسبة مؤتمر «باندونج» (إندونيسيا) سنة ١٩٥٥ - وهو مؤتمرٌ تَجَمَّعَت فيه دُوَل آسيا وأفريقيا المستقلة، ومعها حركات التحرير الوطنى فى القارتين. وهَدَف المؤتمر إنهاء الحقبة الاستعمارية وتخليص الشعوب من سيطرة استَبَدَّت بالأوطان والناس والموارد طوال قرون، وهنا كان مجرد اجتماع المؤتمر دعوة لا تحتاج إلى قرارات - ونداؤها أنه قد حان وقت النهوض. وكان الصدى الأول لـ«باندونج» هو موقعة السويس، وفيها فإن مصر لم تكن فى مقاومة العدوان وحدها، وإنما كان خط المواجهة ممتَداً من «داكار» (السنغال) إلى «دكا» (بنجلاديش) ووراءهما حتى «كاراكاس» (فنزويلا).

وقد جَرَت موقعة السويس سنة ١٩٥٦ (سنة واحدة بعد «باندونج»)، وبعدها بسنة أخرى كانت الإمبراطورية البريطانية تتساقط، وكان رئيس وزرائها «أنتونى إيدن» ينهار عَصَبياً وصحِّياً، ووَقَفَ خَلفه من حزب المحافظين «هارولد ماكميلان» يُعلن فى خطابٍ شهير (أبريل ١٩٥٨ أمام مجلس العموم) «أن رياح التغيير تهب على آسيا وأفريقيا، وأن الإمبراطورية البريطانية عليها أن تتراجع حتى تستطيع الحياة فى عالم مُتَغَيِّر».

وهكذا كان مجرد انعقاد مؤتمر «باندونج» هو جدول الأعمال وهو إعلان القرارات في نفس الوقت.

□ والمرة الثانية، كانت في مناسبة مؤتمر القِمَّة الدولية في جنيف سنة ١٩٥٥، وقد شارك فيه الأربعة الكبار حين تَخوَّفوا من أن تَتَحَوَّل الحرب الباردة بينهم إلى حرب ساخنة، والتقى في جنيف رؤساء الولايات المتحدة («أيزنهاور») وبريطانيا («إيدن») والاتحاد السوفيتي («بولجانين» و«خروشوف») وفرنسا («إدجار فور»)، ولم تكن قرارات المؤتمر المعلنة هي النتيجة الأهم، ولكن الأهم كان ما أطلق عليه «روح جنيف»، فقد كانت هذه «الروح» بمثابة أمَل تَعَلَّقَت به احتمالات وفاق دولي يضبط الحرب الباردة لا ترتفع حرارتها وتَصِل إلى درجة الحُمَّى بحرب يَصعُب عزلها عن الأسلحة النووية، لأنه في حروب القوى الكبرى الغالبة لا يَسمَح طَرَفٌ لنفسه أن يَنهَزم، وبالتالي فإنه عند لحظة مُعَيَّنة يراها حاسمة لن يُحَرِّم على نفسه سلاحاً حتى وإن أجمَعَ البَشَر على تحريمه!

وهكذا فإن مجرد انعقاد القمة الدولية الرباعية سنة ١٩٥٥ والأمَل الذي أشاعته «روح جنيف» - كانا أهم من جدول أعمال يعتمده المؤتمر، ومن إعلان قرارات تَصدُر عنه.

وذلك لا ينطبق على مؤتمر عَمَّان القادم.

فلا هو مثل مؤتمر «باندونج» (١٩٥٥) نداء إلى شعوب دخلت حديثاً إلى ساحة التحرير - بأحلامها العذراء..

ولا هو مثل مؤتمر «جنيف» (١٩٥٥) قادر على أن يشيع «روحاً» تَنشُر الأمَل وتَحصُر الشر.

وفي الحالتين - فقد كانت تلك «بداية طريق» - وعلى عَكس عَمَّان التي هي الآن «نهاية طريق».

فلا الأحلام العربية عذراء - ولا الروح أمَلاً مُلهِماً!

ولعل الأخطر من مقولة أن «مجرد انعقاد» قمة عَمَّان يكفيها - هو ذيوع مقولة أخرى تَلحَق بها ملخصها «أنه وقد تَقَرَّر أن تكون القمة العربية دورية -كل سنة- فإن

ما قد يفوت فى مؤتمرٍ يمكن اللحاق به فى مؤتمر يليه، وذلك تَصَوُّر ينقصه التنبُّه إلى أنها «نهاية طريق»، وأن «الأمة» - خلافاً «للقِمَّة» - واعية بقرب النهاية، وذلك سِرُّ إلحاحها على الاجتماع وتَزايُد الإلحاح.

والحاصل أنه منذ قِمَّة القاهرة (أغسطس سنة ١٩٩٠)، وفى الأجواء الموحشة تلك الأيام، تَحَوَّلَت معركة إخراج العراق من الكويت إلى عملية مقصودة ومنظمة لتدميره - وتواترت الظنون بعدها أن قِمَّة سنة ١٩٩٠ سوف تكون آخر القِمَم لأن هناك إرادة دولية - أمريكية بالتحديد - رَسَمَت بتجميد الوضع العربى عند تلك اللحظة التى انقَسَمَت فيها الأمة، والتى وَقَعَ فيها وطن من أهم أوطانها أسير مِحنة طاغية لم تَقتَصِر على حِصار العراق واعتصاره، وإنما شاعت نتائجها المأساوية إلى كافة أرجاء العالم العربى، وتباعَدَت الأهداف وتقاطعت الطرُق، وتَشرذمَت الولاءات إلى درجة المساس بالهَوية، وتلك كلها من زمَنٍ طويلٍ مَطالِب مرغوب فيها ومَقصودة من جانب قوى كثيرة أولها إسرائيل!

وخلال السنوات من ١٩٩١ وحتى ١٩٩٦ كانت الأمة تستشعر المحنة وتُنادى زعماءها حتى تُطَمئِن نفسها فى أجواء الوَحشة إلى أن هناك مسئولية وهناك مسئولين على مستواها - لكن النداء ظلَّ مُعَلَّقاً بغير جواب!

ووَقَعَ فى رَوع الناس أن هناك «فيتو» أمريكى قائم ومرجعه مطلب الولايات المتحدة فى استمرار حصار واعتصار العراق، ثم إن الولايات المتحدة - أساساً ومن حيث المبدأ - تَكرَه القِمَم العربية «على ظن أن الزعماء العرب حين يجتمعون يشغلهم أن يَستَرضوا جماهيرهم خطابياً - ومن ثم فإن انعقاد أى قِمَّة معناه مُزايدات تجىء عند السَّقف الأعلى للمطالب العربية. ولكن المشكلة - حتى بـ«اعتدال» التصرفات رغم «حماسة» القرارات - أن ما يَصدُر عن القِمَم العربية يُحدِث لدى الشارع العربى نوعاً من التعبئة المعنوية تَتَحَوَّل بدورها إلى عنصر ضغط.

وهكذا يبدو الأسلم - من وجهة النظر الأمريكية - «وضع فيتو» يَمنع انعقاد قِمَّة عربية، خصوصاً بعد «مدريد» وبعد «أوسلو» - حيث ظَهَرَت احتمالات لتسويات مع إسرائيل قادَ إليها اليأس أكثر مما دَفَعَ الرجاء - وعلى هذا الأساس فتلك أحوال من الأفضل تثبيتها وتركها لتفاعلاتها لا يمسها أحد بكلمة أو حركة، ولا يضيف إليها ما يُوقِظ أو يثير.

وكان ذلك ما وَقَعَ فى رَوْع الناس ابتداء من قمة سنة ١٩٩٠، وإلى حَدٍّ ما فإن بعض منطقه (وبهدى الوقائع) لم يكن مُجانِباً بالكامل للصواب.

لكنه فى يونيو سنة ١٩٩٦ ـ جرى توجيه الدعوة إلى مؤتمر عربى على مستوى القمة انعقد فعلاً لثلاثة أيام من ذلك الشهر (يونيو) ١٩٩٦ ـ وتَبَدَّى انقسام بين المهتَمِّين بالأمر حول السبب الذى من أجله جاءت الدعوة إلى القمة ولحقتها الردود بالإيجاب:

ـ كان هناك مَن رأوا أنها يقظة المسئولية جَعَلَت الزعماء العرب يَعصون «الفيتو الأمريكى» ويَتَحَدُّونه.

ـ لكنه ظهَرَ فى نفس الوقت مَن رأوا أن القمة كانت «سَماحاً» أمريكياً يريد امتصاص مفاجأة العرب بنجاح «بنيامين نتنياهو» «المتَشَدِّد» ضِدَّ «شيمون بيرين» «المعتَدِل» فى انتخابات رئاسة الوزارة (١٩٩٦) فى إسرائيل.

أى أن القلق من نتائج الانتخابات الإسرائيلية ووَقع صدمتها على العَرَب هو الذى استوجب «السماح» الأمريكى خِشيةَ من يأس عربى ينفض يده من التفاوض ويُعانِد فى رَفض «الحل»!

ولتلافى هذا اليأس جاء «السماح» على أمَل أن اجتماعا عربياً على مستوى القمة ـ بعد طول انتظار وإلحاح ـ يستطيع تهدئة الشارع العربى وتَطرية أجوائه، وبالتالى يخف الضغط عن حُكامه ولعلهم يُجَرِّبون مع «الصقور» الإسرائيليين وأولهم «نتنياهو» ـ ثم يستمر «التفاوض» وتتواصَل «المسيرة»!

وطبقاً لهذا الرأى فقد زادَ على ذلك وفوقه ـ أن الذين «سمحوا» بالقِمَّة وقتها، أو «لم يَعتَرضوا» عليها، انتهزوا الفرصة «لتمرير» قرار عربى لم يُطالِب به ـ من قبل ـ أحد باعتبار السلام خياراً إستراتيجياً لكل شعوب المنطقة. وكان الادِّعاء الدافع لـ«تمرير» ذلك القرار أنه «يُحرج نتنياهو أمام العالم ـ!!ـ عندما يَتَشَدَّد فى مواجهة أمة أجمَعَت رأيها على خيار السلام»!

وهكذا فإن «السماح» بالقِمَّة استعار أسلوب «المنشار» فى تحقيق أغراضه طالِعاً ونازلاً!

ومَضَت سنوات من ١٩٩٦ حتى سنة ٢٠٠٠ والشارع العربى يسأل عن القمة العربية - ماذا جرى لها؟ وأين غابت؟ ومتى موعدها؟ - واشتد الإلحاح مرة أخرى عندما عادَ حِزب العمل الإسرائيلى إلى الحُكم مرة ثانية بعد سقوط «نتنياهو». والنتيجة أن المَدَنى الذى ظهر حمقه ترك مكانه لعسكرى تأكَّدَ حمقه!

وبخيبة الأمَل فى «باراك» لاحِقة بخيبة الأمَل فى «نتنياهو» - صَدَرَت دعوة إلى مؤتمر جديد لقمة عربية انعقد ليوم واحد - أربع وعشرين ساعة - نهار ٢١ ونهار ٢٢ أكتوبر سنة ٢٠٠٠ - وكان بين قراراته أن تكون القمة دَوريَّة كل سنة - «على نحو ما يجرى فى مؤتمرات القمة الأفريقية، وفى مؤتمرات قمة دُوَل الأطلسى أو دُوَل السوق الأوروبية».

□ وكان التَمَثل بالقمم الأفريقية - لسوء الحظ - تَشبيهاً غير مطلوب، لأن القارة السوداء - رغم القمم الدورية - دَخَلَت إلى ليلٍ غارقٍ فى الدَم - وطويل، والشاهد الأكثر صِدقاً على ما جرى فيها أحد كبار أبنائها وهو نفسه الأمين العام الحالى للأمم المتحدة «كوفى عنان»، الذى تَحَدَّث أخيراً - نهاية الشهر الماضى - أمام المنتَدى الاقتصادى العالمى فى «دافوس» ليقول إن «القارة الأفريقية تعيش مأساة مُرَوِّعة، والسبب الرئيسى فساد زعمائها وساستها (أبطال القِمَم) إلى درجة لا يُرجى معها فى الظروف القائمة - صلاح»!

والظاهر أمام الجميع الآن أنه عندما جاء الاستقلال لمعظم الدول الأفريقية - فإن الزعماء الذين وصلوا على القمة تَصَوَّروا أنهم «البديل الوطنى» عن المستعمرين السابقين، والنتيجة أن الحكومات الأفريقية الجديدة راحت - بعد الاستقلال كما كان حال الإدارة الاستعمارية قبله - تعتبر نفسها المالِك الشرعى للثروة والمقاسِم فيها للقوى الكبرى المسَيطِرة والشركات الدولية الطامعة.

□ وكان التَمَثُّل بقِمَم دُوَل الأطلسى أو دُوَل السوق الأوروبية ادعاء لا تَقدِر عليه القِمم العربية، لأن قِمَم الأطلسى والسوق الأوروبية تلاقى إرادات تعرف أنها فى خدمة الأوطان وليس العكس، وقد وَصَلَت إلى درجة من النُضج تجاوزت الاحتفالات والمراسِم - بحيث أصبحت اجتماعات الرؤساء مواعيد عَمَل لا يضيع وقته، وهى فى كثير من الأحيان عُطلة نهاية الأسبوع فى بَيتٍ ريفى يَعرف فيه الأصدقاء كيف

يفتحون قلوبهم لبعضهم، أو قبل أو بعد غداء أو عشاء خفيف فى مَطعَم لا يحتاج فيه الزملاء إلى مُبالغات المظاهر، تنزل عليها غَلاظة الأمن، ويَتَحَوَّل لقاء خُطَط الأصدقاء والزملاء - إلى مُباراة فى الشكليات والرسميات والأُبَّهَة بين السلاطين!

وبصرف النظر عن أى شىء وكل شىء فإن القضية الأكبر هى ما إذا كانت قِمَّة «عَمّان» تُدرك أنها قرب «نهاية طريق»؟

وهو سؤالٌ مُهِمٌّ - وفى نفس الوقت سؤالٌ خطر.

ووجه الأهمية والخطر فى السؤال أنه إذا لم تَتَنَبَّه قِمَّة «عَمّان» إلى أنها قرب «نهاية طريق» فقد يَتَأَكَّد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بمثل ما أنها «نهاية طريق» - ذلك أن أهمية المؤتمرات والاجتماعات لا تتعلق بألقاب المشاركين فيها (ملحوقة بأوصاف الجلالة، والفخامة، والعظمة، والسُمُو، والدولة، والمعالى، والسعادة، إلى آخره!) وإنما تتعلق بقيمة ما تَتَوَقَّعه الشعوب والأمَم منها - فإذا لم تجد الشعوب والأمَم ما كانت تأمله عندما استدعت القمم وطلبتها وألَحَّت فى الطلب - فهنا الخطر، حتى وإن تَكَرَّرَ بعد ذلك انعقاد القِمَم وأصبح لها عَدَد يُحصى دون حِساب يُحسَب!

٢- وإسرائيل أيضاً عند «نهاية طريق»:

وفى ذات الوقت فإن السياسة الإسرائيلية هى الأخرى عند «نهاية الطريق».

لكن الذى أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وَهْم السلام» كما هو الحال على الناحية العربية، وإنما «وَهْم السلاح».

وكان المشروع الصهيونى منذ بدايته - قبل مائة عام - يُقَدِّر للسلاح دَوراً لا يتجاوزه، ثم تَحَوَّل هذا الدور مع التجربة العَمَلية حتى تَغَيَّر - بالكامل تقريباً.

○ والذى جرى فعلاً أنه على امتداد نصف قرن، أى من بداية المشروع وحتى سنة ١٩٤٨ - كان المطلوب من السلاح - طرد أكبر عَدَد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصاً بعد أن اتضح أن فلسطين ليست - كما تَصَوَّرَ «هيرتزل» - «أرضاً بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض». وقد أدرك «هيرتزل» هذه الحقيقة أثناء قيادته للحركة

الصهيونية، وراءه بُعدَها عن مُخيِّلته (وكان الذى حَدَث أن «هرتزل» الذى أراد أن يستوثق من استعداد أرض فلسطين للاستيطان اليهودى بَعَث باثنين من حاخامات «فيينا» لُمِهمَّة استطلاع، ومن فلسطين أرسَل إليه الاثنان «تلغرافاً» يقول له بالرمز أن «العروس جميلة - لكن المشكلة أن لديها زوجاً». يَقصد الحاخامان أن «الأرض عليها شعب».)

وفى هذه المرحلة - ومن مُخَيِّلة «تيودور هيرتزل» إلى مُخطِّط «دافيد بن جوريون» - كانت مُهمَّة السلاح فى المشروع الإسرائيلى أن يَتَكَفَّل بقتل الزوج، أو طرده على الأقل لكى يَحِل شعب مَحَل شعب، أو زوج مكان زوج.

○ وعلى مدى ما يَقرُب من عشرين سنة تالية - من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ - كانت الإستراتيجية العُليا لإسرائيل تُعطى للسلاح الإسرائيلى دَوراً مُحَدَّداً مَطلبه إبعاد الواديين الكبيرين - وادى الفرات ووادى النيل - عن منطقة الشام التاريخية الممتدة والواصلة بينهما. والمطلوب من وراء هذا الدور أنه إذا كان لا بد للمشروع الإسرائيلى أن يعيش فى «الوطن الموعود» فإن البيت الفلسطينى وحده لا يكفى، وإنما لا بد لسلامة البيت من مُحيط أمنى يعطيه مساحة كافية للتمكن والنفوذ، لأن الأوطان لا يُدافَع عنها عند حدودها، وإنما يُدافَع عنها فى إقليمها جواراً ومحيطاً.

وفى هذه الفترة تَرَكَّزت قوة السلاح الإسرائيلى أكثر على مصر بالذات تقصد إبعادها عن الشام بالذات، وهنا كانت القوة المصرية - العسكرية أولاً - خطراً لا بد من إزاحته بكل الوسائل حتى يبتعد، أو يَحِل قتله إذا عانَد (وهنا وجه شَبَه بين وجود الجيش المصرى على حدود فلسطين - وبين وجود الشعب الفلسطينى على أرضه - كلاهما يَتَعَيَّن عليه أن يرحل بعيداً عن فلسطين بالهجرة - فإذا عانَدَ كان على السلاح أن يَتَكَفَّل به!).

○ وفى ظروف يونيو سنة ١٩٦٧ وإلى هذه اللحظة (مارس ٢٠٠١) - وَقَعَ المحظور الذى كان يَخشاه كثيرون من «المعتَدلين» الذين شاركوا فى إقامة المشروع وساعدوا على تحقيق مهامه، وبينهم على سبيل المثال رَجُل مثل «ناحوم جولدمان» الذى رأس «المؤتمر اليهودى» (وهو قيادة التنظيمات اليهودية فى أمريكا وأوروبا)، ورَجُل مثل «موشى شاريت» الذى أدار السياسة الخارجية للوكالة اليهودية قبل قيام

الدولة (وأصبح وزيراً للخارجية بعد قيامها، ثم تَولى رئاسة الوزارة لسنة كاملة)، ورَجُل مثل الدكتور «يهودا ماجنس» (الذى قام على بناء النظام التعليمى فى دولة جاء سكانها من ٩٢ دولة أخرى)، وغير هؤلاء كثيرون فهموا وتَصرَّفوا بإدراك أن قوة السياسة - وليست قوة السلاح - هى أمان اليهود طوال تاريخهم - (قبل الدولة وبعدها).

كانوا جميعاً يدركون حاجة المشروع الصهيونى إلى استخدام السلاح - لكنهم جميعاً جاهدوا حتى يلتزم السلاح حدوده ولا يفسد على المشروع دعاواه المعنوية وضروراته العملية!

ثم وَقَعَ المحظور فى تلك الأيام المشهودة من يونيو سنة ١٩٦٧، ففى لحظة انتظار التزمها القرار السياسى الإسرائيلى (عن رغبة فى الاطمئنان أكثر إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها وقيادتها ورئيسها فى ذلك الوقت «ليندون جونسون» - جاهزون جميعاً لمعركة مع مصر) - اندفع السلاح إلى ما يمكن اعتباره نقطة تَحَوُّل فى التاريخ الإسرائيلى، إذ اعتبر نفسه مُكَلَّفاً بمستقبل إسرائيل ومصيرها، وهنا قاطع الانتظار السياسى وقطعه، ثم استولى على الحرب، ومع استيلائه على الحرب استولى على السياسة، وتجاوز واخترق حدوداً لم تطلبها إستراتيجية إسرائيل العُليا كما قَدَّرَها الآباء المؤسِّسون الأوائل، بل حاذرتها مُتأكِّدة أنها على المدى البعيد مَحكومٌ عليها!

تَجاوَز السلاح الإسرائيلى حدوده واحتل كل سيناء (فى حين كان المطلوب - وفق التخطيط الإستراتيجى - أقل من نصفها). ثم تَجاوَز السلاح حدوده فاحتل كل الضفة الغربية للأردن بما فيها القدس (فى حين كان المطلوب - سياسياً ومعنوياً - وعند الضرورة حائط المبكى وحده). ثم تَجاوَز السلاح الإسرائيلى حدوده فصَعَدَ إلى هضبة الجولان (ولم يكن ذلك مطلوباً من الأصل لأن الإستراتيجية العليا لإسرائيل كانت تُحاذر من جراحات دموية فى الشام، فهى تريد المنطقة سليمة بقدر الإمكان - هادئة بقدر الإمكان - بلا دَم فى الحاضر، ولا ثأر فى المستقبل!)

وكان تجاوُز السلاح لدوره نذير شُؤم، وقد رآه «ليفى أشكول» رئيس وزراء إسرائيل فى وقته، وأدرك مغزاه، وعَبَّرَ عن قلقه من عواقبه عندما التفت إلى عَدَدٍ من

زملائه الوزراء (وفق ما سجله مدير مكتبه الجنرال «إسرائيل ليور») وقال بغضب مكبوت ممزوج بأسى ممرور: «ماذا يريد هؤلاء الجنرالات؟ هل يريدون لإسرائيل أن تعيش بالسيف، وأن تعيش بالسيف وحده، وأن تعيش بالسيف وحده إلى ما لا نهاية؟»

وكذلك كان!

○ والنتيجة أنه فى ثلث القرن الأخير وَجَدَت إسرائيل نفسها فى الشام دولة إمبراطورية (وفى الإمبراطوريات كبيرٌ وصغير) - لكن الإمبراطورية مهما كان حجمها قد تكون لها مزايا مُغرية، لكن لها مع مرور السنين تكاليف مُرهِقة، خصوصاً عندما تتنازل كافة عوامل القوة وتترك مكانها للسلاح وحده.

ولقد تَعَلَّمَت الإمبراطوريات - حتى تلك الكبيرة والقادرة - أن تكاليف الإمبراطورية - حين يكون اعتمادها على السلاح وحده - عبء ثقيل، خير منه الانسحاب، وحتى بغير شروط - وأحيانا بغير كرامة، كما فعلت الإمبراطورية البريطانية فى السويس (مصر)، وكما فعلت الإمبراطورية الفرنسية فى «ديان بيان فو»، وحتى كما فعلت الإمبراطورية الأمريكية فى «سايجون» (فيتنام).

لكن مثل ذلك لم يكن فى مقدور إسرائيل لأن «الإمبراطورية» كانت من حول حدود الدولة نفسها - فإذا كان لا بد من انسحابها فإن الشرط المطلوب توافره أن يكون انسحابها مصحوباً باعتراف كاملٍ «تاريخى» و«قانونى» و«سياسى» و«عسكرى» لا يملك العرب أن يُقَدِّموه - وحتى إذا قَدَّموه فإن إسرائيل لن تُصَدِّقه ولن تُصَدِّق المتطوعين به لأنها أول من يعرف - وإن تأخر غيرها فى المعرفة - أن الحقائق على الأرض لها أحكامها، وأولها أن المحيط العربى حول الدولة اليهودية أكبر منها عِدَّة مرات، وإذا لم يكن هذا المحيط الآن قوياً بما فيه الكفاية - فإن الضعف ليس مضموناً إلى ما لا نهاية!

ولتوفير كافة الشروط والضمانات وتَوثيق عُقود التأمين ضِدَّ مُتَغَيِّرات المستقبل (وأولها الاطمئنان إلى عَزل الشام عن مصر ومصر عن الشام) فقد تَوَصَّلَت إسرائيل - بمساعدة الولايات المتحدة - إلى عَقد معاهدة مع مصر كان مقصدها الأكبر

إبقاء القوة المصرية - وفيها الجيش المصرى - وراء قناة السويس شرقاً. ولتسهيل ذلك على مصر فإن إسرائيل أصبحت على استعداد للانسحاب من سيناء كلها بما فيها «شرم الشيخ» (برغم مقولة الجنرال «موشى ديان» بشأنها يوماً أنه «يُفضِّل شرم الشيخ دون سلام - على سلام دون شرم الشيخ»). ثم إنها كانت على استعداد أيضاً لهدم أى مُستَعمَرة أقامتها فى سيناء بما فى ذلك مُستَعمَرة «ياميت» (رغم عملية تَمَرُّد وعِصيان على القرار تزعمها الجنرال «أريل شارون» فى تلك الأيام).

وفوق ذلك ولتدعيم هذه المعاهدة بين إسرائيل ومصر - فإن الولايات المتحدة عَلَّقَت عليها - ولأجَل طويل - حِزمة مساعدات عسكرية ومدنية حجمها خمسة بلايين دولار كل سنة، اثنان منها لمصر وثلاثة لإسرائيل - والحِزمة كلها بقرار الرئيس وقرار الكونجرس الأمريكى ذيل للمعاهدة وشرط من شروطها، يقضى - ضمن ما يقضى - بأن «تبذل مصر جهدها لإقناع بقية العرب بضرورة وجدوى السلام مع إسرائيل»!

○ وكان المفروض بعد إبعاد مصر عن الشام «بمعاهدة» أن تعود السياسة فى إسرائيل لممارسة الحَق الذى اغتصبه السلاح منها فى ظروف سنة ١٩٦٧ - لكن السياسة ظلَّت ضعيفة أمام السلاح، وتلك طبائع أحوال حين يتجاوز السلاح دوره، وتَضعَف السياسة عن استعادة حقها فى القرار - ففى مثل تلك الأحوال تنقلب نظرية «كلاوزفيتز» رأساً على عقب: لا تصبح الحرب ممارسة للسياسة بوسيلة أخرى، ولكن تصبح السياسة ممارسة للحرب بوسيلة أخرى!

والشاهد أنه منذ بدأت عملية السلام مع مصر فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ - فإن رئاسة الوزارة الإسرائيلية ووزارة الخارجية بَقِيَتا فى يَدِ العسكريين طول الوقت أو معظمه:

«رابين» رئيساً للوزراء مرتين - «باراك» رئيساً للوزراء مرة - والآن جاء الدور على «شارون».

وكان انتقال السُلطة من عسكرى إلى عسكرى ينزل بالسياسة درجة فى كل مرة لأنها الخطيئة الأولى ومعها ثمرة أو ثمرات منها مُضافة عليها!

وفى نفس الوقت فإن وزارة الخارجية تولاها العسكريون من الجنرال «آللون» منتصف السبعينات - والجنرال «موردخاى» فى الثمانينات - وحتى الجنرال «باراك» نهاية التسعينات. بل إنه حتى فى الاتصالات السياسية غير الرسمية ظلَّ الجنرالات هم الرسُل والرسائل - من الجنرال «ديان» إلى «الجنرال «شاهاك» - وحتى الجنرال «موفان» رئيس الأركان الحالى!

لكنه يبقى أن السلاح يظل عاجزاً عندما يملك القرار وحده، وهو يَقدر على النجاح فى معاركه ولكنه يَعجَز عن إحراز النصر فى حربه، ثم تزداد ضراوة السلاح بغرور القوة حتى تصبح إدارة السياسة «ساقية دَم» دَوَّارة!

والذى حَدَث أن ضراوة السلاح مع النجاح زادت من اعتقاده بأن الظروف ملائمة لعَزل الشام عن الوديان: باعتبار أن وادى النيل بَعيدٌ بمعاهدة «سلام» رَعَتها الولايات المتحدة، ووادى الفرات مُدَمَّر بحرب تولتها الولايات المتحدة - أيضاً (طالبة من إسرائيل أن تضبط أعصابها ولا تُستَفز حتى إذا طالتها صواريخ العراق، وحُجَّتها أن تدمير القوة العراقية فى مصلحة إستراتيجيتها العليا. وبالفعل ضبطت إسرائيل أعصابها حتى بعد أن طالتها صواريخ العراق، ثم انتظرت عشر سنوات لتطالب العراق الآن بتعويض قدره ٤٧ بليون دولار تريد أن تخصمها من عوائد النفط العراقى التى تُحَصِّلها الأمم المتحدة بمقتضى قرار العقوبات الصادر عن مجلس الأمن (أغسطس ١٩٩٠).)

ومع «ساقية الدَم» الدَوَّارة - بلا نهاية - وأوهام فى عزل الوديان - لم تتأكَّد صحتها - طاحَ السلاح الإسرائيلى.

وبَلَغَ به الغرور مَداه فاحتل من جنوب لبنان شريطاً حدودياً ظنَّ أنه يستطيع الاحتفاظ به عازل أمن على حدوده الشمالية، وإذا هو يواجه مقاومة لبنانية فاجأته بما لم يكن مستعداً له. ثم حاول فى الجنوب أن يَضغط بقبضته على كُتلة بَشَرية أحسَّ بخطرها فى غزة، فإذا الانتفاضة الأولى تنطلق، ولم يستطع الجنرال «رابين» (بَطَل السلام فى وَهْم بعض العرب الآن) أن «يكسر عظام» الانتفاضة و«يهرس لحمها».. حسب منطوق كلامه.

○ وطرأت مضاعفات مُستَجَدَّة، ذلك أنه من قبل اتفاق «أوسلو» (١٩٩٣) ومن بعده عادت إسرائيل ومعها الولايات المتحدة تطلبان من مصر بمقتضى المعاهدة أن تبذل جهدها ونفوذها لإقناع العرب - والفلسطينيين بالذات - بضرورة وجدوى السلام مع إسرائيل. وتَحَرَّكَت مصر - لكن حركتها بالتزام المعاهدة «ذكَّرَتها» بدَورها التاريخي.

وحين بدا أن دَعوة وادى النيل إلى ممارسة دوره توقظ ذاكرته - ودوره التاريخى بالضرورة - وتَوافَق ذلك مع ظرفٍ بدا فيه أن وادى الفرات يستَجمِع قواه - زادت العَصَبيَّة الإسرائيلية، وزادَ اعتمادها على «السلاح». وذلك شأن كل محاولة إمبراطورية تقاوم تيَّار التاريخ بظن أنها قادرة على مُغالبته أو على غلبته!

○ وعندما يطيح «السلاح» مُتجاوزاً حدوده - وكل حدود - فإن أداءه يَتَنازل من «القتال» إلى «القتل».

لكن ممارسة «القتل» خطر على الذين يَتعَرَّضون لنيرانها - وهى أخطر فى المدى الطويل على الذين يمارسونها.

ذلك أنه عندما يتواصل سفك الدم تموت الأعصاب، وحين تموت الأعصاب يموت الضمير، وعندما يموت الضمير تموت الثقافة، وعندما تموت الثقافة يتساوى الإنسان فى المدينة مع الوَحش فى الغابة تاركاً روحه وعقله فى كُهوف الظلام!

وكانت تلك هى الأزمة التى استدعت الانتفاضة الثانية - وهى مختلفة فى كل شىء عن سابقتها.

□ فى الانتفاضة الأولى كان الشباب الفلسطينى ينتظر القوات الإسرائيلية فى شوارع المدن والقرى وحواريها ثم يطاردها بالحجارة مُتَعَرِّضاً للقتل.

□ وفى الانتفاضة الثانية، وهى لاحقة لقيام السُلطة الفلسطينية، كان الجيش الإسرائيلى قد خَرَج من قلب المدن والقرى إلى أطرافها مُمسِكاً بنقط المرور بينها - أو مُمسِكاً بتقاطعات الطرُق منها وإليها، وهنا كان على الشباب الفلسطينى أن يخرج فى «رحلة شهادة» نحو القوات الإسرائيلية حيث هى، يَقذِفها بالحجارة ويَتَلَقى الرَدَّ بالرصاص!

وكانت هذه تجربة فى «القتل» لا تُطاق، وقد وَصَل تأثيرها إلى «أداة القتل» وهى الجيش الإسرائيلى نفسه، إلى درجة أن منظمة العفو الدولية أصدرت تقريراً خاصاً نشرته صُحُف الأحَد البريطانية فى الأسبوع الأخير من شهر يناير الماضى (يوم ٢٦ بالتحديد) وفيه أرقام تستحق الالتفات - وتستحق الاحترام أيضاً - عن مئات من الجنود الإسرائيليين رفضوا الخدمة العسكرية فى قطاع غزة وفى مُدُن الضفة الغربية، ومنهم تسعة على الأقل وُضِعوا فى السجن رَهن المحاكمة، ومنهم أربعون أوقِفوا بتهمة عصيان الأوامر. ونشرت جريدة «الأوبزرفر» حديثاً مع جندى إسرائيلى عمره ٢٠ سنة واسمه «إيال روزنبرج» يقول فيه: «إننى أستيقظ كل صباح مُمَزَّقاً بين ما هو مطلوب منى وبين ما أعتقد به»! - ثم يستفيض تقرير «الأوبزرفر» (الذى كتبه مراسلها فى القدس «جاسون بيرك»)، ويروى نقلاً عن جندى إسرائيلى آخر (اسمه «لوتان ران») أنه حين تَرَدَّد فى تنفيذ أوامر بالقتل الصريح لمارة يَعبُرون طريقاً أمامه - نَهَرَهُ قائد وحدته واتهمه بأنه «ليس يهودياً إذا لم يقتل أعداء إسرائيل - وإنما هو جبان وخائن أيضاً». وكان ختام رسالة «الأوبزرفر» نقلاً عن جندى إسرائيلى: «علىَّ أن أقتل إنسانيتى حتى أواصِل قتل الأطفال العرب.. وذلك لم يَعُد فى طاقتى»!

ولم يكن مأزق السلاح فى سُلطان الضمير وحده، فقد سبقه من قبل سُلطان الخوف، ذلك أن السلاح حين يتمادى ويتجاوز يستفز أمامه أنواعاً من المقاومة لم يَتَحَسَّب لها (مثلما حَدَثَ فى جنوب لبنان، وقبله فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فى سيناء والجولان، وقبلها فى حرب الاستنزاف عبر قناة السويس.)

○ وفى أجواء مُعتمة لا يَلمَع فيها غير ألسنة لَهَب وبُقَع دَم - فَشَلَ «باراك» - كما فَشَلَ «نتنياهو» - كما فَشَلَ غيرهما من قبل - فى الحفاظ على أغلبية فى الكنيست، ورأى «باراك» تعزيزاً لسُلطته وحتى يستطيع مواجهة الاحتمالات القادمة أن يدعو لانتخابات على رئاسة الوزارة - يعود بها أقوى، وكان ظنه أن فرصة نجاحه كبيرة لأن صندوق الاقتراع سوف يضع إسرائيل أمام خيار لا تستطيع أن تهرب منه - وهو الخيار بين النهر والبحر - نهر الدَم الذى أساله هو، أو بحر الدَم الذى سوف يَهيج إذا فاز منافسه «شارون».

وكان تقدير «باراك» أن إسرائيل تَقبَل بالنهر، ولا تَقبَل بالبحر!

وكان تقدير «باراك» أيضاً أن العرب سوف يعتبرونه أهْوَن الضررين، لأنه إذا كان النهر دَماً فإن قارب المسيرة يَظل قادراً على الخوض فيه - وأما إذا أصبح الدَم بَحراً هائجاً فإن القارب حطام مع نَوعٍ من الغرق شديد البشاعة قبل أن يكون شديد الخطر!

لكن الوقائع جاءت على خلافٍ مع التوقُّعات!

وهكذا يجيء «شارون» رئيساً لوزراء إسرائيل، وتقترب إسرائيل من «نهاية الطريق» بـ«وَهْم السلاح» - وليس بـ«وَهْم السلام»!

وكانت مقدمات مجيء «شارون» تلك التصريحات التى أطلقها حليفه «أفيجدور ليبرمان» رئيس حِزب «إسرائيل بيتنا»، وكلها على شكل أسئلة - وفى أثر كل سؤال جواب!

- «مَن هو «عرفات»؟ - إرهابى نستطيع أن نعتقله فى غزة أو نطرده منها فى أى لحظة نريد».

- «ما هى سوريا ومَن هو رئيسها؟ - نستطيع أن نقصم ظهر سوريا بضربة واحدة قاضية».

- «مَن هى مصر؟ - نستطيع أن نُرسِل إليها الطوفان بقنبلة نووية واحدة فوق السد العالى، ويُصبح المشروع الذى تَصَوَّرَته مصر أمَل حياتها - هو نفسه نهاية حياتها!»

ثم قائمة لا تنتهى من الأسماء تطالها التهديدات أو الإهانات: «مبارك» - «القذافى» - «فهد» - «صدام». لا أحد منهم بعيد عن السلاح الإسرائيلى الأقوى!

على أن هذا النوع من «المقدمات» قد لا يكون بالضرورة أسلوب «شارون» من أول ساعة - وإنما الأرجَح أن يَتَّخِذ لنفسه أسلوب تَصاعُدَ يَتَدَرَّج خطوات متوالية - حركة بعد حركة!

١ - فى الحركة الأولى - فإن «شارون» سوف يحاول أن يثبت للعالم أنه رَجُل دولة إلى جانب كَونِه جنرال جيش!

وكذلك فإنه على استعداد لأن يَمدَّ يده للعالم - وللعَرَب. وهنا فإنه:

- سوف يطلب من الرئيس الأمريكى الجديد «جورج بوش» أن يساعده.

- سوف يطلب أيضاً من اثنين أو ثلاثة من الرؤساء العَرَب أن يَسمَعوا منه - ومباشرة إذا أمكن!!

- ثم إنه ليس من المستبعَد أن «يتواضع» ويمد يده ليُسلِّم على «ياسر عرفات»، وهو ما امتنع عنه حتى الآن (وفاخر به طوال حملته الانتخابية).

- وأخيراً فمن الوارد أن يُبادر بتوجيه رسالة اعتدال لمؤتمر القمة العربية فى عمّان بظَنّ تفويت الفرصة على أى «مُتَشَدِّد» عربى، وبتقدير أن ذلك (فى نفس الوقت) يزيد من التَشَتُّت عندما يَتَوَهَّم بعض العرب (كالعادة) أنه من المناسب «الانتظار عليه»، والتَرَوِّى قبل الحُكم «بحَيثيّات ما قاله فى المعارضة لأن المعارضة جموحٌ والحُكم مسئولية» - و«أنه من العقل تَذَكُّر أن شارون «الجنرال»، غير شارون «الوزير»، غير شارون «المرشح لرئاسة الوزارة»، غير شارون «رئيس الوزراء».

[إلى جانب كلام كثير من هذا النوع سُمِع من قبل وأثبتت التجربة جَهله قبل أن تُثبِت خطأه، لأن أى سياسى يَحتَرِم نفسه، مُلتَزِم إزاء ناخِب أعطاه صوته، ولا بد له أن يَرسِم خُطَطَه فى الحُكم على أساس برنامجه قبل الصندوق. فضلاً عن أنه ليس فى مَقدور أى سياسى أن يُعيدَ اختراع نفسه فى كل مرحلة من مراحل حياته! - والواقع أن ساسة إسرائيل جميعاً قالوا ولم يكذبوا - لكن الغريب أن الساسة العَرَب سمعوا ولم يُصَدِّقوا - أو هكذا تَظاهروا - حتى لا تَفرض عليهم الحقائق قوانينها!]

والشاهِد أن هذه هى الحركة الأولى وتلك أجواؤها، وهى جارية الآن تَستَبق القِمَّة وتُهَيِّئ لها!

٢- والحركة التالية - أن لا يكون لدى «شارون» ما يُمكن قبوله، وذلك هو الأقرب إلى المحتَمَل، فالجنرال القادم لا يستطيع أن يَعرض على السُلطة الفلسطينية أكثر مما عَرَضَه عليها الجنرال الذى سبقه. وفى نفس الوقت فإن السُلطة الفلسطينية لا تستطيع أن تقبل من «شارون» بأقل مما رَفَضَته لـ «باراك».

وإذن فإنها أسابيع وشهور وتَجِد المنطقة نفسها أمام تفاقم وتَرَدٍّ فى الأوضاع أسوأ من كل ما سبق - ثم يَفقد كل الداعين إلى «الحَذر» و«الانتظار» و«الفرصة» و«العقل!» حُجَجَهم وذرائعهم، ويكون عليهم ولو بالصوت الخافت أن «يَمتَنِعوا»!

٣ - وفى الحركة الثالثة - فإن «شارون» وسِجِل خِدمَته فى الجيش الإسرائيلى أنه «ضابط عمليات خاصة» وليس «ضابط تخطيط إستراتيجى» - رَجُلٌ بالطبيعة لا يَقدِر على الانتظار لأنه مثل أى «ضابط عمليات خاصة» مُطالَب بِرَدٍّ فِعل سريع وحاسم - فإذا تَصَوَّرَ «شارون» أن «عرفات» يُعانِد فى قبول عَرض منه تَصاعَدَ رَدُّه إلى درجة احتجازه فى غَزَّة أو منعه عند اللزوم من العودة إليها بعد رحلة من رحلاته خارجها ! - وربما تَصاعَدَ بالرَّدِّ إلى درجة أن يفرض على السُّلطة رئيساً آخر غير «عرفات» تَقبَل به بعض عناصر القيادة الفلسطينية أمام ماسورة بندقية - حتى لا يَفرضه «شارون» عليها من ماسورة مدفع دبابة.

وعندما لا تنجح هذه الحركة - وهى على وجه اليقين فاشلة - فإن «شارون» قد لا يَتَرَدَّد فى إنهاء وجود السُّلطة الوطنية - من الأصل فى غَزَّة - دون أن يعنى ذلك عودة الجيش الإسرائيلى إليها - ويكفيه فى هذه الحالة أن يُحاصِر القطاع بالنار، وأن يُنزله على ركبتيه بالجوع !

والواقع أن «شارون» مُهَيَّأ لهذا النوع من الإجراءات، فهو لم يوافق على اتفاقية «أوسلو»، ولم يَقتَنِع فى أى وقت من الأوقات بوجود سُلطة وطنية فلسطينية، وهو يَعتَبِر هذه السُّلطة - وقد قالها بنفسه أخيراً لشخصية دولية (لست فى حِلٍّ من ذِكر اسمها) - وقالها بنبرة باردة خالية من أى حِس:

«هذه السُّلطة الفلسطينية اختراع من اختراعات حِزب العَمَل.

وعرفات؟ كاد يذهب إلى النسيان لولا اعتراف إسرائيل فى أوسلو «بمنظمته الإرهابية». وتلك تقليعة من تقاليع «شيمون بيريز !»

٤ - يَتَداعى بعد ذلك - وهذه هى الحركة الرابعة - أن «شارون» قد يحاول نوعاً من العودة إلى الخيار الأردنى، بحيث تَؤول إلى الأردن تلك البقايا التى لا تريدها إسرائيل من فلسطين، ويكون لهذه الدولة وما آلَ إليها، أن تختار اسمها النهائى فتكون «الأردن» أو تكون «فلسطين» إذا شاءت. وطبقاً لمعلومات أوردها المعَلِّق الإسرائيلى (الأكثر اطلاعاً فى إسرائيل) «زيف شيف» فإن عناصر فى الأردن «طلبت إلى إسرائيل قبل اجتماعات «طابا» فى شهر ديسمبر الأخير - أن لا تُسَلِّم منطقة «غور

الأردن» للسُّلطة الفلسطينية لأن ذلك سوف يُوجِد جواراً بين حدود الأردن وحدود الدولة الفلسطينية (الموعودة) ـ وذلك جوارٌ يريد الأردن أن يتفاداه». لكن الأردن فى نفس الوقت «يتَمَنى أن لا يكون بديل عدم إعطاء «غور الأردن» للسُّلطة ـ قيام إسرائيل بضَمِّ المنطقة إليها» ـ ثم كان هناك بعد ذلك اقتراح «بأن يظلَّ مصير المنطقة مُعَلَّقاً لمدة ١٢ سنة على الأقل»!

وهذا الطلب ـ بصرف النظر عن أصحابه ـ إشارة موحِيَة بأن هناك عناصر على استعداد للتفكير مرة أخرى ـ أو أنه مطلوب منها التفكير مرة أخرى ـ فى نوعٍ من الخيار الأردنى!

٥ ـ وأخيراً ـ وليس آخرا كما يقولون ـ فإن «شارون» ليس عنده شىء لسوريا ـ ومع ذلك فهو مُصِرٌّ على التفاوض معها لعَقد اتفاقية «سلام» ـ وبذلك فهو يريد من سوريا إقراراً لإسرائيل بمِلكِيَّة الجولان ـ وذلك ما يُسَمِّيه هو «الأمن فى مقابل الأرض» بدلاً من «الأرض فى مقابل السلام»!

خمس حَرَكات يمكن التَنَبُّؤ بها مُقَدَّماً ـ وما لا يمكن التَنَبُّؤ به بَعدها كثير!

تزيد على ذلك حركة أكبر لا يلتفت كثيرون إلى احتمالاتها بالقدر الذى تستحقه، وتلك هى مسألة العرب الذين بقوا فى فلسطين بعد سنة ١٩٤٨ وقبلوا ـ فى سبيل التَمَسُّك بالأرض وبالوطن ـ أن يحملوا جنسية دولة إسرائيل ـ وتلك قضية بالغة التعقيد:

○ فمن قيام الدولة سنة ١٩٤٨ ـ وحتى حرب سنة ١٩٦٧ ـ كان العرب الذين ارتضوا بالمواطَنة الإسرائيلية فى سبيل التَمَسُّك بالأرض ـ جماعة معزولة عن الدنيا يتعامل شيوخها مع إسرائيل بالأمر الواقع، بينما شبابها يتأثرون بما يَصِل إليهم من أصداء الحركة القومية فى الخمسينات ومنتصف الستينات.

وبعد سنة ١٩٦٧ فإن هؤلاء «الشباب» أحسوا أن عليهم وحدهم مسئولية مستقبلهم، وهنا بدأ مَسعاهم النشيط إلى طلب العِلم وطلب التأثير، وكان مَخرجهم الوحيد هو ممارسة حق المواطَنة فى دولة إسرائيل برغم أى شىء وكل شىء!

○ ومع مرور السنين من ١٩٦٧ وحتى «أوسلو» سنة ١٩٩٣ ـ وهى مسافة رُبع

قرن تقريباً - زادَت ونَمَت داخل إسرائيل أقلية قومية عربية قادرة ومُهَيَّأة ومُستعِدَّة لممارسة كل الحقوق الديمقراطية المسموح بها فى الدولة اليهودية.

وكانت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تتابع هذه العملية بمزيج اختلط فيه الارتياح بالتَوَجُّس!

الارتياح من أن أقلية عربية (حوالى ١٧٠ ألفا وقتها) تعيش فى دولة إسرائيل - وتحترم حدود المواطَنة - وذلك عُنصر جذب يَشهَد لها بالديمقراطية!

وفى نفس الوقت فقد كان داعى التَوَجُّس أن هذه الأقلية قد يَهتَز وَلاؤها للدولة إذا ما طرأ ظرف غير متوقع، وتُصبح «كتلة حرجة» - خطرة على الدولة!

○ وفى أكتوبر الأخير - سنة ٢٠٠٠ (وهذه الأقلية قد أصبحت أكثر قليلاً من مليون مواطن) - وَقَعَ المحظور، ذلك أنه عندما زاد «القتل»، وتَدَفَّقَت سيالات الدَم، وسَعَت مواكب الشهادة فى الانتفاضة الثانية إلى مقاديرها - فإن ذلك الظرف غير المتوَقَّع حَصَل، لأنَ الأقلية العربية فى إسرائيل وإن انتمت إلى الدولة بالمواطَنة لم تقطع انتماءها القومى إلى الشعب الفلسطينى - وإلى الأمة العربية.

وقامت مظاهرات تأييد للانتفاضة فى المدُن العربية داخل دولة إسرائيل، وإذا الجيش الإسرائيلى المأخوذ بغرائز القَتل - ينسى الفارق الذى يُمَيِّز مواطِنى دولة إسرائيل (حتى وإن كانوا عَرَباً)، ويُطلِق النار على المتظاهرين - فى «أم الفحم» و«الناصرة» - ويَقتل ما بين خمسة عشر إلى عشرين مواطناً إسرائيلياً (من العَرَب).

وكان على إسرائيل اكتشاف أن القتل داخل الدولة غير القتل خارجها، ذلك أن «سلاح الإمبراطورية» يستطيع أن يقتل «أعداءها» - لكنه حين يقتل «مواطنيها» - إذن فهى مُمارسة الجريمة وليس حق الدفاع - لأن الدَم لم يَعُد خارج الحدود، وإنما هو داخل الحدود، وهى هذه المرة «حدود الدولة» وليست «حدود الإمبراطورية».

وهنا فإن «السلاح» يضع الدولة أمام خيارات كلها مُزعِجة:

- إما أن تكون إسرائيل دولة لليهود وحدهم - دون ديمقراطية - وتلك دعواها، بل وضمن مُبَرِّرات وجودها فى المنطقة طليعة لقِيَم العصر!

ـ وإما أن تكون إسرائيل دولة لكل مواطنيها بالديمقراطية ـ وذلك لا يجعلها دولة «يهودية» ـ فى حين أن «اليهودية» شرعية الدولة عند الأساس.

وفى الحالتين فهو خيار مُستحيل يطرح: إما التخلى عن الديمقراطية (وهى ميزة الدولة) ـ أو التخلى عن اليهودية (وهى شرعية الدولة).

وفى نفس الوقت فإن هذا الخيار المستحيل يُحَتِّم على إسرائيل أن تقرر لنفسها: إما أن تكون دولة ممكنة ـ أو إمبراطورية مستحيلة فى الشرق الأوسط!

وقد كان الهَمُّ الأكبر فى المأزق بين «ديمقراطية» الدولة و«يهودية» الدولة ـ أن ما حَدَث بين الأقلية العربية داخل حدود إسرائيل فى أكتوبر ٢٠٠٠ أعاد إلى الوَعى خوفاً كبيراً غاب فى اللا وَعى سنين عديدة. وذلك هو الخوف الكبير من «القنبلة الديموغرافية» ـ أى قنبلة الزيادة فى عَدَد السكان، ذلك أن التقديرات التى جرى التَنَبُّه إليها مرة أخرى عادَت لتَتَذكَّر أنه فى سنة ٢٠٢٠ سوف يزيد عَدَد السكان اليهود فى إسرائيل من ٥ ملايين الآن إلى ٧ ملايين ـ لكنه فى المقابل فإن عَدَد السكان العرب مع الخصوبة الزائدة للأمَّهات الفلسطينيات سوف يَرتَفِع من مليونٍ واحدٍ إلى سبعة ملايين ـ هذا دون أن يدخل فى الحساب حوالى سبعة ملايين من الفلسطينيين (فى الضفة والقطاع وشرقى الأردن)، وبذلك يَصِل تعداد الفلسطينيين إلى ١٤ مليونا. أى أنه فى أقلَّ من عشرين سنة سوف يكون من حول سبعة ملايين يهودى فى إسرائيل ـ أربعة عشر مليوناً من الفلسطينيين (داخل حدود إسرائيل وحولها!).

وتلك كلها علامات فى إسرائيل على «نهاية طريق» ـ لأن ما وَصَلَت إليه يأخذها مباشرة إلى طريق آخر يجعلها دولة تمييز عُنصُرى بمثل ما كانت عليه جنوب أفريقيا فى زَمَن تَحَكُّم الأغلبية البيضاء (وهو ما عُرف بنظام الـ«أبرتهايد») ـ أو دولة بوليسية فى إسرائيل تُكَرِّر نموذج جنوب أفريقيا فى التجربة وفى النتيجة ـ وبديل ذلك وهو أصعَب منه أن يَسمَع «شارون» من حُلفائه الذين يَدعونه إلى النقل الجماعى للسكان العَرَب Transfer لإخلاء «أرض إسرائيل» من كل إنسان (وكل جَماد) غير إسرائيلى.

(لم يَلتَفِت أحد بالقدر الكافى إلى تعليمات «شارون» الأولى ـ فقد أمَرَ بتنظيف

تقاطعات الطرُق ونقاط العبور من «الحجارة» بكل الوسائل بما فيها الجرَّافات - حتى لا يجد الأطفال هناك «حجارة» يستعملونها - أى أنه بدأ بعملية «نزع سلاح» - وقد تكون تلك إشارة رمزية غير مقصودة إلى نزع البَشَر إذا لم يُجْدِ نزع السلاح!).

٣ - الولايات المتحدة الأمريكية كذلك!

الولايات المتحدة الأمريكية الآن - بدَورها - عند «نهاية طريق» - رغم أنها الآن المالك والمدير الوحيد لصناعة وتجارة «السلام» فى الشرق الأوسط، وكان ذلك امتيازها حصلت عليه واحتفظت به منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

والمدهش أن المطلب الأمريكى بامتياز الشرق الأوسط وَقَعَ أثناء الحرب العالمية وبعدها، وتَصادَف تماماً مع دعوة يهود العالم للولايات المتحدة كى تتبنى «قيام» الدولة - بعد أن أدَّت أوروبا دَورها فى تبنى مشروعها بـ«وعد بلفور» - وقد أدت هذه المصادَفة إلى تَداخلٍ أصبحت به معركة الاثنين مُتَوافِقة حتى وإن لم تكن طول الوقت مُتَطابقة. والواقع الذى عَرَضَ نفسه فى أبسط الأشكال - صورة كنز حصل عليه رَجُلٌ يعيش بعيداً عنه، ومصلحته أن يجد حارساً مُسلَّحاً مُؤتَمَناً قريباً من الكنز ويستطيع حمايته، وخصوصاً أن «الناس» من حول الكنز «لم يصلوا بعد إلى حَدِّ الرُّشد»، وأمامهم (فى التقدير الأمريكى) زمان طويل حتى يبلغوه (بالمعايير الأمريكية!). وكان أن عَرَض المشروع الإسرائيلى نفسه، وتَمَّ قبوله ليكون الحارس المسلَّح (تساعده فى ذلك اعتبارات أخرى أكثر تعقيداً فى اتصالها بأحوال العالم ومتغيرات عصورها)!

كانت الحرب العالمية الثانية هى الفرصة التى أتاحت للحلم الإمبراطورى الأمريكى أن يَرث الشرق الأوسط بما فيه البترول - وكانت هذه الحرب أيضا هى الفرصة التى أتاحت للمشروع الصهيونى أن يَتَقدَّم لإنشاء دولته اليهودية فى فلسطين - ثم إن هذه المشاريع الخطرة حَرَّكَت فى العالم العربى ردود فِعل تدعو إلى زيادة اليَقَظة. وكذلك وَقَعَ إنشاء جامعة الدول العربية وفى مقدمة المؤسسين لها مصر والعراق وسوريا، وتلك بالضبط هى قاعدة وادى النيل ووادى الفرات، والشام بين الاثنين جسرٌ واصلٌ وفاعل.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ظنّت الولايات المتحدة أن الحلَّ الذهبى لأوضاع المنطقة أن يكون لها سبق البداية فى صناعة وتجارة «السلام» بين الأطراف جميعاً: فهى القوة الإمبراطورية الجديدة مالكة الكنز. وإسرائيل حارس مُسلَّح ومُستَعِد، وقد أثبَتَ كفاءته. وجَرَّبَت الولايات المتحدة أن تكون هى والحارس والكنز مثلثاً واحداً تتماسك أضلاعه وتقوى بصُلح بين العرب وإسرائيل، وحاوَلَت وفَشَلَت. جَرَّبَت مع الملك «فاروق» من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٠ ولم تنجَح، ثم جَرَّبَت مع «مصطفى النحاس» من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢ ولم تنجَح - واتجهت إلى الناحية الأخرى - نحو الشرق من إسرائيل - وجَرَّبَت مع «نورى السعيد» فى العراق، و«حسنى الزعيم» فى سوريا، والملك «عبد الله» فى الأردن - ولم تتمكن. ثم عادَت مرة ثانية إلى وادى النيل تَختَبر حُظوظها مع «جمال عبد الناصر»، وتَنَوَّعَت أساليبها ليناً وشِدَّة من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٧٠، واستعصت عليها المداخل سواء فى ذلك باب السياسة، أو باب الاقتصاد، أو باب الضغط، أو باب التآمُر - ولم تَنفَتِح نافذة أو شرَّاعة! - وجَرَّبَت مع «أنور السادات» من سنة ١٩٧٠ حتى خريف سنة ١٩٧٣، وكان حصاد التجربة قَشاً بلا مَحصول!

وخلال ذلك كله شهدت المنطقة حرائق نار لا تنطفئ، ونزيفاً لا يلتَئم جرحُه - موقعة مسلحة بعد موقعة مسلحة: فلسطين ١٩٤٨ - السويس ١٩٥٦ - سيناء ١٩٦٧ - الاستنزاف من ١٩٦٨ - أكتوبر ١٩٧٣.

عندما جاءت معركة سنة ١٩٧٣ (وفيها واجَه السلاح الإسرائيلى أكبر تَحَدٍّ لحماقته) - وَقَعَ أن طالب الكنز الراغب فى حيازته، وحارس الكنز الذى يطالب بحِصَّته - كلاهما رأى فى احتمالات المستقبل نُذرَ خطر يلزم احتواؤه مُبكِّراً.

ثم إن ذلك جرى مع ظرف نَمَت فيه القوة اليهودية (لأسباب كثيرة) فى الولايات المتحدة إلى درجة أصبح معها الدكتور «هنرى كيسنجر» هو «عُضو مجلس الإدارة المفَوَّض» لتَسيير «صناعة وتجارة السلام» الأمريكية (والرَجُل يهودى مُخلِص وإن كان غير مُتَدَيِّن - وهو أستاذ علاقات دولية لكنه عاشِق قوة!). وكان «كيسنجر» وقتها مستشاراً للأمن القومى للرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون»، ثم آلت إليه وزارة الخارجية (مع تَوَرُّط الرئيس فى فضيحة «ووترجيت» إلى درجة اليأس).

وفى تلك اللحظة ومع يَدٍ واحدة تمسك بالبيت الأبيض وبوزارة الخارجية معاً - أصبح «هنرى كيسنجر» قولاً وفعلاً وقَراراً - مسئولاً بالكامل عن «صناعة وتجارة السلام».

وبحساباته، ومعها تسليمه لإسرائيل بحصَّة شريك - فإن «سلعة» السلام وبأكثر من أى وقت سبق - تَعَيَّن عليها أن تأخذ المواصفات الإسرائيلية فى الاعتبار، ومن الإنتاج وحتى التسويق.

وكان «هنرى كيسنجر» فى البداية (كذلك قال لى بنفسه) يُحاذِر من مقاربة أزمة الشرق الأوسط (قبل أن يَتَوَرَّط «نيكسون» فى فضيحة «ووترجيت») وخِشيَته (على حَدِّ قوله): «إنه حتى لو حاول أن يكون مُنصِفاً فى أى سياسة يقترحها - فسوف يسهل اتهامه (من كل العرب ومن بعض الأمريكيين) - بأن هواه اليهودى أو هَوِيَّته عَوَّقَت تَوَصُّله لحلٍّ مقبول من كل الأطراف على فرض أنه كان يقدر عليه».

وقال لى «هنرى كيسنجر» بنفسه فى لقائنا يوم زيارته الأولى إلى مصر (٧ نوفمبر ١٩٧٣) ما نصه (وقد عُدتُ لسياقه فى أوراقى): «كنت طول عمرى أحلم بأن ألعب دوراً فى حَلِّ الأزمة بين العرب وإسرائيل - وعندما كنت أستاذاً فى «هارفارد» بعثت خطاباً إلى الرئيس «ناصر» أطلب مقابلته لأنى كنت فى صَدَد إعداد دراسة عن احتمالات السلام فى المنطقة، ولم أتلق رَدّاً». (سألنى: «هل وقع خطابى للرئيس «ناصر» فى يَدِك؟» - وأجبت بالنفى، وهو صحيح) - ويستطرد «كيسنجر»: «عندما أصبحت مستشاراً للأمن القومى مع الرئيس «ريتشارد نيكسون» كان هو الذى صَدَّنى عن الاقتراب من الأزمة، وذكَّرنى - بصراحة جعلتنى أتَصَوَّر أنه يُعايرُنى - بحقيقة أننى يهودى قائلاً لى: «اترك هذه المنطقة لوزارة الخارجية ووزيرها «ويليام روجرز».» - أعطانى الرئيس «نيكسون» اختصاص العلاقات مع الاتحاد السوفيتى ومع أوروبا الغربية ومع الصين، وكلَّفنى بحَلِّ أزمة الحرب فى فيتنام، لكنه فيما يتعلق بالشرق الأوسط قال لى بنبرة لها معنى «إننى سوف أكون مُتَحَيِّزاً لصالح إسرائيل كيهودى - وإذا لم أكن فى الواقع مُتَحَيِّزاً فسوف يَسهُل اتهامى بالتَحَيُّز»، ولذلك فمن الأفضل له ولى أن أبتعد عن الأزمة».

ويُواصِل «هنرى كيسنجر» كلامه ونحن ليلتها فى جناحه بالدور الثانى عشر بفندق «هيلتون» مساء يوم ٧ نوفمبر:

«لا أخفى عليك أننى أظن الآن حتى وإن لم يكن ذلك قصدى بوَعى وقتها - أننى عرقلت كل محاولة قام بها «المسكين روجرز» («ويليام روجرز» وزير الخارجية) - وربما أننى كنت دون وَعى (أيضاً) أريد أن تظل الأزمة مُعَلَّقة فى انتظارى حتى تسنح الفرصة وأقوم «أنا» على حَلِّها».

ويستطرد «كيسنجر»: «لقد أصبحت الأمور أكثر تعقيداً مما كانت قبل حرب يوم الغفران (٦ أكتوبر، وكان يوافق يوم «كيبور» عند اليهود) - إننى ألوم نفسى لأننى تأخرت فى الاقتراب من الأزمة حتى بعد أن أصبحت وزيراً للخارجية - وكنت أظن الأنسب أن أقترب منها على مهل وحين أجد الوقت مُلائماً - لكن «السادات» و«الأسد» فاجآنى بحرب فى الشرق الأوسط على جبهتين، وكذلك فإن الأزمة طرحَت نفسها علىَّ قبل أن أكون جاهزاً لها!»

عندما وقعَت حرب أكتوبر فوجئ «هنرى كيسنجر» فعلاً، وكانت مفاجأته الأكبر أن هذه الحرب حققت هدفها فى اليوم الأول وهو «كسر نظرية الأمن الإسرائيلى».

....

....

[وكان من حظى أن الرئيس «أنور السادات» طلب منى كتابة التوجيه السياسى بقرار الحرب الذى يُعطيه للفريق «أحمد إسماعيل على» بتحديد الهَدَف الإستراتيجى للحرب، وكتبت ذلك التوجيه بعد مناقشات وحوارات مع الاثنين استغرقت ثلاث ساعات يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣. وكان التركيز فى التَّوجيه كله على أهمية «كسر نظرية الأمن الإسرائيلى» بإثبات أن إسرائيل لا تملك أن تفرض أمراً واقعاً مُستَمِراً بالسلاح - وبالتالى فإن السلاح العربى مُكَلَّفٌ بصُنع أمر واقعٍ جديد.]

....

....

وقد أدرك «هنرى كيسنجر» - ذكاء وعِلماً - ومن اليوم الأول أن القوات المصرية والسورية حققت هَدَفَها الإستراتيجى وهو «كسر نظرية الأمن الإسرائيلى»، بصرف النظر عن أية تطورات جرت فى ميادين القتال على الجبهتين فى الأسبوع الثانى من الحرب.

واستنتج «كيسنجر» من ذلك ما استنتج، ورَتَّبَ عليه ما رَتَّب!

وعندما تَوَجَّهَت «جولدا مائير» لمقابلته في واشنطن قبل أن يبدأ في ممارسة دوره في «صناعة وتجارة السلام» في الشرق الأوسط - فإن «كيسنجر» لم يتردد في أن يُصارحها بالحقيقة، «على الأقل لتكون عارفة بها كأساس لحُسن تقدير موقفها». وقد شرح لي بنفسه تجربته مع «جولدا مائير».

«قابلها صباحاً في وزارة الخارجية وفي البيت الأبيض، وكانت عنيدة مثل «بقرة هِندِية نامت وسط الطريق وعاقت حركة المرور فيه».

وقابلها بعد ذلك مساءً وقال لها: «القتال انتهى لصالحك ولكن العرب كسبوا إستراتيجياً، وعلينا جميعاً أن نفهم ذلك لكي نتحرك من «هنا» إلى ما يُلائمنا».

«لكنها ظلت طول الليل تُعانِد، ومنطقها «أنهم (الجيش الإسرائيلى) استعادوا كل الجولان وأكثر على الجبهة السورية، وأن لهم قوات يقودها الجنرال «شارون» عَبَرَت قناة السويس إلى الشرق «في أفريقيا».» وحاوَل ساعات متأخرة من الليل أن يشرح لها الفارق بين القتال والحرب، وأنها في تلك الجولة التي انتهت ربحت القتال وخسرت الحرب. لكنها ظلت تُعانِد».

ويستطرد «كيسنجر»: «ليلة بأكملها - مع امرأة واحدة - وامرأة اسمها «جولدا» - والرَّجُل الجالس معها (أي هو «هنري كيسنجر») - يبذل جهده ليجعلها تفهم بأَدَب ورِقَّة «أنها لا تملك «الجَمال» الذي يمكنها من تزويق الواقع، ثم إن عليها الاعتراف بالواقع - حتى تعرف كيف تتعامل معه» !»

كان «هنري كيسنجر» صباح يوم لقائنا قد قابل الرئيس «السادات» لأول مرة في قصر «الطاهرة» (الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣)، وقد اعترف لي تلك الليلة (في فندق «هيلتون» القاهرة) أنه أخطأ في تقديره لـ«أنور السادات» حين وَصَفَه في محاضرة ألقاها قبل شهور بأنه مجرد «بهلوان سياسي لا يَصِح أن يُؤخذ جَداً» - ولم يقل ليلتها ماذا كان تقديره الجديد لـ«السادات» بعد اعترافه بالخطأ السابق في حقه».

قبل أن يجيء «هنري كيسنجر» إلى الشرق الأوسط في نوفمبر ١٩٧٣ - مديراً

مسئولاً عن «صناعة وتجارة السلام» الأمريكى (والإسرائيلى!) - حاول (على حَدّ قوله) «أن يُثَقِّف نفسه لمهمَّته» لأنه «رغم طول انتظاره للأزمة حتى تجىء إليه - فإن الأزمة نفسها هى التى فاجأته على غير انتظار صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣».

وبصفته وزيراً لخارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومى لرئيسها - فإن «كيسنجر» راح يطلب من كل من يعرف من مساعديه (فى البيت الأبيض وفى الوزارة)، ومن زملائه السابقين (فى الجامعات الأمريكية، وفى مقدمتها «هارفارد» وهى جامعته) - أن يَمدُّوه بأوراق تساعده على تناول الأزمة التى فاجأته فى «توقيتها هى» وليس فى «توقيته هو». وكان لـ«هنرى كيسنجر» فيما طلب من الأوراق شرطان:

١ - أن تكون الأفكار جديدة.

٢ - وأن تكون الأوراق مُختَصَرة لا تزيد الواحدة منها على صفحة أو صفحة ونصف على أكثر تقدير!

وفى ظرف عِدَّة أيام تلقى «كيسنجر» عشرات من الأوراق اختار منها ثلاثا بقيت معه حتى جاء موعد سفره:

○ ورقة كتبها مساعد وزير الخارجية الأمريكى «جوزيف سيسكو».

○ وورقة كتبها الأستاذ «روجر فيشر» (أستاذ تسوية وحَل الصراعات فى «هارفارد»).

○ وورقة ثالثة (لم أستطع بيقين معرفة كاتبها، وإن رجحت فيما بعد أنه «ريتشارد هاس» وكان وقتها شاباً مُلحقاً بالأبحاث فى مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض، وهو الآن عضوٌ مُهِمٌّ فى مجلس الأمن القومى تحت رئاسة «ديك تشينى» نائب الرئيس الأمريكى الجديد «جورج بوش»).

وعندما كان «هنرى كيسنجر» يُعِد حقيبة أوراقه ليأخذها معه فى السفر إلى الشرق الأوسط (وبداية الرحلة يوم ٥ نوفمبر بزيارة للمغرب ولقاء فيها مع الملك «الحسن») - حاول أن يُخَفِّف من تَكدُّس الأوراق فى حقيبة يده. وكان يعرف أن مساعديه سوف يأخذون معهم كيلوجرامات بالمئات من التقارير والمذكرات، ولذلك رأى أن لا يحتفظ فى حقيبة يده التى ستحملها سكرتيرته - إلا بما هو «ألزم اللازم».

والذى حَدَثَ أن «كيسنجر» فى عملية الفرز الأخير للأوراق أزاح إلى مساعديه ورقة «سيسكو» وورقة «فيشر» ـ ووضع ورقة الباحث (الذى أرَجِّح أن يكون «ريتشارد هاس») فى حقيبة يده وبدأ سفرته.

كانت الورقة مُختَصَرة: صفحة واحدة.

وكانت فى نفس الوقت جديدة: عنوانها «الخيمة والسوق».

كانت الورقة فى مُلَخَّصها (رغم قصرها) تقول لـ«هنرى كيسنجر»:

«لا داعى لأن تشغل نفسك ـ فى الوقت الراهن ـ بنظريات كثيرة فى إدارة وحَلّ الصراعات، وفنون التفاوض، ودواعى الأمن.

ما ينفعك الآن هو أن تَتَذكَّر «تقليدين» من «ثقافة» الحياة العربية:

«تقليد» «الخيمة» ـ وفيها شيخ يَتَوَسَّط مجلساً يُحيط به، وإن كانت السُلطة عنده وحده. وعندما تَدخل عليه فسوف تجد من حوله كثيرين يدخلون ويخرجون ـ ويهمسون فى أذنه، ويَهزون رءوسهم، وقد ترى أحدهم يَتَوَجَّه أمامك إلى رَجُل آخر فى الخيمة لينقل إليه شيئاً وهو يُشَوِّح بإحدى يَدَيه. كل تلك مُؤَثِّرات شكلية وصَوتية. رَكِّز نظرك على الشيخ وامدحه وبالغ فى مَدحه، وبمقدار ما تُعطيه مما عندك ـ فسوف يعطيك مما عنده!

□ و«تقليد» «السوق» ـ والتفاوض فيه ليس علماً وإنما هو «فنُّ المساومة» يمارسه أصحابه بـ«مزاج» و«استمتاع»، وهُم فى العادة يبدءون أى صفقة بسِعر مُبالَغ فيه، وحين تُراجعهم تعلو أصواتهم ليُقسموا لك أنهم لم يُبالغوا، على أنهم من أجل خاطرك سوف يَتَهاوَدون، لكنها كلمتهم الأخيرة سوف يقولونها وأنت حُرٌّ. وحين تسمعها وتُؤكِّد لهم أنها ما زالت أعلى مما أنت مُستَعِدٌّ لدَفعه سوف يعودون لك مرة أخرى حالفين (وبالطلاق ربما) أن ذلك خارج قُدرَتهم لأن قبولهم به خسارة مُحَقَّقة. لا تُصَدِّق كلامهم، وتَمَسَّك بما تظنه معقولاً وصَمِّم عليه، وسوف تجدهم يَتَنازلون أمامك خطوة بعد خطوة (ولو بَدَت الخطى متثاقلة!)، وعليك وحدك أن تُقَدِّر بإحساسك ـ دون أى دليل يساعدك ـ إذا كانوا قد وصلوا إلى القاع الذى لا يَقدِرون بَعده على النزول، أو أنه ما زال تحت القاع الظاهر ـ قاعٌ آخر لم تره من أول نظرة أو من النظرة الثانية!».

كانت هذه الورقة مع «كيسنجر» حينما وَصَلَ إلى المغرب يوم ٥ نوفمبر فى طريقه إلى القاهرة يوم ٦ نوفمبر، ولموعده مع الرئيس «السادات» يوم ٧ نوفمبر.

والتقى «هنرى كيسنجر» بالملك «الحسن» على العشاء يوم ٥ نوفمبر بالقصر الملَكى على طرف المدينة القديمة فى «فاس».

كان الملك «الحسن» يعرف «هنرى كيسنجر» من أيام سبقت حين زار البيت الأبيض مرات فى السِرِّ وفى العلن، كما أن «كيسنجر» زاره فى المغرب مرات مبعوثاً رئاسياً لـ«ريتشارد نيكسون» فى السِرِّ وفى العلن أيضاً.

وكما روى لى «كيسنجر» بنفسه فإنه «طلب مشورة الملِك الحسن كصديق قديم مَوثوق به يعرف المنطقة وأحوالها ورجالها، مُؤكِّداً بإخلاص أنه يريد نصيحته لأنه يحمل أوراقاً كثيرة تضاربت فيها التقديرات، وهو يريد رأياً نهائياً من خبير عارف وقدير».

ولم يَقُل لى «كيسنجر» كيف وَصَلَ الحديث بين الملِك وبينه إلى ورقة «الشيخ» و«الخيمة»، لكن الحديث - فيما يبدو - وَصَل إليها.

ويظهر أن الملك «الحسن» أحَسَّ بنوع من الفضول والدَّهشة من هذه الورقة، وقد استغرق فى التفكير لحظة قال بَعدها لـ«كيسنجر»:

«سوف تُخطِئ خطأ كبيراً إذا تَصَوَّرت أن فى المشرق حيث أنت ذاهب شيخاً واحداً وخيمة واحدة.

هناك شيخ وخيمة فى القاهرة - لكن هناك شيخ وخيمة فى الرياض.

لا بد أن تعرف أن «السادات» ليس وحده وإنما له شريك، وشريكه ليس «حافظ الأسد» كما قد يَخطر ببالك، وإنما «فيصل» !»

ثم كَرَّر الملِك «الحسن»:

«فى المشرق شيخان وخيمتان: السادات فى القاهرة - وفيصل فى الرياض».

وجاء «كيسنجر» إلى المشرق وزار «الشيخين» وجلس فى «الخيمتين»، ثم زادَ على ذلك وقَصَدَ لزيارة رَجُل ثالث فى دمشق لم يعتبره الملِك «الحسن» شريكاً حقيقياً، لكن «كيسنجر» بِدِقَّةِ حساباته رآه شريكاً ضرورياً.

[وفيما بعد - وفى لقاءٍ آخر معه سنة ١٩٧٥ - كان تقييم «كيسنجر» النهائى لتجربته فى القاهرة وفى الرياض وفى دمشق قوله مُلَخِّصاً وبسرعة:

«أحببت السادات - واحترمت الأسد - ولم أفهم فيصل!»]

وعلى أية حال فقد قام «كيسنجر» بمَدح «الشيوخ» جميعاً، وأسرف فى المديح، وأسبغ على مُحَدِّثيه من الأوصاف دواوين شِعر بأكملها - وصَدَّق بعضهم، ولم يُصَدِّق بعضهم الآخر.

وصَدَّقَ الرئيس «السادات» (ولعله كان يريد أن يُصَدِّق لأنه منذ وقتٍ مُبَكِّر فَقَدَ ثِقَتَه فى فاعلية «ويليام روجرز»، وكان مُناهُ أن يَقتَرب «كيسنجر» من أزمة الشرق الأوسط كما اقترب من أزمات فيتنام - والعلاقات بين القُوَّتَين الأعظم - والعلاقات مع الصين)، وقد أسعده «هنرى كيسنجر» حين قال له فى نهاية أول لقاء بينهما: «رَجُلٌ مثلك من صُنّاع التاريخ لا يصح له أن يناديني بـ«دكتور كيسنجر» - من الآن أرجوك أن تناديني «هنرى»».

وفيما بعد فإن الطلب تَكَرَّر ليس فقط من وزراء خارجية الولايات المتحدة، ولكن أيضاً من رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية، فكان قولهم لنظرائهم العرب: «جلالة الملِك - أو سيادة الرئيس - نادِنى جيم» (بدلاً من «جيمى كارتر»).

«نادِنى جيرى» (بدلاً من «جيرالد فورد»).

«نادِنى رون» (بدلاً من «رونالد ريجان»).

وفيما بعد كان هناك «جورج» («جورج بوش» الأب) - ثم «بيل» («بيل كلينتون») - وقريباً سوف تصبح «جورج» مرة أخرى (لـ«جورج بوش» الابن).

والفكرة كلها أن تكون العلاقات حميمة داخل كل «خيمة» - مؤثرة على التعامُل داخل كل «سوق»!

ومن المفارقات أن الملوك والرؤساء العَرَب لا يُنادون بعضهم بعضاً بالاسم الأول - بغير كلفة - داخل الاجتماعات، ولا خارجها بالطبع (إلا إذا كان ذلك ضِمن مَشاهد تجرى بينهم أمام العَدَسات والميكروفونات، أو على صفحات الجرائد - لسَبَبٍ أو آخر!)

وفى المفاوضات بعد ذلك على اختلاف محطاتها من أسوان إلى كامب دافيد، ومن أوسلو إلى طابا، ومن فك الارتباط الاول بين مصر وإسرائيل فى أسوان أوائل شهر يناير ١٩٧٤ - وحتى إعلان شرم الشيخ أواخر يناير ٢٠٠١ - سبعا وعشرين سنة بالكامل جَرَت المفاوضات مع العرب على طريقة «الشيخ» و«الخيمة».

○ «شيخ» فى مجلس داخل «خيمة» وحوله جَمع من الناس، وإشارات وإيماءات، وهَمس أسرار وتَمتَمات خافِتة - ثم يقول «الشيخ» كلمته، ويهز الجميع رءوسهم بالموافقة!

○ و«سوق» صاخبة بصراخ وصياح، وأسعار تَعلو وتهبط، وأيمان مغلظة تُؤكِّد، ونداءات بالتحذير تُقاطِع بين فترة وأخرى بأنها «الفرصة الأخيرة وإلا انتهى الكلام»، وصانع «السلام» وتاجره مُتَمَسِّك، والمشترى أمامه يتراجع. و«السوق» بلا قوانين.

والمشكلة أن أحداً لا يعرف بالضبط «قيمة السلعة المعروضة» - صانع «السلام» وتاجره يعرف سقفه - لكن «الشيخ» فى «خيمته» لا يَعرف أرضه، و«السوق» فى زحامه لا يعرف قاعه!

وهكذا تَتَواصَل المساومة، وحين يظهر «قاع» عربى - يَتَبَدَّى وراءه لسوء الحظ! - وبمواصلة الضغط قاعٌ ثان يغرق. لكن الولايات المتحدة ما زالت تظن أنها قادرة (لا أحد يعرف متى؟) على عَقد صفقة تراها معقولة -!- وأن العرب سوف يَقبَلونها فى النهاية!

ومن المفارقات أن «الشيوخ» العَرَب كان لديهم طول الوقت اطمئنان إلى أنهم فى نهاية النهاية واصِلون إلى قاعٍ عليه صفقة ترضيهم لأن لديهم من البداية عَهداً - وعَقداً - يُطلِقون هُم عليه وَصفاً يُريحُهم وهو وَصف «الشرعية الدولية» - وهُم لا يعرفون أن ذلك العَهد والعَقد لم يَعُد فيه الآن نَصٌّ مقدس!

والسِرُّ أن الولايات المتحدة الأمريكية - و«الشيوخ» لا يعرفون، ولا «السوق» تعرف - قامت بـ«تأميم الشرعية الدولية» بأن نقلت مِلكيَّتها أولاً إلى مجلس الأمن، ثم قامت هى بعد ذلك «بخصخصة مجلس الأمن» وتحويله إلى مِلكيَّتها الفردية، تَتَصَرَّف فيه كما يَتَصَرَّف المالِك فيما يَملك!

مراعاة للدقَّة فإن تعبير «خصخصة مجلس الأمن» ليس تعبيرى وإنما هو التعبير الذى تَوَصَّلَت إليه وأقَرَّته حلقة دراسات «بالعُمق» فى السياسة العالمية، و«بالغَوص» فى القانون الدولى، قامت عليها ورَعَتها ونَشَرَتها جامعة «ميتشجان» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد خلص الخبراء الذين جمعتهم حلقة «ميتشجان» إلى نتائج محَدَّدة - وشديدة الوضوح:

١ - إن اختصاص حِفظ السلام كان محصوراً فى مجلس الأمن طبقاً للبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

٢ - وكان هناك إدراك عند كتابة الميثاق بأن القرارات وحدها قد تحتاج (مثلها فى ذلك مثل القانون فى أى بلد) إلى قوة إجبار تفرض احترامها - وكذلك وضع الميثاق فى يد الدول الأعضاء دائمة العضوية وهى خمس - اختصاص تكوين لجنة عسكرية (مُكوَّنة من رؤساء أركان حرب جيوشهم)، ومُهِمَّتها أن تنظر فى «الإجراءات» المطلوبة لتنفيذ أى تَدَخُّل دولى بالقوة لتنفيذ قرار من مجلس الأمن.

٣ - وتَرَتَّب على ذلك النص على أن أى تَدَخُّل بالقوة لا بد أن يكون تحت إشراف مجلس الأمن (على الأقل أعضائه الخمسة الدائمين)، ورقابته، ومراجعته ابتداء من تَواجُد قوات الأمم المتحدة فى منطقة أزمة - إلى توزيع أعباء هذا التواجد على الدول الأعضاء - وتحديد دَرَجَة فِعل هذا التواجُد وضبط تدخله عند نطاق متفق عليه - وتوفير ورقابة التكاليف المادية اللازمة للتَّدَخُّل - ثم تحديد الموعد الذى يتقرر فيه أن المهمة تحققت، وأن التَدَخُّل حَقَّق مطلبه، أو أن الضرورة تقتضى إنهاءه!

ثم تَتَوَصَّل حلقة «ميتشجان» إلى أن «الولايات المتحدة الأمريكية أثناء أزمة الخليج الثانية فى أغسطس ١٩٩٠ (وفى ظروف مُعَقَّدة) حَقَّقَت لنفسها حُرِّية عَمَل فى الشرق الأوسط غير مسبوقة، خصوصاً عندما تأكَّدَ لها تَراجُع القوة السوفيتية وانكفاؤها عن التأثير - وبانَ أمامها انقسام فى العالم العربى واسِع وعميق».

وعندما بَحَثَ مجلس الأمن موضوع التَدَخُّل بالقوة لإخراج العراق من الكويت،

فإن الرئيس السوفيتى («ميخائيل جورباتشوف» وقتها) - اقترح دعوة اللجنة العسكرية لمجلس الأمن، لكن الولايات المتحدة عارضت، وكان لها ما أرادت.

وصدر قرار مجلس الأمن يُفَوِّض استعمال القوة بواسطة «الدول المتعاونة مع حكومة الكويت» إذا لم ينفذ العراق كل قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالانسحاب الكامل وقبل يوم ١٥ يناير ١٩٩١ (واعترضت كوبا واليمن - وامتنعت الصين عن التصويت - وكذلك مَرَّ القرار).

(وسَجَّلَت «ماليزيا» فى محضر المجلس تحذيراً تقول فيه «إن ذلك القرار بتفويض استعمال القوة نيابة عن مجلس الأمن بمثابة شيك على بياض يُوَقِّعه المجلس لدولة واحدة من الأعضاء الدائمين فيه»!)

وبالفعل جرى التَدَخُّل العسكرى فى الخليج بواسطة ما سُمِّى بقوات «التحالف الدولى للدول المتعاونة مع حكومة الكويت».

ثم كان أن الولايات المتحدة، ومن يومها وحتى الآن، استغنت عن مجلس الأمن بالتفويض الممنوح للتحالف، ثم استغنت عن التحالف بعد أن أخذت أعلامه - ولم تَكْتَفِ بتحرير الكويت وإنما راحت - وحتى الآن - تمارس تدمير العراق!

وطرأ على ذلك أخيراً أن هناك رئيساً أمريكياً جديداً وَصَلَ إلى البيت الأبيض ومعلوماته عن أزمة الشرق الأوسط وغيرها قليلة (وقد سُئِل يوماً عن «طالبان» وكانت إجابته أنه «يظنها فرقة موسيقى جديدة»، وحاول بعض مساعديه أن يؤكدوا خبرته بالسياسة الخارجية وكان قولهم «إنه كحاكم لولاية «تكساس» تَعامَل مع «المكسيك» فى قضايا الهجرة غير الشرعية - والحدود - والأمن!»)

يَتَّصِل بذلك مباشرة أن الرئيس الجديد دخل إلى البيت الأبيض ومعه إدارة يظن البعض فى العالم العربى أنهم يعرفونها ويعرفون أولوياتها من أيام حرب الخليج. وقد بدا فى استقبالهم لهذه الإدارة نَوعٌ من الترحيب الحار بها على أساس أنها عودة - مَرجُوَّة بعد الغياب - إلى ما كان قبل عشر سنوات - وحتى يُكمِل بوش «الابن» ما بدأه جورج بوش «الأب»، وكأنها ثارات قبائل - وليست مَطالِب إمبراطورية!

٤ ـ الطريق إلى عمّان!

يوم ٢٧ مارس القادم (٢٠٠١) تَتَوَجَّه «مَواكب» القمة العربية كى تتقابل، وتتلاقى، على تِلال عَمّان، ووسط طُرُقها، وداخل قصورها. و«المواكِب» ـ فى المناخ السائد اليوم عربياً ـ قريبة فى كل شىء إلى «القوافل» رغم وصول الوفود العربية إلى عَمّان راكِبَة طائرات من أحدث وأكبر طراز!

ومن المفارقات أن الحمولات الثقيلة ـ تَجُرُّها القوافل وراءها أو تسوقها أمامها، أو تطير بها ـ ليست صناديق تضيق بالملفات والدراسات، وإنما الحمولات رغم ثقلها غير مرئية لأنها حمولات من «هواجس» و«شكوك» تلح على المشاركين فى هذه القِمَّة ـ التى هى فى الواقع ترتيبٌ قبلته معظم الدول العربية على مَضَض وإحساساً بالحرج، وهى أول من يعرف أنه «طقس يُؤَدَّى» أكثر منه «مُهِمَّة ضرورية» ـ مع العِلم أن أحداً لا يَملك هذه اللحظة تَصَوُّراً «لمهِمَّة ضرورية» فى حين أن الكل مارس ويُمارس كل يوم تجربة «طقس يُؤَدَّى» (تبادُل زيارات ـ قبول دَعوات ـ مُشاركة فى مُناسبات)!

وربما أن المأزق الحقيقى الذى يَتَّجه إليه الجميع مُرتَحِلين إلى عَمّان أنهم ـ معظمهم على الأقل ـ مُستَعِدُّون لـ«طقس يُؤَدَّى» أكثر من استعدادهم لـ«مُهِمَّة ضرورية»:

□ وابتداء فإن المركز الذى تنعقد فيه القمة (وهو الأردن) مأخوذ بمشاغله، فهو يعيش لحظة انتقال تؤثر على الأسرة المالكة، وعلى الوزارة القائمة، وعلى الأحزاب المعترف بها وغير المعترف بها.

والمركز الأردنى من الأصل «خط تماس» ـ كما كان الملِك «حسين» يقول ويُكَرِّر القول ـ وذلك يجعل أوضاعه قلقة حتى فى حياة كل يوم، سواء كانت هناك مشاكل انتقال، أو كان السياق مُتَّصلاً لم تعترضه المقادير.

ثم إن التطورات فى الإقليم المحيط بالأردن زحفت عليه بحساسيات بين مُواطنى الأردن القدامى فى الجنوب، وبين مواطنى الأردن الجُدُد الذين جاءوا إليه فرادى أو جماعات من الغرب عندما أسَّس الملك «عبد الله» دولته فى عَمّان، ثم تَدَفَّقوا عليه قبل وبعد نشوب المعارك فى الأرض المقدسة سنة ١٩٤٨ ـ حتى وَجَدَ الكل أنفسهم تحت

التاج الهاشمى بعد أن ضَمَّ الملك «عبد الله» ما بقى من ضفة الأردن الشرقية رسمياً إلى مملكته سنة ١٩٤٩.

والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأردن ثقيلة، والبلد بكل مواطنيه القدامى والجُدُد محصورٌ مع موارد محدودة، وذلك يصنع نوعاً من الضيق يحتاج إلى انفراج واتساع لا يُقَدِّره جيران الأردن من أبناء أمَّته، وفى نفس الوقت فإن إسرائيل تستغله، وشاهد استغلالها أن أكبر محَطَّة للموساد خارج إسرائيل موجودة فى عمّان، والمحَطَّة الثانية فى المنطقة بعدها موجودة فى استانبول!

○ ومثلاً فإن قافلة الخليج تَظهَر وكأنها تَجُرُّ أقدامها جَرًّا نحو الأردن، تَتَمَنى لو أنه لم يكن عليها أن تَصعَد سلالِم الطائرات، وتجلس مُستَسلِمة على مقاعدها، وتنتظر فى مَلَلٍ إقلاعَها، وتَتَحَسَّب فى ضيقٍ لهبوطِها!

ذلك أن قافلة الخليج تَشعُر أنها مُعَرَّضة فى مَواطِنها الأصلية لأنواع من التهديد لا تستطيع توصيفها، وتلك ضمن هواجس الغِنى - ومع أن بعضهم يرى ويُقَدِّر مقاصد الإستراتيجية العليا لإسرائيل - فإن إستراتيجية الأمن العربى لا تبدو واصِلة إليهم. ذلك أنه من مضاعفات الأزمة ظنون بأن أمن الخليج لم يَتَحَقَّق عربياً وإنما تَحَقَّق أمريكياً (وفى بعض الأحيان إسرائيلياً - وهذه مسألة تستحق البحث لأن هناك الآن تَسَرُّباً إسرائيلياً نشيطاً فى شِبه الجزيرة العربية نَفَذ إليها من ثغرة الأمن، ثم قام بتوسيع الثغرة كالعادة فى أى خطة للاختراق، ثم وَصَل إلى حيث لم يكن فى الحسبان أن يَصِل. وهناك فى هذا الشأن كلامٌ كثيرٌ ليس هذا أوانه!)

يضاف إلى ذلك أن القوافل من الخليج تشعر أنها تتعرض للغارات فى ذهابها وإيابها إلى الوديان، وهى تُقِر بأن بعض الضرائب مُقَرَّر ومقبول من واقع أن الوديان هى التى مَكَّنَت الصحارى من الثروة - لكنه حين تزيد الضرائب تَتَحَوَّل إلى إتاوات!

هكذا تَجُرُّ قوافل الخليج أقدامها جَرًّا إلى مطارات السفر، لكنها فى مطارات العودة خفيفة الحركة تَستَعجِل الإقلاع قبل أن يُؤخِّرها داعٍ لم تَتَحَسَّب له، أو يَقَعَ عُطلٌ فنى أو غير فنى يُؤخِّر مروقها وراء السُحُب عائدة إلى حيث أتت!

○ ومثلاً فإن قوافل المغرب لديها حمولات من «أوهام» و«هُموم» تختلف درجاتها

فيما بينها وبين بعضها - وهى تختلف كذلك عن حمولات قوافل الخليج. بين الحمولات تَصَوُّرات تُهَيِّئ لأصحابها أن المستقبل ليس فى اتجاه الشرق نحو قلب العالم العربى - وإنما هو فى اتجاه الشمال نحو جنوب أوروبا حيث الالتحاق بالسوق الأوروبية ولو بالشُفعَة ممكن!

○ ومثلاً فإن قوافل الجنوب تَجُرُّ فى أذيالها نحو عَمَّان ذيولاً من الفِتَن مَسَّتها حرارة أفريقية تُوشك أن تَتَحَوَّل إلى حريق حروب أهلية!

وراء ذلك، وفى ذيله، فإن هناك قوافِل وافِدة التحقت بالركب فى بداية السبعينات مع الطفرة المفاجئة فى أسعار البترول، وتلك قوافل يستحق أمرها معاودة النظر.

[فقد كانت القواعد الحاكمة لانضمام دولة من الدُّوَل إلى الجامعة العربية عديدة، والأساس فيها ثلاثة شروط:

- أن تكون اللغة العربية هى لغة ذلك البلد لأن ذلك هو «الوعاء الثقافى المشترك» إلى جانب «التجربة التاريخية المشاع».

- وأن يكون البلد الراغب فى الانضمام إلى الجامعة قد تمكن من تحقيق قدر من الاستقلال الوطنى يكفل نوعاً من الإرادة المستقلة.

- ثم أن يكون البلد العربى الراغب فى الانضمام على اتصال جغرافى بالعالم العربى أو أطرافه.

ثم حَدَثَ أوائل السبعينات نسيانٌ - أو تَناسٍ للشروط - دَخَلَت به بعض الدُّوَل إلى الجامعة، دون أن تكون العربية لغتها - ودون قدر من الاستقلال يسند إرادتها - ودون اتصال جغرافى يفتح معها بالطبيعة اتصالا.

وهكذا دَخَلَت إلى الجامعة العربية فى تلك الفترة دُوَلٌ من بينها «جيبوتى» و«جُزُر القمر» (إلى جانب «الصومال» و«موريتانيا»).

و«جيبوتى» كانت ولا تزال مُستَعمَرة فرنسية - و«جُزُر القمر» كانت ولا تزال تحت تأثير الكابتن «دينار» وهو مزيج من جندى مُرتَزَق وقرصان فرنسى-!- يظهر من البحر ويختفى فيه!

والغريب أن بعض الدُّوَل العربية تَحَمَّسَت فى حينه لانضمام هذه الدُّوَل الأربعة إلى الجامعة العربية، ودون مراعاة لشرط، وحُجَّتها أنه من المصلحة توسيع نطاق الجامعة مع العِلم أن التوسيع فى بعض الظروف مرادف للتمويع، ولعل ذلك كان بين المقصود يومها.

والنقطة الشائكة هنا أن بعض الوجود المستغنى عن الشروط يُصبح عبئاً على الحوار وضاغطِاً على القرار لأسبابٍ بدهية!]

وتلك عُقدة ليس من السهل إيجاد حَلٍّ لها - ولكن معاودة النظر إليها ولو بمراعاة الظروف لازمة!

○ وأخيراً تجىء قوافل الوديان (من النيل والفرات وبردى)، وهذه القوافل قصة متداخلة متشابكة - وأحياناً مُتَنافرة - ففى القاهرة مَن يَرون أنه سلام لا بديل عنه، وفى بغداد مَن يَرون أنها حَربٌ لا مَهرَب منها، وفى دمشق حيرة بين سلامٍ مَرغوبٍ فيه وحربٍ غير مطلوبة!

وتلك كلها أحوال غريبة:

قوافل تَتَصَوَّر لنفسها الحماية (العسكرية) أمريكياً (ولو مؤقتاً)..

وقوافل تَتَصَوَّر لنفسها الحماية (الاقتصادية) أوروبياً (ولو كتجربة)..

وقوافل لا يَعرف أحد كيف جاءت؟ (وما الذى تَعرضه - أو ما الذى تَطلبُه؟)..

ثم قوافل كبيرة جَرَّارة (تُثير فى طريقها غباراً يَحجب وضجيجاً يُغطى!)

وإذن ما الذى تستطيعه القمة العربية فى عَمّان إذا كانت تلك هى الأحوال والحمولات؟

وحتى هذه اللحظة - والقوافل المتَّجِهة بحمولاتها نحو عَمّان، ولقاؤها هناك على وشك أن يَقَع - فإن هناك حيرة فى شأن الموضوع الذى تكون له الأولوية على جدول أعمال القمة، وهل هو بند «استعادة العراق» كما كانت النِيَّة ابتداء عندما تَحَدَّد موعد القمة (مارس) - ومكانها (عَمّان) - أو أن الموضوع الرئيسى فى جدول الأعمال لا بد أن يكون «انتفاضة الأقصى» باعتبار أن ذلك هو الموضوع الذى طَرَحَ نفسه سابقاً على أى إعداد؟ - أو أن الأولى بالعناية هذه اللحظة وسابقاً لما كان من أولويات - أن تُرَكِّز

القمة على وصول «شارون» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية، وتبعات وعواقب هذا الوصول؟

والحاصل أن قمة القاهرة الأخيرة (أكتوبر ٢٠٠٠) كانت مُخَصَّصة لاستعادة العراق، وكان العراق نفسه هو الذى تنازل عن أولوية قضاياه ليعطى السبق للانتفاضة - ثم يكون موعد العراق مع القمة فى عَمّان فى مارس (٢٠٠١). لكن بعض الدول العربية تقول الآن أن انتفاضة الأقصى يَزداد إلحاحها على «الضمير العربى» لأن أطفال الحجارة يُقتَل منهم بالرصاص الإسرائيلى واحد أو اثنان كل يوم - وتَرُدُّ عليها دول أخرى بأن أطفال العراق يموت منهم باليورانيوم الأمريكى مائة أو مائتان كل يوم!

فى نفس الوقت فإن مجىء «شارون» انقض - دون مفاجأة - على الجميع، ولا بد أن يكون لانقضاضه عليهم مكان الصَدارة فى جدول أعمالهم!

وقد اجتمع وزراء الخارجية العرب فعلاً، تمهيداً لاجتماع رؤسائهم فى عَمّان - ولم يَتَّضِح بَعد ما استقروا عليه من رأى بشأن الموضوع الأول على جدول الأعمال - والذى تنتسب إليه القمة كالعادة لتكون إما قمة «استعادة العراق» أو قمة «انتفاضة الأقصى» أو قمة «التعامُل مع شارون»!

والحقيقة أن ذلك «التسابق» و«التزاحم» على الأولوية والصدارة فى جدول أعمال القمة العربية القادم - كلاهما زائد على الحاجة والاستغناء عنه ممكن - وربما لازم!

لأن البنود الثلاثة «المتسابقة» و«المتزاحمة» على جدول أعمال القمة المقبلة هى فى واقع الأمر «مُهِمَّة ضرورية» واحدة.

وبمعنى آخر:

١ - فإن ترك العراق حيث هو الآن - وحتى بصرف النظر عن قيمته فى حَدِّ ذاته كوطن عربى عريق يملك مُقَوِّمات التقدُّم ويَقدِر على أسباب الحضارة - معناه عزل الشام عن وادى الفرات تماماً - وذلك مطلب الإستراتيجية العليا لإسرائيل فى الشرق.

٢ - ثم إن النظر إلى انتفاضة الأقصى باعتبارها مشهداً مأساوياً يستحق العطف -

ينسى أنه - بصرف النظر عن جلال الشهادة فى صورة الانتفاضة - فإن القصد المطلوب من الشعب الفلسطينى هو الكف عن المقاومة والقبول بأى سلام - وذلك معناه إذا حَدَث عزل الشام تماماً عن وادى النيل - وذلك مطلب الإستراتيجية العليا لإسرائيل فى الغرب.

٣ - ثم إن مجىء «شارون» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية لا يمكن اعتباره مجرد تغيير آخر فى إسرائيل «يَستَحِق أن يُعطَى الفرصة ليَعرض نفسه»، ثم يكون الرَدّ عليه بما يَستَحِق - قُصور فى رؤية الحقيقة لا يُغتَفَر، وهو يَعكس عجزاً عن رؤية وفَهم مُجمَل التداعيات التى أخذت إسرائيل إلى «نهاية طريق» - سَقَطَت عليه كافة الأحزاب والمؤسسات والتيارات الفكرية والإنسانية التى شارَكَت فى بناء الدولة اليهودية - حتى وَصَلَت الأمور إلى هذا المشهَد البادى فى إسرائيل اليوم حيث يَتَحَكَّم اثنان من الحاخامات فى تشكيل الوزارة الإسرائيلية، ويَتَنافَس اثنان من الجنرالات على رئاستها. والمشهَد بحاخاماته وجنرالاته مجرد إشارة على السطح إلى تفاعلات تحت السطح تُومِئ إلى أزمة عميقة فى قلب الدولة اليهودية لا تقل خطراً عن أزمة عميقة أخرى فى قلب النظام العربى، وإن اختلفت الأسباب والدواعى مع وجود صلة بالتلازم بين الأزمتين:

☐ أزمة المشروع اليهودى أنه حاول اختراع ذاكرة من الأوهام يُؤسِّس عليها مشروع دولة - أو مشروع إمبراطورية مستحيلة التحقيق (وإن كانت باهظة التكاليف بمجرد المحاولة).

☐ وأزمة النظام العربى أنه حاول إقناع نفسه - أو حاول إقناعه آخرون - بتأسيس ذاكرة المستقبل على النسيان - وتلك استحالة أخرى (وإن كانت بدورها باهظة التكاليف بمجرد المحاولة!)

وإذن - وفى نهاية طَوافٍ طويل - حول القريب والبعيد، والظاهر والخفى - ما العَمَل؟ ما هو المطلوب؟ - ما هو الضرورى؟ - ما هو الممكن؟ وفى هذه الظروف؟

وتقتضى الأمانة أن يَعتَرف كل مُتابعٍ من بعيد لقوافِل القِمَّة المتَّجِهَة إلى عَمّان ويقول لنفسه وللآخرين «أنه لا يعرف؟».

والسبب أن كل هؤلاء الذين يُتابعون من بعيد ليس لديهم ما يكفيهم للفتوى، وبالتالى فليس أمامهم غير اتِّباع مقولة أنه «من قال لا أدرى فقد أفتى».

ذلك أن الأساس المطلوب لأى اجتهاد غائِبٌ - لأن الحقائق نفسها غائبة:

○ ومثلاً فمَن الذى يستطيع أن يُقَدِّر - من مجرد المتابعة - ما هى «الحقيقة» فى حَجم الأعباء الاقتصادية والاجتماعية التى تؤثر فى قرار أى بلد عربى؟!

○ ومثلاً فمَن الذى يستطيع أن يصل إلى «الحقيقة» فى طبيعة الالتزامات التى تربط أنظمةعربية - فى شئون الأمن الداخلى والإقليمى - إزاء أطراف دولية؟

○ ومثلاً فمَن الذى يستطيع أن يحسب «الحقيقة» فى الاعتبارات الشخصية، والعائلية، والقبلية، والثقافية، والفكرية، التى تَكمُن فى موقع أى قرار عربى فى ظِلِّ الواقع الراهن؟

○ ومثلاً فمَن الذى يستطيع أن يُحيط بنوعِ وصِفةِ العلاقات «الحقيقية» بين الملوك والرؤساء العرب فى ظروف زادت فيها، ليس فقط «فردية» القرار - وإنما أيضاً «شخصانية» القرار السياسى؟

[وهناك أمرٌ واقعٌ لا مجال لشكٍّ فيه مُؤدَّاه أن مُحَدِّدات القرار العربى لم تكن - وربما منذ العصور المملوكية - شخصية كما هى الآن، وسِرِّيَّة كما هى الآن!]

○ ومثلاً فمَن الذى يستطيع أن يقترح على القِمَّة إجراءات مرحلية أو جزئية تَقدِر «حقيقة» على تَدارُك قضايا لم تَعُد تَقبَل التأجيل - ومثل ذلك مرهون بـ«النوايا» و«المشاعر» و«الرغبات» وحتى بـ«الغرائز» - وكله مُخفى لا يَبين؟!

○ ثم أخيراً - وليس آخرا كما يقولون - مَن الذى يستطيع أن يَحِلَّ قضية شرعية القرار العربى، سواء من ناحية إدراك صاحب القرار لهذه الشرعية - أو من ناحية القبول الشرعى لهذا القرار فى ضمير الناس؟!

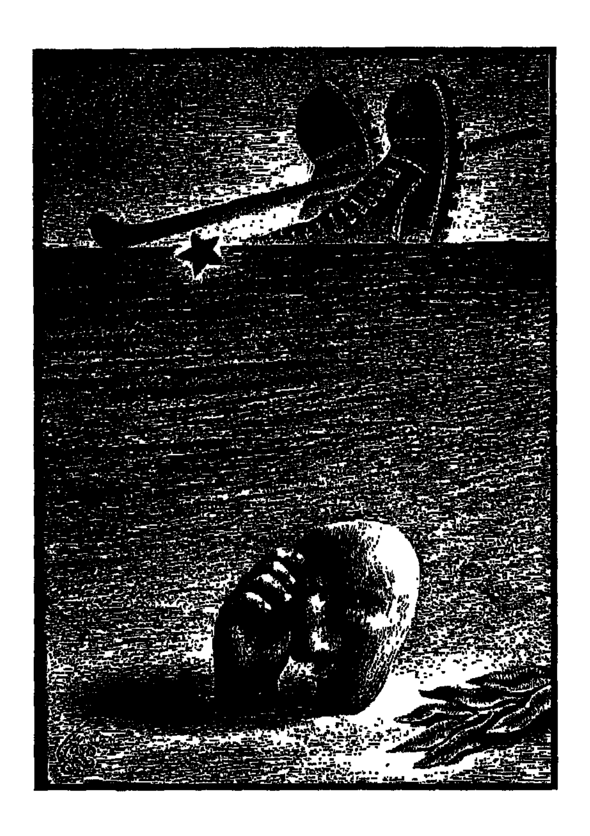
تلك كلها مُقَدِّمات ضرورية قبل المشاركة الفاعلة فى البحث عن جَواب لسؤال: «ما العَمَل؟» - وبغير هذه المقدِّمات تَتَنازل المشاركة إلى التسطيح على طريقة أنه «يَجِب» وأنه «يَنبَغى» وأنه «لا بُد» - وتلك كلها أكوام قَشٍّ أمام هُبوب عاصِفة!

ومهما يكن فإن القِمَم تبدو مُستَغنِية عن الوديان وعن السفوح - لكن السؤال المعَلّق فى يَدِ المقادير هو:

هل القِمَم تعرف من الحقائق ما يكفيها حتى تَجعَل اجتماعها فى عَمّان «مُهِمَّة ضرورية» - وليس «طقساً يُؤدّى» بحيث يكفيه مجرد الاجتماع، وتكفيه دَوريَّة الاجتماع، وتكفيه المراسم، وتكفيه المآدب حتى تَحين ساعة العَودة إلى الأوطانِ؟!

أم أن القِمَم لا تَعرف، وبناء عليه فإن «المسيرة» - كل «مسيرة» وأى «مسيرة» - مُستَمِرَّة ويَجب أن تَستَمِر؟

بَقِيَت مُلاحظة ختامية مُستعارة من قوانين الصراع وضمنها «قانون فِعل الأزمات»، ومُؤدَّى الملاحَظة أنه «إذا لم تَجِد أزمة من الأزمات مَن يُديرها - فإن حركتها لا تَتَوَقَّف، وإنما هى تُواصِل دَوَرانها بحَرَكَتها الذاتية مُتجاوزة نهاية الطريق»!



وَقفة مع الصديق الأمريكى

١ - زيارات الربيع إلى واشنطن !

مع بَشائر الربيع يبدأ موسم السَفَر العربى إلى واشنطن، والسَفَر على مُستوى القِمَم العربية - أو بعضها - غايته الحِوار والتشاور مع «الصديق الأمريكى» - وذلك تقليدٌ مُستَحدَث جاءت به مُتَغَيِّرات أساسية فى السياسة العربية بَدأت منذ سنة ١٩٧٥، ومازال ذلك التقليد مُستَمراً، مَرعِياً، مُحافَظاً عليه وزيادة، بدليل أن عُروضه فى العاصمة الأمريكية تَزداد تَنَوُّعاً كل موسِم، وتَتَوَسَّع مَظاهِرها كل زيارة.

الموسِم هذه المرة له أهمية يَختَلِف بها عن أى موسِم سبق، لأنه يجىء بعد سِلسِلة من الوقائع بَدَّلَت المشهَد فى الشرق الأوسط، وغَيَّرَت أجواءه، وفاجأته بما لم يكن يَتَوَقَّع

(١) أولى المفاجآت (قبل موسم زيارات الربيع إلى واشنطن) - هى نتيجة انتخابات أمريكية للرئاسة خرج بها «بيل كلينتون» من البيت الأبيض، ولم يجئ بعده «نائبه آل جور» كما كانت مُعظم العواصم العربية تَتَوَقَّع - إلى ما قبل أسبوعين على الأكثر من يوم الاقتراع. وكان ظن مُعظم العواصِم العربية أن «آل جور» - !- عندما يجىء سوف يُكمِل «المسيرة» من حيث تَرَكها «بيل كلينتون»، وهو فى اعتبار عَدَدٍ من الملوك والرؤساء العَرَب أول رئيس أمريكى قضى «كل هذا الوقت» مع «قضايانا الكبرى» وخصوصاً فلسطين، وكان رهان هذا العَدَد من الملوك والرؤساء العَرَب عالياً على «كلينتون»، وقد تَمَنَّى بعضهم - أو ألَحَّ - على السُلطة الفلسطينية أن تَنتَهِز فرصة وجوده فى البيت الأبيض وتَقبَل - ولو فى الدقيقة الأخيرة من إدارته - حِزمَة المقتَرَحات التى طرَحَها للقفز فوق السدود الأكثر وُعورة فى القضية الفلسطينية (القدس، واللاجئين، وحدود الدولة، وخريطة الاستيطان). وعندما بَدا أن السُلطة الفلسطينية مُتَرَدِّدة زادَت الغوايات والضغوط - تُحَرِّض على «قفزة جريئة» تقوم بها السُلطة الفلسطينية بحجَّة أن وجود «كلينتون» فى البيت الأبيض فُرصة لا تَتَكَرَّر، ولأن «المعتَدِلين العرب» اعتمادا على ذلك سوف يُساعدون، وإذا لم يكن فى مَقدورهم

قبول شيء نيابة عن السُّلطة الفلسطينية، فإنهم يَتَعَهَّدون - عندما تَقَع «القفزة الجريئة» - بتَوفير «شَبَكة أمان» تَتَلقَّفها في الهواء قبل أن تَرتَطِم بالأرض !

لكن الوقت نَفَد قبل أن تَقتَنِع السُّلطة بـ«القفزة الجريئة». فهي من الأصل لم تَرَ الحوض الذي كان عليها أن تَقفِز إليه، وعندما دَقَّقَت النظر وَجَدَت قاع الحوض فارغاً بلا ماء يكفيها لتَغطَس فيه وتَقِب - وهي في الغالب لم تَشعُر أنها مُستَعِدَّة لكسر رأسها على بلاط حوض فارغ ! - وهي على الأرجَح لم تكن مُتَأكِّدة أن هناك «شَبَكة أمان» جاهِزة - وحتى إذا كانت جاهِزة فإن كفاءتها بدَت مَوضِع شك من اتساع الخروق. ولم تَفقِد العواصِم العربية - أو بعضها - ثقتها في صِحَّة رهانها بمَنطِق أن «جور» استمرار لـ«كلينتون» - فهما إدارة واحدة رغم اختلاف الطبائع والأمزجة.

وعندما نَجَحَ «جورج بوش» الابن - فإن العواصِم العربية تَرَكَت رهانها في الساحة ولم تَسحَبه، ذلك أنه إذا كان المنتَظَر من «جور» أن يُواصِل سياسة «كلينتون» - فإن المؤَكَّد أن «بوش» الجديد هو ابن «بوش» القديم - «عَرَفناه صَديقاً»، و«تَعامَلنا معه وتَعامَل معنا»، و«أحببناه وأحَبَّنا» - وبالتأكيد فإن الابن مُلتَزِمٌ بتَوَجُّهات الأب، أكثر من التزام أي خَلَف سياسي بسَلَف له سَبَقَه في منصبه (أي «جور» بعد «كلينتون»)، وقد أصبحا عَدُوَّين لَدودَين بعد أن كانا صَديقَين حَميمَين - وإذن فإن المقادير التي أسقَطَت «جور» كانت كَريمة مع العَرَب حين جاءت لهم بـ«جورج بوش» !)

(٢) وكانت المفاجأة الثانية (قبل موسِم زيارات الربيع إلى واشنطن) هي نتيجة انتخابات رئاسة الوزارة في إسرائيل، وكانت تلك عملية تابَعَتها العَواصِم العربية - كلها - دون أن يَبين في رَدِّ فعلِها إشارة تَدُلُّ على قَدر كافٍ من الفَهم لمعناها !

كان التَصَوُّر الشائع - في العواصِم العربية - أن «باراك» دَعا إلى انتخابات رئاسة الوزارة كجنرال أجرى تَقديراً إستراتيجياً لموقفه، وحَسَب الحِساب دقيقاً لاحتمالاته، وهَدَفه من الدَعوة لانتخابات قبل أوانها أن يُدَعِّم مركزه ويُحاصِر الأحزاب (أو الطوائف ؟!) التي تَزدَحِم بها الكنيست، ويَحصُل على تَفويض واسع وكامل لإنقاذ «مَسيرة السلام» (على طريقته) - وهذا التفويض يَجعَل منه في الشكل وفي الفِعل - «نابليون إسرائيلي» مُكَلَّفًا بإنقاذ الدولة من أعدائها ومن نفسها أيضاً !

وكما حَدَث فى حالة «كلينتون» و«بوش» - حَدَث فى حالة «باراك» و«شارون» - فقد ظلَّت العواصم العربية - كلها تقريباً - وإلى ما قبل أسبوعين اثنين من يوم الاقتراع - تَظُن أن القادِم إليها «باراك» وليس «شارون».

وبَدَأت الصَدَمات تَجىء ليلة ظهور نتائج الانتخابات الإسرائيلية، فقد سَقَطَ «باراك» - ونَجَحَ «شارون» - وكان نجاحه بأغلبية لم يَسبق لها مثيل فى انتخابات سَبَقَت (على مُستوى الكنيست أو على مُستوى رئاسة الوزارة) - أى أنه تَفويض واسِع من الناخب الإسرائيلى للسياسة الإسرائيلية الأخطَر فى تَشَدُّد مواقفها، والأعنَف فى إدارة هذه المواقِف !

أضيف إلى ذلك أمام عَواصِم عربية مأخوذة بالصَدَمات أن «الأصدقاء» - !- فى حِزب العَمَل (المعتَبَر فى تقدير هذه العواصم «حِزب السلام») تَمَزَّق وخَرَج منه جيل الشباب - !- الذى كان عليه المعَوَّل (!) مُهاجراً أو مَنفياً، ناقِماً فى الحالتين، وشديد الإحساس بالإهانة إلى دَرَجَة أن واحِداً من شباب هذا الجيل («حاييم رامون»- ٥٥ سنة !) - قال لـ«باراك» فى اجتماع لمركز الحِزب:

«إن كل ما فَعَلته طول رئاستك للوزارة هو أنك وَقَفت فى مكانٍ أعلى من الحِزب ثم..... (وَصفُ فِعل تَصعُب كتابته على الوَرَق) - وقُلت لنا : هذا هو المطَر فازرعوا واحصُدوا واشكروا «الرب» الذى أفاضَ عليكم نِعَمَه !»

وبرغم هذه الصَدَمات كانت العواصِم العربية (أو بعضها) تَرفُض تَصديق ما تراه، وتَبحَث لنفسها عن ذرائع للطمأنينة، وقد عَثَرَت عليها، وأولها «أن مجىء شارون سوف يُثبت للإدارة الأمريكية عجز إسرائيل عن مسيرة السلام، وبالتالى فهى الطرَف الذى يَقَع اللوم عليه وليس العرب، «وكذلك فإن الأصدقاء القدامى - العائدين من جديد - أوْلى بالفهم - وسوف يُقَدِّرون» !- وأقدَر على «الضغط» - وسوف «يَضغطون» - بالطبع على إسرائيل !»

(٣) وكانت المفاجأة الثالثة (قبل موسِم زيارات الربيع إلى واشنطن) هى تَصعيد الغارات الأمريكية على بَغداد دون إخطار مُسبق أو تَشاوُر مع الحكومات العربية «الصديقة» - التى وَجَدَت نفسها مُحرَجة أمام جماهير غاضبة : أقلقها ما وَقَع فى إسرائيل، ثم أثارَها تَصاعُد الغارات فجأة على العراق.

وتَفَشَّى في العواصِم العَرَبية - كلها تقريباً - نوعٌ من الارتباك لا يَعرف ماذا يَفعل؟ - بل ولا يَعرف ماذا يَقول ؟!

وعندما خَفَّ وَقع الصَدمة تَصَوَّرَت العواصِم العربية - بعضها - أن هناك خطأ في تَرجَمة إشارات مُبَكِّرة بينها وبين واشنطن، وهي إشارات جرى تبادُلها عبر رُسُل أو عن طريق رسائل من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا.

○ وعلى سبيل المثال فمن بين هذه الإشارات - أنه ظهَرَ في بعض العواصِم الخليجية مَبعوثٌ يُمَثل نائب الرئيس الأمريكي «ديك تشيني» الذي قيل أن وَضعَه في إدارة «بوش» يَختَلِف عن وَضع أي نائب رئيس سبقه، فهو في واقع الأمر رئيس الوزراء الفِعلي مع رئيس دولة (لا) يَملك و(لا) يَحكُم.

وفي إحدى هذه العواصِم الخليجية (وذلك طِبقاً لإيجاز حَضَره عَدَدٌ من الصحفيين المختارين، في اجتماع بالمقر التنفيذي للرئاسة وهو مُواجِه للبيت الأبيض) - سَمعَ المبعوث الأمريكي ما يُمكن اعتباره رسالة لَوْم إلى السياسة الأمريكية بسبب «تَقاعُسِها في حِصار العراق، مما جَعَلَ هذا الحِصار يَتَداعى ويتآكل - ويُوشِك على السقوط !» - ومَثار اللوْم «أن ذلك «التَقاعُس» غير مَفهوم «لأصدقاء أمريكا من العَرَب» - ونتيجته أن النظام العراقي يَقوى ولا يَضعف». - وكان هناك من البداية انقسام في الرأي بين هؤلاء «الأصدقاء العَرَب لأمريكا» - فيهم من يرى أن أمريكا عازمة على إسقاط النظام، وفيهم من يَشُك في «صِحَّة نواياها أو صِدق عَزمها» - والآن ثَبَتَ للجميع - الذين صَدَّقوا والذين شَكُّوا - أن «الولايات المتحدة لها قَصدٌ في الباطن يَختَلِف عما تقول به في الظاهِر».

ويَبين مما طُرِح في ذلك الإيجاز الصحفي في المقر التنفيذي للرئاسة - وفي صَدَد مُهِمَّة المبعوث الأمريكي - أن هذا المبعوث أشار إلى «تَصعيد الغارات» باعتباره شاهِداً على «حَزم السياسة الأمريكية تجاه صدام». وكان الرَدُّ عليه «أن هذه الغارات وحدها لن تُسقِط النظام العراقي، بَل على العَكس سوف تُكسِبه تَعاطُفاً - ثم إن شَعبيَّتَه سوف تَزداد عندما تثبت مَقدرة احتماله !»

وقيل في ذلك الاجتماع أن المبعوث الأمريكي سَمعَ بعد ذلك من مضيفيه تعبيراً

صـريحـاً عن التَوَجُّس يقـول لـه : «إنكم بما تَفعَلون - أو بما لا تفعلون - تَضَعوننا بين نارين : نار أن سياسـة النظام فى العراق خطر على حُدودِنـا، ونـار أن سياستكم تجاه هذا النظام خطر على حكوماتنا !»

وطِبقـاً لمعلومـات طُرِحَت فى نفس الإيجـاز فى المبنى التنفيـذى للرئاسـة - فـإن المبعوث الأمـريكى أشـار إلى «أن الإدارة الأمريكية الجديدة، وإدارة «كلينتـون» قبلهـا - كلتاهما مُصابة بخيبة أمَل من عَجز المعارَضة العراقية عن إسقاط النظام» - وكان الـرَدُّ الذى سَمِعَه بنفاد صَبر :

«لا تُحَـدِّثونا فى هذا الموضـوع. النـاس كلهم يَعـرفـون أنكم إذا أردتم الخـلاص من «صدام حسـين» فلن تُعجزكم الوسائل - وأنجعهـا أن وكالـة المخابرات المركزية لا بُد أن تكون قـادرة فى أى وقت على الخلاص منه بوسـيلة مـا - !. ودون انتظار مُساعَدة من مُعارَضة عِراقية مُفَكَّكة ومَعزولة؟!»

○ وعلى سـبيل المثال كذلك أنه ضِمن تلك الإشـارات أيضـاً وَصَلَت إلى واشنطن رسالـة حملهـا زائر عربى قَصدَ إليها فى «مُهِمَّة خاصـة» - مُؤدَّاهـا :

«أن مَجىء «شـارون» إلى رئاسـة الوزارة فى إسـرائيل أحدَثَ استنفـارا شـديداً فى العالم العربى مع أن مَجيئه كان فى الأسابيع الأخيرة مُتَوَقَّعاً» !

والمأزق الذى يُواجـه كل الأطراف أنه يَصعُـب «تَسـويق شـارون» بوَصـفـه «أمَلاً» يَسـتَحق أن يُعطيه العَرَب فُرصـة تَسمَح لمسـيرة السـلام أن تَتَواصَل - والاقتـراح (هكذا بالتحديد) : «أن «شـارون» جُرعَة شـديدة المرارة ويَلزمـها كِسـاء خـارجى من السُكَّر حتى يُمكن بَلعهـا. وكسـاء السُكَّر المعقول الذى يمكن التـفكير فيـه أن يَجىء «شـيمـون بيـرين» وزيراً للخـارجيـة، بحيث يَتَصَدَّى هـو - وليس «شـارون»- لقيـادة «عمليـة التـفـاوُض على الناحيـة الإسـرائيليـة، والسَـبَب أن «بيرين» وَجهٌ مـألوف فى المنطقة، ومَلامِحه مُقتَرِنة بالدَعوة لاستمرار مسيرة السـلام» !».

وبالفـعل فـإن هـذا «الرجـاء العـربى» تَمَّ نقلـه إلى اثنين مـن المبعـوثين الإسـرائيليين ذهَبـا مُبَكِّراً بـاسـم «شـارون» إلى واشـنطن لشـرح طلبـاته وسـيـاسـاته - همـا «زالمان شـوفال» و«دورى جولد» - وكلاهمـا كان سـفيراً لإسـرائيل لدى الولايات المتحدة على عهـد حكومـات سـابقة لتَجَمُّع أحزاب الليكود.

وحَدَث أيضاً أن الرئيس الأمريكى الذى انتهت إدارته وهو «بيل كلينتون» عَرَف بهذا «الرجاء العربى» بعد أن غادَر واشنطن، ووَجَدَها فُرصة لعَودة إلى الأضواء يَحِنُّ إليها، وهكذا فإنه عَزَّز «الرجاء العربى» بمَجيء «بيريز»، وأضاف إليه من عنده «تَزكية» بدُخول «باراك» وزيراً للدفاع فى حكومة «شارون»، وبذلك يَطمَئِن العَرَب إلى أن «مَسيرة السلام مُستَمِرَّة كما كانت فى إدارتى»، وأن «حِزمَة المقترحات التى قَدَّمتُها» ما زالت على المائدة». ولم يُبق «كلينتون» اقتراحه سِرًا، وإنما أذاعه فى حديث صحفى قال فيه أنه «بنفسه» أبلَغ «شارون» «مُباشرة» به).

....

....

[وليس مَعنى ذلك أن دخول «بيريز» فى وزارة «شارون» كان «رجاء» عَرَبياً أو «وَساطة» عَرَبية - لأن الحقيقة أن دخول «بيريز» (حتى وإن كانت فِكرة كساء السُكَّر - ! - لعَلقَم «شارون» واردة فيه) كان داعيه الأكبر والأهَم داخلياً إسرائيلياً - ولعله كان مَطلَبَ مُؤسَّسة عسكرية تريد وزارة تُعطيها غطاءً سياسياً واسعاً، وفترة ثبات فى السُّلطة تَحتاجها لمواجهة مَهام أمنية لازمة. وكان من العناصر المساعِدة على دخول «بيرين» أنه صديق حَميم لـ«شارون» وزميل فِكر مُتقارب معه، حتى وإن غطى أحدهما تقاطيع وَجهه بالسُكَّر، ووَجَدَ الآخر أنه فى غِنى عن حَلاوة مَذاق (صِناعى) وخِداع بَصَر (بالألوان).

وهكذا دَخَلَ «بيريز» وزارة «شارون» - ولم يَدخُل «باراك» رغم أن «شارون» كان يريده - لكن حِزب «باراك» نفسه كان ساخِطاً على رئيسه السابق، مَمروراً منه - وكان على رئيس الوزراء الجديد أن يَختار الرَجُل أو يَختار الحِزب. وتَحَقَّقَ ما أرادَته بعض العواصِم العَرَبية ودَخلَ «بيريز» - ولم يَتَحَقَّق رجاء «كلينتون» وتَأكَّدَ استبعاد «باراك» !]

....

....

وعلى أية حال فقد ظَلَّ الارتباك ظاهِراً، والإشارات مُتَناقِضة - والاتصالات

مُتَقَطِّعة ومُتَعَثِّرة بين واشنطن وبين العواصِم العربية (أو بعضها) - وهى أحياناً بالرموز، وأحياناً عن طريق الرسائل والرُّسُل.

ولعله كان أفضل للجميع لو أن موسم زيارات الربيع إلى العاصمة الأمريكية بدأ مُبَكِّراً - دون تَداخُلات - من رسائل ورُسُل - زادَت فى خلط الأمور بَدَل أن يُساعِدوا على جَلائها. لكن موسم الربيع فى واشنطن كان عليه أن يَنتَظِر عَقد مؤتمر عربى على مُستوى القِمَّة فى عَمّان، وهو مؤتمر فَرَضَ نفسه وتَوقيته منذ شهور، ولم يكن فى اعتبار أطرافه حين قبلوا به وعَيَّنوه أواناً لبداية الانتظام السَّنَوى للقِمَّة العربية - أنه سوف يَحِل مُتوافِقاً مع ما وَقَع من مُتَغيِّرات.

على أنه فى فترة الحَيرة ما بين التَوَقُّعات الأوَّلية والمتَغيِّرات الطارئة - تَعَلَّل رجاء الجميع بزيارةٍ كان مُقَرَّراً أن يقوم بها الجنرال «كولين باول» وزير الخارجية الأمريكى الجديد - إلى منطقة الشرق الأوسط فى مُهِمَّة استطلاعية.

وكان تَقدير العواصِم العربية - أو بعضها - أنها سوف تَسمَع وتَفهَم من الجنرال الدبلوماسى ما لم يَستَطِع الرُّسُل والرسائل نقله بدِقَّة، وتَرجَمة إشاراته بأمانة فى اللغة وفى الدلالة !

وبمُجمَل الظروف فإن انتظار وزير الخارجية الأمريكى الجديد اكتسب أهمية كبيرة فى الموضوع وفى الشكل :

- فى الموضوع لأن «الوزير الجنرال» لديه - بالتأكيد - ما يُقَدِّمه لمضيفيه شرحاً وإيضاحاً.

- وفى الشكل لأن مَجىء «الوزير الجنرال» - بعد الخلط فى الإشارات - تَبَدَّى مُحَيِّراً ومُشوِّقاً، مُتَشابهاً مع أسلوب «صمويل بيكيت» فى مَسرحيته الشهيرة : «فى انتظار جودو» - وكان «جودو» المتَحَرِّك على المسرَح فى المشهَد الجديد نَجماً لامِعاً من نجوم واشنطن لأكثر من رُبع قرن عاش فيها الدخائل، واطلع على الأسرار، وخبر حروب السلاح وحروب السياسة من أرفع الدَّرَجات، وهو الآن وزير للخارجية الأمريكية قادِماً إليها بعد تَجربة سَبَقَت له - رئيساً لأركان الحرب فى البنتاجون - وكذلك فإنه جَمَعَ «المجد» من طرَفيه ! - ثم هو يجىء إلى المنطقة مُمَثِّلاً لإدارة جديدة

فى الولايات المتحدة، تُواجه مَوقِفاً بالـغ التَعقيد فى منطقة بالِغة التَوَتُّر - والأجوبة التى يحملها تَـرُدُّ على أسئلة حَرِجَة - تُواجه قِمَّة عَرَبية على وشك الانعقاد (جمهور مُتَلَهِّف)، وموسِماً من مَواسِم الربيع فى واشنطن لم يَبقَ عليه غير شهر واحد!

٢- إخطار الأصدقاء على الطريقة الأمريكية:

إذا كان صحيحاً - وهو صحيح - ما صَدَرَ رسمياً من تصريحات فى عَدَد من العواصِم العربية وأولها القاهرة - بما مَعناه أن الولايات المتحدة لم تَستَشِر أحداً من أصدقائها العَرَب - ولا أخطرَتهم - بتصعيد الغارات الجَوِّية على بغداد - فذلك مَعناه «الأسهَل» أن الولايات المتحدة ضُبِطَت مُتَلَبِّسة بخيانة أصدقائها والتَّقصير فى حَقِّهم - لكن المعنى «الأهم» (بصرف النظر عن الصداقات والحقوق) أن العواصِم العربية المهتَمَّة كانت فى حالة غياب عن حِوار سياسى يَخصها دارَ فى واشنطن - وكان حِواراً نِصف سِرِّى فى الواقع لأنه وإن دارَ فى غُرَف مُقفَلة - تَسَرَّب منه كثير إلى بعض العارفين الواصلين من كِبار الخُبَراء والمحَلِّلين، وبينهم «آرثر شليزنجر» و«لورانس كابلان» و«جيمس تراوب» و«جون بارى» - وكذلك فإنهم - وربما غيرهم أيضاً - تابَعوه وخاضوا فى تفاصيله، وكتبوا عنه وهُم يُتابعون ويَدرسون خطوط السياسات المتَوَقَّعة من إدارة «بوش» الجديدة.

ويَبين مما تَسَرَّب أنه أثناء فترة الريبة التى انقضت من إعلان نتائج الانتخابات الأمريكية يوم الثلاثاء ٧ نوفمبر، إلى تَثبيت هذه النتائج فى مُنتصف ديسمبر سنة ٢٠٠٠ - أى فترة خمسة أسابيع أو أكثر - كان الحِزب الجمهورى واثقاً من فَوز مرَشَّحه. ولأنه لم يكن فى مَقدور «جورج بوش» الابن أن يُشكِّل - على الفور - وزارة أو يُعلِن سياسة، فقد وَجَدَ أركان حُكمه وأولهم نائبه «ديك تشينى» أنه لا داعى لقضاء فترة الريبة فى انتظار عَدِّ الأصوات، وأوْلى من ذلك الاستفادة بفُسحَة الوقت فى عَقد اجتماعات «تَخطيط سياسى» يكون جاهِزاً للعَمَل فى مناطق لها حساسية خاصة بالنسبة للولايات المتحدة وأولها الشرق الأوسط. وعلى هذا الأساس تَكَوَّنت «مجموعة رئاسية» تَضُمُّ شخصيات كان مَعروفاً «أنهم رجال ونساء قادمون» إلى المواقع الرئيسية للإدارة الجديدة، وكانت المجموعة تَضُمُّ نائب الرئيس المنتَخَب «ديك

تشينى» ومعه صديقه المَوثوق به «دونالد رومسفيلد» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) وزيراً للدفاع - والسيدة «كوندوليزا رايس» (أصبحت عند التشكيل الرسمى للإدارة) مُستَشارة الرئيس للأمن القومى - والجنرال «كولين باول» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) وزيراً للخارجية - و«ريتشارد أرميتاج» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) نائباً لوزير الخارجية - و«بول وولفويتز» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) نائباً لوزير الدفاع - و«ريتشارد هاس» (أصبح عند التشكيل الرسمى للإدارة) مَسئولاً عن التَخطيط السياسى للإدارة الجديدة.

□

ويَبين مما تَسَرَّب - وبالتحديد فيما كَتَبَه «آرثر شليزنجر» و«لورانس كابلان» و«جون بارى» - أن مَجموعة التَخطيط الرئاسية تَوَصلَّت فى شأن أزمة الشرق الأوسط إلى خُطوط مُحَدَّدة :

(١) أوَّلها أنه ضِمن مُراجَعة عامة للسياسة الأمريكية - وهى مُراجَعة تقوم بها كل إدارة جديدة، خصوصاً إذا كانت قادِمة من قاعِدة حِزبية مُختَلِفة عن سابقتها - وهَدَف المراجَعة هو التأكُّد من أن «أفكارها» وليس أفكار الإدارة السابقة هى النافذة والمنَفَّذة، وإعادة النَّظَر فى الأولويات. وبالطبع فإن منطقة الشرق الأوسط كانت مَدار استقصاء واسِع ودَقيق، ليس فقط بسبب أهمية المصالح الأمريكية فيها - وإنما أيضاً لأن شكل التطوُّرات على ساحاتها المختلفة بدا وكأنه يأخذ مُنحَنى خطراً - أو على الأقل غير مُلائم.

وجَرَت مُراجَعة عادَت - كما يجب أن يكون - إلى أصول المسائل، وهنا فلم يكن هناك خِلافٌ بين أفراد المجموعة الرئاسية على أن المصلحة الأمريكية العُليا لها فى المنطقة ثلاثة مَطالِب : السيطرة على البترول - وضمان أمن إسرائيل - وتَوسيع النفوذ الأمريكى فى المنطقة بصفة عامة.

وتَبَدَّى للمجموعة الرئاسية أن البترول العربى - بترول الخليج بالدرجة الأولى - لا يَتَعَرَّض للتَهديد، فهو فى حماية وجود أمريكى عسكرى قوى على الأرض - وفى عُهدة نُظُم محلية موالية. ثم إن أمن إسرائيل ليس مَكشوفاً، بل العكس فإن إسرائيل لم تكن فى يوم من الأيام مغطاة بدَرَجة التَفَوُّق التى تَتَمَتَّع بها الآن.

وبرغم ذلك كان واضحاً للمجموعة الرئاسية أن هناك مَخاطِر تَتَحَفَّز فى المنطقة - وتَزحَف إلى حيث تستطيع أن تمس أمن الخليج وأمن إسرائيل - وتُؤثر سلباً على النفوذ الأمريكى - والسبب أن مشكلة فلسطين التى كانت «تَفاعُلاتها مضبوطة» منذ مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ - والتى جَرى وَضعها على طريق الحَل والتصفية بعد اتفاق أوسلو سنة ١٩٩٣ - تَبَدَّت مُعَرَّضة للانفلات، وهو انفلات راحَ «يَفيض» على ما حَوله بنوعٍ من «الانسكاب» spill-over - وبسَبَبه استيقظت مَشاعِر كَراهية لإسرائيل كانت مَحجوزة - ومَشاعِر عَداء للولايات المتحدة كانت كامنة - ومُجمَله أدى إلى وضع نُظُم صديقة للولايات المتحدة على «مَوقِف دِفاع» يَخشى من الاختراق ويَتَخَوَّف من تَحَوُّل هذا الاختراق إلى تَطويق، وتلك أحوال يُضاعِف من خطرها أنها تجىء فى ظروف اقتصادية واجتماعية حَرِجة، لا يَظهَر لها علاج قريب أو سَهل، وفى مَوعِد يمكن انتظاره والصَبر عليه حتى يجىء !

□

(٢) وفيما بان من الخطوط المحَدَّدة التى تَوَصَّلت إليها مجموعة العَمَل الرئاسية أن السياسة الأمريكية وَصَلَت إلى هذا المنزلق الوَعر فى الشرق الأوسط لأن «بيل كلينتون» اندفع بَعيداً وراء حُلم راوَدَه بصُنع سلامٍ كامل ونهائى للقضية الفلسطينية، مُخالِفاً فى ذلك كل الإدارات السابقة جُمهورية وديمقراطية - وبالتحديد من زمَن الرئيس السابق «ريتشارد نيكسون» ووزير خارجيته «هنرى كيسنجر» (١٩٧٤-١٩٧٥) - إلى زمَن «بوش» الأب ووزير خارجيته «جيمس بيكر» (١٩٩٠-١٩٩٢).

والحاصِل أن كل الإدارات السابقة اختارت مُعالجة الأزمة بأسلوب «خطوة خطوة»، مُدرِكة أن طلب السلام الكامل والشامل سوف يَطرَح قضايا مُستَحيلة الحَل: أولها: القدس (وهى صراع آلِهة ورُسُل - كذلك قيل) - وثانيها: اللاجئون (وقضيتهم بالنسبة لإسرائيل سؤال مَصير: يَطرَح عليها أن تكون دَولة يهودية أو لا تكون ؟) - إلى جانب قضايا أخرى لا تَقِل خطورة واستعصاء على الحل (وبينها الاستيطان والحدود).

والواقع أن هَدَف «كلينتون» من مُقاربة الحَل الكامِل والنهائى - كان هَدَفاً شخصياً،

وقد جاراه رئيس الوزراء الإسرائيلى «إيهود باراك» على أمل أن الرئيس الأمريكى المُتَشَوِّق لصُنع السلام (والمتَلَهِّف على جائزته) - قادرٌ بقوة مَنصِبه على الإتيان بمُعجزة تاريخية تستطيع إسرائيل أن تَتَعَلَّق بها وتَفوز بتسوية ختامية لكل الحسابات المعَلَّقة بينها وبين العَرَب على أساس الأمر الواقع وبلا تَنازل يأخذ منها شيئاً تَحوزه الآن أو تطلبه قبل إغلاق الدَّفاتِر !

....

....

[كان هناك بين أعضاء المجموعة الرئاسية مَن ذهَبوا إلى أن «باراك» لم يكن يُجارى رَغبَة «كلينتون»، وإنما الحقيقة أن «كلينتون» هو الذى استسلم للغواية مرة أخرى - وهى هذه المرة غواية «إيهود باراك» وليست غواية «مونيكا لوينسكى» - وقد رَجَّحَ هذا الظن عندما تَبَيَّن أن الرَّجُلين - «كلينتون» و«باراك» - كانا على اتصال تليفونى مُنَظَّم كل يوم فى ساعة مُحَدَّدة (قبل أن يَنام «كلينتون» فى ليل واشنطن، وفور أن يَصحو «باراك» فى فَجْر تل أبيب.

وفيما يقول به «بودستا» رئيس أركان البيت الأبيض على عهد «كلينتون» - أن الرئيس الأمريكى السابق كان مَبهوراً بـ«باراك» لسَبَبين :

أوَّلهما : إنه كان العسكرى الذى حَمل أرفع الأوسمة فى الجيش الإسرائيلى (المقاتِل) - و«كلينتون» (فى نَظَر الكثيرين) لديه عُقدة المتَهَرِّب من الجُندية فى فيتنام.

والثانى : إن «كلينتون» كان مأخوذاً بنفوذ رئيس وزراء إسرائيل وَسَط الجالية اليهودية فى أمريكا بتأثيرها النافذ فى الإعلام - وكان ذلك سَبَب قبوله لوَساطة «باراك» فى عَفوٍ رئاسى وَقَّعَه فى اللحظة الأخيرة عن بليونير يهودى أمريكى («مارك ريتش») هَرَبَ إلى سويسرا بعيداً عن مُتَناوَل القضاء الأمريكى الذى كان يُطارده فى تُهَم فَساد، وكانت «دنيز ريتش» (زوجة البليونير الهارب وشريكته حتى بعد طلاقهما) واحِدة من أكبر المتَبَرِّعين لحمَلات «كلينتون» ولمكتَبَته التذكارية فى ولايته الأصلية «أركنسو» - وكانت تلك آخر فضيحة خَتَم بها «كلينتون» رئاسة حافِلة بالفضائح !]

....

....

وفى المَحصِّلة (وهذه عَودة بعد استطراد إلى ما بان من مُداوَلات المجموعة الرئاسية) فقد كان الرأى الذى عَرَضَه «ريتشارد هاس» واحتل مساحة واسعة فى الحِوار الرئاسى ومالَت إليه الآراء «أن أزمة الشرق الأوسط لم تَبلُغ بَعد مرحلة النُّضج الضرورية لحَلِّها (ومن المعروف أن لـ«ريتشارد هاس» نَظَرية مَشهورة فى maturity هذا الشأن مُلَخَّصها أن الأزمات لا تُحَل برَغبَة الأطراف فى حلِّها، وإنما بتَوافُر شروط «مُعَيَّنة» تَجعَل الحَل مُمكناً) - وكان رأى «ريتشارد هاس» تَحديداً أن «أزمة فلسطين غير قابلة للنُّضج من الأساس لأنها تَنطوى - ضِمن عَوامِل كثيرة - على مُقَدَّسات يَصعُب أن يكون لها «حَلٌ وَسَط» - وهذا النوع من الأزمات ليس له دَواء غير وَصفة إجراءات تَتَكَفَّل به وهى :

- عَزل الأزمة - وإحكام عزلها عن مُحيطها حتى لا يَتَّسِع نطاقها ولو بالعَدوى.

- وإفراغ الأزمة أولاً بأول من عناصر التَوَتُّر حتى لا تَنفجر فى مكانها مُدَوِّية فى محيطه.

- ثم تَركها بعد ذلك للزمَن يزيحها إلى النِسيان، وفى هذا النسيان تَستَهلك الأزمة نفسها بنفسها بالتَحَلُّل والتآكُل والتلاشى !»

□

(٣) وفيما تَسَرَّب أيضاً أن حِوار المجموعة الرئاسية تَوَصَّل إلى أن «المأزق الراهن فى الشرق الأوسط - استحكم بسبب التَعَسُّف مع الحقيقة فى طَلَب حَلٌ نهائى لأزمة الشرق الأوسط، والنتيجة أن القضية الفلسطينية عادَت واحتلت رأس جَدوَل الأعمال فى اهتمام حكومات وشعوب المنطقة، وبما أن الحَلَّ الكامل الذى سَعى إليه «كلينتون» و«باراك» طلبٌ مُستَحيل - فإن العَودة الضرورية إلى الخطوات الجُزئية نَقلة بعد نَقلة مُناوَرة صَعبة. ولا بد من تَهيئة المنطقة لهذه المناوَرة بجهد عالى الكفاءة، مَرن وحازم فى نفس الوقت، يُحَقِّق نزول القضية الفلسطينية من البَند رقم واحد إلى البَند رقم اثنين أو ثلاثة إذا أمكن.

وإذا كان ذلك - فإن الفراغ الناشئ من إخلاء البَند رقم واحد (بعد تَنزيل الأزمة الفلسطينية منه) لا بد أن تَملأه أزمة أخرى يجرى تَصعيدها إلى رأس القائمة، وهذه

الأزمة فى تقدير أهَم المنَظِّرين للإدارة الجديدة - وهو «بول وولفويتز» المساعِد المقَرَّب من «ديك تشينى» نائب الرئيس، والمكَلَّف بمنصب نائب وزير الدفاع - هى بالطبع أزمة الخليج، وبمعنى آخر فإن المطلوب على عَجَل هو إحياء التَحالُف القديم لحَرب الخليج، وإعادة بناء الحصار على العراق، والحَشد من جديد لمحاوَلة إسقاط النظام فى بَغداد، وذلك مَطلَبٌ لم يَتَيَسَّر تحقيقه - فى وَقته - بالحَرب - لكن المطالِب الإستراتيجية لا تَسقُط بالتقادُم (كذلك قَدَّروا).

وقد تَجَلَّت لأهمية - وضرورة - تغيير قائمة الأولويات مَزايا إضافية - مُلَخَّصها «أن مشكلة فلسطين وفيها القدس تَملك جاذبية غلابة تَشد كل العَرَب إلى قضية واحدة، وذلك يَخلق مَناخاً مُتَفجِّراً يَصعُب التعامُل معه - فى حين أن وَضع العراق على رأس القائمة يُفَرِّق صفوف العَرَب، وهو مَناخ يَسهُل ويَطيب التعامُل فيه !

(٤) وفيما تَبيَّن أنه دارَت فى المجموعة الرئاسية مُناقشات كان بعضها عنيفاً إلى حَدٍّ نَكَأ جراحاً قديمة، وبالذات فى العلاقة ما بين «ديك تشينى» نائب الرئيس والجنرال «كولين باول» وزير الخارجية.

والظاهر أن المناقشات زادَت سخونتها عندما طُرح للبحث أسلوب إقناع الدوَل العربية - وشعوبها إذا أمكن - بتغيير قائمة أولويات المنطقة، بمعنى «تنزيل» بَند فلسطين و«تَصعيد» بَند العراق - وكان الظَنُّ فى البداية أنه يمكن «تَسريب» هذا التغيير فى الأولويات من خلال اتصالات تمهيدية جارية بالفعل بين الإدارة الجديدة وبين أطراف فى الشرق الأوسط تَتَعَجَّل استطلاع تَوَجُّهاتها - وكان التقدير أنه بعد «التسريب» يَتَهَيَّأ الجَو لنَقلة يَتحَوَّل بها «التسريب» غير الرسمى إلى «إخطار» رسمى.

ولم يكن «كولين باول» - فيما ظهَر من تفاصيل مُناقشات المجموعة الرئاسية - مُقتَنِعاً بأن قائمة الأولويات يمكن تغييرها بهذه السرعة من «فلسطين» إلى «العراق». وكان «باول» يَعرف ويُوافِق على أنه ليس من المرغوب فيه ترك فلسطين على رأس قائمة الأولويات - لكنه فيما يَتَعَلَّق بتصعيد بَند العراق كان يَحسب أن الأمر يلزمه عِلاج من نوع مُختلف لدَواعٍ مُتَعَدِّدة بينها أن الحِصار حول العراق بالفعل يَتَهاوى، وأن هناك تَعاطفاً شعبياً عربياً واسع النطاق مع العراق، ثم إن النُّظم العربية حتى

تلك التى شاركت فى التحالُف - تُبدى كثيراً من التَمَلمُل والضيق بعد استمرار الحصار عشر سنوات، وعملية خَنق للعراق لم يَعُد ممكناً أن تَستَمر إلى الأبد.

وطُرِحَت للبحث فكرة استبدال الحصار ضِدَّ العراق كما هو الآن بنوع آخر «أضيَق» ولكنه «مباشر» أكثر، وأطلَق «تشينى» عليه وَصف «العقوبات الذكيَّة»، والمطلوب منها أن تكون «عقوبات تُصيب نظام الرئيس «صدام حسين» وتُؤدِّى إلى إسقاطه دون أن تُصيب الشعب العراقى وتزيد من مُعاناته» !

ويَظهَر أن «الجنرال الدبلوماسى» لم يَستَطِع أن يَتَفَهَّم وَصف هذه «العقوبات الذكِيَّة» و«كيف يُمكن تَنفيذها» ؟

وهنا (طِبقاً لبعض ما نُشِرَ من معلومات وَرَدَت فيما كَتَبَه «جون بارى») وَقَعَت مَشادة بين «كولين باول» وبين «ديك تشينى» استعيدت خلالها تَجربة حرب الخليج حين تَبايَنت الآراء بين «تشينى» (وهو وزير الدفاع وقتها) وبين «باول» (وهو رئيس هيئة أركان الحرب وقتها).

كان «تشينى» (أيامها) يَرى استمرار زحف قوات التحالُف (١٩٩١) حتى قلب بغداد.

وكان «كولين باول» (أيامها) يَرى أن هَدَف ضَرب العراق تَحَقَّق بالكامل خلال شهر من القصف الجوى المستَمِر، وأن العمليات البرية من الأصل لم تكن لها ضرورة، وحتى بعد بِدئِها واستمرارها لعِدَّة أيام فإن الذهاب إلى قلب بغداد ليس ضِمن الهَدَف المقَرَّر للعمليات - بالإضافة إلى أن بعض دُوَل التحالُف تُظهِر تَحَرُّجها وتُبدى خِشيتها من أن «الاستمرار فى العمليات أصبح غزواً للعراق وليس تَحريراً للكويت».

ووَسَط مناقشات تلك الأيام قبل عشر سنوات - احتد «تشينى» وقال للجنرال (بوَصفِه وزيراً للدفاع و«كولين باول» مَرءوساً له) ما مُؤدَّاه : «إننى لا أفهم أن تكون لدى الولايات المتحدة أكبر وأكفأ قوة عسكرية فى العالم ثم لا تستطيع هذه القوة أن تَخدم سياستها، ثم يكون ذلك بتَوصِية من رئيس أركان - تَرَكَ مُهِمَّتَه وهى الحَرب لكى يُفتى فى السياسة !» - ثم يقول «تشينى» لـ«باول» بحَزم : «لا دَخل لك بالتقديرات السياسية، والتزم بتقديم خُطَط عسكرية لما يُطلَب منك، وتلك حدودك» !

وهنا وفى إطار حِوارات مجموعة العَمَل الرئاسية تَحَوَّلَ الحِوار (بعد عَشر سنوات) إلى اشتباك بين نائب الرئيس ووزير الخارجية.

....

....

[وأظن أننى أستطيع الوثوق فى معلومات «جون بارى» لأنى عَرَفته عن قُرب، وكان ضيفاً علىَّ فى القاهرة ثلاث زيارات. والرَّجُل صحفى بريطانى فى الأصل، وقد ذهَب إلى الولايات المتحدة يُغَطِّى أخبارها ولكنه اختار البقاء فيها. وكنت أعرف بالتجربة كثيراً عن دقَّته فيما يَكتُب، وكان رئيس تحريره «فرانك جايلز» يقول عنه : «إن جون عندما يَتَحَرَّى خبَراً يُعِدُّ له مادة كِتاب كامل». وفى الولايات المتحدة أصبح «جون بارى» من أبرز المحلِّلين السياسيين والعسكريين، ووَثق صِلاته بـ«ديك تشينى» وبأقطاب المؤسَّسة العسكرية الأمريكية عموماً - ولا يُساورنى شك فى أنه كان يُعَبِّر عن رأى نائب الرئيس الأمريكى فى مَقال شهير وَضَعَته مجلة «نيوزويك» على غُلافها تحت عنوان : «هل هو الرَّجُل المناسِب فى المكان المناسِب ؟» - وكان المقال عن «كولين باول»، والمقال من أوله إلى آخره تساؤلات عن صلاحية «كولين باول» لمنصِب وزير الخارجية. وفى نَوادى وصالونات «جورج تاون» - مركز السياسة والصحافة فى واشنطن - حِكايات كلها تُشير إلى أن بقاء «كولين باول» فى مَنصِبه أجلٌ مَحدود - سنتان على أكثر تقدير ؟!]

....

....

(٥) وفيما بان من حِوار المجموعة الرئاسية - فى فترة الريبة ما بين النتائج الأوَّليَّة لانتخابات الرئاسة وحتى تأكيدها بعد خمسة أسابيع بإعلان فوز «بوش» الابن - أن المناقشات تَطَرَّقت لكيفية تحويل التسريب غير الرسمى عن تغيير قائمة الأولويات إلى إخطار رسمى، وبدأ سِياق المناقشات بأسلوب وانتهى بأسلوب آخر :

○ فى البداية كان هناك اقتراح بأنه ربما يكون كافياً تَوصيل الإخطار بواسِطة

السفراء الأمريكيين فى العَواصِم المعنية (وقد نُحِّىَ هذا الاقتراح جانباً لأنه يُضيف خشونة الشكل إلى خشونة الموضوع).

○ وكانت مجموعة الخارجية («باول» و«أرميتاج») لا تُمانِع أن يقوم بالمهمَّة مَبعوث يُستَحسَن أن يكون وزير الدفاع «رومسفيلد» (لكن ذلك الاقتراح نُحِّىَ جانباً بدَوره لأن الإخطار عن طريق وزير الدفاع قد يَبدو عسكرياً).

○ وأخيراً وَقَعَت المهمَّة على «كولين باول»، وقَبلها باقتناع أنها فى اختصاصه، ثم إنها لم تكن مُتناقِضة - بشدة - مع اقتراحاته فى الاجتماع: فهو يُوافِق على «تَنزيل» أزمة فلسطين من رأس قائمة الأولويات، وهو لا يُمانِع فى تَصعيد الأزمة مع العراق، وإن كان يُبدى خشيَته من أن الأحوال فى المنطقة تَغيَّرَت كثيراً عما كانت عليه سنة ١٩٩١ - ومع أن أحداً لم يَتَوَصَّل إلى تَوصيف دَقيق لاقتراح «العقوبات الذكيَّة»، فقد وَجَدَ «كولين باول» فى ذلك الاقتراح مَخرَجاً له من تَصادُم مُبَكِّر مع «تشينى» يمكن أن يَتَحَوَّل إلى خلافٍ حَسَّاس بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية، ويَكشِف الإدارة الجديدة من بداية عهدها ويُعَرِّضها للانشقاق وما يَتَرَتَّب عليه سياسياً وإعلامياً - كذلك وَجَدَ «باول» فى اقتراح «العقوبات الذكيَّة» مَدخَلاً له فى لقاءاته المتَوَقَّعة مع ملوك ورؤساء المنطقة حين يَنقِل إليهم الإخطار بتغيير فى قائمة الأولويات.

ولكن «كولين باول» كان يُريد «تَوجيهاً رئاسياً» بشأن الأسلوب الذى يَتَّبعه ؟!

□

(٦) وكان الرَدُّ على طَلَب «كولين باول» - اقتراحا طَرَحَه «بول وولفويتز» نائب وزير الدفاع (وهو جنرال سابق - يهودى - لعب دَوراً مُهِمًّا فى حرب الخليج كضابط اتصال بين قيادة التحالُف وبين رئاسة أركان حرب جيش الدفاع الإسرائيلى - وكان مُقيماً بهذه الصفة فى إسرائيل طوال شهرى يناير وفبراير ١٩٩١ - وكان هو المسئول عن مُطالبة القيادة الإسرائيلية السياسية والعسكرية بأهمية ضبط النفس وعَدَم الرَد على صواريخ عراقية وُجِّهَت إلى عَدَدٍ من المواقِع فى إسرائيل، مُذكِّراً الجميع فى تل أبيب بأن إسرائيل أول مُستَفيدٍ بتَدمير القوة العراقية - وبدون تكلفة عليها فى الموارد أو فى الدم).

والآن كان اقتراح «وولفويتز» أن تَجربَتَه مع العَرَب أقنَعَتهُ بأن أفضل أسلوب لفتح أى موضوع معهم هو «وَضعهم أمام أمرٍ واقع» يبدأ منه الحِوار معهم !

وقام «وولفويتز» بتَطوير اقتراحه من خلال المناقشة فعَرَضَ أن الولايات المتحدة تستطيع من جانبها وبدون تَشاوُر مع أحد أن تبدأ بتصعيد عسكرى فى الغارات على العراق - ويُصاحِب هذا التَصعيد إعلانٌ يُظهِر هَدَف التَصعيد على حقيقته حتى لا يَفوت على أحد (بالتَجاهُل أو بالجَهل) - وبَعدها فسوف يَنتَقِل الاهتمام بالضرورة (باقتناع العَرَب أو دون اقتناعهم) إلى حَدَثٍ مُستَجَدٌّ وَقَع ويَستَوجب البحث العاجل فى أمره - وكذلك يكون جَدوَل الأولويَّات قد بَدأ حَرَكَتَه الأولى - لأن تَصعيد الغارات سوف يَطرَح نفسه، وسوف تكون الأطراف العربية هى التى تَفتَح مَوضوعه لتسأل فيه بعد أن تكون رسالته قد وَصَلَت إليها.

وبَعدها يَتَوَجَّه «كولين باول» إلى المنطقة، ولن يكون عليه حَرَج فى كيف يُبادر ويَعرض - لأنه سوف يكون أمام إلحاح ورجاء من الآخرين !

وإلحاح الآخرين ورَجاؤهم مُؤكَّد لأن «باول» سوف يجىء والأطراف كلهم يَستَعدون لمؤتمر عَرَبى على مُستوى القِمَّة، ثم إن بعضهم يَستَعِد لحَزم الحقائب تأهُّباً لزيارات موسِم الربيع إلى واشنطن !

٣- الجنرال والدبلوماسية:

وحَدَث فى مُقابلات «كولين باول» مع الملوك والرؤساء العَرَب فى زيارته السريعة (خمسة أيام لسبع عواصم) ما كان مُتَوَقَّعاً بالضبط فى تقديرات «وولفويتز» التى أقَرَّها «الاجتماع الرئاسى» بعد عِدَّة جلسات امتدت من فترة الرِّيْبة ووَصَلَت إلى حيث انعقد آخرها فى مكتب نائب الرئيس «ديك تشينى» قبل سَفَر وزير الخارجية إلى المنطقة بثلاثة أيام.

....

....

[ولم يُتَح لى أن أطلع على مَحاضِر ما دار فى اجتماعات وزير الخارجية الامريكى

مع مَن قابلهم من كبار المسئولين العَرَب - لكنه أتيح لى - كما أتيحَ لغيرى - أن أسمع أكثر من رواية وأن أقارن وأستَوثِق قبل أن أجازف بنَقل رواية أو ذِكر تَفصيل.]

....

....

○ وفى ملاحظة عامة (تَكَرَّرَت أكثر من مرة فيما سَمِعت) - أن وزير الخارجية الجديد بدا لمن قابلهم «غير مُستَريح» فى أدائه، وطِبقاً لوصف أحد الذين قابلوه فقد بدا مثل «فنجان فى غير طبَقِه»، وفى تقدير صاحب الملاحظة أن «باول» ما زال «يَشعُر بعَدَم انسجام مع المكان» - أى أن «الجنرال الذى كانه ذات يوم لم يتأقلم بَعد مع الدبلوماسى الذى حَلَّ محله داخل ثيابه الآن !» - وقد بدا من تَصَرُّفه أنه يَستَشعِر الفجوة، ويُحاول تغطِيتها «بشىء من العلاقات العامة»، يَستَعيد به بعض الحِكايات القديمة من تجربة حرب الخليج، خصوصاً مع الذين تَعامَل معهم تلك الأيام - ولوحِظ أن «الجنرال» تَعَمَّد أن تكون الحِكايات ضاحِكة تُشيع جَوًا من الألفة - تُجَدِّد الذكريات القديمة وتَستَعيد دِفئها.

○ وعندما بدأ «باول» كلامه عن مُهِمَّته كان قوله للجميع بما مُؤدَّاه «أنه لا يَحمِل جديداً لأن إدارة «بوش» ما زالت بصَدَد تَحديد سياساتها بعد غِيابٍ للحِزب الجمهورى عن القرار «طالَ ثمانى سنوات» (طول رئاسة «كلينتون») - وقد استجدت فى هذه المدَّة حقائق كثيرة أولها أن الولايات المتحدة بعد ما جرى فى الاتحاد السوفيتى وَقَعَت عليها مسئوليات دولية واسِعة - ثم إنه فى فترة هذا الغياب انتهى قرن وانتهت ألفية - وفى مسئولية الإدارة الجديدة مَهام تَنتَمى إلى القرن الواحد والعشرين - وإلى الألفية الثالثة - وكانت إدارة كلينتون خِتام زمَن - وإدارة «بوش» عليها أن تكون بداية زمَن. ولهذا فإنه يُريد أن يَسمَع أكثر مما يَتكلَّم، وقد جاء «طالباً للعِلم» يَتَمَنَّى أن يَسمَع من زُعَماء فى المنطقة «لم تَنقَطِع تجربتهم» و«زادت مَعارفهم»، وأمَله أن يَعود إلى واشنطن ومعه مُحَصِّلَة «أفكار» تُريد الإدارة الجديدة أن تأخذها فى الاعتبار عندما تُقَرِّر سياساتها لمرحلة جديدة.

○ وهنا - وكما سَبقَ تَوَقُّعه - جاء السؤال (المنتَظَر وجَوابه المقَدَّر سَلَفاً) عن

تَصـعـيد الغـارات الجـوية على العراق ؟ - وكـان رَدُّ «كـولين باول» بمـا مَـعناه «إظهـار الأسـف لأن الولايات المتـحدة تَصَرَّفت قبل أن تَتَشـاوَر مع أصدِقـائها وحُلفـائها، ودون إخطارهم - لكن الطائرات المكَلَّفـة بتنفيذ القـرار (الأمـريكى) بمنطِقَتَى الحَظـر الجـوى على العـراق (واحدة فى الجـنوب وثانيـة فى الشـمـال) - وَجَدَت نفسـهـا فى مـواجـهـة تَصـعيد عراقى مُتَزايد ومُستَفِز يُهَدِّد طائراتها بدِقَّة فـى الرصد لم تكن موجـودة من قـبل، وبدِقَّة فـى تَوجـيـه الصـواريخ يمكن أن تُصـيـب - وذلك مَـعنـاه أن «النظـام فى العـراق» يُعيد بنـاء قُدراته العسكرية مـرة أخرى على نـحوٍ يُهَدِّد جيرانه - وهكذا فـإن «التَصعيد الأمريكى» كان رَدًّا دِفاعياً على «تَصعيدٍ عراقـى» سبقـه.

ثم راح «كـولين باول» يَشـرَح والجـنرال القـديم فـيـه أكـثـر بروزاً من الدبلـومـاسـى الجديد فيه.

وقد دَخَلَ تَفصيلاً فى عملية تَجديد شَبَكَة الصواريخ العـراقية، وأضـاف مَـعلومـات حَصلَت عليها المخـابرات المركزية الأمـريكية من يوجوسـلافيا التى باعَت للعـراق على أيام «ميلوسـوفيتش» مُعِدَّات تَوجيه إلكترونية مُتَطَوِّرة - وزادَ عليـها أن الصـين وَفَّرَت خُبراء لتَكثيف قـوة اندفـاع الصـواريخ العراقيـة!

○ وفى إحـدى المقـابـلات لم يَتَمـالَك أحد المشاركين فى الاجتمـاع نفسـه من سـؤال «بـاول» بما مُؤَدَّاه :

«سـيـادة الوزير (Mr. Secretary) - إنك تَحَـدَّثت الآن - دون مُـقـاطعـة - لمدة إحـدى عشـرة دقيـقة، وفى هذه الدقـائق - وهـى قليلـة - فـإنك ذكَرت اسـم «العـراق» أكـثـر من عَشر مـرات، وذكَرت اسم «صدام حسـين» أكثر من عشـرين مرة - ونـحن نَتَفَـهَّم ذلك - لكننـا فى نفس الوقت نسـتَـغرب أننا طوال حَديثـك لم نسـمَـع ذِكـر «إسـرائيل» إلا مَـرَّة واحدة، ولم نَسمَع اسم «شارون» ولا مَرَّة واحدة.»

وبعـد مناقـشـات فى هذه النقطة كـان تعليق «كـولين بـاول» أنه «تَحَـدَّث بمَنطـق أولويات فَـرَضَت نفسـهـا وخصـوصـاً أن إسـرائيل وشـارون «قـد» يكونان خطراً من «الخـارج»، وأمـا «العـراق» و«صـدام» فـإنـهـمـا خطـر من «الداخل» يُهَـدِّد الاسـتـقـرار، ويُشَجِّع على الفوضـى، و«يَعمَل على زيادة التَطَرُّف والإرهـاب» !»

○ وفى القاهـرة وفـى عَمّان سـأل «كولـين باول» عن «حِكاية هذه الطائرات الذاهبة والعائدة كل يوم إلى بغداد تَحَدِّياً للحِصار - مع أنه يَعرف أن الأمـم المتحدة استُؤذِنَت فيها؟» !

وفى القاهـرة وعَمّان أيضاً سـأل «كولين بـاول» : «متى يَعود السفراء (سفير مصـر وسفير الأردن) إلى مقر عملهم فى إسرائيل ؟» - وفى القاهـرة سَمَّى «كولين باول» سفير مصـر فى إسـرائيل بالاسم «بسيونى»، مشيراً إلى «أن عَودته بسرعة إلى هنـاك الآن مُهِمَّة كـ «عَربون حُسن نِيَّة» لرئيس الوزراء الجديد «آرييل شـارون»، وأيضاً لكى تكون الإدارة المصـريـة على عِلم بالتَّطوُّرات الجـارية فى السـياسـة الإسـرائيلية، وهى تَطوُّرات سـوف تَنعَكِس بلا شك على القرار الإسرائيلى !»

وكان رأى «كولين باول» أنه لا يجب التَسَرُّع فى الحُكم على «شـارون» بما «يقوله» العَرَب عن مـاضـيه - وإنما الحُكم عليه يجب أن يكون بتـصـرفاته. وفى اسـتطاعـة العَرَب بعُقولِهم وليس بعَواطِفهم أن «يُقنِعوه» بالكثير، ومن صـالِحِهم أن يَقتَنع الرَجُل، وهو (أى «كولين باول») يَستَطيع تـأكيـد أن «شـارون علـى استعداد للتفاوُض وليس له غير شـرط واحِد هو تَوَقُّف العُنف بطريقة لا لبـس فيها بحيث يَعرف المواطِن الإسرائيلى أن «العُنف انتهى دَوره» !»

○ وفـى دمـشـق سـأل «كـولين باول» عن النشـاط الذى دَبَّ فـجـأة فى خط أنابيب بترول العـراق بعد أن كـان سـاكِناً أو نائماً لقرابة عشـرين سنـة - وكـانت لدى «كولين باول» أرقـام مُحَدَّدة عن بترول عراقـى يُضَـخ فـى الأنبوب السـورى بالمخـالفة لقرارات حِصـار العراق - وكـان تَلميحه واضحاً إلى أن ذلك قد يَسـحَب إجراءات الحِصـار من الخليج إلى البحر الأبيض.

وعندمـا جاء ذِكر البحـر الأبيض مَدَّ «كـولين باول» إصبعـا وضَـغَط على مَوضِع وَجَع سـائـلاً عن الوجـود السـورى فى لبنـان ؟ هَدَفه ؟ وكيف ؟ وإلى متى ؟ - ورأيه أن الخروج واجِبٌ، وأن البحث عن أسلوب لتنفيذه ضـرورةٌ لا تُمانع الولايات المتحدة أن تُسـاعِد فيها حتى تَستَقِرَّ الأمـور فـى لبنـان ليُمـارس حياة طبيعية داخلـه، وعلى حدوده، ومع جيرانه !

وكانت إحدى إيماءات «كولين باول» قذيفة «مُوَجَّهة» حين تَساءل «كيف يُمكن أن يُعتَبَر «شارون» مَجنوناً يَصعُب التعامُل معه - فى حين يُعتَبَر «صدام حسين» «عاقِلاً» يَسهل التعامُل معه ؟» !

وهنا كان ما استنتجه بعض سامعيه فى دِمشق من أن «باول» يَعرض صفقة مُجمَلها : «نُساعِد مع «شارون» إذا ساعَدتُم مع «صدام» !»

(وخَرَج «باول» من دمشق يقول: «إنه حَصل على وَعدٍ بنوع من الرقابة الأمريكية على أنابيب البترول ما بين العراق إلى شواطئ سوريا». وبعد عَودَته إلى واشنطن نُقِلَ عنه إحساسه بأن «المسار السورى» يُمكن تَحريكه لمفاوضات سلام بين سوريا وإسرائيل - وإذا حَدَثَ مثل هذا «الانفتاح» على المسرح السورى، فهو «يستطيع أن يرى انكشافا إستراتيجياً على طول المسافة عِبر العراق وإيران حتى باكستان وأفغانستان» ! - ومن دمشق لم يَصدُر أى تَعليق، وهو ما يمكن فَهمه لأن «دمشق» هذه اللحظة مشغولة بـ«عملية تَقييم» مُؤثرة على خيارات وعلى مصائر !)

○ وفى لقائه مع مُمَثلى السُّلطة الفلسطينية انتهز وزير الخارجية الأمريكى الجديد فرصة اللقاء لمحاضرة عن «وحدة القيادة».

بدأ فطالَب بوَقف العُنف، وردَّ «ياسر عرفات» بأن «السُّلطة فَعَلَت كل ما فى وسعِها لتَهيئة أجواء مُناسِبة للمفاوضات، لكن «الطرَف الآخر» لم يَترُك وسيلة لتَعكير هذه الأجواء إلا انتهزها». وردَّ الجنرال القديم بأن «إسرائيل تقول بشىء آخر، ولدى أجهزتها معلومات مُفَصَّلة عن تشجيع - بل وتَدبير - لعَمَليات إرهابية تُحَرِّض عليها وتقوم بها عَناصِر من السُّلطة» - لكن الذى يشغله أكثر وينبغى أن يشغل «عرفات» كذلك هو «أنه على الجانب الفلسطينى لا تُوجَد وحدة قيادة، فهناك قيادة «يُفتَرَض أنها» - !- شرعية، ولكن هناك من ورائها ومن حولها «قيادات أخرى» تُنازعها شرعية إصدار الأوامر، وذلك مُخالِف لأبسَط مبادئ «القيادة والسَّيطرة» !»

وحَدَث مَوقف درامى فى لقاء «كولين باول» مع «ياسر عرفات»، وكان ذلك حين طَلَب الجنرال الدبلوماسى من الرئيس الفلسطينى أن يَأمُر بوَقف العُنف - وعلا صوت «ياسر عرفات» وتَهَدَّجَت نبرة عِباراته إلى حَدِّ الدموع وهو يقول مُرتَجِفاً :

«تُكلِّمنى أنا عن وَقف العُنف ؟.. تَطلُب ذلك من القتيل ولا تَطلُبُه من القاتل ؟!» ـ ثم راحَ «ياسر عرفات» يحصى عَدَد القتلى من الرجال والنساء والأطفال ـ والبيوت التى تَهَدَّمَت ـ والمزارع التى خُرِّبَت ـ والجَرحى فى المستشفيات ـ وكله إلى جانب اقتصاد يَنهار، وسُلطة تَعجَز عن دَفع مُرَتَّبات موَظَّفيها «بمن فيهم رجال الأمن وحتى حَرَس الرئيس» !

□

ومن الملاحظات اللافتة أن الجنرال «كولين باول» قام بتوجيه الدَّعَوات لموسِم زيارات الربيع لواشنطن وكأنه يريد أن يُوحى لسامعيه بأفضلية تأجيلها :

ـ من ذلك مثلاً إلحاحه على أن الإدارة الجديدة لديها عمليات مُراجَعة ضرورية لكل أولوياتها فى الداخل والخارج. وفى الداخل فإنه أشار إلى الاقتصاد الأمريكى وما جرى فى «أسواقه المالية»، وأحدَثَ هَزَّة فى المجتمع الأمريكى. وفى الخارج فإن «كولين باول» أشار إلى «الخِلافات مع أوروبا» ومع «روسيا» ومع «الصين»، وهى خِلافات تَرجع إلى مُنافسات اقتصادية وسياسية ـ وإلى شكوك فى مشروع شبَكَة الصواريخ المضادة للصواريخ الذى يَتَبَنَاه الرئيس «جورج بوش» وتَعمَل له إدارته.

ـ ومن ذلك ما أضافه «كولين باول» بما معناه «أن الرئيس «بوش» (الابن) له أسلوب فى التعامُل مع القضايا يَختلِف عن أسلوب سَلَفه «كلينتون» ـ بل ويَختلف عن أسلوب والده («بوش» الأب) ـ ومن اختلاف الأساليب أن الرئيس الجديد يُفَضِّل أن تَظَلَّ علاقته بالسياسات «علاقة تَوجيه» وليست «علاقة تنفيذ»، وهو عَزوفٌ عن الدخول فى التفاصيل، و«يُضايقه أن يُحاول أحد إدخاله فيها»، وهو على اعتقاد أن سَلَفَه أخطأ فى الدخول بنفسه إلى مُقتَرحات مُحَدَّدة حملت اسمه وتَعَلَّقت بها «فاعِلية» الرئاسة فى الموضوع الفلسطينى، وقد وَقَعَ ذلك أثناء اجتماعات «كامب دافيد» وتَكَرَّرَ فى اجتماعات «شرم الشيخ» وغيرها ـ والرئيس «بوش» (الابن) يرى أن الأطراف وَحدهم هُم الذين يجب أن يَتَوَصَّلوا إلى أية مُقترحات يريدون طرحها من خلال عملية التفاوض ـ ولذلك فإن الرئيس الجديد «ليست لديه مُقتَرحات يُقدِّمها» و«لن تكون لديه مُقتَرَحات يُقَدِّمها».»

ـ ومن ذلك أن الدبلوماسى كادَ أن يَختَفى تماماً وراء الجنرال حينما وَصَلَ «كولين باول» إلى قَوله: «إنه يَتمَنَّى أن لا يكون من شأن أية زيارات عربية قادمة إلى واشنطن زيادة فى التَوَقُّعات لا داعى لها، خصوصاً وهو يُلاحظ «فيما سَمَعَ الآن» أن خطر «العراق» و«صدام» ليس مَحسوساً فى المنطقة بالقَدر الكافى، فى حين أن هناك تَركيزاً أكثر من اللازم على «إسرائيل» و«شارون» !

ثم يَستَطرد «باول» ليقول «إن قادة المنطقة مَرجُوُّون إذا ذهَبوا إلى واشنطن أن يأخذوا فى اعتبارهم أن الإدارة الجديدة تنظر إلى المنطقة ككُلٍ واحدٍ لا يَتَجَزأ، وأن سياستها فيها رَبطة كاملة من الخليج إلى البحر الأبيض، ولا يستطيع أحد أن يُركِّز على «خَطَر» ويَنسى «خطَراً» غيره، ولا أن يطلب من أمريكا أن تَضغط هنا على طَرَف، وأن تُخفف هناك عن طَرَف غيره !»

□

وكان ذلك كله يَجرى وذلك كله يُقال وهناك مؤتَمَر عربى على مُستوى القِمَّة على وَشَك أن يَنعَقِد فى عَمّان.

[وبرغم أنه عند كتابة هذه السطور لم تَكُن القِمَّة العربية فى عَمّان قد انعقدت أصلاً ـ فإنه من الصَّعب تَصَوُّر أن هذه القِمَّة ـ عندما تُعلِن قراراتها ـ سوف تستطيع الخروج على السياق العام للحوادث كما هو جار الآن.

وبالتالى فإن «الأمر الواقع» بالفعل فَرَضَ قائمة أولويات مُختَلِفة !]

٤ ـ وقفة سابقة مع «الصديق السوفيتى»:

لو جاز لأحد أن يُفكِّر من خارج القيود والحدود وعلى طريقة «عَواصِف العقول» brain storming ـ فقد يَخطر بباله أن يَعرض على القيادات العربية التى حَضَرَت قِمَّة عَمّان أو التى تَخَلَّفَت عنها، وتلك المسافرة إلى واشنطن مع موسِم الربيع، أو التى رأت تأجيل السَّفَر ـ اقتراحا بإعادة قراءة ومُراجَعة فصل من تجربة الرئيس «أنور السادات». لعل قراءته أو مُراجَعته أن تَستَعيد صدى صَيحة مشهورة له أطلقها سنة ١٩٧٢ ـ «عندما فاضَ به الكَيْل» كما كان يقول ـ وإذا هو يُعلِنها «وَقفة مع الصديق».

كانت «الوَقفة» أيامها مع «الصديق السوفيتى» - وربما أن صَداها الآن يَطرَح إمكانية «وَقفة مع الصديق الأمريكى» - دون أن تكون «الوَقفة» بالضرورة من القاهرة، أو أن تكون «الوَقفة» من عاصِمة عَرَبية واحدة - فهذا مَوقِعٌ يَتَّسِع الآن لأكثر من طَرَف ويَحتاج أكثر من طَرَف لـ«وَقفة مع الصديق الأمريكى» !

والشاهِد أن تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢ (قبل قرابة ثلاثين سنة) كانت مُخاطَرة - لكنها مُخاطَرة حَقَّقَت طلبها رغم المحاذير. والواقع أنه لولا هذه «الوَقفة» لكان من المتَعَيِّن تأجيل معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى ظرف آخر يَصعُب تقدير موعده - أو لكانت المعركة - فى أكتوبر ١٩٧٣ - نَوعاً من القُمار الأحمَق مُؤَدِّيًا إلى إفلاس مُؤكَّد !

ومع أن الرئيس «السادات» أجرى تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» بطريقته الدرامية، وبأسلوب الصدمات الكهربائية - فإنه ليس من الضرورى أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» بنفس الطريقة أو بذات الأسلوب.

لكن الواضح للعيان هذه اللحظة أن العلاقات العربية - الأمريكية لا تستطيع أن تُواصِل المشى على «المَسارات» الحالية - وإلا فإن منطقة الشرق الأوسط تكون مُقبلة على مَرحلة فيها «دولة واحدة مُستَقِلَّة» - هى إسرائيل!

□

ولعل الذاكِرة الرسمية العربية تستطيع أن تَستَعيد فصلاً من تَجربة «أنور السادات» - وليس من تَجربة غيره - بدون حَرَج، لأن سياسات الرئيس «السادات» هى الأصل الذى ما زال مُعتَمَداً حتى الآن، تَدُلُّ عليه الأفعال رغم التَّبايُن فى الأقوال.

وفى التمهيد لاستعادة تلك الصفحة فقد يَستذكِر القارئون والمراجعون أن العلاقات العربية - السوفيتية تلك الأيام، بالتحديد فى الفترة ما بين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ - كانت لها أهمية غير مَسبوقة وغير مَلحوقة، لأنه فى تلك الأيام كان الاتحاد السوفيتى أهَمَّ نصير دَولى لمطلب تحرير الأرض العَرَبية، وكان - وقتها - مَصدَر السلاح الوحيد الذى يمكن للعَرَب - بالفِعل - استعماله مع وسائل سياسية واقتصادية إضافية - لتحقيق مَطلب تحرير الأرض.

وفى تلك الظروف لم يكن السلاح مُجَرَّد وسيلة ضمن وسائل - لكنه كان المفتاح، وبغيره يَظَل الباب مُغلقاً دون تحرير الأرض ودون العُبور إلى مُستقبل - لأن استمرار احتلال الأرض كان ارتهانا للمستقبل فى أسر الأمر الواقع.

....

....

[وربما أجَرِّب تَحويل صَدى تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» إلى صوت - وإلى صورة أيضاً. فقد كنت تلك الأيام أقرَب الناس إلى الرئيس «السادات» (حسب وَصفه هو فى حديث صحفى أدلى به - شهر سبتمبر ١٩٧١ - نُشِرَ وقتها على نطاقٍ واسع فى مصر وفى العالم العربى) - ووقتها لم يكن ذلك الخلاف الذى قام بيننا حول دور السياسة بعد دور السلاح فى مرحلة ما بعد أكتوبر ١٩٧٣ قد ظهَرَ بَعد واستحكم.

وفى ذاكرتى وأوراقى فإنه فى ربيع سنة ١٩٧٢ كان الرئيس «السادات» فى حالة تَوَتُّر تَعَدَّدت دواعيها :

١ - فيها تأخُّر وصول صفقات سلاح من الاتحاد السوفيتى جرى التعاقُد عليها فعلاً من قبل، وبعضها عقود تَحمل توقيع الفريق «عبد المنعم رياض» - أى أنها أواخر سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٦٨.

٢ - وفيها أنه ألَحَّ فى طلب ما كان يُسَمِّيه «طائرة الردع» - ويَقصد القاذفة المقاتلة بعيدة المدى من طراز «توبوليف ٢٢» - لكنه لم يَحصُل على رَدٍّ - فى الغالب فإن السوفييت اعتبروا تَوريد هذه الطائرات لمصر «تَشجيعاً لتَهَوُّر مُحتَمَل» يَندَفِع إلى ضرب العُمق الإسرائيلى (بذريعة الرَدِّ على غارات إسرائيلية فى العُمق المصرى) - وكانت للسوفييت فى ذلك حساباتهم، ومعظمها إزاء الولايات المتحدة.

٣ - وفيها شعوره بأن السوفييت يُقَدِّمون له «سلاحاً دِفاعياً» وهو يُريد «سلاحاً هجومياً» (كذلك كانت رُؤيَته) - والنتيجة أنه غير قادر حتى على فِعل عسكرى مُؤثر - يَخلق أوضاعاً سياسية مُتوازنة.]

....

....

[وسافر الرئيس «السادات» مرات إلى موسكو، وفى مرات أخرى استقبل بعضاً من القادة السوفييت فى القاهرة - وفى كل مرة كان يطلب ويرجو، لكنه تَوَصَّل فى ربيع ١٩٧٢ إلى أن «إخواننا» (على حسب تعبيره) جعلوا «أذناً من طين وأذناً من عجين»، وأنه لا بد من «هَزَّة»، وكان ذلك وَصفه قبل أن يَتَوَصَّل إلى تعبير «وَقفة» !

إن «الهَزَّة» بدأت بمشهَد لم يسبق له (أو يَلحَق به) مثيل فى السياسة العربية المعاصرة، وقد جرى هذا المشهَد (٣١ مايو ١٩٧٢) قبل أسابيع من «الوَقفة» التى أدَّت إلى طرد الخبراء السوفييت من مصر.

ولعل الرئيس «السادات» أراد «للهَزَّة» أن تُمَهِّد «للوَقفة»، وأن تكون نوعاً من لَفت النظر إلى نفاد صبره. وقد قام بتأليف مَشهَد هذه «الهَزة» وإخراجه وتمثيله بنفسه، وقد سمعتُ وقائعه منه مُباشرة وبحضور الفريق «محمد أحمد صادق»، وأشرتُ إليه كتابة (سنة ١٩٧٧) فى حياة الاثنين : الرئيس «السادات» والفريق «صادِق» !]

....

....

[وكانت بداية المشهَد أن الرئيس «السادات» عَرَفَ أن الماريشال «إيجور باتيسكى» قائد الدفاع الجوى السوفيتى يقوم بزيارة للقاهرة بدَعوة من الفريق «محمد أحمد صادق» وهو وقتها وزير الدفاع المصرى. واتصل الرئيس «السادات» بالفريق «صادق» يطلب أن يَتَضَمَّن برنامج الماريشال السوفيتى لقاءً معه «لأنه يريد أن يَسمَع منه مباشرة عن حالة الدفاع الجوى المصرى».

وبالطبع جرى ترتيب مَوعِد للماريشال مع الرئيس، واستغرب الفريق «صادق» حين تَمَّ إخطاره بأن «الموعِد فى قصر عابدين»، وأن الماريشال السوفيتى «مَطلوبٌ فيه وحده» أى بدون حضوره وهو مضيفه الرسمى، فضلاً عن أن موضوع المقابلة وهو «حالة الدفاع الجوى المصرى» داخِلٌ فى اختصاصه كوزير للدفاع (بل إن الفريق «صادق» تَوَقَّع أن يُدعى معه اللواء «محمد على فهمى» قائد الدفاع الجوى المصرى).]

....

....

[ومساء نفس اليوم الذى وَقَعَ فيه اللقاء بين «الرئيس المصرى» و«الماريشال السوفيتى» كنت على مَوعِد مع الرئيس «السادات» فى بيته، ودَخَلَ معى فى نفس اللحظة الفريق «محمد أحمد صادق» الذى كانت عَصَبيَّته بادية - وله الحق - بسبب استبعاده من مقابلة مع رَجُلٍ هو ضَيفه، ولشأنٍ هو من صَميم اختصاصه.]

[وبدأ الرئيس «السادات» وَصفه لتفاصيل المقابلة بينه وبين الماريشال، وكنت أسمع فى «شَغَف»، وكان الفريق «صادق» يَسمَع بنوع من «القَرَف» لم يَستَطِع ذلك الجُندى الذى «ماتَ مُحترقاً بالوَطنيَّة» أن يُداريه.

وعلى نَحوٍ ما فإن الرئيس «السادات» راح يَروى تفاصيل المشهَد ويُؤدِّيه بطبَقات صوته وبتعبيرات وجهه وإشارات يَدِه، وبدا لى (فى بعض اللحظات) وكأنه يُحاول إغاظة وزير دفاعه .. وقد أحَسَّ بعَدَم رضاه عن استبعاده من المقابلة.

وبدأت رواية «السادات» - وبالحرف تقريباً - وبزيادة التشويق قائلاً : «آه يا محمد .. لو أنك كنت معى».

[وكانت الملاحظة صالحة لاثنين يَسمَعان روايته وكلاهما يبدأ اسمه بـ : «محمد» (محمد أحمد صادق ومحمد حسنين هيكل)].]

....

....

ويَحكى الرئيس «السادات» :

«قَصَدتُ أن يكون اللقاء مع «باتيسكى» فى المقر الرسمى لرئاسة الدولة فى قصر عابدين، وكنت أريده وحده لكنه جاء ومعه السفير السوفيتى (فى مصر وقتها «فلاديمير فينوجرادوف») ومعه أيضاً كبير الخبراء السوفييت (فى الجيش المصرى وقتها الجنرال «فاسيلى لاشنكو») ومعهم المتَرجم «إيَّاه» (يَقصد «أليكسى» المتَرجم الرسمى للسفارة السوفيتية وقتها). لم أستطع مَنع هؤلاء من دخول الاجتماع (ووَجَّه الكلام إلى الفريق «صادق») - وإلا تَحَوَّل اللقاء إلى أزمة (مُوَجِّهاً حديثه مرة أخرى إلى الفريق «صادق») - لو كنت أعرف لطَلَبتُك معهم - لكن ربما كان أفضل أنك لم تَحضر وإلا لوَجَدوا أنفسهم وَسَط فضيحة «بجَلاجِل» وعليها شاهِد هو أنت بالذات !»

وبَدا الفريق «صادق» غير مُستَريح فى مقعَده، وملامح وَجهه تَتَكَلَّف أن تَبدو طبيعية - ويُواصِل الرئيس «السادات» حِكايته :

«قَرَّرتُ أن تكون المقابلة فى قصر عابدين بأبَّهَته المَلَكية - ورأيت أن أحضرها بالملابس العسكرية والعلامات على كتفى علامات القائد الأعلى للجيش المصرى - فيلد مارشال.

جَوُّ عابدين أثر على الثلاثة وهُم يَدخلون عندى فى المكتب - وبدلة فيلد مارشال لفَتَت نظرهم بالتأكيد !

قلت للجميع «تفضلوا واجلسوا - جَلَسوا - وقُمتُ معهم إلى صالون المكتَب. رَحَّبتُ بالماريشال «باتيسكى»، وبعد أن جاءت القهوة وبدأ اللقاء «الجَدّ» قُمتُ من مكانى وَسَطهم فى الصالون وذهبتُ وراء المكتب وجلستُ على مِقعَده، وقلت لـ«باتيسكى» : «هل تَعرف مَن أنا ؟»

«الراجِل اتلخبط» (كذلك روى الرئيس «السادات»، وسَجَّلتُ عنه - بَعدها - ما روَى). (يَستكمِل الرئيس روايته) رَدَّ («باتيسكى») علىَّ باستغراب : «أنت الرئيس أنور السادات» !

قلت له : «غير صحيح - نَظَرُك ضعيف يا ماريشال» !

زادَت «الحيرة» على وَجه ماريشال الاتحاد السوفيتى وعلى وَجه «فينوجرادوف» (السفير) و«لاشنكو» (كبير الخبراء). وقلتُ له : «انظر إلىَّ جَيِّداً، مَن تراه أمامك ؟ وما هذا الرداء الذى ألبسه ؟» - لم يَفهَم «باتيسكى» قصدى، واعتدل بجسمه الضخم البدين فى مِقعَده وقال : «لا أفهَم يا سيادة الرئيس - أنت الرئيس «أنور السادات» وزِيُّك هذا هو زِىُّ «ماريشال» إذا لم أكن مُخطِئاً ؟» !

ورَدَدتُ عليه وقلتُ : «نعم - أمامك ماريشال، ولكن ليس الماريشال أنور السادات .. دَقِّق النَّظر جيداً .. أمامك هذه اللحظة الماريشال جوزيف ستالين بنفسه بلَحمِه وشَحمِه» !

ونظر «باتيسكى» إلى رفاقه و«بُرج من عَقله على وشك أن يطير» ورَدَّدَ مُتسائلاً : «جوزيف ستالين .. كيف ؟ هو مات من زمَنٍ طويل ؟ و«أنت هو أنت» - قالها المتَرجم «سيادتكم هو سيادتكم».»

ورَدَدتُ عليه بشِدَّة : «لا يا ماريشال باتيسكى، الماريشال ستالين هو الذى يُكَلِّمك الآن. لك أن تَعتَبر أن الماريشال الذى يُكَلِّمك الآن هو «جوزيف ستالين»، وهو يَطلُب منك ويأمُرُك أن تنقل إلى موسكو الإسراع فى تَوريد سلاح الردع الذى طلبناه منكم و«نِشِف ريقنا» فى تِكرار الطلب، وأنتم لا تسمعون.»

(ويَستَطرد الرئيس «السادات») :

«فينوجرادوف نَبيه، «فِهِم الفولة» قبل أن يفهمها «باتيسكى» وقال لى ضاحكاً : «سيادة الرئيس، خَلَعت قلوبنا من الخوف ؟» . ورَدَدتُ عليه : «سوف أخلَع قلوبكم فعلاً إذا لم نَتَلَقَّ منكم ما طلبناه من سلاح .. بَلِّغ موسكو بما سَمِعت الآن منى» !»

واصَلَ الرئيس «السادات» روايته :

«فَكَّرتُه بالقديم والجديد . فكَّرته أن «لِسانى اهترَأ» وأنا أتَكَلَّم مع الزعماء السوفييت الثلاثة.

بريجنيف (زعيم الحزب الشيوعى السوفيتى) كَلَّمتُه مائة مرة.

وبادجورنى (رئيس الدولة) كَلَّمتُه مائة مرة.

وكوسيجين (رئيس الوزراء) كَلَّمتُه مائة مرة.

قلتُ لهم جميعاً : «يا ناس أنا حليف إستراتيجى للاتحاد السوفيتى، لكنكم تتركوننى خطوة أو خطوتين إلى الوراء دائماً بعد إسرائيل . الأمريكان يَضمَنون لإسرائيل خطوة أو خطوتين قبلنا، وهذا يضعنا فى موقف صعب سوف يُؤثر علينا وعليكم».

بعد أن تَكَلَّمتُ مع كل الزعماء فى الاتحاد السوفيتى لم يَعُد أمامى إلا أن أجىء إليكم بـ«ستالين» . وها هو «ستالين» أمامكم يُكَلِّمكم، وأنتم تعرفون «ستالين» لا يَطلُب ولكن «يأمُر» . ولا يَنتَظِر ولكن «يَذبَح» !»

تَوَقَّف الرئيس «السادات» عن الرواية لأن صَوت قرينته السيدة «جيهان السادات» جاءنا من الردهة الخارجية للصالون الذى كنا نجلس فيه نَسمَع روايته . ثم دَخَلَ سكرتيره السيد «فوزى عبد الحافظ» يُقَدِّم إليه ورقة، وقام إلى خارج الصالون

قـائلاً: «إنـه سـوف يعود فـى دقيـقـتـين» - وفـور خـروجـه التفت الفريق «صـادق» إلىَّ وسـألنى : «هـل هذا كـلام جَدّ ؟ هل أعجَبَتكَ هذه التمثيلية ؟» - وحاولتُ أن أخفِّف عنه، ولم يَبدُ أننى أقنَعته كى يُفسِحَ صَدره للأسلوب ويُركِّز أكثر على المعنى. لكن الفريق «صـادق» مَضـى يُكَرِّر وعلامات التَعَجُّب كلها على وَجهِه : «ستـالين إيه «ياعَم» .. هل مَعقـول هـذا الكَلام ؟!» - ولـم يَبدُ الفـريق «صـادق» سـعيداً حين رَجَوتُه مرة أخـرى أن يَتَقبَّل الرواية على عِلاتها، وأن يَنتَظِر حتى نرى «النتيجـة».

وعـاد الرئيس «الســادات» إلى الصــالون الذى كنا فـيه (الفـريق «صـادق» وأنـا) - وأحَسَّ بـالغريزة أن هناك تَبايُناً فى «تَقبُّل» روايتـه بين الفريق «صـادق» وبينى، وكـان تعليقـه مُوَجِّـهاً الكلام لى : «صـادق عـسكرى مَكوى بالنشـا ولن يَفـهَم «الدراما» فى الموقف الذى حكيتـه لكما - لكنك أنت سـوف تَفـهَم». وانتـقلنا إلى مـوضـوع آخـر. ثم خَـرَجتُ مع الفـريق «صـادق» وقـد قـاربَ الليل مُنتَصَـفه، كـلانا عـائد إلى بيتـه، لكن الفريق «صـادق» لم يَنسَ قبل أن يُفارقنى أن يَسألنى : «هل فهمت الدراما فى الموقف ؟» - ثم أضـاف ساخِطاً : «ستالين قال !!» - وكانت علامات «الغَم» مرسومة بخطوط ثقيلة على مَلامِح وزير الدفاع المصرى والقائد العام للقوات المسلحة.

وكـانت تلـك بداية عـملية طـرد الـخبـراء السـوفـييت التى بَلَغَت ذروَتـها بعد ذلك بخمسـة أسابيع بالضبط !

....

....

وقـد سَـمِعتُ من الرئيس «الســادات» بعد ذلك (ومُبـاشرة أيضـاً) تفـاصـيل إبلاغ السوفييت بقراره طرد خبرائهم، وقد وَقَـعَ هذا الإبلاغ أثناء لقائه بالسفير السـوفيتى («فلاديمير فينوجرادوف») عندما استدعاه يوم ٩ يونيو ١٩٧٢.

....

....

والذى حَدَث أنه فى صباح اليوم التالى، كنت على شـاطئ «المنتَزَه» بالإسكندرية، ودَقَّ جَـرَس التليـفون، والطالِب هو السـيد «فـوزى عبـد الحـافظ» سكرتير الرئيس

«الســادات» يقـول أنه ســوف يُوَصِّلنى بالرئيس لأنه يُريد أن يَتَـحَـدَّث مـعى. وجـاءنى صوت الرئيس «السادات» بغير ما انتظرت، فقد تَوَقَّعتُ أنه سوف يعود مرة أخرى إلى إبداء عَدَم رضـاه عن سِلسِلة من المقالات كنت أكتبها فى ذلك الوقت تحت عنوان «حالـة اللا سِلم واللا حَـرب»، وكنت قد ألمحتُ فى إحدى حلقاتها إلى أن الاتحاد السوفيتى هو المستفيد الأول من حالة اللا سِلم واللا حَـرب، وشـرَحتُ أسبابى، ولم يكن الرئيس «الســادات» مُـوافِـقـاً على الطـرح ولا علـى أسـبـابه، فـقـد ظَـلَّ على يَقين برغم إنـذاره الدرامى للســوفـيـيت عن طريق المـاريشـال «باتيسكى» بأنه إذا كـان على العَـرَب أن يُحاربوا فليس أمامهم مَصدَر للسلاح غير الاتحاد السوفيتى، ومن هنا فإنه لم يكن مُتَحَمِّساً لأى «كلام فى العَلَن» يُؤخَذ على مَحمَل «لَـوم السوفييت».

وبتَحَسُّبٍ مُسبق لانتظار مـا سوف يقـوله بادَرتُه فى التليفون - ونـحن فى يوم جمعـة، ومقـال «بصراحـة» مَنشورٌ (كالعادة أسبوعياً) على الصفحـة الأولى من عَدَد «الأهـرام» الصادر يومـها :

«أظن أن لديك مُلاحَظة على ما كتبته اليوم؟» - ورَدَّ بأنه لم يقرأ المقـال بَعد ! - ثم سـألنى : «مـا الذى أخَـذك إلى الإسكندرية دون أن تَقول لى ؟» - ولم يَنتَظِر رَدًا وإنما واصَلَ كَلامـه : «يقولون: إنك صحفى لا يَفوتك خَبَر ؟ سـافَرتَ إلى الإسكندرية وفـات عليك خَبَر يُسـاوى نصف عُمرك ؟» - ولم يَنتظر وإنما استكمل : «تعال إلى عندى فى القناطِر وتَغدَّى معى (فى الساعة الرابعة بعد الظهر) وسوف تَسمَـع ما فاتَك» !

وفى السـاعـة الثـالـثـة والنصف بعـد الظهـر وَصَلتُ إلى حـيث كـان فى اسـتـراحـة القناطر، وجَلَستُ إليه أسمَـع منه، ومُعظم تفـاصيل القصـة بعد ذلك مَـعـروفـة، وقد نَشَـرتُ تفاصيلها من قبل، ونَشَـرَ غيرى ما وَصَلَ إليهم منها.]

....

....

على أن الأهَـمَّ من رواية التفاصيل فى هذا الحديث هو استخلاص وتَركيز الأسباب التى دَعَت الرئيس «السـادات» إلى تلك «الوقـفـة مع الصـديق السـوفـيـتى» سنة ١٩٧٢ - وكانت تلك الأسباب كما رآها الرئيس «السادات»، وبكلماته تقريباً - على النحو التالى :

١ - إن الاتحاد السوفيتى «لا يُعطينا ما يَكفى لتحرير أرضنا». فهو يُعطينا بالقطّارة، ونحن لا نَستَجدى وإنما «نشترى». وصحيح أننا نتأخّر أحيانا فى التسديد، لكن الصحيح أيضاً أننا فى النهاية «نَدفَع» !

٢ - إن الاتحاد السوفيتى يَحجُب عنا «سلاح الردع»، وهذا يزيد طَمَع إسرائيل فينا إذ تَعلَم أنها «تطولنا» ونحن لا «نطولها».

٣ - إن القيادة السوفيتية لا تَتَفَهَّم ضرورات وحقائق موقفنا، وأسوأ الجميع هو رئيس الوزراء «أليكسى كوسيجين» الذى يَنعَكِس فى كلامه إعجاب خفى بإسرائيل - وبالتالى فهذه القيادة لديها مَشاعِر نحونا لا بد من جلائها. ثم أنه على الناحية العقائدية فى قيادة الحِزب رجالٌ مثل «سوسلوف» (عُضو المكتب السياسى السوفيتى لشئون الحِزب) ومعه مُساعِدوه «باناماربيف» و«مازاروف» - يَرون أن تَعاون بلادهم معنا استثمار سياسىٌّ ضائع. وفى الحقيقة (يَظُن الرئيس «السادات») أن بين أعضاء اللجنة المركزية عَدَداً من اليهود يَعمَلون سِرًّا لصالح إسرائيل، ويَفتَحون معها اتصالات تحت الأرض رغم أن العلاقات الدبلوماسية بين موسكو وتل أبيب مَقطوعة منذ سنة ١٩٦٧.

٤ - وأخيراً (يُضيف الرئيس «السادات») أنه فوجئ بالبيان المشترك الذى صَدَرَ بعد اجتماع الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» والزعيم السوفيتى «ليونيد بريجنيف» فى موسكو قبل ثلاثة أسابيع، وضايَقَته عبارة جاء فيها أن الطرفين اتفقا على ضرورة السَّعى إلى حالة من «الاسترخاء العسكرى» فى الشرق الأوسط، وهذا معناه «أن الروس اتفقوا مع الأمريكان علينا».

....

....

[وعندما سمعتُ من الرئيس «السادات» ذلك السبَب الذى ضايَقَه فى البيان الأمريكى السوفيتى حاولت لَفت نظره إلى أن وَصف «الاسترخاء العسكرى» جاء فى سِياق البيان لاحِقاً ومُتَرَتِّباً على «الوصول إلى تسوية عادلة لأزمة الشرق الأوسط» - لكن الرئيس «السادات» أصَرَّ على أن الكلام «مائع». ومع تَسليمه بأن

ترتيب السياق كما شرحته له صحيح - فقد كان من الواضح أنه ليس على استعداد للوقوف الآن والتَدقيق لأنه اتخذ قراره، وتَصَرَّف فعلاً بمُقتَضاه.]

....

....

والحاصل أيامها أن عَدَداً من مُستشاري الرئيس «السادات» وأصدقائه (وكنت بينهم) كانوا على مَعرفة بأسباب ضيقه، لكنهم (وبغير استثناء تقريباً) تَحَفَّظوا على خطوَته التي بدت لهم «رَهاناً بكل الرصيد على المكشوف» (حسب وَصف مستشاره القانوني وقتها الدكتور «محمد عبد السلام الزيات» وهو يومها في مَنصب نائب رئيس الوزراء) - وكان تَقدير الجميع (تَقريباً) أن ذلك «الرهان» يمكن أن يُؤدِّي إلى خسائر فادحة - إلا أن الرئيس «السادات» ظَلَّ على ثقة بأن مُناوَرَته ضرورية «حتى يَعرف رأسه من رجليه» و«حتى نحسب حسابنا على نور».

وربما أن ذلك كان ما دَعا عَدَداً من كبار مساعديه - وبينهم (في تلك الأيام) رئيس وزرائه الدكتور «عزيز صِدقي» ونائبه السيد «محمد عبد السلام الزيات» ووزير دِفاعه الفريق «محمد أحمد صادق» (رغم حساسيته الشديدة للسوفييت) ووزير خارجيته الدكتور «مراد غالب» (وكان قبلها ولسنوات طويلة سفيراً في موسكو) واللواء «أحمد إسماعيل علي» (وهو وقتها مدير المخابرات العامة) - أن يبذلوا جهوداً خارقة للعادة كي يمسِكوا بالزمام ويَحولوا دون قَفزة إلى المجهول لا تُضمَن عَواقبها.

وهكذا سافر وفدٌ كثيف منهم إلى موسكو لجهد خارق تَحَوَّل به مَجرى الحوادث فعلاً - وعاد الوفد الذي رأسه الدكتور «عزيز صِدقي» ومعه برنامج تفصيلي ومُحَدَّد بطلبات سلاح سبق التَّعاقُد عليها وتأخَّرَ تَوريدها، وهي الآن جاهِزة للشحن، ومعها موافقة على طلبات جديدة قَدَّمَها الوفد المصري إلى موسكو، وقد جَرى تَحديد مواعيد نهائية مُتلاحِقة لتسليمها في الإسكندرية.

ونَجَحَت مُناورة «السادات» في «المقامَرة على المكشوف» بصرف النظر عما إذا كان النجاح رَهاناً مَضموناً من الأصل، أو أن سفر وفد مصري رفيع المستوى أنقذ الموقف في موسكو.

وفى كل الأحوال فإن تلك «الوَقفة مع الصديق» بأسبابها الموضوعية، ووقائعها المثيرة، و«مَشاهدها الدرامية» - أدَّت إلى تَوافُـر «حَجم وقُدرة» السلاح الذى حَقَّقَ ما تَحَقَّق فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ من أوَّله إلى آخره - ولم يكن هناك سِلاحٌ غيره يستطيع مُحاربة إسرائيل - ولم يكن هناك غيره على الإطلاق فى ميادين القتال !

□

٥ - ١٩٧٢ - ٢٠٠١ :

والتاريخ لا يُعيد نفسه - لكن الحقائق المتشابهة تخلق أحياناً ضرورات مُتَقاربة.

والحاصل أن حقائق اليوم تجىء وكأنها عملية استنساخ لحقائق الأمس، وعلى نَحوٍ شديد التشابه إلى درجة التماثل - وفى الغالب فإنه يَستَدعى نوعاً من رَدِّ الفِعل يَأبَى الوقوف أسير سُكون تَتَآكَل فيه المواقف بالضعف إلى حَدِّ السقوط - ولعله على نَحو ما يَستَدعى - وإن بأسلوب مُختلف - «وَقفة مع الصديق الأمريكى» هذه المرة.

ولقد كانت حقائق الأمس مُثيرة للقلق وَسَط «حالة حرب» - وحقائق اليوم الجديدة «بالاستنساخ» وَسَط حالة سِلم لا تثير القلق فقط - لكنها تُحَوِّل السلام إلى «إهانة» لا يَقِلُّ أذاها عن الوقوف على حافة الخطر. ذلك أن «حالة الخطر» فيها كرامة اليَقَظة والتَحَفُّز - وأما «حالة الإهانة» فليس لديها غير الانكسار والهوان !

□

ولإعادة التأكيد فإن الدواعى الرئيسية لتلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢ - كانت ثلاثة :

- السلاح الذى نشتريه ونَدفَع ثَمَنه - وعَدَم كفايته.

- والتَفَهُّم الذى ننتظِره من «صديق» - لكنه يَتَلَكَّأ فى تناوُل الأمور ويَتَسَكَّع.

- والشَكُّ فى عناصر على مُستوى القيادة هناك أو فى بعضها - ومَبعَثه ظنون حول وجود «يهود» هناك مُتعاطفين مع إسرائيل.

ـ وبَيانات وَقَّعَ عليها «الصديق» ـ أو شارَك فى التَّوقيع عليها ـ وفيها «ميوعَة يَصعُب قبولها».

وبقياس الدواعى السابقة لـ«وَقفة مع الصديق السوفيتى»، مع الدواعى المستَجَدَّة التى قد تَستَدعى «وَقفة مع الصديق الامريكى» ـ فإن الفارق يُصبح مَهولاً !

١ ـ فى موضوع السلاح ـ أولاً ـ فإن العَرَب الذين اشتروا السلاح السوفيتى والذين كان فى مقدورهم ـ ولو نظرياً ـ استعماله لرَدِّ عُدوان إسرائيل أو تَوَسُّعِها ـ كانوا ثلاث دُوَل : مصر وسوريا والعراق.

وفى الفترة ما بين سنة ١٩٥٥ ـ عند عَقد أول صفقة سِلاح بين مصر والاتحاد السوفيتى ـ وحتى سنة ١٩٧٥ ـ حين ظَهَرَ ما أطلِق عليه فى ذلك الوقت سياسة «تَنويع مَصادِر السلاح» ـ بَلَغَت عقود التسليح بين القاهرة وموسكو ما قيمته ١٤٠٠ مليون روبل ـ أو نفس الرقم بالدولار ـ طِبق سِعر الصرف الرسمى أيامها. وبَلَغَت قيمة ما سَدَّدَته مصر من قيمة هذه العقود نصف بليون فقط ـ وقد تَمَّ سَداد معظمه فى إطار اتفاقيات دفع ـ أى أنه كان سلاحاً فى مقابل سلع (ضِمنها قطن وأثاث ومُستَحضرات تجميل!)

وفى نفس الوقت فإن سوريا تَعاقدَت ـ حتى سنة ١٩٧٥ ـ على ما قيمته ٨٠٠ مليون روبل ـ سَدَّدَت نصفها تقريباً.

وتَعاقَد العراق ـ حتى سنة ١٩٧٥ ـ على ما قيمته ٦٠٠ مليون روبل (وكانت مُشترياته من السلاح ـ فى تلك المدَّة ـ أكثر، لكن جزءاً منها كان من مصادِر غير سوفيتية).

وفى السنوات الممتَدَّة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٧٥ ـ أى مسافة عشرين سنة ـ بَلَغَ حجم المشتريات العربية كلها من السلاح السوفيتى ـ وفق بيانات مَعهَد «سيبرى» SIPRI السويدى الذى يَتَوَلى مُتابَعة نفقات التسليح فى العالم ـ ما قيمته الإجمالية ٢٨٠٠ مليون روبل ـ أى ٢ر٨ بليون دولار بسِعر الصرف الرسمى وقتها.

وفى هذه السنوات العشرين خاضَ العَرَب وفى ترساناتهم وفى أيديهم هذا

السلاح السوفيتى - حرب السويس سنة ١٩٥٦ - وحرب سيناء سنة ١٩٦٧ - وحَرب الاستنزاف من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ - ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣.

أى أن السلاح السوفيتى - وَضَعَ فى ترسانات العَرَب وفى أيديهم ما يُمكن أن يُقاتلوا به. وقد خسروا بعض معاركهم، وانتصروا فى بعضها الآخر - على أنهم فى كل الأحوال لم يَستَسلموا - وإنما ظلوا على أقدامهم يُقاومون رغم أن جراحَهم كانت بليغة فى بعض الأحيان.

وقد تَطلَّب الأمر «وَقفة مع الصديق» السوفيتى - بَدَت ضرورية عندما أحَسَّ «السادات» بتَرَدُّد هذا «الصديق» فى تَوريد السلاح كَمًّا ونَوعاً، وعلى نَحوٍ «جَعَلَه خطوة أو خطوتين وراء إسرائيل» - حسب تعبيره.

□

مع «الصديق» الأمريكى فإن السلاح قِصَّةٌ غريبة وعجيبة - ومُحزنة أيضاً !

ذلك أنه طِبقاً لتقارير مَعهَد «سيبرى» SIPRI السويدى نفسه - وآخرها تقريره عن سنة ٢٠٠٠ - بشأن التكاليف العسكرية فى السنوات العشرة الأخيرة فقط - فإن العَرَب دَفَعوا فى شراء الأسلحة ما قيمته ٥٠٥٦٠٠ مليون دولار (أى مائتين وخمسين مَرَّة تقريباً أكثر مما دَفَعوه فى السِلاح السوفيتى على مَدى عِشرين سنة وأربع حروب آخرها أكتوبر ١٩٧٣ !) - والعُقود فى غالبيتها الساحقة أمريكية والدفع فَورى وأحياناً مُقدَّماً، والدليل أن نصيب السعودية وحدها فى هذه العقود ١٨٤٠٠٠ مليون دولار. ثم إن تقرير مَعهَد «سيبرى» يُلاحِظ أنه لم يَجد أرقاماً يَتَحَمَّل مسئولية نشرها فى تَقاريره عن مُشتَريات السلاح فى ثلاثة بُلدان عربية هى : العراق - وليبيا - وقطر (!).

□

ومن المفارقات اللافتة للنظر أن حجم مُشتَريات «سَلطَنة عُمان» من الأسلحة (طبقاً لتقرير مَعهَد «سيبرى») عن سنة ١٩٩٩ وحدها تبلُغ قيمته ١٦١٤ مليون دولار، وهو مَبلغ يُساوى ضِعف ما دَفَعَته مصر وسوريا من السلاح السوفيتى طوال الفترة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٧٥ - (على مَدى عشرين سنة وأربع حُروب آخرها أكتوبر ١٩٧٣).

يَزيد على ذلك أن السلاح العَرَبى الحالى لا يبدو من مُجمَل ما تقوله - وتَتَصَرَّف به - السياسة العَرَبية الراهنة - كافياً أو مُستَعِداً - وذلك كلام مَسموعٌ بالتصريح وبالتلميح، ومَنشورٌ عَلَناً ومَنسوباً إلى مَسئولين كِبار - وبرغم ذلك لا يَتَوَقَّف أحد ليَسأل ويَتَساءل، ولا يُفَكِّر أحد فى أن تلك كلها دَواعٍ لـ«وَقفة مع الصديق الأمريكى» سنة ٢٠٠١ - تَستَلهِم - وليس بالضرورة تُكَرِّر - تلك «الوَقفة» التى اتخذها «أنور السادات» مع «الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢ !

(والقضية ليست قضية سِلاح يُساق إلى مَيادين القتال، ولكن القضية بالدَّرَجة الأولى قُدرات لها مِصداقِيَّة إلزام كل طَرَفٍ بحَدِّه !)

□

٢ - بين الأسباب الرئيسية التى دَعَت «أنور السادات» إلى «وَقفة مع الصديق السوفيتى» - وهذا هو السبب الثانى بينها - «التَلَكُّؤ فى تَناوُل قضايانا والتَسكُّع فى فَهمها !

ومن المفارقات أنه كان يُقال للعَرَب باستمرار :

- «إن الولايات المتحدة لن «تُساعد» ما «دُمتُم» أصدقاء للسوفييت». وقد انتهت الصداقة العَرَبية السوفيتية - ولم يَعُد هناك اتحاد سوفيتى من الأصل - بل إن العَرَب شاركوا عَمَلياً فى سُقوطه (وتلك قصة أخرى مثيرة).

- وأن الولايات المتحدة لن «تَسمَع» منهم ما داموا «مُصِرِّين على إلقاء إسرائيل فى البحر» - ومع أن مَقولة «إلقاء إسرائيل فى البحر» لم تَرِد على لسان مسئول عَرَبى واحد - فإن الولايات المتحدة واصَلَت الادِّعاء بها، برغم أن بعض العَرَب وَصَلوا إلى اعتبار ٩٩ ٪ من أوراق الحَل فى يَدِ الولايات المتحدة، كما وَصَلوا جميعاً - تقريباً - إلى اعتماد السلام «خِياراً إستراتيجياً» لا رَجعَة عنه - وبالفعل فإنهم مارسوا ذلك الخِيار الإستراتيجى فى وَضح النهار على امتداد طريق طويل - واصل من أسوان إلى واشنطن، ومن كامب دافيد إلى أوسلو. (هذا غير ما يَجرى على طُرُق أخرى تحت جَنح الظلام !)

وبالزيادة على ذلك فإن النُّظُم العَرَبية نَزَلَت بالصراع العَرَبى الإسرائيلى دَرَجات،

فلم يَعُد الصراع صراعاً، وإنما تَنازَل ليُصبح «مشكلة» - ولم تَعُد المشكلة عَرَبية - إسرائيلية، وإنما تَنازَلت لتُصبح «فلسطينية» - إسرائيلية - ثم تَدَهوَرَت أحوالها فلم تَعُد «قضيةً»، وإنما أصبَحَت «عُنفاً» لا بد من وَقفه قبل الجلوس إلى مَوائد الدبلوماسية من جديد بعد سنوات من الدبلوماسية قديمة وعَقيمة تَوَصَّل بعضها إلى اتفاقيات وَضَع «الصديق الأمريكى» توقيعه ضماناً لها!

ثم كانت مُحَصِّلة ذلك كله أن وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية - «الدبلوماسى الجنرال» - جاءهُم سنة ٢٠٠١ ليطِلَّ على المنطقة وهى تَستَعِد لمؤتمر عَرَبى على مستوى القِمَّة - لإبلاغ من يلقاهُم : «أن عَدوَّهُم هناك فى بغداد وليس هنا فى تل أبيب» !

ومع ذلك لا يَحدُث شىء - ويَبدأ موسِم الربيع فى واشنطن ولا يَخطُر على بال أحد أنها الآن بالضرورة لا بُدَّ أن تكون «وَقفة مع الصديق الأمريكى» سنة ٢٠٠١ - مثلما كان مع «الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢ !

□

٣ - تجىء - ثالثاً - مسألة الاشتباه فى وجود تأثير يهودى على قرار «الصديق السوفيتى».

وكان ذلك التأثير اليهودى الذى لَمَحَه الرئيس «السادات» - ومعه المِلك «فيصل» مَلِك السعودية وقتها - نوعاً من الظنون والرِّيْب.

لكنه فى حالة «الصديق الأمريكى» - فإن التَّأثير اليهودى على واشنطن تَجاوَز الظنون والرِّيْب ليُطالِع الجميع بحقائق لا تَحتَمِل الإنكار !

وعلى سبيل المثال فقد قيل - !- أن «بيل كلينتون» كان أكثر رئيس أمريكى فى تاريخ الولايات المتحدة - اهتم بأزمة الشرق الأوسط، وكَرَّس أكبر جهد لحَلِّها، وشارك بنفسه فى تقديم مُقترحات لفَكِّ عُقَدِها، وكان وجوده فى البيت الأبيض فرصة ما بعدها فرصة - لكن الحقيقة أن قائمة اليهود فى القيادة العليا الأمريكية فى عهد «كلينتون» لابد لها أن تُلفت النظر، وتُخَفِّف ولو قليلاً من حماسة المتَحَمِّسين لـ«كلينتون» ومُقتَرَحاته، وفى القائمة مُثُلاً وعند المستوى الأعلى:

«مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية - «روبرت روبين» وزير الخزانة - «وليام كوهين» وزير الدفاع - «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية الأمريكية - «صمويل بيرجر» مُستَشار الرئيس للأمن القومى - «رَهم إيمانويل» كبير مُستشارى الرئيس - و«جون بودستا» رئيس أركان البيت الأبيض - «آلان جرينسبان» رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى - «أيفلين ليبرمان» المشرف على الإذاعات الخارجية بما فيها صوت أمريكا - «سوزان توماسيس» كبيرة مُساعِدى «هيلارى كلينتون».

وهناك قوائم بكبار المسئولين اليهود فى الإدارة الأمريكية تشمل مئات من رؤساء الوكالات، ومساعدى الوزراء، ورؤساء الإدارات، ومديرى الهيئات. هذا غير السفراء فى وزارة الخارجية، حيث تَذكُر أوراق الخارجية الأمريكية نفسها أن سُفراء الولايات المتحدة فى ألمانيا - وفرنسا - وبولندا - والدانمرك - وهنجاريا - ورومانيا - وبلجيكا - وبلاروس - وجنوب أفريقيا - والهند - وتركيا - ونيوزيلندا - ومصر - وإسرائيل - والسويد - والمغرب - وسنغافورة - وزامبيا - والبرازيل - والمكسيك - وكندا - وكوبا - والنرويج - وسويسرا - جميعاً من اليهود، وفوقهم السفير «دنيس روس» المسئول لأكثر من عشر سنوات عن إدارة «مسيرة السلام» فى الشرق الأوسط !

ويَستَوجب التأمُّل والدَّرس أنه فى مؤتمر «كامب دافيد» سنة ١٩٧٨ (الذى حضره الرئيس «السادات» مع الرئيس «جيمى كارتر» لم يكن فى الوفد الأمريكى غير يهودى واحد هو «صَمويل لويس» (سفير الولايات المتحدة فى إسرائيل)، وبَقِيَّة الأعضاء مسيحيون.

وفى «كامب دافيد» الفلسطينية («كلينتون» و«ياسر عرفات» سنة ٢٠٠٠) كان الوفد الأمريكى كله يهوداً إلا مسيحى واحد هو «بيل كلينتون» نفسه !!

وفى سنة ١٩٧٢ فإن الرئيس «السادات» حين ساوَرَته شكوك فى تأثير يهودى على القادة السوفييت الملحِدين - جَعلَها «وَقفة مع الصديق». وفى سنة ٢٠٠١ والشكوك حقائق ثابتة، واليهودية فى الحالة الراهنة ليست مُجَرَّد دِيانة وإنما هى صهيونية لا تُدارى هَواها ولا وَلاءها - ومع ذلك فإن أحداً لا يَجدها داعية «لوَقفة مع الصديق» !

□

وربما أن هذه النقطة تَتَّسِع لملاحَظة ضرورية - داعيها تَصَوُّرٌ له أنصاره يَرى أن هذا العَدَد من اليهود الذين كانوا فى إدارة «كلينتون»، والذين كان مُحتَمَلاً أن يزيد عَدَدُهم أكثر لو أن «آل جور» فاز بالرئاسة - عَهدٌ مضى وانتهى حِسابه لأن «جور» سَقَط، ونَجَحَ بَدَلاً منه «جورج بوش» (الابن) الذى لا يُوجَد فى إدارته وزير يهودى - هكذا يُقال - !- لكن هذا التَصَوُّر يَنسى فارقاً أساسياً بين التأثير اليهودى على الحِزب الديمقراطى - وذات التأثير على الحِزب الجمهورى.

والواقع أن كِلا الحِزبين مَفتوحٌ لإسرائيل وعليها بنفس الدَّرَجة الحَميمة.

○ لكن الحِزب الديمقراطى مَفتوحٌ لها وعليها عن طريق يهود الولايات المتحدة (وبينهم مَن هو مَحسوب على اليسار الليبرالى المعتَدِل) - ولذلك فإن وجودهم فى واشنطن يَظهَر ويَملأ مِساحة كبيرة من الصورة مع أى رئيس ديمقراطى هناك.

○ والحِزب الجمهورى مَفتوحٌ لها وعليها مُباشرة عن طريق الدور الإستراتيجى لإسرائيل فى الشرق الأوسط - ولذلك فإن الوجود اليهودى فى واشنطن قد لا يَبدو ظاهراً، لكنه يَملأ مِساحة كبيرة من خريطة المنطقة هنا فى الشرق الأوسط.

أى أنه اختلاف فى طُرُق الاقتراب من واشنطن لإسرائيل فى حالة - أو من إسرائيل إلى واشنطن فى الحالة الثانية، وفى الحالتين فإنه ليس زيادة أو نقصاً فى التأثير. ويَكفى للبُرهان على هذه الحقيقة استعادة تَوَجُّهات الحِوار الرئاسى - والذى كان بمثابة افتتاحية لإدارة «بوش» (الابن)، وبمُقتَضاه تَغَيَّرَت أولويات الشرق الأوسط، وضِمنها : تَصعيد بَند العراق - تَنزيل بَند فلسطين - وإعلان التغيير بضرب بغداد. ومن هنا - على حسب تعبير «بول وولفويتز» - «يكون على العَرَب أن يَسألوا، وعلينا أن نُجيب بأنه تغيير فى الأولويات وليس أمامهم غير قُبوله» - وبالفعل فإن العَرَب سَمعوا من الجنرال «كولين باول»، وسألوه، وأجاب - وكان الرَّجُل واضِحاً على غير عادة «الدبلوماسية»، وكان قاطِعاً على عادة «السلاح» !

□

كل ذلك وليست هناك «وَقفة مع الصديق الأمريكى» - ولا تَفكير فى «وَقفة» بصورة أو أخرى - ولا أحد يَطلُب أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» - من نفس

عِيار تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» ـ لأن واقع الحال لم يَعُد يَسمَح (فى وقت «السِلم») ! ـ بذلك «النوع» من «حَقِّ القرار» الذى مارَسَه العَرَب يوماً (وَسَط «الحَرب») ـ ومع ذلك فإن دَواعى الأمن القومى والاستقلال ـ وحتى الكبرياء ـ الوَطَنى ـ تَفرض أنه فى لحظة ما ـ بوَسيلة ما ـ بأسلوب ما ـ لا بُدَّ من «وَقفة مع الصديق الأمريكى» !

وإذا لم يَحدُث ذلك ـ وعلى الأرجح لن يَحدُث ـ فربما كان على كل مُواطِن عَرَبى أن يَسأل نفسه :

لماذا أصبح مُستَحيلاً سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى) ـ ما كان مُمكِناً حتى سنة ١٩٧٢ (مع الصديق السوفيتى) ـ أو شىء منه ؟

وماذا جرى ؟ ومتى جرى ؟ وكيف جرى ؟

ثم ـ إلى أين من هُنا ؟!



الفرانكوفونية .. وأخواتها

١ ـ مهمة مطروحة على عمرو موسى:

وَسَط اهتمام مُتَزايد بجامعة الدول العَرَبية ـ مع ابتداء مَسئولية «عمرو موسى» عن أمانتها العامة ـ خَطَرَ ببالى أنها مُناسَبة لطَرح مَسألة تستحق الاهتمام ـ هى ذلك الشُرود العَرَبى إقليمياً ودَولياً حتى أصبح جَمعُ الأمَّة قريبَ شَبَه بسِرب طيور ضاعَ نظامه وتَبَعثرَت أجنحته كلٌّ منها مع ريح !

وخَطَرَ ـ أيضاً ـ ببالى أنه ربما استطاع المناخ الجديد فى جامعة الدول العَرَبية أن يُساعد على عَودة الشارد والمبَعثر، أو يُوقف الطيران الأعمى بحيث يَعود إلى السِرب شىء من نظامه ـ واحترامه !

أعرض ذلك عارفاً حدود الجامعة العَرَبية، وحدود أمينها العام:

ـ بمعنى أننى أعرف أن الجامعة العَرَبية منظمة إقليمية تُشارك فيها دُوَلٌ ذات سيادة، وَجَدَت «المشتَرَك» بينها كبيرا، ورأت أنها فى إطار هذا «المشتَرَك» قادرة على إظهار نوع من «الإرادة الجماعية» لصالح شعوبها، مُدركة حَجم وعُمق ما بينهم من روابط لها طبيعة خاصة ومُتَمَيِّزة.

ـ وبمعنى أننى أعرف أن الأمين العام للجامعة العَرَبية لا يَصنع سياسة ـ وإنما هو فى حدود «المشتَرَك» بين الدول الأعضاء فى الجامعة مَسئولٌ عن التحضير والتجهيز ومتابعة التنفيذ بما يَخدم المتَّفَق عليه ضِمن «المشتَرَك» ويُنَظِّم حُسن أدائه.

لكننى مع ذلك أعرف أن لدى «عمرو موسى» مَزايا لم تَتَوَفَّر لآخرين:

١ ـ فهو يَجىء إلى مَنصبه كاختيار إجماع لم تَتَخَلَّف عنه دَولة عَرَبية واحدة.

٢ ـ وهو يَجىء إلى مَنصبه ومعه قَدرٌ واضحٌ من الرضا العام يُضيف مَعنوياً إلى قُدرته.

٣ ـ وهو يَجىء إلى مَنصبه بدَرَجة عالية من الكفاءة والحَيَويَّة.

٤ - وهو يَجىء إلى مَنصبه فى ظرف تَستَشعر فيه الأمَّة خطراً على وجودها ذاته، ومن ثم فهى مُستَعِدَّة لأن تَسمَع وقابلة لأن تَستَجيب.

وهذه المزايا كلها لا تُعطى لـ«عمرو موسى» «سُلطة» لا يَمنحها له الميثاق - لكنها تُعطيه «حق» أن يَتكَلَّم دون أن يَتَلَعثم، وأن يُبادر دون أن يَنظر خلفه، وأن «يُوصى» دون أن يَستَسلم، وأن يَعتَذر عن الولاية والوصاية وفى المقَدِّمة ولاية ووصاية «دولة المقَر»، التى نَسيَت نفسها مرات وتَصَوَّرَت أن الجامعة العَرَبية «إدارة أخرى» من إدارات الدولة المصرية، وساعَدَها على الوَهم وجود المقَر فيها، وواقع أن كل الأمناء العامين للجامعة - باستثناء واحد لا يُقاس عليه - كانوا من مُواطنيها، والغريب أن ذلك كان إصرارها دون نَصٍّ فى الميثاق !

أمَهِّد بذلك وفى اعتباري أن مصر - ودُوَلاً عَرَبية غيرها - على وشك أن تُشارك فى مؤتمر على مستوى القمَّة لتَنظيم دَولى يُطلَق عليه وَصف «الفرانكوفونية»، وهذا التنظيم الدولى يَعقد قِمَّته - فى أكتوبر القادم - لأول مرة فى عاصمة عَرَبية هى بيروت، لدَواعٍ لا تَبدو - لى ولغيرى - مَفهومة، ولمقاصد لا يَظهَر فيها للأمَّة نَفعٌ.

ومُؤدَّى ذلك أنه مرة أخرى سنة ٢٠٠١ يَستَمر الشرود عن نظام السِرب العَرَبى، وتَتَبَعثر أجنحته كلٌّ منها مُستَسلمة لريح !

وفى بعض الأحيان يَتَبَدَّى لى أن مصر دَخَلَت تَنظيم «الفرانكوفونية» بالخطأ، أو بالتَوَرُّط، دون قَصد. وفى أحيان أخرى يَتَبَدَّى لى خلاف ذلك وتَعتَرينى الدهشة لأن الدول لا تَدخل فى تَنظيمات، إقليمية أو دَولية، إلا بناء على مَطالب من تاريخ أو مُستقبل، من أمن أو مصلحة، من زيادة فاعلية أو زيادة نفوذ - وأما بدون ذلك فإن الدولة الرشيدة لا تُضَيِّع وقتها، ولا جهدها، ولا هيبتها، إذ تَتَسَكَّع فى غير مَكانها وفى غير ما يَعنيها، وبلا سَبَب يُقنع أو هَدَف يُساوى.

□

والحاصل أن العالَم العَرَبى منذ بداية يَقظته الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - دَخَلَ وشارَك فى مُنظَّمات وَجَدَ نفسه فيها طبيعياً، ورأى مَطالبه منها جَلِيَّة واضحة، وقَصد من خلالها إلى ما يُريد واثقاً.

○ وكانت البداية أن الدول العَرَبية المستقلة سنة ١٩٤٤ تَقَدَّمَت وأنشأت بإرادَتها مُنَظَّمة إقليمية (الجامعة العَرَبية) مُعتَبرة ذلك تأكيداً لانتماء قومى أصيل - فيه التاريخ، وفيه اللغة، وأمَلاً فى شَراكة للمستقبل واسعة - فيها الاقتصاد والأمن، وفيها التعليم والثقافة، وفيها رَغبة فعل إقليمى مُؤثر يُساهم فى بناء عالَم تَتَطلَّع إليه البَشَرِيَّة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وفى وضوح فكر الأمة وعَزمها - فإنها رَفَضَت مَشروعات طُرِحَت عليها لتنظيم المنطقة إقليمياً وعَرَبياً. بينها مشروع حِلف للدفاع عن الشرق الأوسط فى نفس الصَف مع تركيا وإيران وباكستان. وبينها اقتراحات لمشروعات تَقوم إما فى إطار «الهلال الخصيب» تَدعو إليه بغداد ويَجمَع سوريا ولبنان والأردن (ولاحقاً تركيا)، وإما فى إطار «سوريا الكبرى» يَجمَع الدول العَرَبية السابق ذكرها ولكن تحت تاج هاشمى!

وقد سَقَطَت كل هذه المشروعات لأنها كانت حَملاً خارج الرَّحِم، ونَجَحَ مشروع الجامعة العَرَبية لأنه حَملٌ طبيعىٌّ.

ثم لَحِقَ بذلك أن الدول العَرَبية الأعضاء فى جامعة الدُوَل العَرَبية سنة ١٩٤٥ دَخَلَت فى النظام العالمى للأمم المتحدة - وكانت هى التى سَعَت للمشاركة فى تأسيسه بـ«إعلان سان فرانسيسكو» طامحة أن تُحَقِّق لنفسها مكاناً ووَزناً فى شئون عالَم ما بعد الحرب، قاصدة أن تكون مَوجودة عند وضع القانون الأساسى الذى يَحكُم مُجتمع الدول فى عالَم السلام القادم، وهو ميثاق الأمم المتحدة.

وبالفعل فقد جاء نظام الأمم المتحدة شاملاً للسياسة (الجمعية العامة ومجلس الأمن) - والاقتصاد (صندوق النقد الدولى والبنك الدولى) - ومَمتَداً إلى مَجالات أوسَع وأرحَب بعد ذلك من الثقافة والعلوم (منظمة اليونيسكو)، إلى الصحَّة (منظمة الصِحَّة العالمية)، إلى الطيران - إلى الرصد الجوى لسماء عالمية واحدة - وحتى توزيع مَوجات الإذاعة والتليفزيون (فى بداية ثورة الاتصال).

وفى إطار ميثاق جامعة الدول العَرَبية (على مستوى الإقليم) - وفى إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالَم) - كانت الأمَّة مُتَّسِقة مع نفسها، مُتَّسِقة مع عالمها،

مُعَبِّرة عن «هَوِيَّة» يَقوم عليها «وَلاء»، ومُعَبِّرة عن «مَصالح» تَتَرَتَّب عليها «التزامات» - ذلك أنه لا أحد فى هذا العالَم يَنتَمى خارج هَوِيَّته، أو يَنتَظِم خارج مصلحته.

□

وفى مرحلة الفَوَران التى اعترت العالَم أحلاماً وأفكاراً وطموحات بعد انتهاء الحرب العالمية - شارَكَت الدول العَرَبية أو بعضها - فى تَجَمُّعات استدعتها أسباب التَّكَيُّف والملاءمة، وخصوصاً حين بدا أن النظام الدولى الذى عَبَّرَ عنه قيام الأمم المتحدة يَنزع إلى نوع من الاستقطاب الحاد بين إمبراطوريتين: الولايات المتحدة الأمريكية - والاتحاد السوفيتى.

ووَقَعَ فى ذلك المناخ أن دُوَل آسيا وأفريقيا - وضمنها بعض الدول العَرَبية - تَنادَت إلى طلب التَّحَرُّر (وكان ذلك مَقصِد تَجَمُّع «باندونج») - ثم تَنادَت إلى طلب قرار مُستقل تَبتَعِد به عن الانحياز المسبق لهذه القوة الأعظم أو تلك (وكان ذلك مَطلَب حَرَكَة عَدَم الانحياز).

وفى ذلك المناخ أيضاً نشأ ما سُمِّىَ بالمؤتمر الإسلامى، وكانت مصر هى البادئة بالدعوة إليه بهَدَف ثقافى هو مُساعدة الموروث الإسلامى ليكون فاعلاً حضارياً فى عُصور انتقلت فيها مراكز التنوير إلى ما وراء البحار والمحيطات !

وبالتَّوازى مع المؤتمر الإسلامى - وَقَعَ لقاء دُوَل أفريقيا - وضمنها بعض الدول العَرَبية - ورجاؤه المساعدة على إنقاذ القارة السوداء من مَطامع تَتَرَبَّص بها، تَقصد حرمانها من سيادتها أو حرمانها من مَواردها !

وفى كل الأحوال فإن هذه التَجَمُّعات (فى آسيا وأفريقيا - وأمريكا اللاتينية فيما بعد) كانت أشبه ما تكون بالنوادى يتلاقى أعضاؤها، مع ملاحظة أن الناس لا يَشتركون فى النوادى تَطفُّلاً، وإنما لأنهم يَجدون فى إطارها مُتَّسَعاً لحاجات يَستَشعرونها، وهُم يَحملون بطاقات عُضويتها بالتحديد، دون أن يكون وراء ذلك - فى الواقع العَمَلى - ما هو أكثر من الاقتراب والانتساب.

ثم كان بجانب هذه التَجَمُّعات - النوادى - أن المصالح استدعت أشكالاً من التقارُب أوجَدَت ما يُشبه الاتحادات. وعلى سبيل المثال فقد كان طبيعياً أن تَتَقارَب الدول

المصَدِّرة للبترول مثلاً («أوبيك»)، أو أن تَتَقارَب دُوَل حوض النيل، أو الفرات، أو الأردن - لدَواعٍ مَحصورة فى حقل مُعَيَّن، أو بين ضفَّتين ظاهِرتين !

وكان هذا كله فى إطاره السليم: مَفهوماً، مَعقولاً - ومَقبولاً.

□

لكنه فى مَطلع السبعينات راحَ التنظيم العَرَبى الجامع - المعَبِّر عن الانتماء وعن المصلحة - يَتَراخى وتَنفلت منه أجزاء تَتَطايَر وتَشرُد.

- كانت البداية تَفاهُماً بين الملِك «فيصل» (السعودية)، والملِك «الحسن» (المغرب)، والشاه «محمد رضا بهلوى» (إيران) - على أن يَتَحَوَّل المؤتمر الإسلامى (الثقافى فى أصله المصرى) إلى منظمة سياسية جامعة للدول الإسلامية لها ميثاقها وإطارها والتزامها، ولم يكن القصد خالصاً لأن أقطار العالَم الإسلامى على اتساع القارات لا يَربطها على سبيل المثال أمن مُشتَرَك (لأنه يَصعُب ظهور تَهديد، ويَستَحيل قيام ضرورات أمن مُشتَرَك - يَستَدعى فِعل دفاع مُشتَرَك بين الملايو والمغرب، أو بين إندونيسيا وسوريا مثلاً) - وبنفس المقياس - وعلى سبيل المثال فإنه من الصعب تَحديد ضرورات مَصلَحة مُشتَرَكة (بين موريتانيا وأفغانستان، أو تركيا والسودان مثلاً)، وأسباب ذلك منطقية لأن «الإسلام» نورٌ عابرٌ للقارات مُتَجاوز للأوطان - والأمن ليس كذلك، والاقتصاد ليس كذلك، لأن كليهما له مَوقع وله حدود.

ثم كان أن أصبح «المؤتمر الإسلامى» السياسى بَديلاً مُوازياً أو مُكَرَّراً لجامعة الدول العَرَبية. وفى الواقع فإن «المؤتمر الإسلامى» قُصِد به أن يكون بَديلاً لجامعة الدول العَرَبية التى أخذتها الفكرة القومية إلى عَداء مُسَلَّح مع إسرائيل - وفى الحقيقة فإن هذا المؤتَمَر الإسلامى الجديد كان بذاته وصفاته مشروع «الحِلف الإسلامى» الذى طَرَحَته الولايات المتحدة استنساخا لـ«حِلف بغداد» بعد سقوطه سنة ١٩٥٨ !

والمهم أنه بإنشاء «المؤتمر الإسلامى» الجديد جرى اقتطاع جزء من التنظيم العَرَبى - المعَبِّر عن النظام العَرَبى - لصالح تَنظيم آخر اسمه «المؤتمر الإسلامى».

ولم يَعتَرض أحد، ولم يكن فى وسع أحد أن يَعتَرض، لأن تنظيم المؤتمر الإسلامى وَقَع بعد ظروف حَرب سنة ١٩٦٧ - وكانت الحَرَكة القومية العَرَبية مُقَيَّدة

فى فعلها ـ مَحصورة فى رَدٍّ فعلها ـ مُطالِبة بالتركيز على الأساسى، وتأجيل الفرعى، والتَحرُّك إلى أمام بغير انشغال بمَعارك جانبية.

□

ـ ومع بداية الثمانينات وَقَعَ اقتطاع آخر من الجامعة العَرَبية، فقد ظهَر إلى جوارها وبالإضافة إلى «المؤتمر الإسلامى» تَجَمُّعٌ ثالث جديد هو «مجلس التعاون الخليجى». وإذا كان «المؤتمر الإسلامى» قد اقتطع جُزءاً من وحدة التنظيم العَرَبى، فإن مجلس التعاون الخليجى ـ أحدَثَ تَقسيماً فى المصلحة العَرَبية، وفى الإرادة العَرَبية أيضاً. وأبسَط النتائج أن بعضاً من أهَمِّ عَناصر قوة الفعل العَرَبى خَرَجَت من صراع المستقبَل باحثة لنفسها عن رُكن من شبه الجزيرة العَرَبية تَظُنُّه مأموناً وبعيداً عن الصراعات ـ وكان ذلك إنكاراً للحقائق وللضرورات، لأن دُوَل الساحِل العَرَبى تُصبح بلا عُمق إذا انعزلت عن الداخِل العَرَبى ـ فالتاريخ ليس قشرة على سطح الجغرافيا، وإنما هو عِلاقة أطراف حَيَّة بجسم حَى !

□

ثم حَدَث قريباً أن العقيد «معمر القذافى» أعلن نظرية «الفضاءات» الحضارية، وظَهَرَ له أن العالَم العَرَبى ليس له «فضاء» حضارى ـ !ـ وإنما فيه عُنصرية عَرَبية تَحسب نفسها دُوَلاً ـ !ـ وهى جميعاً بلا أمَل فى المستقبل إلا إذا عَثرت لنفسها على «فضاء»، و«فضاؤها» هو أفريقيا التى أعاد العقيد «القذافى» اكتشافها، وأعلن تَوحيدها، وقَرَّرَ تنظيم دُوَلها فى اتحاد شامل تَتَرامى حدوده من «جوهانسبرج» جنوباً حتى «طنجة» شمالاً، ومن «داكار» غرباً حتى «دار السلام» شرقاً، ثم انتهز فُرصة القِمَّة العَرَبية الأخيرة فى عَمّان ودعا زملاءه من رؤساء الدول العَرَبية أن يَفيقوا من عُنصُريَّتهم، ويعودوا إلى رُشدهم، ويَلتَحقوا بالفضاء الأفريقى قبل أن يَسقُطوا من حساب القرن الواحد والعشرين، ويَتركهم التَقَدُّم وراءه بقايا من قرون سابقة» !

وكان ذلك مرة ثالثة ـ ورابعة ـ وخامسة ـ اقتطاعا لجُزء من قوة الفعِل والإرادة العَرَبية يُضاف إلى كل ما سَبَق ـ يَطرَح ولا يَجمَع، ويَقسم ولا يَضرب !

ـ وخلال ذلك ـ وعلى طول سنين ـ طرأت على الساحة العَرَبية مشروعات عَرَضَت نفسها دون قبول، وهى مَنسيَّة هذه اللحظة أو ضائعة.

□ بينها مشروع ـ مُعَلَّق ـ بعنوان الاتحاد المغاربى [الدُوَل شمال أفريقيا من تونس إلى المغرب، وهو حتى إشعار آخر حِبرٌ على وَرَق، ولعله يَظَل كذلك].

□ ومشروع ضاع ـ وكان يُطلق عليه اسم مجلس التعاون العربى [وقد ضَمَّ مصر والعراق والأردن واليمن ـ وكان مَشروعاً مَشئوماً من يومه، وربما أن الأثر الإيجابى المفيد لحَرب الخليج الثانية أنها أطاحَت به !]

□ ثم أطَلَّ على الساحة مشروعٌ آخر مُعَلَّقٌ بين النسيان والضياع، هو «مشروع الشرق الأوسط»، وصاحبه «شيمون بيريز». والفكرة المركزية فيه أن العَرَب ليست لهم هَويَّة أو مُستقبل غير المنطقة التى يعيشون فيها، وهذه المنطقة ليست لهم وَحدهم، وإنما لشركاء غيرهم فيهم إسرائيل وتركيا وكذلك إيران (عندما تَتِم تَصفية الثورة الإسلامية فيها بالطبع).

وكانت تلك كلها مُحاوَلات لم تَنجَح فى تَجاوز النظام العَرَبى الشامل، أو خَلق تَوازنات مُختَلِفة فيه بعد أن وَقَعَ انقسامه. ومن حُسن الحظ أنها جميعاً نُسِيَت أو تَعَطَّلَت.

وأخيراً، وفجأة، ومن المجهول، وبالانسياق ـ فى الغالب ـ أو بالانزلاق، ظَهَرَ على ساحة المنطقة مَشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية» ـ وهو مَشروع مُنظمة غريبة لا تُعَبِّر بالنسبة للأمَّة عن هَويَّة، ولا أمن، ولا مصلحة، ولا أمَل. ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمَّة لها ـ تَجتَمِع فى عاصمة من أجمل عَواصم الأمَّة العَرَبية، وأكثرها صلابة، وأغناها إسهاماً فى الثقافة العَرَبية.

وهنا يَبرُز سؤال: ما هى «الفرانكوفونية» بالضبط ـ تلك التى التحقنا بها ونحن لا نَعرف متى ؟ ـ وتلك التى نشارك فى اجتماعاتها ولا نعرف لماذا؟!

٢ ـ الإمبراطوريات تعوض عن القوة الضائعة:

ليس سِرًا خافياً على أحد أن مُنظمة «الفرانكوفونية» هى مُنظمة أقامتها «فرنسا» (ومَعناها الحرفى استنادا إلى قاموس «أوكسفورد» ـ «الصوت الفرنسى»)، ثم إنه

ليس خافياً أيضاً أن هذه المنظمة فى السياسة الفرنسية وفى تركيبة الدولة الفرنسية اختصاص مُوَزَّع بين رئاسة الجمهورية، ووزارة الخارجية، وبقايا وزارة المستعمرات، ثم - وهذا هو الأخطر - إدارة المخابرات الخارجية للدولة الفرنسية! (S.D.E.C.E.)

ومُؤدَّى ذلك ببساطة أن هذه المنظمة مشروع فرنسى، قامَت على إنشائه الدولة الفرنسية بسُلطتها، وتُوَجِّهه الدولة الفرنسية بأدَواتها، وتُديره الدولة الفرنسية بأجهزتها لبلوغ هَدَف ومَصلحة، وهذه طبيعة أشياء وحقائق أمور، لأن الدول الكبرى - وفرنسا بينها - تَصرف وقتها فيما يَنفَعها ولا تُضَيِّعه فراغاً أو هوايات!

وبالطبع فإنه من حَقِّ كل قُوَّة كبرى - بما فيها فرنسا - أن يكون لها مشروعها إذا تَمَكَّنَت إرادَتها، وإذا استطاعت مَواردها.

وفرنسا بالتحديد قُوَّة كبرى لها وَزنها ولها دَورها:

○ أوَّله فرنسا فى قلب أوروبا قُوَّة مُتَحَرِّكة واصِلة إلى أبعَد من غيرها لأنها صاحبة إسهام حضارى وثقافى، فكرى وفنى، لا يُضاهيه إسهام أوروبى آخر. وهى لذلك قيمة عالمية مُعتَرَف بها قبل أن تكون قُوَّة يُحسَب حسابها.

○ وثانيه أن فرنسا بحكم التَّقابُل عبر شمال البحر الأبيض وجنوبه لها مع العالَم العَرَبى علاقات مُتَشابكة وأحياناً مُشتَبكة - والبحر الأبيض بُؤرة الصراعات العالمية، وفرنسا على شاطئه الشمالى مُواجهة لضفته الأخرى وعليها الشرق الأوسط ووراءها أفريقيا.

وفى إطار هذا التشابُك والاشتباك كانت فرنسا طَرَفاً فاعلاً فى الحروب الصليبية، وكانت طَرَفاً فى سباق إمبراطورى دَعا واحداً من أكبر قُوادها وهو «نابليون بونابرت» إلى غَزو مصر. وبعد تَراجُع الغَزو تأرجَحَت فرنسا بين تأييد مشروع «محمد على» فى بدايته، وبين المشاركة مع القوى الأوروبية بعد ذلك فى ضربه وتَدمير أسطوله، وفرض مُعاهَدة سنة ١٨٤٠ عليه. وكانت فرنسا بعد ذلك إلهاماً للخديو «إسماعيل»، لكنها انضمت إلى بريطانيا فى وصاية على المالية المصرية، حتى وَقَعَ اقتسام النفوذ بين الاثنتين بالوفاق الودِّى فى «فاشودة» فانفردت بريطانيا بمصر،

وانفردت فرنسا بالمغرب. وتأكيداً لـ«فاشودة» اقتسمت فرنسا مع بريطانيا الإرث العَرَبى لدَولة الخلافة باتفاقية «سايكس بيكو» (بما فيها تَنفيذ وَعد بَلفور بوَطَن قومى لليهود فى فلسطين)، ثم كان ما كان من سياسات فرنسا على طول المسافة من الجزائر حتى السويس (١٩٥٦).

كل ذلك فى إطار التشابُك والاشتباك، وكله الآن تاريخ، والتاريخ ليس خِزانة مَحفوظات وإنما هو تَجربة حَيَّة عاشت بالأمس يَوماً وتعيش الآن غيره ـ مُدركة أن الحياة مُستَمرَّة، وحَرَكَتها صراعٌ بالاتفاق والاختلاف، لأن الدول لها مصالح ثابتة وسياسات مُتَغَيِّرة مع الظروف.

○ وثالثه أن فرنسا جُزء كبير من قُوَّة أوروبا. وأوروبا هى المركز المؤسِّس لحَيَوية وتَدَفُّق مَدَنيَّة هذا العصر، وإذا كان التَواصُل بين شمال البحر الأبيض وجنوبه مَطلوباً، وهو أكثر من مطلوب، فإن فرنسا كانت وتَبقى علاقة عَرَبية مَرغوباً فيها، خصوصاً عندما تكون العلاقة صِحِّية بالوضوح وبالشفافية.

○ ورابعه أن انفراد الولايات المتحدة بالقوة بعد سقوط الإمبراطوريتين الكبيرتين فى الشرق (الأوسط والأقصى) ـ يَدعو العَرَب وغيرهم أن يبحثوا عن حُلفاء وعن أصدقاء خصوصاً فى أوروبا. وفرنسا لأسباب عديدة صديق مُحتَمَل، وصَداقته نافعة، على أن يكون معنى الصداقة مَفهوماً للأطراف ـ مُحافَظاً عليه ومُحتَرَماً.

....

....

[وأتذكر عندما قَصَدتُ فى شهر سبتمبر ١٩٦٧ إلى باريس لموعد مع الرئيس الفرنسى الأشهر الجنرال «شارل ديجول» ـ إننى مَرَرتُ على «جمال عبد الناصر» فى طريقى إلى المطار أسمع آخر ما لديه قبل السفر. فلم تكن باريس يومها سياحة أو صحافة، وإنما كانت رسالة سياسية من مصر إلى فرنسا. وأذكر ما قاله لى يومها وبنَصِّه تقريباً:

«نحن فى حاجة إلى دولة أوروبية كبرى لكى نجد لأنفسنا جسراً إلى الغرب، وإلا فقد نَجِد أنفسنا (وَسَط هذه المعركة) ـ مع الاتحاد السوفيتى وَحده. إن الاتحاد

السوفيتى مفيدٌ لنا عسكرياً واقتصاديا - لكن وجودنا معه وَحده فى هذه الظروف ضارٌ بصورَتنا أمام العالَم الآن، وضارٌ بحقيقة موقفنا فى المستقبل، ولهذا نحتاج إلى جسر مع أوروبا.

وفرنسا هى الجسر المعقول - لأن بريطانيا حَليفٌ مُخلص للولايات المتحدة - وألمانيا ما زالت بَعد غير قادرة.

وإذن فرنسا هى المرشح الأصلح. و«ديجول» الذى يُلهم فرنسا بنوع من استقلالية القرار تَستَعيد بها مجدها القديم - هو بالنسبة لنا رَجُل فى مكانه وفى وقته.

وحتى إذا لم تكن فرنسا بالفعل مُستعدَّة، وحتى إذا لم يكن «ديجول» مُتَفَهِّماً بقدر كافٍ لمواقفنا - فإن فرنسا هذه اللحظة ضرورية».

أضاف «جمال عبد الناصر» بنبرة لها معنى:

«أريدك أن تعرف أنه إذا كانت فرنسا غير مُستعدَّة - فعلينا أن «نَختَرعها»..

وإذا لم يكن «ديجول» مُتَفَهِّماً لمواقفنا فعلينا أن نَتَصَرَّف على أساس أنه مُتَفَهِّم، وذلك بالممارسة سوف يُحدِث أثره ويَصنَع حقائقه».

وفى قصر «الإليزيه» - فى اليوم التالى - كان من حُسن الحظ أننى وَجَدتُ فرنسا - لأسبابها - مُستعدَّة، و«ديجول» - بتجربته - متفهما.

وهكذا فإن «جمال عبد الناصر» دَعا فرنسا إلى دور فى أزمة الشرق الأوسط - وتَقَدَّمَت فرنسا للدور (تَعتَبره مُقَدِّمة وراءها ما وراءها، وكذلك تَفعَل القوى الكبرى إذا قبلت دَعوة ووَجَدَت فرصة).]

....

....

ثم حَدَث أن فرنسا ومع الدور الذى ارتآه «ديجول» حاولَت وما زالت تُحاول أن تَتَّخِذ لنفسها خطاً مُختلِفاً، تَتَحَرَّك عليه باستقلالية - ولو نسبية - وضِمن أغراضها

أن تَتَوَقَّى هَيمَنَة أسلوب الحياة الأمريكى وطغيانه على الدنيا - وذلك الخَط الفرنسى المختِلف مَجهودٌ يَستَحق التكريم، ويَستَوجب الاحترام، ويَستَحق المساندة.

على أن ذلك كله جزء من الحقيقة.

وبقيَّة الحقيقة ولا يَصح نسيانها - أن فرنسا قوة عُظمى، وكانت ذات يوم وإلى عَهد قريب إمبراطورية كبرى، ثم ضاعَ منها ما كان من أملاكها - لكن القوى الكبرى إذا فَقَدَت مجالها الإمبراطورى لا تُهَرول بالانسحاب، وإنما تُحاول التعويض، وذلك مَنطِق القُوَّة - وشخصيتها كذلك.

والشاهد أن بريطانيا حين فَقَدَت الإمبراطورية جَرَّبَت التَعويض عنها - فى ظروف مُتَغَيِّرة - بالكومنولث - وكان الرابط فيه هو الجنيه الإسترلينى «يُلَملِم» عَشرات من الدول كانت يوماً حَبَّات عُقد واحد. وتَوَصَّلَت حِكمة الإمبراطورية إلى «أنه مع انفراط العُقد فليس ضرورياً أن تَتَبَعثر الحَبَّات وتَتَدَحرَج».

وكان المثال البريطانى مُؤثراً على خيال الجنرال «ديجول» بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد حَرَّكَه الخيال وحِكمة التجربة القديمة إلى فِكرة التعويض عن الإمبراطورية. وتَوَلَّدَ لدى «ديجول» اعتقاد بأن فرنسا تحتاج إلى «مَثيل فرنسى» للكومنولث البريطانى، وبما أن الفرنك الفرنسى لم يكن وقتها فى قوة الجنيه الإسترلينى - فإن اللغة الفرنسية طَرَحَت نفسها بديلاً للإسترلينى تُضيف إلى القوة الفرنسية وتدعمها بـ«عَظَمة الثقافة» التى تحتويها هذه اللغة. وكان حُلم «ديجول» أن تكون «اللغة والثقافة الفرنسية» قادرة على خدمة «عَظَمة الدولة الفرنسية» (وربما أن ذلك كان تأثير صَديقه ووَزيره «أندريه مالرو») !

هكذا وعند أواخر عَهد «ديجول» - قبل أن تَهل السبعينات - بَدَأت قِصَّة ما سمَّى مُنَظَّمة «الفرانكوفون» - «فرنسا - الصوت الفرنسى - اللغة الفرنسية».

أى أنه مَشروع فرنسى. هَدَفه أن يُعَوِّض القُوَّة الإمبراطورية الفرنسية. وقاعِدته وسلاحه اللغة الفرنسية - حاملة الثقافة الفرنسية، ومن اللغة والثقافة إلى ما بعدهما حَسَب ما تَسمَح به الظروف وتَحتَمله الإرادة.

كذلك كانت نشأة المنَظَّمة. وذلك هَدَفها. وبالتالى تَحَدَّدَ مَوضعها عند نقطة مُعَيَّنة،

فى مَوقع مُعَيَّن من تركيبة الدولة الفرنسية بين الرئاسة - ووزارة الخارجية - ووزارة الدفاع - وبقايا وزارة المستعمرات - ثم إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية (D.E.C.E.).

□

وحين أعلِن ميلاد المَنَظَّمة («الفرانكوفونية») رَسمياً سنة ١٩٧٠ - كان «ديجول» قد اعتزل وتَرَك قصر «الإليزيه» لـ«جورج بومبيدو» (صديقه ومُعاونه ونائبه فى رئاسة حزبه) - وقد حَدَث الميلاد أثناء انعقاد مُؤتمر تَمهيدى للدول الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية - وكلها بالطبع من المستعمرات الفرنسية السابقة. وكانت شهادة الميلاد اقتراحا من رؤساء ثلاث دُوَل شاركت فى اجتماع عُقِدَ فى «نيامى» عاصمة «النيجر»، يَحمل توقيع الثلاثة وهُم «ليوبولد سينجور» رئيس السنغال، و«الحبيب بورقيبة» رئيس تونس، و«هامانى ديورى» رئيس النيجر (وهى البلد المضيف للاجتماع).

ثم انتقلت مسئولية المنظمة الوليدة إلى الحكومة الفرنسية بوزاراتها وإداراتها وأجهزتها (بما فيها المخابرات)، وقامت الخارجية الفرنسية على وضع ميثاق لها يقول بغير التباس أن «الهَدَف من المَنَظَّمة الجديدة هو تَجميع الدول المُتَكَلِّمة باللغة الفرنسية (المستعمرات الفرنسية السابقة) حتى تَعمَل معاً فى مجالات تطوير الثقافة، والتعليم، والعلوم والتكنولوجيا». ثم أضيف إلى ذلك هَدَفٌ جرى التعبير عنه بأسلوب شاعرى وهو أن تكون المَنَظَّمة «حارساً للغة الفرنسية» (حتى لا تقوم اللغة الإنجليزية بقهرها وتَهميشها).

□

لكن المنظمة الجديدة تَخَلَّفَت عن النمو لأسباب:

١ - إن عَدَداً من المستعمرات الفرنسية السابقة خصوصاً فى العالَم العَرَبى - بالذات سوريا فى المشرق العَرَبى، والجزائر فى المغرب العَرَبى - تَخَوَّفَت من المشروع واعتبرته مُحاولة «لإعادة الروح» إلى الإمبراطورية الفرنسية التى سَقَطَت على المسافة ما بين الجزائر والسويس. وكان رأى سوريا والجزائر فى ذلك الوقت أن «الثقافة شَلال قَوى مُتَدَفِّق بحَيَوِيَّة إنسانية تَتَحَرَّك به من لغة إلى أخرى، كما أن المحتوى

الثقافى للغة الفرنسية عالَم تأثر بغيره وأثر فيه، وحتى إذا كانت اللغة وعاء الثقافة فإن كل لغة تُراث عالمى شائع لا يَحتاج إلى وصاية دَولة».

٢ - إن الطابع الفرنسى لإقليم «كويبيك» - فى كَنَدا - أثارَ مشكلة عويصة أمام المَنَظَّمة الجديدة، لأن كَنَدا كلها عُضوٌ مُهِمٌّ وبارزٌ فى منَظَّمة الكومنولث البريطانى، ولا يَعقل أن يكون البَلَد كله فى الكومنولث ثم يَلتَحِق إقليم منه مُستَقِل بدَعوى طابعه الفرنسى ويَنتَمى إلى مُنَظَّمة مُنافِسة هى «الفرانكوفونية».

ومن الغريب أن هذه المشكلة ما زالت قائمة حتى الآن، وإلى دَرَجة أنه عندما ذهَب السكرتير العام لمَنَظَّمة الفرانكوفون (الدكتور «بطرس غالى») لزيارة إلى كَندا، وَقَعَت مَشادة بين ولاية «كويبيك» (فرنسية الطابع) وبين الحكومة الكَنَدية (عُضو الكومنولث) - أيهما يكون المضيف الرسمى للسكرتير العام الزائر (دَولة الكومنولث - أو إقليم الثقافة الفرنسية) ؟!

٣ - إن كثيرين تَرَدَّدوا فى الاعتراف بالمَنَظَّمة الجديدة على أساس «مَحدوديَّة اللغة الفرنسية»، وتَقدير هؤلاء - وهو صحيح - أن اللغة الفرنسية رغم ثرائها تَقع فى المرتَبَة التاسعة بمِقياس الانتشار، لأنه فى اتساع التداوُل العالمى قبلها، ثمانى لغات غيرها هى: الصينية، والإنجليزية، والهندية، والإسبانية، والروسية، والعَرَبية، والبنغالية، والبرتغالية.

٤ - وأخيراً كان هناك سَبَبٌ رابع - أهَمُّ الأسباب - ومُلَخَّصه أن الحكومة الفرنسية لم تكن لديها الموارد التى تمكنها من الصرف على المَنَظَّمة وفتح الطريق أمامها حتى تُنافس الكومنولث البريطانى على الأقل، وفى تلك الأيام شاعَ فى المجتَمَع الدولى وَصفٌ لمَنَظَّمة «الفرانكوفونية» يَعتَبرها: «مُنَظَّمة ذات «شُهرة» متواضعة و«سُمعة» أكثر تواضعاً!»

□

ولعل السَّبَب الذى استدعى ذلك الوصف القاسى أن مُنَظَّمة «الفرانكوفون» زادَ اقترابها من إدارة المخابرات الخارجية - والسَّبَب العَمَلى أن الاتحاد السوفيتى فى أواخر الحَرب الباردة اتخذ من أفريقيا ساحة لهجومه الأخير، وبتركيز على

المستعمرات الفرنسية السابقة التى تأثر زعماؤها بالماركسية وانتمى عَدَدٌ منهم فعلاً إلى الحِزب الشيوعى الفرنسى عندما كانوا طَلَبَة عِلم فى باريس (وبينهم رجال من أمثال «سيكوتورى» زعيم غينيا، و«موديبو كيتا» زعيم مالى، وكلاهما لم يكن عُضواً نشطاً فى الحِزب الشيوعى الفرنسى وحسب، وإنما استطاع أن يُصبح زعيماً نقابياً له سَطوَته).

٣ ـ رَجُل باريس القوى فى السبعينات:

فى سبتمبر ١٩٧١ كنت فى فرنسا لزيارة عَمَل، فقد كانت الطبعة الفرنسية من كتابى عن «جمال عبد الناصر وعلاقاته الدولية» على وشك أن تَظهَر تحت عنوان «وثائق القاهرة» عن دار «فلاماريون» للنشر، لكن الزيارة أحاط بها مَناخ أضفى عليها ما زادَ على حقيقتها.

وكان السَّبَب أنه شاعَ فى الولايات المتحدة وفى أوروبا أننى ـ فى ذلك الوقت ـ الصديق الأقرب إلى الرئيس المصرى الجديد «أنور السادات» ـ وأننى كنت أحد الجسور التى انتقلت عليها الرئاسة إليه من سَلَفِه («جمال عبد الناصر») ـ (وكان ذلك ما دعا جريدة مثل «النيويورك تيمس» أن تَنشر مقالاً بعَرض سَبعة أعمدة عنوانه «الرَّجُل الأهَم الثانى فى مصر» ـ وكنت المقصود به. ورغم أننى حاولتُ أن أصَحِّح، فإن كثيرين تَصَوَّروا أن التصحيح «تَواضُعٌ» !)

والشاهِد أننى أذكر ذلك لأن وقائع ما سوف أسرده فيما بَعد تَرَتَّبَت على هذا الانطباع رغم كل ما حاولت ـ وعليه فقد لاحَظتُ أثناء تلك الزيارة لفرنسا اهتماما غير عادى تَبَدَّى فى الترتيبات وفى المراسم، وبين ما لاحظته أننى طلبت مَواعيد مع عَدَدٍ من الناس، لكن ما تَحَدَّدَ لى تَجاوَز ما طلبتُه، وهكذا وَجَدتُ لى مواعيد تَحَدَّدَت مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، وحتى وزير الاقتصاد وهو فى ذلك الوقت «جيسكار ديستان» الذى أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية.

ومع أنى شديد الاعتزاز بمِهنتى، فلم يكن فى مَقدورى أن أتَجاهَل حقيقة أن بعض ما ألقاه «رَسمى» أكثر منه «صَحَفى».

□

وحَدَث يوم ١٢ سبتمبر (١٩٧١) أن زارنى لفنجان شاى حيث كنت أقيم فى فندق «الكريون» (على ميدان «الكونكورد» وفى مواجهة المِسَلَّة المصرية الشهيرة فى وَسَطه) - عَدَدٌ من المهتمين بالفكر والنَشر - أربعة أو خمسة (فقد سَجَّلتُ المناسبة فى أوراقى ولم أسَجِّل العَدَد) - وكانت بينهم صديقة عَزيزة هى الكونتيسة «تيريز دى سان فال»، وهى سيدة من أسرة عريقة جَذبَتها عوالِم الثقافة فاقتربت واهتمت.

وانتهى اللقاء، وبينما كنا نخرج (من الصالون الوحيد الذى بقى على حاله من عَهد صاحب القصر - الذى تَحَوَّل إلى فندق - وهو «الدوق الماريشال دى كريون» صديق «هنرى الرابع» وصَفيُّه) - أمسكَت «تيريز دى سان فال» بيَدى وأخَذتنى جانباً لتقول لى هَمساً: «ابن عَمِّى يريد أن يقابلك.. وقد طَلَبَ منى أن أرَتِّب له مَوعداً معك بعيداً عن الإطار الرسمى. وكان يستطيع أن يَطلب تَحديد مَوعِد معك بواسطة وزارة الخارجية، لكنه فَضَّلَ أن تَصِل إليك رَغبَته بطريق غير رسمى».

ولاحَظَت الكونتيسة «دى سان فال» أننى أحتاج تَفصيلاً أكثر، فأضافت دون سؤال: «ابن عَمِّى مسئول كبير فى الدولة وهو الكونت ألكسندر دى مارانش».

ووقتها كان هذا الاسم جديداً علىَّ وغريباً تماماً، لكننى لم أجد فى جِدَّة الاسم وغُربته ما يَدعونى إلى الاعتذار عن طَلَب اللقاء خصوصاً وقد جاءنى من صديقة عزيزة عرفتها من قبل زمنا طويلاً.

وصباح اليوم التالى - الساعة العاشرة صباحاً - كنت أنتظر زائرى فى القاعة الصغيرة الأخرى المواجهة لصالون «الدوق الماريشال دى كريون» - وكانت تلك القاعة الصغيرة ما تزال أيامها مكتبة أصيلة عتيقة، موحية - بكل محتوياتها وبينها الكتب صفوفاً على الرفوف - بنوع من الكبرياء والجلال (ومن سوء الحظ أنها تَحَوَّلَت فيما بَعد إلى دُكَّان لبيع التُحَف والتذكارات). ولاحَظتُ من حيث كنت جالساً - أنتَظِر ضَيفى - حَرَكة بَدَت لى غير عادية عند مَدخل الفندق، لكننى لم أتوقف مع ما لاحظتُ طويلاً، فالفندق هو: المقَر الرسمى الذى تختاره الحكومة الفرنسية لضيوفها، ومن الطبيعى أن يكون نُزلاؤه ممن يُستَقبلون بحَرَكة غير عادية عند مَدخله. ثم وَصَلَ الرَجُل الذى كنت أنتظره، وقَدَّم لى نفسه: «ألكسندر دى مارانش، من مساعدى رئيس الدولة».

وبالمظهر والحَركَة والإيماءة بدا لى الرَّجُل أرستُقراطياً إنجليزياً أكثر منه أرستقراطيا فرنسيا. وكنت قَدَّرتُ للقائنا نصف ساعة، لكن زائرى كان عارفاً ومُطّلعاً ومُشوِّقاً إلى دَرَجة أننا جَلَسنا معاً ساعة ونصف الساعة ولم أنتبه إلى مرور الوقت. وحين خَرَجتُ بعد انتهاء اللقاء أوَدِّعه إلى باب الفندق، لم يكن فى مقدورى أن أتجاهَل حَجم «الضَجَّة» التى أثارها مَجيئه وانصرافه، فمدير الفندق نفسه كان واقفاً فى الانتظار ومعه مُساعده (الأستاذ «عزيز جرجس» وهو مُحاسِب مصرى كُفء هاجَرَ إلى فرنسا مُبكِّراً)، كما أن هناك جماعة من الرجال كانوا مُتَناثرين عند مَدخل الفندق وقد تَجَمَّعوا مع خروج «ألكسندر دى مارانش»، وأحاطوا بسيارته حتى انطلقت إلى زحام «الكونكورد».

والتفت إلى مدير الفندق وسألته عن داعى ذلك الاهتمام كله ؟ وسألنى الرَّجُل باستغراب: «ألا تعرف مَن كان زائرك ؟» - قلت: «أعرف اسمه، وعَرَفتُ منه أنه من مساعدى الرئيس».

وهَمهَم مدير الفندق على الطريقة الفرنسية: «آ... هم» - ثم تَرَدَّدَ قبل أن يقول:

«سيدى.. هذا أقوى رَجُل فى فرنسا. ومع ضَعف الأحزاب السياسية، ومع تَرَدِّى الإدارة الحكومية كما هو الواقع الآن - فإن الكونت ألكسندر دى مارانش «أهَم رَجُل» فى الدولة الفرنسية، هو مدير «المخابرات الخارجية» لفرنسا».

ثم أضاف بعد وَقفة قصيرة: «المخابرات الخارجية لفرنسا - والداخلية أيضاً.. إذ كيف يمكن - يا سيدى - أن تفصل الخارج عن الداخل؟»

□

وفى السفارة المصرية فى باريس ذات اليوم سمعتُ تأكيداً لوَضع «ألكسندر دى مارانش» على هَرَم السُّلطة فى باريس عند الذروة أو قربها. ومَرَّ علىَّ فى الفندق مسئول مصرى كنت أعرف أنه حلقة اتصال لها دورها فى علاقات أجهزة المخابرات المصرية مع غيرها من أجهزة المخابرات فى فرنسا وحولها، وكان بوسائله قد عَرَف بزيارة «دى مارانش» لى، وزادَ بما لديه فى تعريفى بأهمية زائرى!

□

مساء نفس اليوم عادَت الكونتيسة «تيريز دى سان فال» تتصل بى تليفونياً لتقول أن «ابن عمِّها» يريد دَعوتى فى مكتبه لأن لديه ما يَوَدُّ إطلاعي عليه والحديث معى فى شأنه، وقد طَلَبَ إليها أن «تجس النبض» لتتأكَّد من قبولى قبل أن يُجازف بالاتصال ليُوَجِّه الدعوة ، وعَلَّقَت «تيرين»: «الحقيقة أنك قد ترى مناسباً أن تَرُدَّ له الزيارة».

ومساء اليوم التالى - ١٤ سبتمبر - كنت «أرُدُّ الزيارة» للكونت «ألكسندر دى مارانش» فى مكتبه.

وأترك وَصف إجراءات الزيارة - ووَصف مَقَر إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية S.D.E.C.E - ووَصف مكتب مديرها القَوى - لأن ذلك مما يَطول شرحه، ويَخرج عن سياق الموضوع - لأركِّز أكثر على كلام «ألكسندر دى مارانش».

....

....

بعد دقائق من بدء اللقاء لَمَسَ الرَّجُل زرًا أمامه، وأضاءت ورائى خريطة بالألوان استدرت لأراها بناء على طلبه. وكانت الخريطة لمواقع إنتاج البترول فى أفريقيا وآسيا على عَرض المسافة من أنجولا على المحيط الأطلنطى وحتى الملايو على بحر الصين. وكان أهم ما فى الخريطة تلك الخطوط العريضة والأقل عَرضاً للطرق الرئيسية والفرعية لمواصلات البترول من منابعه إلى موانئ أوروبا، وخصوصاً «روتردام».

وقال لى «دى مارانش» وهو يُلفت نظرى إلى هذه الطرُق لشبَكَة نَقل البترول - أو حَرَكَة الدَورة الدَّمَوية لاقتصاد الغرب - كما سَمَّاها - ما مُلَخَّصه: «سوف أطبع لك نُسخة من هذه الخريطة، خُذها معك وادرسها على مهل، ودَقِّق فى مفاتيح الخريطة وأرقامها، وستَشعُر بخطورة ما أريد أن أشرحه لك».

□

وقلتُ لـ«ألكسندر دى مارانش»: «ثم ماذا؟»

وكانت تلك دَعوة له يَشرَح ويَستفيض، ولم يَتَرَدَّد، فقد كان ذلك قصده ومَطلبه من دَعوَتى إلى مكتبه، وكان مُلَخَّص ما قاله:

١ - إن العالَم العَرَبى - بترولِه ومَوقعه - قَضيَّة كبرى بالنسبة للغرب: أمنه واقتصاده.

٢ - إن البترول فى الواقع - وبسبب إغلاق قناة السويس منذ سنة ١٩٦٧ - يَدور حول أفريقيا على خطين: من الجزائر - إلى سيراليون - إلى نيجيريا - إلى أنجولا - ثم يَلِف حول «رأس الرجاء الصالح»، وهناك يَلتَقى بالمحيط الهندى ذاهباً وعائداً - هذا خط. وخط ثان أهم وهو من الخليج العَرَبى وإليه طالعاً على البَرِّ من البَصرة إلى الموصِل، ومن الموصِل إلى القوقاز. ورأى «دى مارانش» فى النهاية أن هذه الدائرة نزولاً فى الأطلنطى إلى «رأس الرجاء الصالح»، وصعوداً من هناك إلى المحيط الهندى، ونفاذاً من البصرة إلى القوقاز - هى الدائرة التى يَتَعَلَّق بها مصير العالَم وتَجرى من حولها صراعاته، وأنه فى داخلها ومن حولها تَتَرامى كل المواقع الحسَّاسة والمكشوفة والمعَرَّضة للخطر.

٣ - وحماية البترول وتأمين مواصلاته يمكن فى أحوال عادية أن تكون مسئولية أمريكية - أوروبية، لكن المشكلة أن أمريكا غارقة فى المستنقعات الدَّمَوية لفيتنام، ثم إن أوروبا ليست واعية بما فيه الكفاية. قُوَّة بريطانيا شاخَت. وقوة ألمانيا فى طفولتها. وهذا يُعطى مسئولية أوروبا لفرنسا بالدَّرَجة الأولى.

٤ - وفرنسا لا تستطيع أن تقوم بالمهِمَّة وحدها، ولا تريد أن تقوم بالمهِمَّة وحدها، وإنما تريد شراكة مع العالَم العَرَبى تَقودها مصر وهى أكبر الدول العَرَبية. واعتقاده - وهو يريد أن يَسمَع تأكيداً له - أن مصر مُهَيَّأة للتعاون مع فرنسا أكثر من أى دَولة عَرَبية أخرى - كما أن فرنسا أكثر من جاهزة للتعاون مع مصر بحكم علاقات مُتَوَسِّطية زادت قرباً بصِلات ثقافية بَدَأت من «نابليون» وقُدومه - !- إلى الموقع الذى اعتبره وبحَق - بتأكيد «دى مارانش» من جديد - «أهم موقع على خريطة الدُّنيا» !»

□

وكنت أريد أن أسمع «ألكسندر دى مارانش»، وقد ألزمتُ نفسى بحزم ألاّ أتَدَخَّل فى مَجرى حديثه إلا بالقدر اللازم لاستمرار تَدَفُّقه. ولم يكن غافلاً عن قَصدى، فقد أدرك بحاسته أننى أريد أن أسمع فقط، ولم يكن يمانع. ومرة أخرى كان ذلك ما يُريده وما يَطلبه من لقائنا. وكذلك كَرَّرتُ له نفس ما سمعه منى سابقاً: «ثم ماذا؟»

واستطرد «دى مارانش» يسألنى بما مُلخَّصه:

«هل تظن أن الرئيس السادات على استعداد لأن يَتَعاوَن مع فرنسا ؟ نريده أن يَثِق أننا معه بأكثر مما قد يَظُن».

ثم واصَلَ حديثه يَعِدُّ أسبابه:

أوّلاً - «نحن وأنتم مُتَّفقون على أن الاتحاد السوفيتى موجود فى المنطقة ويُؤيِّد العَرَب ليس حُبًا فيهم أو كراهية فى إسرائيل - وإنما هو هناك يُساعد لأنه يَطلُب الموقع - وثرواته (مَنابع البترول) - وخطوط مواصلاته من حول أفريقيا وحتى المحيط الهندى. والمياه الدافئة كما تَذكُر كانت حُلم «بطرس الأكبر» - وهى أحلام كل قَيصَر روسى من يومها وحتى الآن.

ونحن لدينا معلومات كافية عن طلبات الرئيس «السادات» من أصدقائه السوفييت (قالها وابتسم) - نعرف أنه يَطلُب وأنهم لا يُلَبُّون طلباته، ونعرف أنه مُتَضايق».

ثانياً - «نحن ساعدناكم فى السلاح بأكثر مما تَتَصَوَّرون. وإذا كنتم تتصورون أننا تَعاقَدنا على أكثر من مائة طائرة من طراز «ميراج» لليبيا دون أن نعرف أنها فى الحقيقة لكم (لمصر) - فإنكم تَقَعون فى خطأ كبير. لقد كنا نعرف، وعندما جاءتنا بعثة المشتروات الليبية الأولى كنا مُتأكِّدين أن رئيسها البريجادير «حسن مطاوع» ضابطٌ رفيع الرتبة فى سلاح الطيران المصرى، ومع أنه جاء إلى باريس هو ووفده بجوازات سفر ليبية، فقد كنا على عِلم - حتى قبل أن يلفت الأمريكان والإسرائيليون نظرنا - بأنها جوازات مصنوعة لهذه المهِمَّة - وقد استطعنا الحصول على الجوازات الأصلية المصرية. كنا على عِلم - على يَقين. لم يَخدَعنا أحد وإنما عرفنا الحقيقة من اللحظة الأولى، ومشينا فى اللعبة حتى نبيع لليبيا - أو لكم - مُقاتلة قاذفة حديثة طلبتموها من موسكو وبَخَلَت بها عليكم».

....

....

استطرد الكونت «ألكسندر دى مارانش» وكأنه يَرُدُّ على تَساؤلات طَرَحَت نفسها على خَواطرى، واستشعرها بحَواسه - فقال:

«لا أريد أن أخدَعَك وأصَوِّر لك المسألة لتبدو مساعدة لكم فى الحرب ضِدَّ إسرائيل. ذلك أبعد ما يكون عن تفكيرنا.

لقد قبلنا بالصفقة مع ليبيا ونحن نعرف أنها فى الحقيقة لكم - قبلنا لأربعة أسباب:

- إن الصفقة من الناحية الاقتصادية مُجزية ونحن نريدها.

- وإن الصفقة تَفتَح للصناعة الفرنسية فُرَصاً فى سوق المنطقة، ونحن نسعى إليه.

- إن دخول السلاح الفرنسى إلى المنطقة يُعطينا على مائدة «التسوية» مِقعَداً.

- ثم إننا شِبه مُتَأكِّدين أن المخاطرة مَحسوبة لأن طائراتنا لن تُشارك فى معركة، لأننا نعتقد أن الأزمة لا تَحلها الحَرب».

....

....

ومَضَت لحظة صَمت، وواصَل «دى مارانش» عَرض أسبابه:

«ثالثاً - إن فرنسا اتخذت موقفاً حيال إزاء أزمة الشرق الأوسط يَختلف عن موقف أمريكا وبريطانيا، وأنتم فَتَحتُم صفحة جديدة معنا من أيام «ناصر»، وأنت بنفسك جئت وقابلت الجنرال «ديجول»، ولم أجد فى سجلات «الإليزيه مَحضَراً تَفصيلياً للمقابلة، ولكنى وَجَدتُ مُلَخَّصاً لها واضحاً فيما يَعنيه - مُؤَدَّاه: «إنكم تريدون فتح صفحة جديدة مع فرنسا».

رابعاً - سواء تَوَصَّلتم إلى حَلٍّ سلمى مع إسرائيل أو لم تَتَوَصَّلوا فإن هذه الأزمة سوف تَجِدُ حَلاً لنفسها قريبا - سنة - سنتان - لا أستطيع أن أقَدِّر تماماً - لكنه بعد هذه الأزمة يَتَعَيَّن على مصر أن تمارس دورها إيجابياً فى المنطقة وفى العالَم. ظروف سنة ١٩٦٧ ألزمَتكم سياسياً بموقف دفاعى - سَلبى - لكنه بعد انتهاء هذه الأزمة عليكم أن تَستأنفوا دَوركم، ولكن دَعنى أقول لك بصراحة أن دَوركم فى

المستقبل لا بد أن يَختلف عن دَوركم فى الماضى، والسبب بسيط وهو أن «السادات» غير «ناصر»، ثم إن الزمَن القادم يَختلف عن الزمَن الماضى».

□

قلت للكونت «دى مارانش»: «ما زال سؤالى المتكَرِّر فى هذا اللقاء قائماً مُعَلَّقاً فى الهواء: ثم ماذا؟»

وقال الرَّجُل بأمانة احترمتها فيه:

«أفهمك جيداً.. أنت لا تريد أن تُلزم نفسك برَدٍّ على ما أقوله لك.. ولا حتى برَدِّ فِعل لما تَسمعه منى. تريد أن تَحتَفظ لنفسك بموقفك. حسناً. (Bon) ذلك حقك!»

واستأنف حديثه طارحاً مُقتَرَحات على شكل أسئلة:

ـ «ما رأيك مثلاً فى فِكرة «عَمَل مُشتَرَك» نقوم به معاً (فرنسا ومصر) فى أفريقيا، قد نرى أن ندعو معنا بعض الأصدقاء المهتمين الذين يمكن إقناعهم بالمشارَكة. ما رأيك فى مُشارَكة المغرب؟ فى مُشارَكة إيران؟ كنا نَتَمَنى لو استطعنا أن نعرض على «سوريا» أن تُشارك، لكن «سوريا» فيما يَظهَر لنا «مَقفولة».

الروس يَنفُذون بسرعة فى وَسَط القارة الرَّخو من غانا إلى الصومال، ومن مصلحتنا جميعاً إيقافهم!

ـ ما رأيك مثلاً فى فكرة حوار بين المسيحية والإسلام؟ ـ الإسلام تَيَّار سياسى صاعِد فى المنطقة، وإذا لم نستطع تَرويض هذا التيَّار فقد يَتَحَوَّل إلى تهديد. المعهد الفرنسى كان لديه مشروع حِوار بين الغرب والإسلام ـ الحوار بين الاثنين طويل ـ وعَميق، وفى بعض الأحيان «لم يَكن ودِّياً». فى الظروف المستَجَدَّة نستطيع أن نُحَوِّله من عَداء ناطق أو صامت إلى حِوار مُتَفَهِّم وَدُود.

ـ ما رأيك مثلاً فى فكرة اشتراك مصر فى مُنَظَّمة الفرانكوفون؟ ـ فى وقت من الأوقات كانت اللغة الفرنسية لغة الصَّفوَة عندكم، ونعرف أنها لم تَعُد كذلك الآن لأن اللغة الإنجليزية طَغَت عليها. لكن الثقافة الفرنسية فى مصر لها جذور عميقة، ومُنَظَّمة الفرانكوفون بالدرجة الأولى تَجَمُّعٌ «ثقافىٌّ» وهى لمصلحتكم. وأنتم تريدون

مَدخلاً أوروبياً إلى الغرب. وفرنسا قلب أوروبا، وهى المرشَّحَة أن تكون مَدخلكم إلى الغرب. مهما فعلتم فإن هوى أمريكا سوف يَظَل دائماً مع إسرائيل. وإسرائيل صديق لفرنسا، لكنها صديق يَلزَم حَدَّه ولا يَتَجاوَزه. ليس عندنا لوبى يهودى يُؤثر على سياسة فرنسا. بالعكس عندنا فى فرنسا حساسية شديدة من اليهود. لسنا مُعادين للسامية طبعاً، لكننا نَكرَه نفوذاً نراه عابراً للحدود، نافذاً إلى بعيد - إلى أبعَد مما نَرى ؟!»

ومَضى الكونت «دى مارانش» إلى اقتراحات أخرى عَرَضَ لها بسرعة - ولم يكن فيها ما يَستَوقِف النَّظَر، أو يلفِت ويُثير !

ونَظرتُ إلى ساعتى. وتَنَبَّهتُ إلى أننى فى هذا المكتب منذ ساعتين وثلث الساعة. وقد كان ما سمعته شديد الأهَمِّية - لكن الوقت الآن أزَف، ولدَىَّ مَوعِد للعَشاء مع وزير الخارجية «ميشيل جوبير»، وقلت للكونت «دى مارانش» ما مُلَخَّصه:

«إنه أدرَك بذكائه وكَرَمه أننى أريد أن أسمع دون تعليق، ليس لأنى لا أريد أن ألزم نفسى بشىء، وإنما لأنى أعتبر أن ما قاله لى رسالة إلى الرئيس «السادات»، وسوف أنقلها إليه بأمانة. لكنه فى هذا الشأن سوف يَسمَع رَدَّ الرئيس من غيرى لأنى - حتى إذا لم يُصَدِّق هو ولم يُصَدِّق غيره - أريد أن أظلَّ باستمرار داخل حدود رَسَمتها لدَورى، وتَعَهَّدتُ فيما بينى وبين نفسى ألاّ أتخطاها. وأحسب أنه يستطيع أن يَفهمنى فيما أقول».

وكان الرَّجُل رقيقاً حين رَدَّ علىَّ «بأنه لا يَتَفَهَّم ما أقول فقط ولكنه يُصَدِّقه أيضاً، فقد سَمِعَ حتى قبل أن يَلقانى نصيحة من «كوف دى مورفيل» - وكان من قبل سفيراً لبلاده فى القاهرة (وفيما بعد أصبح رئيساً للوزراء) - ما يُؤكِّد له هذا الموقف الذى ألزمتُ نفسى به».

ثم أضاف: «أنه واثق أننى أستطيع أن أنقل للرئيس «السادات» صورة كاملة مُقنعة لما سَمِعتُه منه».

وقلتُ بسرعة: «صورة كاملة نَعَم - ولكن مُقنِعَة.. هذه مسألة أخرى؟!»

وكان الرَّجُل مُتَحَضِّراً حين قال: «معك حَق.. هناك فارقٌ بين الحالتين» !

٤ ـ مُغامَرات نادى «السافارى» فى أفريقيا:

ومَرَّت سنوات ـ تَجُرُّ وراءها سنوات ـ وغابَت عن فِكرى واهتماماتي مشروعات الكونت «ألكسندر دى مارانش» رئيس إدارة أمن الدَولة ومكافحة التَجَسُّس «S.D.E.C.E.» ـ بخصوص أفريقيا ـ والإسلام ـ والفرانكوفونية ـ وماذا يستطيع العَرَب أن يَفعلوا ؟ وكيف يكون دورهم إذا قرروا «المشاركة» فعلاً فى سياسات «دى مارانش» مُحَقِّقة لصالِح وأمن فرنسا و«أوروبا والعالَم الحُر»، وفى نفس الوقت للعَرَب (كذلك فى شرحه).

ثم حَدَث فى طهران بداية سنة ١٩٨١ أننى وَجَدتُ أول مشروعات «ألكسندر دى مارانش» أمامى حَيَّة صاخِبة بالحَرَكة ـ ورأيتُ الدليل عليها أمامى ناطقاً بالتفاصيل فى مجموعة الوثائق التى تَرَكها شاه إيران ـ «محمد رضا بهلوى» ـ وراءه عندما غادَرَ قصره الشاهنشاهى «نياقاران» قاصداً إلى مَنفَى ـ مصرى ـ كُتِبَ عليه أن يَموت فيه!

وكان ضمن هذه الوثائق التى اطلعت عليها بتصريح من «آية الله الخمينى» قائد الثورة الإسلامية فى إيران ـ نَص معاهدة من أغرب النصوص السياسية التى صادَفتُها فى عَمَلى. وكانت المعاهدة تحمل عِدَّة توقيعات أوَّلها وأبرزها توقيع «ألكسندر دى مارانش» !

ثم كانت هناك مع نَص هذه المعاهدة ـ وثائق وأوراق أخرى تَروى تفاصيل واحدة من أهَمِّ العمليات السرية فى عصر الحرب الباردة ـ وكان مما يُضيف إلى أهميتها أن هذه العملية سَجَّلها اتفاق مكتوب وَقَّعَ عليه الأطراف ـ خلافاً لكل المتعارف عليه فى التَجَمُّع وراء عملية سرية.

....

....

[وربما أن اتفاقية «سيفر» المشهورة فى تَواطؤ العُدوان الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على السويس سنة ١٩٥٦ ـ كانت المثل الوحيد الذى سَبَق فى عصر الحرب الباردة. وعلى أية حال فإنه فى ذلك الوقت لم يكن نَص اتفاقية «سيفر»

التى وَقَّعَ عليها رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد أذيع بنَصِّه وتأكَّد وجود الاتفاقية بيقين لا يُداخله شك، ومع ذلك فإن «سيفر» كانت اتفاقية وَقَّعها ساسة - لكن المذهل فى تلك الاتفاقية التى تركها شاه إيران وراءه فى مكتبه وخرج - لم تكن بتوقيع ساسة وإنما كانت بتوقيع مسئولى أجهزة مُخابرات مَثلوا رؤساء دُوَلهم مباشرة وفُوِّضوا فى التوقيع، وهى - فيما أعلم - سابقة ليس لها مثيل فى العَمَل السرِّى.]

□

كانت مُلابَسات المعاهدة كما تُظهِر الأوراق التى تركها الشاه وراءه - كما يلى:

١ - إن الكونت «ألكسندر دى مارانش» زارَ طهران سرًا فى وقت ما - بين يناير ومارس سنة ١٩٧٤ - وعَرَض على الشاه خطة عَمَل مُشتَرَك «ضدَّ النشاط الثورى الشيوعى فى أفريقيا»، وهو - حَسَب قَوله - نشاط يُهَدِّد القارةَ كما يُهَدِّد الطرق الملاحية المحيطة بها، وهذه الطرق أصبحت لها أهمية حَيَوية بحقيقة أن إغلاق قناة السويس (نتيجة معارك ١٩٦٧) جَعَلَ الدَّوران حول أفريقيا هو الطريق الدائرى الوحيد لمرور ناقلات البترول من كافة المنابع (الشرق الأوسط، والخليج، والقوقاز، وجنوب شرق آسيا، وسَواحل أفريقيا الغربية (نيجيريا وأنجولا).)

٢ - وكان «دى مارانش» يعرف اهتمام الشاه «محمد رضا بهلوى» بأفريقيا سواء لأسباب عاطفية إنسانية، أو لأسباب اقتصادية مالية. فمن الناحية العاطفية الإنسانية فإن والده «رضا خان» الذى خُلِعَ عن العرش سنة ١٩٤١ وتَقَرَّر نَفيُه - اختار مَنفاه فى جنوب أفريقيا (أبعد ما يكون عن إيران وعن الألمان الذين اتهم بالتَّواطُؤ معهم). وقد بقى «رضا خان» فى جنوب أفريقيا حتى مات، لكنه أثناء وجوده فى المنفى اقتنع باستثمار جزء كبير من أمواله فى شركة «الترنسفال للتنمية»، وهى شركة كانت تعمل بالتعاون مع مجموعة شركات «دى بير» للتنقيب عن الماس فى مناجم جنوب أفريقيا - وكذلك فى صَقله وتسويقه. وكانت الشركة فى ذلك الوقت تُنتِج وتَحتَفظ بإنتاجها فى خزائنها تَستَعِد به لعالَم ما بعد الحرب وأسواقه المتَشَوِّقة للاستهلاك بعد سنوات من القيود والضغوط - وكانت تَوَقُّعاتها أن «أمريكا» سوف تكون السوق الأعظم حينئذ - ثم تليها أوروبا عندما تَستَعيد عافيتها بعد سنوات قَدَّرَتها شركات الماس بما بين عشر إلى خمس عشرة سنة.

وفى ذلك الوقت - وحين كان «دى مارانش» يُفضى إلى الشاه بمشروعاته - كانت استثمارات أسرة «بهلوى» فى جنوب أفريقيا قد بلغت ذروتها، وزادَ عليها أن ارتفاع أسعار البترول (١٩٧٤) مكّن أسرة «بهلوى» من زيادة استثماراتها الأفريقية، التى أصبحت أكثر إغراء لسبب مُستجَد وهو أن العَرَب دخلوا مُشترين بشدة فى أسواق الماس وأسواق غيره من الأحجار الكريمة (ولم يكن العَرَب يعرفون هذه الأحجار من قبل، لأنهم استغنوا باللؤلؤ المتاح لهم فى الخليج عن الماس الذى خطف بريقه أنظارهم من بعيد، ثم أصبح البعيد قريباً بثورة أسعار النفط بعد حَرب أكتوبر ١٩٧٣!)

٣ - إن «دى مارانش» أيضا كان يَعرف عند الشاه «نزعات إمبراطورية» تبحث عن ميادين تُحَقِّق عليها طموحها - وهكذا عَرَضَ عليه أفريقيا.

وكانت حُجَج «دى مارانش» كما هى ظاهرة فى الأوراق:

- إن أفريقيا هى المجال الإستراتيجي الأكبر والأغنى، والأكثر تَعَرُّضاً للخطر والطمَع من جانب «قوى الثورة العالمية» - الاتحاد السوفيتى - والصين.

- وأفريقيا هى العُمق الإستراتيجي الطبيعى والمفتوح للشرق الأوسط، وإذا كان العُمق الأوروبى فى الشمال مُزدَحِماً بما فيه من القوى - فإن العُمق الأفريقى فراغ تماماً من أى قوة، لأن القوى الإمبراطورية التى كانت تملأ الفراغ إما غير قادرة وإما غير راغبة.

☐ وبريطانيا مثلاً غير قادرة وغير راغبة (فى تقدير الكونت «دى مارانش»).

☐ وأمريكا قادرة وراغبة، لكن فعلها مُقَيَّد الآن (سنة ١٩٧٤) بسبب ضعف الرئاسة الأمريكية الذى نشبت فيه وَرطة الحرب فى فيتنام من أيام «جونسون»، ثم فضيحة «ووترجيت» التى انزلق إليها الرئيس الحالى «ريتشارد نيكسون». وقد تفاقم العجز الأمريكى بالقيود التى وَضَعَها الكونجرس مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

- وأنه فيما يتعلق بفرنسا فاهتمامها بأفريقيا له أسباب إستراتيجية، وتاريخية، وثقافية، لأن فرنسا - كذلك يقول الكونت - قادرة وراغبة، لكن العِبء كبير وهى

لا تستطيع احتماله وحدها، وقد فَكَّرَت فى العَرَب، وجَسَّت نبض أصدقاء لها بينهم وأهمهم «السعودية»، ووَجَدَت لديهم استعدادا، لكنهم أرادوا أن يستوثقوا من أن الولايات المتحدة لا تعترض، فهم يعرفون حساسية واشنطن من «تعامُل أوروبى عَرَبى» يجرى وراء ظهرها - وقد تَفَهَّمَت فرنسا هذا الحَذر السعودى وفتحت له الطريق، وتَكَفَّل الكونت «دى مارانش» نفسه بمفاتحة مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض («هنرى كيسنجر»)، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ورئيسها («ريتشارد هيلمز»)، وحصل بالفعل على إشارة ضوء أخضر وَصَلَت إلى السعوديين وهُم الآن جاهزون.

«لكن العَرَب يَحتاجون تَشجيعاً يُطمئنهم ويَقودهم» - كذلك قال الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وهكذا تَحَمَّسَ الشاه «محمد رضا بهلوى».

وقد تَعَدَّدَت اللقاءات بين الاثنين - الشاه والكونت (ستة لقاءات فى ظرف شهرين) وعَرَض الشاه استعداده لمفاتحة الرئيس «أنور السادات» فى الأمر واثقاً أنه سوف يَشترك. كذلك عَرَض الشاه استعداده لإقناع الملِك «الحسن» مَلِك المغرب. وأبدى الكونت «ألكسندر دى مارانش» «أنهم اتصلوا» بالملِك «الحسن» وهو «مُعجَب» بالفكرة، مُعتَقِد بإمكان تحقيقها، مُقتَنِع بجدواها.

٤ - وأبدى شاه إيران ملاحظة عما إذا كان مفيداً دعوة الجزائر للاشتراك فى هذا «المجهود الطيِّب» لإنقاذ أفريقيا، ولكن «دى مارانش» عارَض مُفاتَحَة الجزائر لأن الرئيس الجزائرى (هوارى) «بومدين» ما زال يعيش «أوهامه الثورية» وله صداقات قوية مع الشيوعيين فى موسكو وبكين - وزيادة على ذلك فإن الجزائر لديها «حلم أفريقى» يخصها، وهو يشك أنها تريد أن تَتَعاوَن مع أحد فى مشروع هو أكبر من اختصاص دولة واحدة، وأوسع من أحلام (جزائرية) لا تَسندها إمكانيات حقيقية أو كافية !

٥ - أضاف «دى مارانش» أن المشروع لا يَجب أن يكون مشروع دُوَل فقط، وإنما من الأفضل أن تَقتَرب منه مجموعة الشركات الدولية المهتَمَّة بأفريقيا ومواردها، وسَمَّى بالفعل، وعلى سبيل المثال لا الحصر، مجموعة شركات «الأنجلو أمريكان» التى تملكها عائلة «أوبنهايمر» فى جنوب أفريقيا (وهى أهم مُحتَكِر لأسواق الماس) -

كما سَمَّى بنك «تشيز مانهاتن» الذى استثمر بكثافة فى أفريقيا - وأضاف أنه تَحادَث فى «هذه الفكرة» مع «دافيد روكفللر» رئيس مجلس إدارة «تشيز» !

وربما أن «دى مارانش» أشار فى حديثه مع الشاه إلى أسرة «روكفللر» وهو يَعلَم أن الأسرة «مُتَعامِل نشيط» فى «سوق البترول الإيرانى»، ثم إن الأسرة أيضاً على علاقة وثيقة بعَرش الطاووس الإيرانى من قبل ثورة الدكتور «محمد مصدق» (تأميم البترول الإيرانى)، وبعد سقوط «مصدق» (بانقلاب مَوَّلَته شركات البترول العالمية ونَفَّذته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية !

□

وبعد اتصالات مكثفة وسرية التقت فى مدينة «جَدة» (فى أواخر سنة ١٩٧٤ أو أوائل ١٩٧٥) مجموعة من خمسة رجال مُفَوَّضين من رؤسائهم بالتوقيع على معاهدة للعَمَل السِرى المشترك فى أفريقيا. وكان الاجتماع فى بيت الشيخ «كمال أدهم» رئيس المخابرات السعودية (فى ذلك الوقت).

وطبقاً لنص المعاهدة الذى وُجِدَ ضمن أوراق الشاه - بدأت المعاهدة بمقدمة جاء فيها:

«إن الحوادث الأخيرة فى أنجولا وفى أجزاء أخرى من أفريقيا أظهرت أن القارة الأفريقية الآن وأكثر فى المستقبل مسرحٌ لنشاط ثورى يُؤدى إلى حروب يغذيها الاتحاد السوفيتى ويستعمل فيها أفراداً ومُنظمات موالين له، والهَدَف هو التمكين للعقيدة الماركسية إلى جانب تحقيق الأهداف الإستراتيجية التى تطلب هَيمَنة الاتحاد السوفيتى على القارة وعلى مَواردها الكامنة، مما يعطى السوفييت سيطرة مؤثرة على الموارد الخام المطلوبة للمؤسسات الصناعية والتجارية والمالية لأوروبا وللعالَم الثالث، ونتيجة ذلك أن حياة أوروبا والعالم الثالث سوف تكون تحت سيطرة الشيوعية، كما أن الممرات البحرية حول القارة سوف تُصبح مُهَدَّدة، وكذلك مستقبلها السياسى الذى سوف تَتَحكَّم فيه نُظُم عميلة للشيوعية».

وتَخلُص مُقَدِّمة المعاهَدة إلى أن «تلك المخاطر كلها لا بد من التَصَدِّى لها وإفشالها».

وتمضى نصوص المعاهدة من هذا المدخل العام إلى التفاصيل المحَدَّدة فتقول:

«ـ إن الاتفاقية لها مفهوم عالمى واسع تُسانده الدول الموَقِّعة عليها وأطراف آخرون يَتَعاطفون مع أهدافها.

ـ إن مسئولية تنفيذ الاتفاقية مَنوطة بـ«مركز عمليات خاص» مقره القاهرة لسَبَب واضح هو مَوقع العاصمة المصرية فى مركز يَتَوَسَّط أفريقيا والمهتمين بشأنها من الدول المشاركة فى الاتفاقية (فرنسا وإيران مثلاً) ـ ومُهِمَّة هذا المركز أن يقوم «بتحديد أولَويات العَمَل والميادين المستَحِقَّة للاهتمام العاجل»، و«تخطيط العمليات المطلوب تنفيذها فيه»، و«تكليف من يديرها ويشرف عليها».»

[وبالفعل تَمَّ اتخاذ مقر لمركز العمليات فى «مصر الجديدة» أصبح جاهزاً يوم ١ سبتمبر ١٩٧٦، ودَخَلَته مجموعة سكرتارية فنية، وانعقد فيه أول اجتماع لمركز العمليات بعد ذلك بأسبوعين.]

وبنصوص الاتفاقية:

ـ كان على فرنسا أن تتولى تزويد «المجهود المشترَك» بكل ما يلزمه من معدات فنية ووسائل تكنولوجية، ومعلومات كافية تُمَكِّن من تَخطيط دَقيق لهذا المجهود.

ـ وكان على المغرب أن تُقَدِّم مجموعات مَيدانية، وقوات عمليات خاصة.

ـ وكان على السعودية أن تُمَوِّل.

ـ وكانت إيران شريكاً بالعرض: من التخطيط إلى التنفيذ إلى التمويل.

لكن القوة الحقيقية وراء الاتفاقية كانت فرنسا و«مدير أمن الدولة فيها» الكونت «ألكسندر دى مارانش» ـ مع أن نَصَّها حَمَل خمسة توقيعات:

ـ الشيخ «كمال أدهم» ـ مدير المخابرات السعودية ممثلاً للملِك «فيصل».

ـ الجنرال «أحمد الدليمى» ـ رئيس المخابرات المغربية ممثلا للملِك «الحسن».

ـ الجنرال «نعمة الله ناصرى» ـ مدير المخابرات الإيرانية (السافاك) ـ ممثلاً للشاه «محمد رضا بهلوى».

ـ الدكتور «أشرف مروان» ـ ممثلاً شخصياً للرئيس «أنور السادات» (وقد حضر

الاجتماع التأسيسى ووَقَّعَ على المعاهدة، ثم تَغَيَّر منصبه فترك «مكتب الرئيس للمعلومات» ليُصبح مسئولاً عن إدارة الهيئة العَرَبية للتصنيع الحربى - وحَلَّ محله مسئول غيره مُكَلَّف من الرئيس «السادات»).

- ثم - وهذا هو الأهَم - الكونت «ألكسندر دى مارانش» - مدير جهاز أمن الدولة ومكافحة الجاسوسية - ممثلاً لـ«الحكومة الفرنسية».

ومن المفارقات أنه فى نهاية الاجتماع التأسيسى نوقش اقتراح بإطلاق اسم «رمزى» على «مجموعة الاتفاقية»، واقترح الشيخ «كمال أدهم» تسميتها «نادى السافارى» (و«السافارى» هو الوصف الذى يُستَعمَل لرحلات السياحة للصيد أو مشاهدة الوحوش فى أدغال أفريقيا - وقُبِلَ الاقتراح على الفور، وخرج إلى الوجود ذلك التنظيم السِرِّى للعمل فى أفريقيا - وفق تَصَوُّرات وخطط الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وتَسمية الشيخ «كمال أدهم» !

□

ومَضَت السنون تَجُرُّ السنين، ووَجَدتُ نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وكانت المواجهة هذه المرة قضائية - فى محاكم باريس.

والحاصل أننى كنت عَرَفتُ أثناء زيارة إيران (يناير) سنة ١٩٨١ بسِرِّ «مجموعة السافارى»، عندما وَجَدتُها فى أوراق الشاه ثم نَشَرتُ تفاصيل عنها فى الطبعة الإنجليزية لكتاب «عودة آية الله» (الذى صَدَرَ باللغة العَرَبية تحت عنوان «مَدافع آية الله»، وكان ذلك فى حياة الرئيس «السادات» وقبل اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ بأسابيع قليلة).

وقد تَوَسَّعتُ فى النشر لأن ما قرأتُه هالنى بحَجم ما فيه من مُغامَرات وحَماقات قامَت بها مجموعة نادى «السافارى».

- وكان بينه على سبيل المثال:

- إن «مجموعة السافارى» كانت أهم العناصر المؤيِّدة للجنرال «بومبا» عندما استولى على إقليم «كاتانجا» فى الكونجو بقصد تأمين مناجم الماس والنحاس الغنية فى هذا الإقليم لصالح الشركات الغربية الكبرى.

ـ وأن «مجموعة السافارى» تَعاوَنَت بكل قوة مع «موبوتو» ديكتاتور الكونجو وجَزَّاره الشهير. وعندما احتاج «موبوتو» قوات لتأمين قَصره فى تلك الأيام، إذا مصر والمغرب تقرران إرسال قوات إلى الكونجو قامَت السعودية بتكاليفها.

ـ وأن «مجموعة السافارى» غاصَت بعيداً فى القرن الأفريقى بحُجَّة مساعدة «سياد برى» فى محاولته العسكرية اليائسة ضِدَّ أثيوبيا ونظام الحُكم الشيوعى الذى قام فيها بزعامة «منجستو هيلا مريم». ويشير مُلَخَّص وثائق فى أوراق «مجموعة السافارى» إلى لقاء بين الرئيس الصومالى «سياد برى» وبين السفير المصرى فى «مقديشيو»، وفى هذا اللقاء يَرِدُ ـ منسوباً إلى السفير المصرى ـ قَول الرئيس الصومالى له «إن رَقَبَتى فى خطر». ثم تَذكُر الأوراق بعد ذلك أن الرئيس «السادات» قَرَّرَ أن تبيع مصر للصومال أسلحة سوفيتية (لا تريدها) بما قيمته ٧٥ مليون دولار (تدفعها السعودية).

وفى الأوراق (التى تركها الإمبراطور «محمد رضا بهلوى» فى مكتبه) أن «الولايات المتحدة تَدَخَّلَت مرة لوقف نشاط «مجموعة السافارى» عند حَدِّه المأمون الذى تقبله، وحَدَث ذلك عندما تمكن الجيش الصومالى بأسلحة وَصَلَته حديثاً أن يُغَيِّر الموقف فى ميدان القتال، وأن يُهَدِّد إقليم «الأوجادين» الأثيوبى. وكان أن وزير الخارجية الأمريكى «سايروس فانس» وَجَّه بنفسه تحذيرات إلى بعض الدول المشاركة فى «مجموعة السافارى» يلفت نظرها إلى أن دخول الجيش الصومالى إلى منطقة «الأوجادين» ليس شأناً محلياً بين أثيوبيا والصومال (أو غيرهما من الدول المهتَمَّة) ـ «لكنه الآن تَدَخُّل غير مَسئول من «المجموعة الفرنسية» قد يُؤدِّى إلى انقلاب الموازين فى القرن الأفريقى بما لا تقبل به الولايات المتحدة.

....

....

[وظَهَرَ فى الأوراق أنه كان هناك اتفاق على أن تكون الولايات المتحدة وإسرائيل على عِلم بنشاط «نادى السافارى» ـ فقد كان فى مسئولية المخابرات السعودية أن تُبلغ المخابرات الأمريكية ـ وكان فى مسئولية المخابرات الإيرانية أن تُبلغ المخابرات الإسرائيلية.

....

....

ومن المفارقات الداعية إلى مزيج من الأسى والغَضَب أن ثلاث دُوَل عَرَبية (مصر والسعودية والمغرب) اشتركت بهِمَّة فى عَمَليات «نادى السافارى» فى أفريقيا - تحت تَوجيه وإدارة الكونت «دى مارانش» - لكنه عندما جاء وقت الغنائم لم تكن الأطراف العَرَبية هناك، وإنما كانت هناك إسرائيل تُقيم شراكة مع «اتحاد مَعادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه «دى بيرز»، ثم تَحصُل شركة إسرائيلية تَعمَل فى «أنجولا» وهى شركة «أفريقيا - إسرائيل» (التى يرأس مجلس إدارتها «شموئيل شننتندر») على ثلاثين موقعاً للبحث عن الماس مع الحَقّ فى ثلاثمائة أخرى. والآن يَصِل حَجم الاستثمارات الإسرائيلية فى «أنجولا» إلى بليون دولار.]

....

....

(وفى الأوراق التى تَرَكَها الشاه فى مكتبه أيضاً) أنه عندما تَدَخَّل «سيروس فانس» بحَسم فى الموضوع فإن «نادى السافارى» اضطر إلى تهدئة أعصابه.

ثم تَحَوَّلَت التهدئة إلى خمول عندما تأكَّد أن السوفييت حصلوا على وثائق حسَّاسة عن نشاط «المجموعة» فى أفريقيا، وذلك بعد مؤتمر سِرِّى «لها» انعقد فى الدار البيضاء (المغرب).

والذى جَرى وقتها هو أن عميلاً سوفييتيا سَرَق حقيبة أوراق الجنرال «نعمة الله ناصرى» وكانت على مقعَد بجواره وهو ينتظر فى مَطار الدار البيضاء قاصداً إلى «كان» حيث كانت تنتظره زوجته لإجازة فى «الريفييرا» الفرنسية. وشاعَ فى ذلك الوقت أن أحد مساعدى الكونت «دى مارانش» كان مَصدَراً ثانياً حصل منه السوفييت على وثائق «نادى السافارى» - وظَهَرَ هذا المساعد وهو برُتبة «كولونيل» فى المخابرات الفرنسية - كان عميلاً مباشراً للسوفييت، وحين انكشف أمره انتحر أو قُتِل.

وهنا وَقَعَت المواجهة القضائية بين الكونت «دى مارانش» وبينى.

□

أثناء عَمَلى فى كتاب «عودة آية الله» كنت قد عَرَفتُ ونَشَرتُ واقعة سرقة حقيبة أوراق الجنرال الإيرانى «نعمة الله ناصرى» فى مطار «كازا بلانكا». وكنت قد عَرَفتُ وكَتَبتُ إشارة إلى قَتل أو انتحار أحد مُساعدى «دى مارانش»، بعد الشك فى عِمالة السوفييت.

....

....

وكان مقرراً أن الطبعة الفرنسية من الكتاب سوف تظهر بعد الطبعة الأصلية الإنجليزية بشهر واحد، وحقوق الطبعات بكل اللغات عند مؤسسة «أندريه دويتش» الإنجليزية العريقة.

وفوجئتُ ذات صباح فى القاهرة بتليفون من لندن و«أندريه دويتش» رئيس مجلس إدارة شركة النشر العريقة فى لندن يقول لى: «إن الكونت «ألكسندر دى مارانش» رَفع قَضيَّة يطلب فيها وقف نشر الطبعة الفرنسية من الكتاب، ويطلب أيضا إعطاءه الحق فى مُلاحَقة الكتاب فى كل طبعاته لأنه وَجَدَ فى النص المكتوب عن حادثة انتحار أو قتل مساعده المتَّهَم بأنه عميل سوفيتى - ما يوحى بأن قتل الرَّجُل أو انتحاره كان بأمرٍ - أو بضغطٍ - منه قَصاصاً وعِقاباً على خيانته.

وقلتُ على الفور لـ«أندريه دويتش» أننى فيما كتبتُ لم أتَّهِم «دى مارانش» بالقتل على الإطلاق. وعلى التليفون عَرَضنا - «أندريه دويتش» وأنا - للنَّصِّ الإنجليزي كما كتبتُه، وطلبتُ إليه أن يبعَث لى بالترجَمة الفرنسية التى أعِدَّت له فى باريس.

وفى اليوم التالى عاد «أندريه دويتش» للاتصال بى فى القاهرة يقول: «إن محامى الكونت دى مارانش اتصل يسأله عما إذا كان فى الإمكان ترتيب لقاء بين مُوَكِّله وبينى يَتِم به تعديل النص الذى اعتبره الكونت مُسيئاً له ؟» - وقلت بوضوح «إننى فيما نَشرتُ رَوَيتُ واقعة لم يَرد فيها اتهام بالقتل للكونت أو لغيره، وقد كان هَدَفى هو «سِر نادى السافارى» وليس «سِر قتل كولونيل فرنسى».»

وقَبلتُ فِكرة اللقاء المباشر - كما عَرَضَ محامى «دى مارانش».

وعندما تقابلنا من جديد - وهذه المرة فى فندق «بلازا أتينيه» - كان «الكونت «دى

مـارانش» رَجُلاً مُـخـتلفـاً. (تَرَكَ مَنصـبـه، وفَـقَـدَ قُـوَّته، وسَـقَـط مـشـروعـه «نادى السـافـارى»). ولـم تَمـضِ عدة دقـائق حتى حُلَّـت المشكلة، فـقـد قرأتُ النَّص الفـرنسى ووَجَدتُ أن مـا تُرجم عن الأصـل الإنجليزي الذى كتبته كـان تعـبيراً يَـحـتَمِل التـأويل. ومساء ذلك اليوم فى فندق «بـلازا» وفى حضـور «أندريه دويتش» واثنين من المحامين أعَدتُ قراءة النص المتَرجَم إلى الفـرنسية عن الإنجليزية، وأمسكتُ قلَماً وغيَّرتُ ثلاث كلمات بالعَدَد وأعطيت النـص الـجديد للكونت «دى مارانش» أسـأله «إذا كان ذلك يكفيه؟»

- وكان تعليق الرَّجُل رقيقاً باللغة الإنـجليزية « fair enough عادِل بما فيه الكفاية».

وبدا مرتاحاً، وكذلك كنتُ.

ثم ذهَـبَ الجـمـيع وبقـى هـو، وقـد أحـسـسـتُ أن لديه مـا يقـوله، وكنت مـثله لدىَّ أنا الآخر ما أقوله.

كـانت قِـصَّـة «نادى السـافـارى» كلهـا قـد انقـضـى زَمَنهـا: سَـقَـط عـرش الشـاه فى طهران، ثـم مـات «محـمـد رضـا بهلوى» فى القـاهـرة - ثـم انتـهـت حيـاة الرئيس «السـادات» فى مَشـهَـد مُرَوِّع على منصـة عرض عسكرى - وتَـرَك «كمـال أدهـم» مَوقِـعه مَسئولاً عن المخابرات السـعـودية - كما أن الكونت «دى مارانش» نفسـه أصبح على التقاعـد !

وبدأتُ الحديث فقلت لرَجُل فرنسـا القـوى ذات يوم:

«إننى استغربت أنك لم تَعترض فيما نَشَرتُه إلا على واقعة الكولونيل - تَصَوَّرتُ أن نشـر قِصَّـة «مجموعة السـافارى» من الأصـل سوف يُضايقك ؟..»

ورَدَّ بتُـؤدة رَجُـل عَـرَف الدنيـا وخـبـرهـا قـائلاً مـا مـؤدَّاه: «ذلك حـقـك مـا دامت التفاصيل قد أتيحت لـك».

واستطرد:

«وبالنسـبـة لى فليس هـناك فى الموضـوع كله مـا أخـجل منه: كـان هَدَفى ولا يزال مـصلحة فـرنسا، ونفـوذها، ودَورها فى العـالَم. الأوضـاع فى أفريقيـا تهمنا، وسـوف تَظَل تهـمنا لأن نصف أفـريقـيـا فـرنسـى أو كـان فـرنسـيـاً فى يوم من الأيام، وهـذا اسـتـثـمـار لا يسـتـحق الإهمـال، ومـيـراث لا بد من حـمـايتـه من وجـهـة نظر فـرنسـا ولضروراتها».

ثم أضاف الكونت «دى مارانش»:

«أتذكر أننى تحدثت معك فى هذا الموضوع عندما التقينا فى باريس قبل سنوات».

وقلت: «إننى أتذكر ولكنى لا أفهم». ولم أكمل بقية عبارتى، فلم أقل له إننى على استعداد لأن أرى قوى عظمى تَعمَل بكل طاقتها «لتَعويض إمبراطورياتها الضائعة» بوسائل مُستَجَدَّة - لكن الذى لا أفهمه هو ما الذى تفعله «قوى محلِّية» فى مشروعات إمبراطورية لا شأن لها بها - لا مَصلحَة ولا أمن ولا هَدَف من أصله ؟»!

....

....

وتَشعَّب الحديث مع الكونت «ألكسندر دى مارانش» لأكثر من ساعة، ثم خرج الكونت «دى مارانش» وخرجت معه من صالون «البلازا أتينيه» إلى باب الفندق، وكان خروجه عادياً، لا إجراءات، ولا حراسة ظاهرة أو خَفيَّة، ولا وجوه يَمتزج فيها الاهتمام بالرَّهبة كما حَدَث قبل سنوات فى فندق «الكريون».

كانت الدنيا قد تَغَيَّرَت، وتَغَيَّرَت الحظوظ.

لكن مصالح الدول ومطالبها الضامنة لهذه المصالح - لا تَتَغَيَّر!

٥- الدور الآن على الإسلام !؟

عندما قابَلتُ الكونت «دى مارانش» فى مكتبه (سبتمبر ١٩٧١) كان لديه جَدوَل أعمال كامل:

○ البند الأول فيه (وقتها) هو العَمَل فى أفريقيا، وكان أمَله أن يَقتَنع الرئيس «السادات» وأن يَتَقَدَّم ومعه السعودية والمغرب وإيران، وشاه إيران المتَحَمِّس، ومَوارد بلاده الطائلة.

○ والبند الثانى فى جَدوَل أعمال «دى مارانش» «التَعاوُن» مع الإسلام الذى رآه قوة صاعدة ومؤثرة مع تراجع الفكر القومى بعد ١٩٦٧، وكان اقتراب الكونت من هذا الهَدَف - وقتها - باقتراح حوار بين «المسيحية والإسلام»، والدولة الإسلامية المهيَّأة لهذا الدور فى رأيه - مظهراً وجوهراً - هى المملكة العربية السعودية.

○ والبند الثالث - على جَدوَل أعمال الكونت - دَعوة أكبر عَدَد من الدول العَرَبية (وأوَّلها مصر) إلى مُنَظَّمة «الفرانكوفون»، وهى البديل الفرنسى للكومنولث البريطانى - والجامع لشتات مستعمرات فرنسا السابقة فى أفريقيا - والحارس للغة فرنسا وحُمولتها - وكان ظن الكونت أن هذا البند يمكن أن يُعهَد به إلى «المغرب»، وكان أملَه أن قاعدة فرانكوفونية فى المغرب تستطيع الوصول إلى الجزائر، وتستطيع أيضاً طمأنة المشرق (سوريا ولبنان) - خصوصاً إذا تَصَرَّف الملِك «الحسن» فى الموضوع برقَّة وكَياسة لا تستثير الجزائر.

□

فى الوقت الذى بدأ فيه البند الأفريقى يتحرك - ويبدو تَحَرُّكه مشجعاً مليئاً بالاحتمالات بعد أن دَخل «نادى السافارى» رحلة التأسيس الجدِّى والتأهُّب للعَمَل - جاء الدور على البند الثانى: «الإسلام».

وكان «دى مارانش» مُتَشجِّعاً بانضمام السعودية إلى «تَجَمُّع العَمَل فى أفريقيا». ولعدة شهور بدا أن السعودية تَستَجيب، فقد وَصلَت إلى باريس وفود عُلماء دين سعوديون، كما أن وفوداً عِلمية مقابلة - مسيحية - تَوَجَّهَت إلى جَدة تحت عنوان ما أطلق عليه فى ذلك الوقت «الحِوار الإسلامى المسيحى» - وفجأة تباطأت الحركة على خط باريس - جَدَّة، ثم تَوَقَّفت تماماً.

وذات مرة فى باريس خطر لى أن أسأل عما جرى فى ذلك الحِوار الإسلامى - المسيحى؟ وكان مُؤدَّى ما فهمته أن مُفتى السعودية فى ذلك الوقت (وأظنه الشيخ «عبد العزيز بن باز») اعترض على المشروع من أساسه. فقد كان حسبانه عندما سمح باللقاءات أن فرنسا تريد أن «تَتَعَرَّف على الإسلام»، لكنه عندما وَجَدَ الموضوع «حِواراً» تَغَيَّرَت فَتواه - إلى الاعتراض والإنكار.

وبدا أن الفكرة ماتت فى مَهدها خصوصاً بعد أن تَرَك «دى مارانش» مَوقعه وسافر فى النسيان.

ثم تَبَيَّن فيما بعد أن الخطط لها عُمر يستبقيها على الساحة حتى بعد غياب آبائها الشرعيين. وذلك ما كان.

والذى جَرى أنه أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كانت «باريس» ساحة نشاط شرق أوسطى مُتَعَدِّد الجبهات ساعَدَت عليه ملابسات:

☐ فيها معاهدة «كامب دافيد» التى عَجَزت عن جَذب دُوَل عَرَبية غير مصر تنضم إليها.

☐ وفيها أن مستقبل السلام فى الشرق الأوسط بَدا مُعَرَّضاً للخطر لأن الجهد الأمريكى الذى أوصَلَ إلى «كامب دافيد» قطع أنفاسه بَعدها رُسُلاً إلى كل عاصمة عَرَبية بغير نتيجة.

☐ وفيها أن الثورة الإسلامية فى إيران بعد نجاحها راحَت تَعرض نفسها وكأنها شكل المستقبل.

☐ وفيها أن اغتيال الرئيس «السادات» (أكتوبر ١٩٨١) أحدَث صدمة فى العالَم كله خصوصاً والمدفع الرشاش الذى اغتاله «إسلامى».

☐ وفيها أن إسرائيل أصبَحَت شديدة القلق. تَخشى من تَداعيات نجاح الثورة الإسلامية، وتُوقف عَمَلية السلام. وكان يهود أمريكا فى حالة حَيرة مما حَدَث، وأما يهود أوروبا فقد زادَ نشاطهم خصوصاً فى باريس، وكانت أسرة «روتشيلد» رأس الحَربة فى نشاط يهود أوروبا، كما كانت أرملة الزعيم الاشتراكي الكبير «منديس فرانس» نجمة الجهد اليهودى من مقر إقامتها فى باريس.

☐ وفيها أنه ظَهَرَ فى أوروبا من يعتقدون أنهم الطرف الغربى الذى يستطيع أن يدخل إلى الشرق الأوسط ويقوم بمهمة تلطيف الأجواء على الأقل (وبينهم «كرايسكى» مُستشار النمسا وغيره).

☐ ثم إن هذا كله كان المناخ الذى تَقَدَّمَت فيه دُوَل أوروبية ظنت نفسها فوق الشبهات لاستحالة اتهامها بخطط إمبراطورية - بالنسبة إلى حجمها، وكانت الدول الاسكندنافية «السويد» أوَّلاً، ثم «النرويج»، طليعة المتقدمين. وبالفعل فإن الجهد السويدى النرويجى هو الذى قاد بعد سنوات إلى اتفاقية «أوسلو».

☐ وكذلك وَصَل التأهُّب الفرنسى مَداه. ذلك أنه إذا كانت تَطوُّرات الحوادث قد عادَت إلى أوروبا بدور وضعته الحقائق المستجدة على عَتَبَة بابها، فإن فرنسا هى

الأقـدر وهـى الأجدر. فـلا بريطانيـا مقـبولـة لقيـادة دور أوروبى - شـرق أوسـطـى - ولا ألمانيـا جـاهزة لمثل هذا الدور - وفـى نفس الوقت من وجـهة الـنظر الفرنسـيـة - فـإنه لا «سـتوكهولـم» ولا «أوسـلـو» لديـها الـجاذبيـة الـغلابة لباريس وأنوارها البـاهـرة.

□

وبشكل مـا وعلى نحو مـا (والوقـائع هنـا غـامضـة والصـلات مُلتبسـة) ظهرت فى باريس دعوة إلى «حِوار بين الأديان»، ونشـأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دى مارانش» يطرح نفسـه من جديد - وأنه على حَسَب تعبير سـفير فرنسـى سـابق: «نفس النبيذ القديم مُعَبَّأ فى قوارير جديدة» !

لكن طَعم «الجديد» بدأت تختلف فى بعض الملامح عن طَعم «القديم».

وفى حين أن المشروع «القديم» كان طرفه الإسلامى هو السعودية - فإن المشروع الجديد بدا وكأن طرفه الإسلامى هو مصـر.

وفى حين أن الراعى الإسلامى السـابق هو مُفـتى السعودية (الشـيخ «بن بـاز» الذى تَوَقَّف فى مُنتَصَف الطريق وانسحب) - فإن الراعى الإسلامى هذه المرة كان «الأزهر» (الذى لم يُعارض ولم يَرفض، ولعله انتظر إشارة من الدولة تَدُل على ما تراه صالحاً للأزهر وللبلد).

وأخيراً فـإن عنوان المشروع السـابق كـان «الحِوار الإسـلامى المسـيحى» - لكن العنوان فى المشروع المستجد أشمل فهو «حِوار الأديان».

وبالتجربة العَمَلية فقد ظَهَر أن الحِوار «المستَجَد» يقترب أكثر من اليهودية - ثم إن إسرائيل تحاول أن تأخذ الناحية اليهودية فى الحِوار لحسابها - وكان ذلك هو الإطار الذى جاء فـيـه حـاخـامـات إسـرائيل، وأوَّلهم الحـاخـام «لاو»، ودخلوا إلى رحـاب «الأزهر».

ولقد بدا الأمر فى ظاهره مثيراً للمشاعر، وانصرف الكثير من النقد لشيخ «الأزهر» دون مُراعـاة لمقـامـه الجليل، مع أنه كـان باديـاً لكل مـن يريـد أن يـرى أن «الشيخ» يَتَصَرَّف بظن أنها «الدولة ومصالحها العُليا». وقد بدا «الشيخ» حائراً بين «ظنون ما هو مطلوب منه لمصالح أعلى» وبين هَجَمات عنيفة تَعَرَّض لها واعتقاده أن

الصواب جانَبَها. وفى هذه الحيرة التى تنازعت «الشيخ» ظَهَرَت فى تصرفاته - وذلك طبيعى وإنسانى - ردود فِعل عَصَبيَّة أدَّت بدورها إلى زيادة المساحة فى سوء الفهم بين «نوايا الشيخ» وبين «ظواهر» ما سَمَح به.

....

....

والشاهد أن المشروع كله فى هذه اللحظة يومئ إلى أشياء:

☐ يومئ هذه اللحظة إلى أنه جزء من محاولة «تفويت نوع من السلام» لا يَصح إدخال «الأزهر» فيه ولا يَليق.

☐ يومئ أيضاً إلى أنه «دخول فى رحاب الإسلام» بغرض سياسى لا يتفق بالضرورة لا مع رسالة الدين الإسلامى، ولا مع عالميته المفتوحة على الدنيا كلها.

☐ يومئ أخيراً إلى أنها «ربما لا تكون فرنسا» و«نبيذها القديم فى قوارير جديدة». وإنما هو على الأرجح «نبيذ جديد فى قوارير قديمة» توحى بأنه لا اختلاف - بينما هو فى الواقع أكثر من مجرد اختلاف !

....

....

وربما أن الأمر هنا يحتاج إلى مُراجَعة، وربما أن شيخ «الأزهر» ومقامه الجليل له على الدولة حَق أن توضح أمامه رؤيتها للمصالح العليا للبلد، ومقتضيات هذه الرؤية فيما هو مطلوب منه.

لكنه من غير المقبول أن يبقى الحال على حاله !

والشاهد أن العلاقة بين «الأديان» لا تحتاج إلى حِوار وجَدَل، وإنما تحتاج إلى فهم متبادَل. والحِوار فى مفهومه الطبيعى يُطالِب أطرافه أن يَتَوَصَّلوا إلى لقاء، وذلك يجوز فى الأفكار وليس فى الأديان. فالأديان مسألة «إيمان» لا يَعرف حَلاً وَسَطاً، بل إن الحَلَّ الوَسَط يحرج اليَقين ! - ولذلك فالمطلوب من كل «مؤمِن» أن يَحتَرم «إيمان» غيره عن طريق الفَهم وليس عن طريق الجَدَل. يَدخُل فى ذلك أنه حتى مقولة

أن «الكل أبناء إبراهيم» مقولة تحتاج إلى تدقيق، فالدين ليس نَسَباً عائلياً، ولكنه اختلاف «مُعتَقَدات إلهية ورسولية» مُتجاوزة للنسب - البَشَرى - على فرض تَحَقُّقه.

وحتى إذا تَقَدَّم منطق «الحوار» على منطق «الفهم»- فالأولى بأى «حوار» دينى يقوم عليه «الأزهر» أن يكون إسلامياً- مسيحياً، وأن يَجرى أولاً بينه وبين الكنيسة القبطية، وهى واحد من أهم مُكَوِّنات الشخصية المصرية والثقافة الوطنية من قبل دخول الإسلام إلى مصر وبعده.

وهنا قد يُصبح الحوار - على قاعدة الوَطَن الواحد - مُجدياً ونافعاً لأنه على أرض وإلى هَدَف.

٦- قِمَّة فرانكوفونية فى بيروت مع الخريف القادم:

مع أواخر الثمانينات وبداية التسعينات عادت فرنسا - وكأن بنود «دى مارانش» وَصايا - لها جَدوَل أعمال جاء الدور فيه على «الفرانكوفونية»، والظن أنها وسيلة للنفاذ صالحة مع متغيرات شديدة الأهمية طرأت على الساحة العالمية.

والواقع أن الأفكار - الوَصايا - التى عَبَّرَ عنها الكونت «ألكسندر دى مارانش» عادَت تَطرَح نفسها فى عالَم مُتَغَيِّر:

١- الاتحاد السوفيتى يَتَرَنَّح، وهو على وشك السقوط.

٢- ودُوَل كانت تحت سيطرته تَنفَلِت الآن من قبضته (بولندا - تشيكوسلوفاكيا - بلغاريا - وغيرها) وتحاول البحث عن مكان لها يَصِلها بأوروبا الغربية.

٣- وفرنسا - والرئيس فيها فى ذلك الوقت «فرانسوا ميتران» - تَتَخَوَّف من انفراد الولايات المتحدة بأمور العالَم ومصائره.

٤- واللغة الإنجليزية - وهى عِماد لغة العُلوم والتكنولوجيا والإنترنت - تَتَوَسَّع بشدة وتزيح غيرها من اللغات، ومع اللغات حمولاتها الثقافية.

٥- ومن وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسى) فإن خطورة الاستيلاء على اللغة يمكن أن تكون مُقَدِّمة لإلغاء هَوِيَّة أصحابها. وإذن فإن اللغة الفرنسية - حاملة ثقافة فرنسا - ووعاء هَوِيَّتها الإنسانية والتاريخية - فى خطر.

٦ ـ إن أفريقيا تَتَحَوَّل بسرعة من ساحة حرب باردة بين الشرق والغرب، لتُصبح ساحة منافسة ساخنة بين الولايات المتحدة وبين فرنسا. وفي وقت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والغرب، كانت الولايات المتحدة وفرنسا «على نفس الجبهة إلى حَدٍّ ما» أمام عَدُوٍّ ماركسي مُشترَك ظَهَرَ في غينيا وفي مالي، ثم الكونجو وأنجولا - لكنه بعد انتهاء الحرب الباردة تباعَدَت المواقف مع تَبايُن المصالح.

□

والواقع أن الذى يُتابع الخلافات الأمريكية ـ الفرنسية يستطيع أن يلمح كيف تَطَوَّرَت الأمور بحيث جَرى - ولا يزال يجرى - تَدعيم «الفرانكوفونية» لكى تَدخل المنافسة الساخنة مع الولايات المتحدة الأمريكية - فى أفريقيا وخارجها أيضاً.

ومن المفيد - مثلاً - مُلاحَظة ما كَتَبَه «جورج بول» مساعد وزير الخارجية الأمريكي (مع «دين راسك» - على عهد «كنيدى» و«جونسون») فى مذكراته - وقَوله فيها أنه: «طوال السبعينات والثمانينات لم يكن لدى الولايات المتحدة مانع من تنشيط «الفرانكوفونية» لأنها كانت فى خندق قريب من خنادقنا فى أفريقيا!»

ومن المفيد أيضاً مُلاحَظة ما رَواه «كلود ووتيير» فى كتابه «أفريقيا و ٤ رؤساء من فرنسا» (هُم «ديجول» - و«بومبيدو» - و«جيسكار ديستان» - و«ميتران») - ومُؤدَّاه «أن الخلافات بين الولايات المتحدة وفرنسا - بعد انتهاء الحَرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي - احتدمت فى أفريقيا بسبب الرفض الأمريكى لدور فرنسى خاص فى القارة السوداء مع ظروف مُتَغَيِّرة».

وكَشَفَ «ووتيير» أنه أثناء محادثات على أعلى المستويات بين الولايات المتحدة وفرنسا وَرَدَت عدة مَطالب فرنسية لم تقبل بها واشنطن:

ـ أحد المطالب الفرنسية أنه بسبب القرب الجغرافى عبر البحر الأبيض، وبسبب العلاقة القديمة (الاستعمارية)، وبسبب سيادة اللغة الفرنسية - فإن فرنسا لا بد أن يُعتَرَف لها فى القارة الأفريقية بنوعٍ مما يُعتَرَف به للولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية طبقاً لـ«مَبدأ مونرو» الذى يَقبَل العالَم به أن أمريكا اللاتينية اختصاص للولايات المتحدة أصيل - لا يَدخل فيه طَرَف أجنبى، وإذا دَخَل فبحساب وبعد إذن.

ـ مَطلَب آخر عَبَّرَ عن نفسه ـ على مائدة المفاوضات ـ بطريقة فَجَّة تَرى ضرورة الاعتراف بأن أفريقيا هى منطقة «صيد محفوظ» chasse guardée لفرنسا، ومَفهوم العِبارة أنها عَودة إلى أيام كانت مَوارد القارة فيها نَهباً بالقِسمَة بين الدول الكبرى وشركاتها !

ـ وفيما كَتَبَه «ووتيير» وغيره ـ مثلاً ـ إن كلا من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية اتخذت لها فى القارة الأفريقية رجالاً مَحسوبين عليها، ترعاهم وتدعمهم، ولسنوات طويلة كانت فرنسا حامية رَجُل مثل «جان بيدل بوكاسا» الذى قام بانقلاب فى جمهورية أفريقيا الوسطى وأعلن نفسه إمبراطوراً، وأمَرَ بصُنع «تاج» فى محل «كارتييه» فى باريس يقوم هو بوضعه فوق رأسه «على طريقة نابليون» ـ وكانت فرنسا توافق، وكان رؤساؤها وبينهم «جيسكار ديستان» يَقبلون هدايا «بوكاسا» من قطع الماس والزُّمرُّد (وسَبَّبَ ذلك ضجَّة كبيرة فى فرنسا).

وفى مقابل ذلك فإن «جوزيف ديزيريه موبوتو» أصبح لأكثر من عشرين سنة رَجُل الولايات المتحدة القوى فى الكونجو، وقد سَمَحَت له الولايات المتحدة وساعَدَته بالتخطيط كى يأسر منافسه الوَطنى «لومومبا» زعيم استقلال الكونجو، ثم يقتله وهو أسير، ثم يَعتَرف أحد عُملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن جثة «لومومبا» لم يُعثر عليها لأن الأوامر قَضَت باستعمال «منشار كهربائي !» يُحَوِّلها إلى «شرائح» تُبَعثر فى بُقَع مختلفة من الأرض، أو مواقع مُتَباعِدة من الماء فى نهر الكونجو المُتَدَفِّق بسرعة نحو المحيط.

ـ وكان الصراع على المواد الخام، والبترول ـ كالعادة أوَّلها ـ حرباً مستمرة بين عملاقين أحدهما أمريكى والآخر فرنسى. الأمريكى هو شركة «أوكسيدنتال» والفرنسى هو شركة «إلف آكويتين» ـ والموقعة بينهما كانت ـ ولا تزال حتى الآن ـ شبه حرب فى جمهورية «الكونجو برازافيل» !

وقد وَصلَت الصراعات بين القوتين ـ بوكالة الشركات الدولية الكبرى ـ إلى حَدٍّ استباحة منطقة البحيرات العُظمى باستغلال الأجناس والأعراق والقبائل، وتَحويل قلب أفريقيا («رواندا») إلى فَيَضان دَمَوى يُعيد تلوين البحيرات باللون الأحمر.

وخلال هذه المنافسة الساخنة فإن القوة الأمريكية فى أفريقيا دَخَلَت إلى الساحة بنفسها وباسمها وتحت عَلَمها مُعتَمِدة على غَلَبة لها فى العصر كاسحة - وأما فرنسا فقد حاوَلَت وراء واجهة «الفرانكوفونية»، وبمنطق تَرَدَّدَ كثيراً فى الأدبيات الأساسية «للفرانكوفونية» مُؤَدَّاه أنه فى «مجال السياسة الخارجية فإن المصالح تمشى على خطٍّ متواز مع الثقافة، وأنه فى حالة فرنسا بالتحديد فإن هذه المقولة أصدق ما يكون !»

□

كان الصراع الثقافى - مُتوازياً مع الصراع الاقتصادى - عنيفاً على «روح» أفريقيا بمقدار عنفه على «موارد» أفريقيا.

وكانت الولايات المتحدة تُقَدِّم أسلوبها فى الحياة إغراءً، وتُقَدِّم تكنولوجيا التَقَدُّم إقناعاً - وفى نفس الوقت فإن فرنسا اعتمدت على «اللغة» وعلى «الثقافة» قاطرات تَجُرُّ المصالح وراءها.

وفى خضم هذا الصراع أصبح للوجه الأمريكى فى القارة رجال - وللوجه الفرنسى رجال.

وكان أبرز الوجوه الفرنسية - رجال من أمثال «ليوبولد سِنجور» (السنغال)، و«هوفيه بوانييه» (ساحل العاج).

ومن المفارقات أنه فى خضم الصراع انتزعت فرنسا واحداً من رجال أمريكا هو «سانا أباتشى» الذى استولى على الحُكم فى نيجيريا، ونَهَبَ مليارات من مواردها. وقد قَرَّرَ الانضمام إلى مجموعة «الفرانكوفون» طلباً للنجاة، لكن الولايات المتحدة طارَدَته بانقلاب من داخل جيشه فَتَح الباب لحُكم مَدَنى - صَديق لأمريكا - يَرأسه جنرال سابق هو «أوباسنجو» الرئيس الحالى لأكبر بَلَد أفريقى فى تِعداد السكان.

وفى هذا الإطار وليس فى غيره يَتَغَيَّر النظر إلى عملية إحياء «الفرانكوفونية» التى أخذت مع بداية التسعينات تَتَّجه بنشاط ظاهر إلى العالَم العَرَبى.

....

....

[وبرغم أننى واحد من الذين يَتَحَمَّسون لأى محاولة لوقف الهيمنة الأمريكية على العالم حتى لو كانت فى إطار مُنافَسة - فإن الحالة هنا أكثر تَعقيداً، بمعنى أن المنافسة الساخنة أمريكية وفرنسية يمكن متابعتها باهتمام والاستمتاع بمشاهدتها وعن بُعد، لكنها فى البداية والنهاية صراعٌ لا شأن للعَرَب فيه - لا فى مجال المصالح - ولا فى مجال اللغة وحمولاتها الثقافية.]

....

....

ولم يلتفت كثيرون من العَرَب إلى معنى اختيار الدكتور «بطرس غالى» أميناً عاماً للأمَم المتحدة فى أوائل التسعينات، ومع «لحظة توفيقية» بين الولايات المتحدة وفرنسا.

ولم يلتفت كثيرون إلى معنى اعتراض الولايات المتحدة على تجديد خدمة الدكتور «بطرس غالى» لمدَّة ثانية كانت من حَقِّه تقليدياً - لأن رَغبات التوفيق تَعَثرَت، وحَلَّت محلَّها تلك المنافسة الساخنة، مما اقتضى اختيار «كوفى عنان»، وتجديد اختياره هذه الأيام لمدَّة خِدمة ثانية.

....

....

[وقد سمعتُ أحد وزراء الخارجية الأوروبيين يقول فى مَعرَض محاولة لشرح ما جَرى ويَجرى فى الأمانة العامة للأمم المتحدة - وقوله بالنص:

«قَضى بطرس غالى طول المدَّة التى قضاها فى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة وهو يحاول إقناع أمريكا أنه ليس مُرَشَّح فرنسا - لكن «مادلين أولبرايت» كانت تَعرف أكثر.

وقَضى كوفى (عنان) الشهر الأوَّل من عَمَله سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة يُحاول إقناع أوروبا أنه ليس مُرَشَّح أمريكا - ثم تَمالك نفسه وكَفَّ عن المحاوَلة، وتَرَك للأطراف أن يأخذوه كما هو، وإذا حَسَبوه مُرَشَّح أمريكا فهذا حقهم، وأما هو فلم يَعُد مَشغولاً بإقناع أحد - بشىء!»]

....

....

وبحلول المنافَسة مَحَل اللحظة التَّوفيقية فى العلاقات الفرنسية ـ الأمريكية ـ ومجىء «عَنان» ـ عُرِضَ على «غالى» وقَبِل أن يكون سكرتيراً عاماً «للفرانكوفونية».

(وربما أسَجِّل هنا أن رجالاً من طراز «كوفى عنان» و«بطرس غالى» ـ رجالٌ لهم قيمة فى حَدٍّ ذاتهم ـ وكلٌّ منهما مُؤهَّلٌ للمَنصب الذى وَصَلَ إليه ـ لكن هناك فارقاً بين القيمة فى حَدٍّ ذاتها ـ وبين الملابَسات التى تَحمِل القيمة إلى نقطة الوصول).

....

....

[وفى أواخر الثمانينات وبداية التسعينات بَدا أن مصر تَقتَرب دون داعٍ من «الفرانكوفونية».

وأتذكر أننى سألتُ، وفى السؤال استغراب يُقارب القلق، عن السبب ـ وقيل لى والقائل مسئول: «إن مصر لم تَقبَل بأكثر من وَضع المراقب».

وكان رَدِّى أن مصر عندما تريد وضع المراقب ـ سواء فى أفريقيا أو غيرها ـ عليها أن تطل إما من نافذة سياستها الأفريقية المستقلة، وإما من خلال عضويتها كمؤسِّس فى منظمة الوحدة الأفريقية ـ وإما من موقعها الأهم من خلال جامعة الدول العَرَبية.

لكنه يَبدو لى غير مَنطقى أن تُراقِب مصر من موقع «الفرانكوفونية» نفسه.]

....

....

على أن مصر راحَت تَقتَرب أكثر، وكانت المحاولة حثيثة تُشَجِّع اقترابها باعتقاد أنه إغراءٌ لغيرها، ونداءٌ أن الباب مفتوح.

□

ثم كان أن تَقَرَّر لأول مرة عقد مؤتمر «للفرانكوفونية» على مستوى القِمَّة - فى عاصمة عَرَبية - هى بيروت، والموعد أكتوبر القادم (٢٠٠١).

وذلك فى أقل القليل وَضع غير مريح، بمعنى:

١ - إن الدول العَرَبية كلها - وليس بعضها - من واجبها أن تُتابع ما يَجرى على الساحة العالمية وتَهتَم به وتأخذ حَرَكَته فى علمها وفى حسابها. لكنها وهى تفعل ذلك عليها أن تَعرف أنها طَرَف مُستَقل له مجالاته الشرعية فى العَمَل الجماعى الدولى وأولها الجامعة العَرَبية ومؤسساتها - والأمم المتحدة ونظامها - ومَجالات أخرى مُنَسَّقة من العَمَل الجماعى تَهتَم بالمصالح وتحصيل العلوم والتكنولوجيا إلى آخره. أما معسكرات القوى العُظمى، أو مُنافَساتها، أو تَحَيُّزاتها - فذلك ما لا شأن لها به.

٢ - إنه إذا كانت الدول العَرَبية - أو بعضها - تريد أن تكون حارسة لغة وحافظة ثقافة، فاللغة العَرَبية أَوْلى بالرعاية خصوصاً وهى أكثر انتشارا من اللغة الفرنسية، وليست أقل غِنى، ثم إن هذه اللغة الآن فى مأزق لا تجد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستَجَدَّة. تَستَشعرها فرنسا - وهذا حقها - ولا يَستَشعرها العَرَب، وإذا استشعروها تَركوا لغتهم إلى مُنظمة فى مُهِمَّتها «حراسة اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية».

٣ - إنه إذا كانت الدول العَرَبية فى حاجة إلى تأثير دَولى نافذ فإن إعادة تنظيم الجامعة العَرَبية - مع قادم جديد يُدير شئون أمانتها العامة - أَوْلى من زيادة تأثير مُنَظَّمة فرنسية هَمُّها تعويض إمبراطورية مضى زَمَنها بدائرة أخرى للنفوذ على نحو ما فَعَلَت الإمبراطورية البريطانية: «الفرانكوفونية» - مثيل فرنسى «للكومنولث».

....

....

ولعله من المفيد هذه اللحظة أن تكون هناك مراجعة تطلب التَثَبُّت واليقين:

- نعم لفرنسا من قلب أوروبا.

- ونعم لفرنسا صاحبة التاريخ وشريكة الحضارة.

ـ ونعم للفِكر الفرنسى والثقافة الفرنسية.

ـ ونعم لفرنسا جواراً شمال البحر الأبيض.

لكن فرنسا التى تَقصد التعويض عن الإمبراطورية مَسألة أخرى !

....

....

ويقال ـ ضِمن ما يُقال ـ أن هذه القِمَّة «الفرانكوفونية» القادمة قَصد مَقصود لدَعم لبنان ـ البَلَد المضيف لها.

ثم إن ترتيبات القِمَّة قاربت أن تكتمل ويَصعُب الرجوع عنها أو إلغاؤها.

لكنى أجازف وأتَجاسَر على سؤال:

«ألا يُمكن أن تكون القِمَّة القادمة (فى بيروت ـ أكتوبر ٢٠٠١) ـ تَجَمُّعاً لأصدقاء لبنان وأحبابه يَتَنادون إلى الإحاطة به عرفاناً بقيمته وفضله (حتى على اللغة العَرَبية والثقافة العَرَبية)؟ ـ وأليس واردا أن لبنان هذه اللحظة يحتاج عالما يحرسه بأكثر مما تحتاج اللغة الفرنسية إلى حارس أفريقى أو عربى؟ـ ثم ما الذى يمنع أن يتحول مؤتمر أكتوبر القادم فى بيروت على مستوى القمة، إلى تجمع من أجل لبنان وحوله وتكون إدارته وتنظيمه ـ جهدا مشتركا بين منظمة «الفرانكوفون»، وجامعة الدول العربية، والأمم المتحدة، والمؤتمر الإسلامى، وحتى مجموعة دول الخليج؟

هل يُمكن؟

ولِم لا؟»

....

....

لسوء الحَظ فإن ذلك السؤال سوف يَظَل بلا إجابة لأن العالَم العَرَبى الآن عَجَلة تَجرى مُسرعَة ـ ولا تَعرف إلى أين ؟



المؤامرة والسياسة والجريمة!

١ ـ الحقيقة والخيال:

أعتَرف على استحياء، ومُعتَذِراً بصدق ـ لأننى منذ سنوات طويلة اختصرت ـ ولا أقول حَذفتُ تماماً ـ أدَب الرواية من قِراءاتى. وكان ذلك حُكم ضرورات، أو حُكم أولويات تَفرض نوعاً من النظام، وإلا فهى الفوضى وَسَط الزحام فى أوقات اتسع فيها حَجم المادة المقروءة أو المطلوب قراءتها ـ باتساع الفضاء ـ واقعاً وفعلاً.

وحتى لو لم أكن اختصرت أدَب الرواية من قراءاتى فلست أتَذكَّر أننى حاوَلتُ فيما كَتَبتُ عَرض شىء مما قَرأتُ فى الأدَب (أدَب الرواية أو أى أدَب غيره) عالمياً أو عَرَبياً ـ وكان ظنى أن ذلك ليس اختصاصى ولا هو دَورى. فالأدَب كله «روائياً أو غير روائى» له أصحابه من النقاد العارفين بأساسه وبنيانه ووَظيفته وزخرفه ـ وأما الآخرون غير هؤلاء النقاد فمُهمَّتهُم أن يقرءوا ـ يعجبهم ما يقرءونه أو لا يعجبهم. وذلك قصاراهم لا داعى للتَجاوُز بَعده ولا للتَّزَيُّد.

□

وبرغم ذلك فإننى الآن على وشك الإتيان بمخالفة مُزدَوَجة للنظام وللاختصاص معاً، وذلك بالإقدام على عَرض «قِصَّة روائية»، وهو اجتراء قد يَشفع لى فيه أن القِصَّة لها بُعدٌ سياسى.

والحقيقة أننى وَجَدتُ القِصَّة فى عُمومها «أغرب من الخيال» ـ وبالتالى وَجَدتها «أقرب إلى الحقيقة». فالخيال حين تكون له قيمة لا يخترع من العَدَم، وإنما قيمته أن يَصِف ما يرى على السطح وتحت السطح ـ ثم يَغوصُ بعد ذلك إلى «المحتَمَل» و«الممكن»، وذلك هو الفارق بين «الخيال» قادِراً على الخلق، وبين «العَبَث» تائِهاً فى العَدَم!

والقِصَّة الروائية التى أجازف بالاقتراب منها فى هذا الحديث عنوانها «العَمَلية هِبرون» ـ وقد صَدَرَت أواخر سنة ٢٠٠٠ ـ وكان صُدورها فى لندن عن «مجموعة

الإعلام الدولى»، وهى مُؤسَّسة جديدة على عالـم النشـر - فيما يبدو - لأنى لم أسمع بها من قبل، ولم أجد لها قائمة مَنشورات سابقة.

□

ومُؤلف الرواية هو «إريك جوردان»، وقد سمعتُ عنه من قبل، ولكنى لم أسمع به «مُؤلِّفاً» أو «كاتِباً» - وإنما سَمَعتُ عنه مَسئولاً مُهِمًا فى المخابرات المركزية الأمريكية، وهى وكالة لها شأنها على اتساع القارات - كما أنها فى منطقة الشرق الأوسط بالتحديد قضية شديدة التعقيد، مُشتَبكة - تقريباً - مع كل حَدَث. ولم تكن هناك مُبالغة فى الطريقة التى قَدَّم بها ناشر القِصَّة لحياة مُؤلِّفها حين ذكَرَ فى الثنية الخلفية للغُلاف وهو يُعَرِّف به أن «إريك جوردان» دبلوماسى أمريكى بارز، وهو فى نفس الوقت - وراء المظهر - من أركان العَمَل السِرِّى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأن مجال نشاطه مُعظمه فى منطقة الشرق الأوسط وبعضه تَجاوَز هذه المنطقة واسعاً حولها فى أوروبا وأفريقيا. وفى وقتٍ من الأوقات كان «إريك جوردان» «مَسئول العمليات» فى العالم العَرَبى. وفى خاتِمة هذه الفترة من حياته انتدب للعَمَل فى البيت الأبيض مُستَشاراً للرئيس «رونالد ريجان» مُختَصًا بمُتابعة الإرهاب، ومن البيت الأبيض وفى إطار مجلس الأمن القومى الذى يُديره مُستشار الرئيس للأمن القومى قام «إريك جوردان» بمَهام شديدة الحساسية فى الشرق الأوسط!

وتلك كلها - وكما وَرَدَت فى التَعريف بمؤلف القِصَّة - معلومات صحيحة لا مُبالغة فيها ولا تَهويل.

□

وقد سَمعتُ عن «إريك جوردان» لأول مرة سنة ١٩٦٩، وفهمتُ وقتها أنه مسئول المخابرات الأمريكية فى ليبيا على عَهد المِلك «إدريس السنوسى»، وأن تَكليفه هناك كان مُساعَدة المخابرات الليبية مع بداية نشأتها، وأنه حتى يَتَحَقَّق ذلك أو شىء منه فإن «جوردان» يَقود بنفسه فريقاً أمريكياً ومحلياً يُتابع أمن النظام المَلكى فى سنواته الأخيرة خصوصاً والملك «إدريس» نفسه عَجوزٌ جاوَز الثمانين، واهتمامه بشئون المُلك مَحدود، وهو علاوة على تَقَدُّم سِنِّه لم يُنجِب وَلِىَّ عَهد تاركاً الدَور لابن أخ له

دون اعتراض ودون حَماسة - وقد تَبَدَّى ذلك للناس زُهداً فى الدنيا، ولعله كان كذلك.
لكن المشكلة أن ليبيا بَلَدٌ مُهِمٌ للولايات المتحدة الأمريكية - فهى مُمتَدَّة على ثلث الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض، ولها عُمقٌ واصِلٌ إلى قلب أفريقيا، مُجاورٌ لستة بُلدان أفريقية هى أفريقيا شمال الصحراء كلها، ثم إن ليبيا مَوطن حقول نفط غنيَّة يُضاعِف من غِناها أن مَوانئ شحنها على شاطئ البحر الأبيض مُباشرة وعلى مَوقع نظر من «مالطة» و«جنوب إيطاليا». وأخيراً - وهذا هو الأهم - فإن ليبيا بَلَدٌ مَحدود السكان، وبالتالى مَحدود المشاكل، وخُلاصة ذلك أن البَلَد قاعِدة مَطلوبة - مأمونة - لمخَطَّطات إمبراطورية - وبالفعل فقد قامت على أرضها قاعِدة عسكرية بريطانية هى قاعِدة «العَظم» الملاصِقة لـ«طُبرُق»، وقاعِدة أمريكية كبرى هى قاعِدة «هويلس» الملاصِقة لـ«طرابلس» - وذلك كله : الموقع والبترول والقواعِد - قابل للحماية بسهولة، شريطة أن يكون الجهد واعياً يرى الخطر إذا لاحَ، ويَسبِق الخطر قبل أن يَتأكَّد!

وكان «إريك جوردان» هو الرَّجُل الذى تَحَمَّلَ بالمسئولية مُمَثلاً للمخابرات المركزية الأمريكية ومُفَوَّضاً منها!

وفجر يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٦٩، وفى دار القنصلية المصرية ببنغازى، وفى وجود العقيد «معمر القذافى» أمامى فى صالونها يَحكى لى فى أول لقاء بيننا قصة قيام ونجاح ثورة الفاتح من سبتمبر كى أنقل ما أسمعه منه لـ«جمال عبد الناصر» - تَرَدَّدَ أمامى مرة أخرى اسم «إريك جوردان» باعتباره جاسوس المخابرات المركزية «الغامِض».

وكان داعى تردد اسمه أن طائرة عسكرية أقلعَت من قاعِدة «هويلس» - قُرب طرابلس - هاربة فى الثانية الأخيرة بعَدَدٍ من «الرجال تَتَعَرَّض حياتهم للخطر إذا تَغَيَّرَت الأحوال فجأة»، وكان بينهم «مصرى» هو فى الأصل ضابط بوليس عَمَلَ فى ليبيا، وأصبح مُقَرَّباً من القصر عن طريق عائلة «الشالحى»، وكان الملك «إدريس» يَعتَبر أبناء هذه العائلة أبناء له يَرعاهُم ويُقَرِّبهم. ويَبدو أن ضابط البوليس المصرى السابق كان فى ذلك الوقت وثيق الصِلة بهم، ولذلك كان «مَطلوباً».

وكان الظاهر من الروايات أن «إريك جوردان» وهو المسئول عن أمن النظام فى ليبيا فوجئ بقيام الثورة ونجاحها فى ساعات، ولم يَستَطع ترتيب عَمَل مُضاد

يَتَكَفَّل بردِّها، وبالتالى أصبَحَ هَمُّه الأول أن يَنجو بنفسه قبل أن يُطبق النظام الجديد حصاره على مَداخل البَلَد ومَخارجه، وأن يأخذ معه إلى النجاة «عَناصر» اعتبر سَلامتها ضرورية، وضمنهم ضابط البوليس المصرى السابق الذى أصبح فيما بعد واحداً من كبار رجال الأعمال العَرَب، يَتَّخذ من جنيف فى سويسرا مَقَراً لإدارة أعماله، وفيما عَرَفتُ فإنه راكَم ثروة طائلة من نشاطٍ اتسع فشمَل مَجالات عديدة يَرتَكِز مُعظمها على البترول وصناعته وتجارته.

وبعد سنوات - وفى الفترة ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ - ظَهَرَ «إريك جوردان» مرة أخرى نَجماً فى مُجتَمَع العَرَب فى جنيف، وإذا هو الآن «مُستَشارٌ» للرجل - ضابط البوليس السابق - الذى قام بتهريبه من ليبيا فَجر يوم قيام الثورة، ثم إذا هو مَسئولٌ عن جانب من نشاطه التجارى والمالى. والواقع أن ذلك كان نموذجاً تَكَرَّرَ كثيراً فى علاقات عَدَدٍ من رجال الأعمال العَرَب «الجُدُد» مع مسئولين سابقين فى المخابرات الأمريكية والأوروبية، فقد جَمَعَتهم الظروف معاً فى أيام سَبَقَت، ثم تَغَيَّرَت الأحوال فإذا الطرَف العَرَبى رَجُل أعمال كبير، وإذا الموظف الأمريكى أو الأوروبى السابق يَبحَث عن فُرصة - يَجدها فى خِدمة صديقه الذى عَرَفَه ذات يوم.

□

والمهم أنه فى الثمانينات اختفى «إريك جوردان» من جنيف ومن أعمال ضابط البوليس المصرى السابق، ثم ظَهَرَ فى واشنطن مُستشاراً للرئيس «رونالد ريجان» لشئون الإرهاب.

ومَضَت سنوات واختفى «إريك جوردان» من واشنطن ليَظهَر فى نيويورك، ثم يُعاود الظهور فى بعض العَواصِم الأوروبية والعَواصِم العَرَبية - وهو هذه المرة رَجُل أعمال لحِساب نفسه.

وأخيراً سنة ٢٠٠٠ أطَلَّ «إريك جوردان» على الساحة مُؤَلِّفاً لقِصَّة روائية ظَهَرَت فى لندن تحت عنوان «العملية هبرون»، ثم وَصَلَت إلىَّ من صِديقٍ غالٍ اقترح «أن أقرأها، مُؤَكِّداً لى أن قراءتها ليست مضيعة لوقتى». وتَلَكَّأتُ أسابيع قبل قراءة القِصَّة، فلم يَخطُر لى أن فيها ما يَعنينى. ثم كان أن وَجَدتها أمامى ذات ليلة بَحَثتُ فيها عن «شىء» لا يَعلق منه بالفِكر أثرٌ أقرؤه قبل أن أنام دون خَطَر من إثارة خَواطِر

تَتَداعى ولا تَتَوَقَّف. وكان أننى لم أنم ليلتها حتى فَرَغتُ من قِراءة القِصَّة كلها - ٣٧٠ صفحة!

□

وقائع القِصَّة - وكاتِبها خبيرٌ يَعرف الناس والأجواء - تَتَلَخَّص فيما يلى:

رئيسٌ أمريكى من الحِزب الجمهورى اسمه الرئيس «دوجلاس» يُراودُه شعورٌ بأن إسرائيل تُغالى فى طلباتها من الولايات المتحدة لدَرَجَة تُؤدِّى لتَعريض المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط للخَطَر. ورغم أنه يَتَجاوَب «بالأفعال» مع المطالب الإسرائيلية، إلا أنه فى «النوايا» يُحاول نوعاً من المقاومة. وهو على وَشك أن يترك البيت الأبيض بانتهاء مُدَّة رئاسته، لكنه غير مُطمَئِن إلى أن مُرَشَّح حِزبه الطبيعى فى الانتخابات القادمة، وهو نائب الرئيس «هين» - يَملك الكفاءة اللازمة لمُقاومة طلبات إسرائيل فى «الأفعال» أو فى «النوايا». ثم إنه يَعرف أن المرَشَّح الديمقراطى فى هذه الانتخابات القادمة وهو عُضو الكونجرس «ويستليك» صَديقٌ حَميم لإسرائيل، ومُستَعِدٌّ لتَلبية كافة طلباتها مهما كان ضَرَرُها على المصالِح الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط.

ويَحار الرئيس «دوجلاس» كيف يَتَصَرَّف؟ - ثم يَحزم رأيه على إقناع أحد زعَماء الجمهوريين الكبار ممن يَثِق فيهم، ويَعرف صِدق وَلائهم لوَطَنهم الأمريكى، وهو السناتور «جونسون»، حتى يَدخل المعركة ساعِياً للحصول على تَرشيح نفسه ويَفوز بتَرشيح حِزبه فى مؤتمره القادم، ثم يَخوض انتخابات الرئاسة عن الجمهوريين.

ومع أن الرئيس «دوجلاس» مُضطرٌّ فى العَلَن إلى إظهار تأييده لترشيح نائبه الضعيف «هين» فإنه من وراء الكواليس يَدعو لـ«جونسون»، وأكثر من ذلك فهو مُستَعِدٌّ لإقناع «هين» بأن يَقبَل دخول المعركة القادمة نائباً للرئيس مع «جونسون» أيضاً كما هو الآن معه هو («دوجلاس»)، وهو يَظُن أن نائبه بضَعف شخصيته مُستَعِدٌّ للقبول لأن مَنصِب «نائب الرئيس» «فى اليَد خَيرٌ من مَنصِب «الرئيس» على الشجَرة»!

□

وعبر المحيط وعبر البَحر وعلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية فإن دائرة صُنع القرار فى تل أبيب يُساورها قلق. وداعى القلق أن رئيس وزراء إسرائيل واسمه فى القصَّة «أهارون إيشيل» يَشعُر أن إسرائيل تَحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يُوَفِّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تَقدِر عليه جَماعات الضغط المؤيِّدة لها، وما هو أنفع من أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صَفٍّ طويل مُتَعاطِف من رُؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما.

ووَسَط هذه الهَواجِس يَجِيء رئيس المخابرات الإسرائيلية (الموساد) «بنيامين شتيرن» إلى رئيس وزرائه بخطَّة جَسورة لا تَخطُر على خيال، مُؤدَّاها أن إسرائيل بمقدورها أن تَضَع أحد عُملائها فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، ويكون ذلك هو الضمان النهائى الذى لا ضَمان بَعده ولا ضَمان فوقه، فهو كفيل بأن يُحَقِّق لها كل ما تَحلم به، وأبعَد وأوسَع من الحلم أيضاً!

لكن رئيس الوزراء «إيشيل» خائف لأن العملية مُعَقَّدة إلى درجة تَصعُب إدارتها وقد تَستَحيل سِرِّيَّتها - وإذا انكشف أمرها فى الولايات المتحدة انتهى النفوذ الإسرائيلى كله فى لمحة بَصَر لأن الرأى العام الأمريكى سوف يرى بعينيه تَصميم إسرائيل «للسيطرة على قراره» و«اللعب بمُقَدَّساته»، و«استغلال الديمقراطية الأمريكية» ضدَّ «روح هذه الديمقراطية» وضدَّ «الأمن القومى الأمريكى»، وذلك وَضعٌ لا يُجدى معه رَتْق أو تَرقيع كما حَدَث عندما انكشف أمر الجاسوس الأمريكى «بولارد» الذى كان يُسَرِّب إلى «الموساد» وَثائق وأسرار المخابرات الأمريكية العسكرية والسياسية، ومما اعتُبِرَ تهديداً للأمن القومى. وتَرَتَّب عليه أنه لم يَعُد فى مَقدور أى رئيس أمريكى مهما كانت دَرَجَة انبهاره بإسرائيل أن يُصدِرَ عَفواً عنه (وكان «كلينتون» آخر هؤلاء الرؤساء الأمريكيين الذين أرادوا لكنهم فَشَلوا)!

أخيراً وبعد تَرَدُّد يَقبَل رئيس الوزراء «إيشيل» باقتراح مدير الموساد «بنيامين شتيرن». فهو اقتراح يَنطوى على مُجازفة خطيرة لكنه يَستحق المغامَرة مع أخذ كل الاحتياطات اللازمة - وحتى غير اللازمة.

وهكذا يُكلَّف «تيرون» وهو مدير مكتب «الموساد» فى واشنطن بأن يكون مسئولاً عن العملية «هِبرون» بالتنسيق المباشر مع الجنرال «شتيرن» مدير «الموساد»، كما أن «تيرون» يَحصُل على صَلاحية الاتصال المباشِر «برئيس الوزراء إيشيل» على تليفونه الخاص وفى غرفة نَومه - إذا وَجَدَ داعياً يَقتَضى ذلك ليلاً أو نهاراً!

□

وفى وَسَط هذه العملية الكبرى تَجرى وقائع القِصَّة، وفيها يَظهَر أن «الموساد» رأى ضرورة تصفية أحد السفراء الأمريكيين جَسَدِياً - وهذا السفير هو «ريتشارد سورنسون» مُمَثل الولايات المتحدة فى عاصمة السوق الأوروبية «بروكسل» (بلجيكا) - والداعى إلى القتل أن السفير «سورنسون» صديق شخصى للرئيس «دوجلاس» - وكان مدير حَملته الانتخابية قبل تَعيينه سفيراً - لكنه الآن من مَوقِعه فى بروكسل يَقوم باتصالات مع بعض الأطراف العَرَبية، وهى اتصالات مُتَعَدِّدة الأهداف : فيها الاتصال لمجرد الاتصال (أى المعرفة عن قُرب)، وفيها الترويج لمبيعات (بينها السلاح)، وفيها التمهيد لمقترحات وصِيَغ (تَخدم مُفاوضات السلام قبل بَدئها وعند تَوَقُّفِها).

والسفير «سورنسون» ليس صديقاً لإسرائيل، ومشاعره نحوها ليست جَلِيَّة بما فيه الكفاية. ولأن تأثيره على الرئيس «دوجلاس» زائد، فإن بقاءه فى منصبه قد لا يكون له لزوم من وجهة نظر إسرائيل، ونظراً لأن استِهدافه بحَملة تشويه لسُمعَته قد يَجىء بأثر عكسى يضطر الرئيس للوقوف دفاعاً عنه أو عن نفسه - وهو أمرٌ غير مطلوب خصوصاً وإسرائيل على وَشك أن تبدأ العملية «هِبرون» - إذن فإن الحَلَّ المناسب هو تَصفية «سورنسون»، وتلك عملية سهلة لأن السفير «زير نساء» لا يستطيع مُقاومة «ساق عارية» و«صَدر نافر»، و«شفاه من حَبَّات «الكَرَز» تُنادى شفاهاً غيرها وتنفجر عندما تتلامَس الشفاه!»

□

وقد وَجَدَ «الموساد» هذه المواصفات المطلوبة لِغواية «سورنسون» فى فاتِنة صربية الأصل اسمها «جاكى ماركوفيتش»، وشخصيتها مَزيج خطر من القوة والقَسوة،

فهى مُصابة بالعُقَد من طفولتها لأن زوج أمها اعتدى عليها بانتهاك بَراءتها، وبَعدها ـ كذلك يَظهَر ـ فإنها خرجَت تنتقم من كل رَجُل خصوصاً إذا كان فى عُمر زوج أمها، أى فى منتصف الحياة، فلا هو الشباب ولا هو اليأس، وعليه فاستعدادهم للغواية يَسبق تَعَرُّضهم لها ـ وذلك ينطبق على السفير «سورنسون».

ويَتَّضِح من القِصَّة ـ والكاتب خبير مُجَرِّب ـ أن مخابرات الدول الكبرى حين تُقَرِّر التصفية الجسدية لشخص لا تُمارس القتل بعملائها، وإنما تلجأ إلى فئة من «القَتَلة الدوليين» جاهزين للعَمَل طبقاً لعقود، وقيمتهم أنه يَصعُب الوصول إلى آثارهم، بواقع أنه ليس لهم وجود فى الحياة السابقة لضحاياهُم ـ ومن ثم فهم ليسوا على قائمة المشتبه فيهم بالدافع إلى الجريمة. وأصعَب الجرائم استعصاء على الكشف هى الجريمة التى لا دافع لها عند القائم بها، فنقطة البداية فى أى تحقيق جنائى تبدأ عادة بالبحث عن «المستفيد من الجريمة»، فإذا لم يكن هناك مُستفيدٌ تأخَّر أو تَعَذَّر الإمساك بخيطٍ يُؤدِّى إلى فاعِل.

يَتَّضِح أيضاً فى السياق أن المخابرات المُتَمَرِّسة فى عملها حين تُكلِّف قاتلاً مُحترفاً بعملية تصفية جَسَدِيَّة لا تَفعَل ذلك مُباشرة، وإنما تُفَضِّل أن يَصدُر التكليف عن غيرها، أو على الأقل أن يبدو كذلك.

وكان ذلك ما حَدَث بالضبط فى تكليف «جاكى ماركوفيتش» الصربية الفاتنة باغتيال «سورنسون» السفير الأمريكى فى «بروكسل».

وفى هذه الحالة فإن «الموساد» تَصَرَّف بحيث ظنَّت «جاكى ماركوفيتش» أن التكليف، أى العَقد، الذى جاءها باغتيال السفير الأمريكى صَدَرَ عن المخابرات الإيرانية.

ثم حَدَث بعد «تصفية سورنسون» فعلاً أن «جاكى» لم تَجِد قيمة عَقدها كما هى العادة فى حسابها فى البنك ـ وتَحَقَّقَت من الخديعة. وراجَعَت مُمثلى «الموساد» فأنكَروا. وأحَسَّت أنهم فوق استغلالها يريدون «أكل حقها» بعد تَنفيذ ما طَلَبوه منها فى «بروكسل»، وقَرَّرَت بِجرح امرأة عَرَفَت من قبل ألَم الجراح ـ أن تنتقم.

□

وفى يوم إعلان نتائج الرئاسة الأمريكية كانت «جاكى ماركوفيتش» على موعد مع الانتقام من «تيرون» مسئول «الموساد» فى واشنطن - فقد كان هو الذى أنكَرَ عليها تحويل قيمة عقدها مُصَمِّماً على أن تكليفها كان من الإيرانيين وليس من الإسرائيليين - وليلتها تَعَقَّبَت «تيرون» إلى موعد سرِّى ذهَب إليه (ولم تكن تعرف) أنه لقاء مع «هيرون» - العميل الذى ساندته إسرائيل ليصل إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض.

وهكذا فإن «جاكى» تُفاجئ مدير «الموساد» فى واشنطن «تيرون» فى لحظة انتصاره الأعظم بعد نَجاحه فى وَضْعَ عميل لإسرائيل فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض - وتُصَوِّب إليه رصاص امرأة مَجروحة مُصَمِّمة على الانتقام منه، وبالفعل تَقتُله - لكنها تَقتُل معه رَجُلاً آخر يَتَّضِح أنه رَجُله المختار «هِبرون»، وهو فى نفس الوقت الرئيس الأمريكى المنتخب الجديد.

وهكذا فإن إسرائيل فى ذروة تَحقيق أوسَع أحلامها خَسِرَت - بمجرد مصادفة - عميلها الجاهز للرئاسة الأمريكية (فى ظروف حاسمة ونهائية) فى البيت الأبيض - وضَيَّعَت برصاص امرأة مَخدوعة ومجروحة ومُعَقَّدة - مدير محطة «الموساد» فى واشنطن والرَّجُل الذى حَقَّق لإسرائيل خيالها المستحيل.

□

هذا هو السياق العام للقِصَّة الروائية، وهو مثير، لكن الأكثر إثارة هو ما وراء الوقائع - ووراء النص لأسباب :

١ - لأن هذه أول مرة يكتُب فيها مسئول كبير فى المخابرات المركزية - عَمَل فى الشرق الأوسط وفى العالم العَرَبى بالتحديد - شيئاً عن تجربته فى العَمَل السِّرِّى بوَصف المسارح والمشاهِد، والمواقف والحوارات. وقد كَتَبَ كثيرون قبل «إريك جوردان»، لكن كتابتهم كانت مُقَيَّدة بما يمكن نشره من الوقائع، وبما يمكن السماح به من تحليل وتعليل. وفى إطار كتابة الرواية القصصية فإن الكاتب لا يصوغ من الخيال رواية، وإنما يصوغ من الحقيقة خَيالاً. وهو لا يَستَدعى من العَدَم تفاصيله، ولكنه يأخُذ من الوقائع هذه التفاصيل.

٢ - إن هذه أول مرة يكتب فيها مسئول كبير من المخابرات الأمريكية عَمَلاً من هذا النوع، ومن الواضح أنه اختار الأسلوب القصصى لكتابته حتى يُعطى نفسه الفرصة أن يبوح دون انطباق قوانين السِّرِّية عليه، ودون أن يُساءَل عما إذا كان استغل طبيعة وظيفته ليفشى أسرار أحداث وطبائع بَشَر، وعلاقات تَكشف وتُعلن ما كان يصح أن يَبقى عليه غطاؤه وستره!

٣ - وأخيراً فهذه أول مرة يكتب فيها مسئول كبير من المخابرات المركزية وتكون إسرائيل وسياساتها ووسائلها فى تنفيذ هذه السياسات - موضوع كتابته. وحتى إذا كان الأسلوب روائياً قَصَصِياً، فقد جَرَت العادة على أن كل ما يَتَعلَّق بإسرائيل مَكتومٌ مَحجوب.

....

....

هكذا قَدَّرتُ خصوصية رواية «العملية هِبرون» من أول صفحة - وكذلك قرأتها مرة واحدة - ٣٧٠ صفحة - ثم وجدتنى بعد ذلك أغامر بعرضها داخِلاً إلى اختصاص ليس لى، وفى مجال اختصرت وقتى معه.

وربما أضيف أننى لا أقترب من هذا العَمَل ناقداً أدَبياً، وإنما قارئاً سياسياً، لا تَشدُّه آفاق الخيال وإنما تَستَوقِفه لمحات الحقيقة المنثورة على أرضية العَمَل الأدَبى والماثلة على خلفِيَّته - والظاهرة فى مَشاهِده وحواراته.

والواقع أن هذه اللمحات من الحقيقة الملتَبسة بالخيال - أو الخيال الملتَبس بالحقيقة - هى بالضبط ما يَعنينى!

٢ - مؤامرة لصناعة رئيس أمريكى!

وقائع قصة «العملية هِبرون» (التى كتبها «إريك جوردان») تجرى بطول خمسة وعشرين فصلاً (٣٧٠ صفحة) - تبدأ حوادثها من الفصل الثانى للرواية لأن الفصل الأول تَشويق بوليسى لا داعى له هنا، وبَعده تَتَوالى وقائع القِصَّة بداية من الفصل الثانى.

ومَشاهد هذا الفصل الثانى تقَع فى مكتب «أهارون إيشيل» رئيس وزراء إسرائيل (من المحاربين القدامى فى السويس) وهو يَستعِد لاجتماع على دَرَجة عالية من السرِّية تُناقَش فيه تفاصيل خطة «العملية هبرون»، وهى خُطَّة تُقدِم بها إسرائيل على مُخاطرة كارثية الأبعاد لو انكشفت، لكنه إذا نَجَحَت العملية فإن إسرائيل سوف يكون لها فى البيت الأبيض عَميل يَجلِس فى المكتب البيضاوى رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية لأربع سنوات - قابلة للتجديد أربع سنوات أخرى، ويكون ذلك فى فترة حاسمة من تاريخ الشرق الأوسط، أى أن «رَجُل إسرائيل» على قِمَّة السُّلطة فى مَقدوره أن يُمَكِّن لها من ترتيب أمنها النهائى وسَيطرتها الكاملة حيث تُريد : فى مَوقعها، وحول مُحيطها الأقرَب والأبعَد - بما يَجعَلها فى القرن الواحد والعشرين لاعِباً أساسياً على مسرح العالَم.

ورئيس الوزراء الإسرائيلى يَظهَر فى المشهَد الأول من القِصَّة وهو يتَحاوَر مع الجنرال «بنيامين شتيرن» مدير «الموساد» (المخابرات العامة الإسرائيلية).

ومن خلال الحوار تَظهَر أول إشارة إلى تلك الخطة التى يَعرضها مدير «الموساد»، ويَبين من مَجرى الحِوار أن رئيس الوزراء قادر على تَصَوُّر إمكانية النجاح - لكنه خائف من جَسارة المخاطرة. ثم هو قَلِق من التكاليف المبدئية المقَدَّرة لإنجاحها - ويَخشى أنها كبيرة رغم تَواضُعها (فى مقاييس آخرين من غير الإسرائيليين - خصوصاً لو كانوا من العَرَب!)

ومن كلام مدير «الموساد» تَظهَر دَوافع إسرائيل إلى تلك المغامرة «المريعة» إذا انكشفت، و«البديعة» إذا نَجَحَت.

ومع أن مدير «الموساد» فى حواره مع رئيس الوزراء لا يُنكر نفوذ إسرائيل فى واشنطن حتى بدون «العملية هبرون» - لكنه كما يقول «لا يَستَطيع أن يَضمَن» - ويَرى شواهِد تَجعله لا يَطمئن، وهو يَعد من هذه الشواهِد ثلاثة :

○ «مَرات يُلِحُّون علينا - يَقصد الأمريكان - حتى نَتَجاوَب مع بعض المطالب الفلسطينية ولو «بطريقة تَجميلية» يَتَوَهَّمون بذلك أنهم قادرون على تَهدئة مشاعر أصدقائهم من الزعماء العَرَب، وتَسهيلاً عليهم حتى يَتَمَكَّنوا من احتواء «هَوَس» شعوبهم المعادية لإسرائيل».

ويَستَطرد مدير «الموساد» فى هذا الموضع فيقول لرئيس الوزراء: «يَتَصَوَّرون (أى الأمريكان) أن هناك «سَلاماً» مُمكناً فى المنطقة، ونحن كما تَعلم «يا سَيِّدى» نُرَتِّب خططنا على أساس أنه لن يكون هناك فى يوم من الأيام «سلام». وفى ربع القرن الأخير حاولنا شَغل العَرَب بأعداء آخرين غيرنا، وظَهَرَ أن ذلك فى إمكاننا : ففى ثُلث هذه المدَّة اعتبر العَرَب أن عَدُوَّهم هو روسيا - وفى الثُّلث التالى اعتبروا عَدُوَّهم هو إيران - وفى الثُّلث الأخير كان العَدُو هو العراق - لكن العَرَب لا يَثبَتون عند رأى، وهُم يعودون إلينا فى نهاية المطاف لأننا «العَدُو المفَضَّل» لديهم!»

يُواصِل مدير «الموساد» عَدَّ الشواهِد التى تجعله لا يَطمَئِن :

○ «الأمريكان يريدون منا - أيضاً - أن تكون علاقاتنا بأوروبا عن طريقهم - ولا تُعجبهم علاقاتنا مع ألمانيا، وهُم يُلحون علينا فى مَعرفة تفاصيلها ودقائقها. ونحن والألمان معنا نُفَضِّل الكتمان، ولا نَعرف لماذا هو حَق الأمريكان أن يَعرفوا كل شىء - دائماً - وفى وقته!»

○ هُم كذلك - الأمريكان أيضاً - لا يُقَدِّرون تماماً ضرورات تعاملنا مع روسيا ومع الصين. وقد تَمَلمَلوا لأننا بعنا للصين بعض المعدَّات التكنولوجية وفيها ما جاءنا عن طريقهم. والظاهر أنهم يَعتَبرون مُساعداتهم لنا مُبَرِّراً يَسمَح لهم بالوصاية على تَصَرُّفاتنا. ومع أنهم لم يَعرفوا إلا بجزء بسيط عن صَفَقاتنا مع الصين، إلا أنهم مع ذلك عاتَبوا وحاسَبوا. ولو أنهم عَرَفوا كل الحقيقة لأصابهم مَسٌّ من الجنون يَصِل بهم إلى حَدِّ الفرقعة!

وهذه شواهِد لا تجعلنا قادرين على النوم بلا أرَق!»

....

....

[خلال جَرَيان وقائع هذا الفصل تَظهَر «امتيازات» جواسيس «الموساد» عندما يقومون بعملياتهم السِرِّية سواء بمُفرَدهم أو بمعونة وحدات من القوات الخاصة. ويَتَّضح أن حَجم الامتيازات التى يَتَمَتَّع بها كل «عَميل سِرِّى خاص» يُؤَكِّد بالكامل تلك المقولة الشائعة عن أن كل عَميل «للموساد» له فى إسرائيل وَضع «أمير». و«أمَراء

الموساد» فى مَواقعهم حيث يكونون وفى أى مكان من العالم - معهم من الوسائل ما يُمكِّنهم من الاتصال بقاعدتهم فى تل أبيب، وهُم عند الضرورة قادرون على الاتصال بمدير «الموساد» مباشرة، وهُم فى أحوال الضرورة القُصوى قادِرون على الاتصال دون وَساطة مع مكتب رئيس الوزراء.]

....

....

[تُؤيِّد ذلك الوضع لجواسيس «الموساد» ولوحدات العمليات السرِّية الخاصة وثيقة سرِّية إسرائيلية (من عوالم الحقيقة وليس من خيال القصص)، وقد اطلعت على مَضمونها فيما قَرَأت وأشَرتُ إليه فيما كَتَبتُ عن «سياحة فى الوثائق الإسرائيلية» (ظَهَرَت على خَمس حلقات فى هذه المجلة).

وفى هذه الوثيقة السرِّية (وأكرِّر أنها حقيقية وليست روائية) وهى خاصة بوقائع قيام مجموعة عمليات خاصة من «الموساد» ووحدات الكوماندوز باغتيال عَدَد من قادة المقاومة الفلسطينية فى تونس، وأهَمُّهم «أبو جهاد» الرَّجُل الثانى فى منظمة التحرير الفلسطينية. ويومها (١٦ أبريل ١٩٨٨) تَبَيَّن أن «إسحاق رابين» - وزير الدفاع وقتها - كان مَوجوداً بنفسه فى طائرة تَحوم حول العاصمة التونسية قريباً من مسرح العملية، وكان داعى وجوده فى الأجواء القريبة - وفق الخُطَّة - أنه إذا حَدَث لسَبَب ما وفَشلَت العملية وألقِىَ القبض على أعضائها - أن يَتَوَجَّه مباشرة إلى مطار «فاس» ويُقابل الملك «الحَسَن» ويطلب تَدَخُّله فوراً مع الحكومة التونسية لإنقاذ «عُمَلاء إسرائيل» وتأمين الإفراج عنهم. وكان بعض المتَّصلين بإسرائيل من المقَرَّبين للملك مَوجودين فى مطار «فاس» بترتيب مُسبَق (لعلَّهم لم يَعرفوا هَدَفه)، كما أنه لا يبدو فى ظاهر الوثيقة أن الملِك «الحَسَن» نفسه كان يَعرف عن العملية شيئاً. لكنه لسَبَب ما كان «رابين على ثقة أن الملِك سوف يُقابله وسوف يُساعِده !» (كذلك يبدو فى الوثيقة مَحسوساً به وإن لم يكن مَنصوصاً عليه!)]

....

....

□

فى نفس الفصل يَبين أن القرار الأمنى السرِّى فى إسرائيل مَوكول إلى لجنة لا يزيد عَدَد أعضائها فى العادة على خمسة : رئيس الوزراء - ووزير الدفاع - ومدير «الموساد» (المخابرات العامة) - ومدير «آمان» (المخابرات العسكرية) - ورئيس الأركان. وفى أحوال غير عادية يمكن دَعوَة مَسئول واحد مع الخمسة بحَسَب قُرب اختصاصه من تَنفيذ أى قَرار أمنى سِرِّى. فهو وزير المالية إذا كانت للقرار تَكلِفة تَتَخطى الميزانية المقرَّرة لهذا النوع من النشاط - أو هو مدير محطة مخابرات بالذات يَقَع تنفيذ القرار الأمنى السرِّى فى اختصاصها - أو هو وزير العَدل إذا كانت للقرار الأمنى السِرِّى مُضاعَفات قانونية مُحتَمَلة.

ويَبين أن لجنة القرار الأمنى السرِّى - لجنة الخمسة - لا تَجتَمع فى مَوعد مُعَيَّن أو فى مَقَرٍّ مُعَيَّن، وإنما يَتِم تبليغ أعضاء اللجنة بأى اجتماع قبل مَوعِده بساعات قليلة، والتبليغ بمَوعد الاجتماع ومكانه يَتِم مُباشرة بهَمسات شفاه. وطبقاً لوقائع هذا الفصل من رواية «إريك جوردان» فإن الاجتماع الأمنى السرِّى هذه المرة فى مَزرعة وَسَط قرية «هولون» على الطريق ما بين القدس وتل أبيب، وهى مزرعة مساحتها سبعة أفدنة - مَملوكة لـ«جيروم شتيرن»، وهى شقيقة لمدير «الموساد» (ويُشار عَرَضاً فى الحوار إلى أن المزرعة مشتراة بأموال «الموساد» وأن «جيروم شتيرن» مالِكة لها - على الوَرَق وأمام الناس).

□

وفى هذا الفصل من رواية «إريك جوردان» فإن أهَمِّية موضوع «العملية هِبرون» - وهو غير عادى بالمرة ! - اقتضت دَعوة ثلاثة مسئولين للمشاركة، وليس واحداً حَسَبَ القاعِدة المرعِيَّة فى اجتماعات الخمسة، وأول هؤلاء كان وزير الخارجية «إدموند روثبرج» - والثانى كان «جرشون لاهاف» وزير المالية - والثالث كان «دافيد تيرون» مدير محطة «الموساد» الضخمة فى واشنطن.

وفى هذا الفصل من روايته يَصِف «إريك جوردان» صورة لوقائع الاجتماع (كما تَخيَّلها - أو كما سَمَع عنها - أو كما عَرَفها - فالخيال هنا مُلتَبس بالحقيقة، أو لعلها الحقيقة مُلتَبسة بالخيال).

وحَسَب وَصف «إريك جوردان» فإن «جيروم» أخت الجنرال «شتيرن» مدير «الموساد» تَظهَر وهى تُرَتِّب قاعة الجلوس فى بيتها الريفى، وكأنها تَستَعد لمناسبة اجتماعية من نوع ما تقيمه كل أسبوعين أو ثلاثة. ويَظهَر أنها منذ اشترت المزرعة - أو اشتُرِيَت لها المزرعة - وكان ذلك قبل أربع سنوات - استضافت هذا النوع من اللقاءات - الأمنية السرية - مرتين بالعَدَد لأن التِّكرار بغير حَذر قد يَكشف الهَدَف، وهى نفسها لا تَعرف أحداً من ضيوفها هذه الليلة ولا نوع شواغلهم، لكن أخاها الجنرال «شتيرن» يَعرف كل شىء.

وشقيقها - مدير «الموساد» - يَسبق كل الضيوف إلى بيتها ومعه زوجته، حتى يَبدو التَجَمُّع إلى آخر تَفصيل فيه مناسَبة اجتماعية. ومع وصول بقية الضيوف، يُسمَع رَنين الكئوس ولا يَشرَب أحد، ويَعلو صَوت موسيقى ولا يَسمَع أحد، لأن الكل تَوَجَّهوا إلى مكان مُنعَزل فى المزرَعة ومؤمَّن، فالجنرال «شتيرن» يَعتَبر أن أهَمَّ أساليب التأمين المحكَم لأى اجتماع أن يَتَقَرَّر مَوعِده فى الساعة الأخيرة، وأن يَتَقَرَّر مكانه بتلقائية الثانية الأخيرة!

□

وطبقاً للقِصَّة الروائية «العملية هِبرون» (صفحة ٢٧) - يبدأ رئيس الوزراء «إيشيل» اجتماع الخمسة (الثمانية هذه المرة) بعَرض «سِرِّه الأكبر» فيقول :

«إننا نجتَمع الليلة - يا أصدقائى - لنبحَث أمراً شديد الخطورة - وهذا الأمر سواء كانت نتيجته للأفضل أو للأسوأ - سوف يُؤثر على مستقبل الدولة وعلى مستقبل الشعب اليهودى فى العالم أجمع. وأصارحكم أن المسئولية التى تَطرَح نفسها عليكم الليلة هى المسئولية الأثقل فى تاريخنا، والعُقدة فيها أن نجاحَها غير مَضمون، لكنها إذا نَجَحَت فإن نتائجها سوف تَفوق أى حلم، ولذلك فهى تُساوى المخاطرة. وباختصار فإننى أطلب إليكم الليلة أن تعطوا لـ«الموساد» تَفويضاً سياسياً ومالياً لعملية سِرِّية هى الأشدُّ حَساسية والأكثر جَسارة فى كل ما قُمنا به حتى الآن، لأن هَدَفها إنجاح عميل لنا فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، وهذا العميل هو الآن عُضوٌ فى مجلس الشيوخ ونحن نريد أن نجعَله رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية».

ويَتَوَقَّف «إيشيل» ويَنظر حوله إلى وُجوه رفاقه ليَتَبَيَّن أثر ما أفضى به للتَّوِّ.

وحين يَجد مَلامحهم جميعاً مأخوذة بالصَّدمة - يواصِلَ كلامه تأكيداً لخطورة ما قال، ورغبةً فى تَعزيز نفاذه إلى عُقولهم :

«عُضوُ مجلس الشيوخ الذى أتَحَدَّث عنه عميل لنا منذ سنوات، ونحن نحافِظ على سرِّية اسمه بإجراءات أشد مما نَتَّخِذه فى المحافظة على ترسانتنا النووية. ونحن نُطلِق عليه الاسم الرَّمزى «هِبرون» (الخليل) - وبسبب هذه السرِّية المنيعة فإن «هبرون» استطاع أن يُقَدِّم للدولة معلومات لا تُقَدَّر بثمَن. و«هبرون» الآن يَتَصَوَّر، ونحن نَتَصَوَّر معه، أن لديه فرصة للنجاح فى انتخابات الرئاسة، وهو يرى، ونحن نرى معه، أن حظوظه كبيرة، وإذا تَحَقَّقَ ذلك فمَعناه أنه فى ظرف شهور من الآن سوف يكون الجالس فى موقع القرار الأمريكى الأعلى «رَجُلنا» - بالفعل وليس بالمجاز، وبالوظيفة وليس بالتَّعاطف. لكنه قبل ذلك علينا أن نساعده حتى يَجتاز مَراحل الانتخابات الأوَّلية ويَحصُل على تَرشيح حِزبه، والباقى بعد ذلك مُمكن وإن كنت لا أقول أنه سَهل. ما أطرَحه الآن هو أن نعطى لـ«الموساد» إشارة بالموافقة. لاحِظوا أنه إذا نَجَحَ «هبرون» - فإن «الموساد» يكون قد صَنَعَ للشعب اليهودى ذلك «المسيح المنتَظَر» الذى يَتَحَدَّث عنه «العَهد القديم» مُنقذاً ومُخَلِّصاً. وأنا أقَدِّر أن العملية بمجرد التفكير فيها تَبعَث على الرَّهبة. لكن لكم أن تَتَصَوَّروا إلى أين تَصِل بنا إذا نَجَحَت. فى حالة النجاح، ولعَقد من الزَّمَن كامل، تَتَقَرَّر فيه مَصائر العالم بعد انفراد الولايات المتحدة بالقوة على القِمَّة - سوف تكون البَشَريَّة كلها تحت قيادة رَجُل هو بالكامل تحت سيطرَتنا. مَملوك ملكية مُطلقة لنا لأنه مِنا. قِطعة مِنا. وإذا حَدَث ذلك فلن يَعود مَطلوباً مِنا أن نسمَع من البيت الأبيض نَصائح تَدعونا إلى حضور مؤتمرات للتسوية مع العَرَب فى «كامب دافيد» أو فى «أوسلو» أو فى «واى». سوف يكون فى إمكاننا أن نُملى ما نشاء دون أن نُدخِل فى اعتبارنا مشيئة الآخرين. ويكون فى استطاعتنا إذا رَفَعَ «ديكتاتور» عَرَبى رأسه أن نمحو بَلَده بالكامل من الخريطة. ويكون رئيس الولايات المتحدة هو الذى يَقوم بالمهمَّة ويَتَحَمَّل نَتائجها نيابة عنا.»

يَستَطرد «إيشيل» رئيس وزراء إسرائيل (فى القِصَّة الروائية : الخيال الملتَبس بالحقيقة - أو الحقيقة الملتَبسة بالخيال) ليقول وقد تَحَوَّلَت نبرة كلامه من التبشير إلى النبوءة :

«ما تقرِّرونه الليلة سوف يُؤثر على مُستقبلنا ومُستقبل أبنائنا، ومُستقبل كل جيل يهودى قادم. وكذلك فنحن أمام قرار مصيرى نَتَّخذه بأكبر قَدر من الشعور بالمسئولية، وبأعلى قَدر من الطموح لمستقبل يهودى مُحَصَّن ضِدَّ الطوارئ».

ثم تبدأ المناقشة :

يَسأل وزير الخارجية «روثبرج» رئيسه «أهارون»: «هل أستطيع أن أتجَرَّأ وألفِتَ نظرك إلى افتتاحية نَشَرَتها جريدة «الواشنطن بوست» فى الأسبوع الماضى قالت فيها أن «نفوذ إسرائيل فى الكونجرس مُطلَق»؟ - وأكثر من ذلك فإن كاتب المقال أشار إلى اعتقاده بأن سَيطرة إسرائيل على الكونجرس تَصِل بها إلى حَدٍّ امتلاك قراره. وما أريد قوله أنه إذا كان لنا هذا التأثير على الكونجرس - وهو لنا فعلاً، فما هو داعينا للمُخاطرة بالاستيلاء على الرئاسة الأمريكية استيلاء مادياً وليس سياسياً فقط - ثم يُكلِّفنا ذلك مائة وخمسين مليون دولار يَصعُب «تَفويتها» إلى الحَملة الانتخابية الأمريكية دون أن يَنكَشِف مَصدَرها ؟ ثم هل أصبحنا فجأة أثرياء بحيث نغامر بمثل هذا المبلغ ومَرافقنا العامة ومَشاريعنا الاجتماعية تَحتاجه بقسوة ؟»

والتفت رئيس الوزراء حوله إلى بقية المجموعة يَنتَظِر مُداخَلات أخرى لكى يُجيب على الكل مَرَّة واحدة، لكنه لا يَظهَر أن هناك أحداً غير وزير الخارجية يريد أن يُعلِّق. أو لعل مُلاحَظة وزير الخارجية عَبَّرَت عن مَشاعِر أو مَخاوف الكل إجمالاً. وهكذا يَرُدُّ «إيشيل»، وهو فى رَدِّه يُجيب على كل الأسئلة سواء تلك التى طرَحَها وزير الخارجية بكلامه، أو تلك التى آثرَ أصحابها الصَّمت لأن مُداخلة «روثبرج» عَبَّرَت عنهم.

وبعد ثوان من الصَّمت أراد «إيشيل» منها أن يَتَنَبَّه الجميع ويتأهَّبوا، قال مُوَجِّهاً كلامه لوزير خارجيته :

«صحيح ما قُلتُه. لنا نفوذٌ واسعٌ فى الكونجرس سواء كتَبَت عنه صحيفة من الصُحُف أو لم تَكتُب. لكنك لم تَرَ النقطة التى تعنينى. أنت تتكلم عن «النفوذ» وأنا أتكلم عن «السيطرة». بين «النفوذ» و«السيطرة» مساحة واسعة كما تَعرف».

يَستَطرد رئيس الوزراء مُوَجِّهاً حديثه إلى وزير خارجيته :

«كل إدارة أمريكية قامت على السُّلطة فى الولايات المتحدة أعطتنا تأييدها، لكنه من الضرورى أن نُلاحِظ نقطتين:

أولاهما : إنه ليس فى مَقدور بَلَد يَحتَرم نفسه أن يَعتَمِد على تأييد غيره إلى الأبَد!

وثانيهما: إن اعتمادنا على طرَف واحد قد يَجعَله يظن فى لحظة من اللحظات أننا فى جيبه، وأنه يملك قرارنا!»

يَستَطرد رئيس الوزراء وهو لا يزال مُلتَفِتاً إلى وزير خارجيته :

«ولاحِظ أننى الآن لا أطلب منكم الموافقة على اعتماد بقيمة الـ ١٥٠ مليون دولار كلها. ما أطلبه هو عشرة إلى عشرين الآن، تَقديرنا أن نرصدها «خميرة» تُؤثر على ما حولها وتُحَرِّك تَفاعُلاته. بمَعنى أننا سوف نبدأ فى صَرف القليل هنا وهناك، ثم نحاول استثارة آخرين كى يُساعِدوا. الفكرة أن تخلق «الخميرة» نَبض وروح حَرَكة تُصبح لها مُحَرِّكاتها الذاتية!»

سادَ الصَمت لثوان، ثم تَدَخَّل وزير المالية «لاهاف» مُوَجِّهاً كلامه لزميله وزير الخارجية قائلاً :

«إذا كانت المشكلة أن المبلغ الإجمالى المقَدَّر للعَمَلية هو ١٥٠ مليون دولار - منها عَشرة أو عشرون مَطلوبة على الفور - فإنى أستطيع أن أدَبِّر الحصول على المطلوب من «الاعتماد المشتَرَك للطوارئ»، وهو الاعتماد الذى تَضَعه الحكومة الأمريكية تحت تَصَرُّفنا لمواجَهة المفاجآت غير المتَوَقَّعة. ليست مُشكِلة أن أدَبِّر لك المبلغ من هذا الاعتماد، فهو غير خاضع للمحاسَبة أو التفتيش».

ثم يَستَطرد وزير المالية ليقول لزميله وزير الخارجية :

«ما رأيك فى تَمويل حَملة «رَجُلنا» فى الانتخابات الأمريكية بأموال أمريكية ؟ - فكرة مُدهِشة ؟ أليس كذلك ؟».

٣- عوالم السياسة والجريمة:

لعِدَّة فصول مُتوالية من قِصَّة «العملية هبرون» يَرسِم المؤلِّف «إريك جوردان» - مسئول المخابرات المركزية السابق أجواء ووَقائع روايته، وهو فى خياله - وهذا شأن

أى خيال - يَتَزوَّد من مَخزون تجاربه حتى باللا وَعى - وهكذا فهو يَرسم صورة مثيرة لعوالم سِرِّية تحت أرضية السياسة. ما يَجرى فيها يُؤثر دون أن يَظهَر. ومُعظمه شرير ودَمَوى. يَكذِب ويَخدَع، ويَستَدرج ويُحاصِر. ويَقتُل بالمسَدَّسات الكاتِمة للصوت، أو بالسُّموم التى لا صَوت لها من الأصل.

وهو بكل المعايير عالَم جرائم لا يُسَمِّيها الناس إرهاباً لأن دَخائلها مُستَعصية عليهم، ولأن مَسارحها ساحات ظلال وأشباح عليها حَرَكة لا يَلحَظها أحد، وفوقها خُطى لا تَترُك أثراً يَدُلُّ عليه مَوقع قَدَم.

وفى مَطلع الفصول فإن البطل الرئيسى على مَسرَح ذلك العالَم الغَريب العجيب هو السفير الأمريكى «ريتشارد سورنسون» سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى بروكسل - وهو كما يَظهَر فى المواقف والحوارات صَديق مُقَرَّب من الرئيس الأمريكى «دوجلاس»، وكان شخصية مِحوَرية فى حَملَته الانتخابية، ولهذا حاوَل بعض خصوم الرئيس أن يُرَكِّزوا حملاتهم عليه وعلى نقط ضَعفه إزاء الحياة ومُغرياتها .

....

....

[وذلك نموذج شائع فعلاً يُمَثله فى عَوالِم الحقيقة رَجُلٌ مثل «ديك موريس»، الذى كان مُهندس الحملة الانتخابية الأولى والحملة الانتخابية الثانية لـ«بيل كلينتون»، ثم سَبَّبَت تَصَرُّفاته إحراجاً شديداً للرئيس خصوصاً حين جرى القبض على «موريس» مع إحدى العاهرات، وتَبَيَّن أنه حاوَل إظهار نفوذه على الفراش بحديث طويل مع «كلينتون»، وبَهَرَ رَفيقته حين بَرهَن لها على أن الصداقة بينه وبين أهَمِّ رَجُل فى العالَم حَميمة والكلفة بين الاثنين مرفوعة - بل إن «موريس» بَدا فى حديثه مع الرَّجُل الأول فى الولايات المتحدة - وكأنه «المعَلِّم» والرئيس «صَبِيُّه» (كذلك وَرَدَ بالنصِّ فى التحقيق على لسان امرأة ليل التقطها «ديك موريس» من أحد البارات فى واشنطن).]

....

....

[والشاهِد أن حالة السفير «ريتشارد سورنسون» وعِلاقته بالرئيس «دوجلاس»

فى القِصَّة الروائية «العملية هِبرون» ـ تُشبه إلى حَدٍّ كبير حالة وعِلاقة «ديك موريس» بالرئيس «كلينتون». لكن الرئيس فى الرواية ـ أذكى من الرئيس فى الواقع. فذلك الرئيس ـ فى الواقع ـ استبقي صَفِيَّه وصَديقه فى واشنطن، وبذلك عَرَّضَه للفضيحة وانفَضَحَ معه. وأما الرئيس ـ فى الرواية ـ فإنه بَعَث بصَفِيِّه وصَديقه بعيداً عن واشنطن سفيراً فى بروكسل، وهى عاصمة أوروبا، وكان تَعيينه هناك سَهلاً، لأن الرئيس له الحَق فى حِصَّة من المناصِب الكبرى (بما فيها السفارات) يَضَع فيها رجالاً أو نساء يرى تَعيينهم لأسباب يَراها وضِمنها تَبَرُّعاتهم المالية لدَوره السياسى، أو خَدماتهم لحِزبه، أو نشاطهم فى حملته الانتخابية. وبالنسبة لمناصب السفراء فإن أصدقاء الرؤساء يُفَضِّلون عَواصِم مُهِمَّة مثل لندن أو باريس فى أوروبا، كما أن بعضهم يُفَضِّل الذهاب إلى عَواصِم بلدان لهم فيها أصل عائلى وهُم يَحلمون بالعودة إليها وكأنهم يقولون لأهلها ـ أى أهلهم القدامى : «لقد خرجنا من بينكم مُطارَدين بالفقر أو الخوف، وها نحن نرجع إليكم بالغِنى وبالقوة»!]

....

....

والحاصل أن «ريتشارد سورنسون» يَطلُب منصب سفير الولايات المتحدة فى بروكسل، ويُقبَل طَلَبُه، وهو يَذهَب إلى مَقَرِّ عَمَله ولديه هَدَف آخر غير أن يَبتَعِد عن واشنطن لمجرد الاختفاء عن عيون أعداء الرئيس ورَصدِهم لتَحرُّكاته، ذلك أن السفير «سورنسون» رغم حُبِّه للحياة وضَعفِه أمام مُغرياتها يَستطيع فى بعض الأوقات أن يكون جَدًّا، وهو هنا فى بروكسل عاصمة أوروبا ـ قادرٌ أن يَجعَل رئيسه على عِلم بما يَجرى فى قلب العالم وعلى نحوٍ مُباشر لا يَقدِر عليه سفير عادى يَبعَث بتقاريره لوزارة الخارجية. ومُضافاً إلى ذلك فإن الرئيس يَعتَبِر «سورنسون» رَجُل مُهمَّات سياسية خاصة، ويُكَلِّفه مَرَّات باتصالات مع دُوَل لا يريد الرئيس أن يَتعامَل معها بالوسائل الدبلوماسية الرسمية لسبَبٍ أو آخر. وفى هذا الصَدَد بالتَّحديد فإنه يبدو أن «سورنسون» على «عِلاقة وثيقة » بمندوب من ليبيا يُسَمَّى فى القِصَّة : «حامد بن فزانى»، وهو سفير خاص مُقَرَّب من السُّلطات العُليا الليبية مُكَلَّف هو الآخر بمَهام حَسَّاسة تَطلبها هذه السُّلطات العُليا فى بَلَده.

ومن مَجرى الحِوار يَظهَر «الموساد» (المخابرات الإسرائيلية) غير مُطمَئن لمشاعر السفير «سورنسون» تجاه إسرائيل، ذلك أن بعض تقاريره السرِّية إلى رئيسه فى البيت الأبيض تَتَعَرَّض للنشاط الإسرائيلى فى أوروبا عموماً، وتُرَكِّز خصوصاً على أغراض مُزدَوَجة ووسائل مُلتَوية تَعتَمِدها إسرائيل فيما تقوم به.

وبالزيادة على ذلك فإن عِلاقة «ريتشارد سورنسون» بزميله الليبى «حامد بن فزانى» لا تُريح «الموساد» رغم أن إسرائيل لا تَخشى كثيراً مما يَفعَله المبعوثون والممثلون العَرَب، ولا تَعتَبر نَشاط أحد منهم خطراً جَدِّياً على إسرائيل - أو مَصالحها وأمنها.

وعلى لسان الجنرال «شتيرن» رئيس «الموساد» - فإن هؤلاء المبعوثين العَرَب ليسوا مُفيدين حتى لبلادهم :

- بعضهم له اتصالات واسعة، لكن هذه الاتصالات لسبب أو آخر لا تَظهَر فى تقاريرهم، أو هى لا تُؤثر فى قرارات رؤسائهم (كل أوراقهم مَقروءة له).

- ثم إن مُعظمهم يَنسى نفسه فيما يقوم به من مَهام : فهو يَستَمتع بالوَجاهة الاجتماعية، ويَدخل مَحافل العِز غازياً، ويَتَصَرَّف فيها مُستَهتراً، ويَخرج منها فى الغالب عارياً (كل صُوَرهم فى ملفاته)!

ويَستَخلص مدير «الموساد» نَظرية مُؤدَّاها أن «هؤلاء العَرَب سياسياً يَصرفون ببَذخ ولا يَعرفون متى يقبضون، ويَستثمرون بكثافة ولا يَفهَمون كيف يَحصُلون على أرباحهم»!!

وعلى أى حال فإنه فى حَواشى ومُلحقات قِصَّة «العملية هِبرون» تُقَرِّر إسرائيل أفضلية تصفية «سورنسون» أخذاً بالأحوَط!

□

وأثناء نزول السياسة إلى مستوى الجريمة بقرار قتل السفير «سورنسون» تَتَكَشَّف لَمحات من الحقيقة مُذهلة :

□ أجهزة المخابرات الفاهِمة لزمانها وعالَمها لا تُمارس «تَصفية المطلوبين سياسياً»

بنفسها، فالتَّعامُل بالدَّم وبالسُّمِّ ليس لها، تُلَطِّخ به أيدى رجالها أو تُعَرِّضهم للانكشاف، فهؤلاء الرجال عُملة نادرة وتُحفة غالية لا يمكن المجازفة بها فى عملية قتل (ويُقَدِّر «الموساد» أن عملية إعداد وتأهيل عميل مُخابرات من الدرجة الأولى تَتَكَلَّف خمسة ملايين دولار! - على الأقل).

□ وفى العالم التحتى للجريمة حين تُقاربها السياسة مجموعات من رجال ونساء مُستَعِدِّين للتنفيذ بعقود شفوية لها احترام أقوى من العُقود المكتوبة، والرجال والنساء المستَعِدُّون يُنَفِّذون مَهامهم قادمين إليها من الظلام، عائدين بعدها إلى الظلام، وليس لهم وجود على مسرح أى جريمة يمكن تَقَصِّيه - ولا أثر يمكن الاستدلال به - وذلك أنجح أنواع القَتَلة!

والقاتل أو القاتلة المستعد - مَعروف على نَحوٍ ما للأجهزة القادِرة النافذة، وبين الطرفين ومن مسافات بعيدة إشارات ورموز لا تَقتَضى اتصالات أو لقاءات، أو أى دَرَجة من دَرَجات التخطيط المشترك.

مجرد رمز يَصِل إلى «قاتل مُعَيَّن» أو «قاتلة مُعَيَّنة».

ومع الرمز اسم مُعَيَّن - ومَبلغ مُحَدَّد. وفى حالة القبول يكون إقرار التَّعاقُد على شكل رقم حِساب فى بنك يُفتَح قبل العملية ويُغلق بعد تنفيذها دون أثر يَدُلُّ على صاحبه أو صاحبته.

□ وأكفأ نجوم العالم التحتى نساء، ونساء فائقات الجمال، عاليات المظهر والتَّصَرُّف، لا يَخطر ببال أحد أن القتل صناعتهن، وكلهن يُجِدن «فنون الحب» - أو «الجنس العميق» على حَدِّ تعبير وَرَدَ فى الرواية على لسان السفير «سورنسون» - لكن الميزة فيهن هى القُدرة على مُمارسة الحُب دون شعور به فى الداخل مهما بدا منهن فى «حالة الذوَبان».

والترتيب المفَضَّل كما يَظهَر من سياق الرواية أن البَطَلة من هذا النوع تَظهَر على مَسرَحها وتخطف أبصار من تقصده، وفى أيام من الهَوَى، أو ساعات فى بعض الأحيان، يَصِل الهَوَى - رَجُلاً وامرأة - إلى غرف النوم ويَقَع مَشهَد فَيَّاض بالنَّشوة، وفى وَمضة تَنفُذ فى الجَسَد العارى للرَّجُل طلقة، أو يُؤدى كأس مسمومة دورها المرسوم فى دقيقة واحِدة.

وفى هُدوء تَرتَدى «المرأة» ملابسها من جديد ـ ثم تَتَسَلَّل خارجة ـ عارفة أن رفيقها الذى كان معها قبل دقائق أخذ كل احتياطاته مُسبقاً حتى يَظلَّ لقاؤه مع الهَوى ـ أو «الجنس العميق» ـ سِرًّا لا يَراه أو يُتابعه أحد. بل هى واثِقة أنه إذا حَدَث ولَحَظَها أحد ـ فإنه سوف يُدير رأسه كأنه لا رأى ولا سَمَع.

□

وكان ذلك بالضبط ما جَرى بين السفير «سورنسون» داخل بيته، وفى غرفة نومه ـ مع الفاتنة الصربيَّة «جاكى ماركوفيتش» ـ عندما قَرَّرَ «الموساد» قتله، وزادَها ضارباً عَصفورين بحَجَر إذ جَرى تَرتيب الشواهد بحيث يَظهَر وكأن القاتل «إرهابى من الشرق الأوسط» ـ وكذلك فإن«الموساد» استعمل فى الإشارة التى تَحمل التكليف بالقتل رمزاً تَستَعمله المخابرات الإيرانية بحيث تَظُنُّ «جاكى» أن العَقد ـ وكذلك الدَفع ـ لحِساب إيران وعلى حِسابها. ثم إن «الموساد» رَتَّبَ ـ على الهامش ـ أن تَظهَر قُرب السفارة الأمريكية فى «بروكسل» قُصاصة وَرَق مُكرمَشة من صحيفة تَصدُر فى بغداد، وكان عُمَلاؤه واثقين أن رقم التليفون الخاص بالسفير الليبى مكتوب فى دَفتر «سورنسون» ـ وتلك خيوط تَقود التحقيق مُؤَكَّداً إلى «الإرهاب العَرَبى» هنا أو هناك!

□

فى وقائع هذه الفصول من القِصَّة الروائية يَظهَر عالَمٌ خفى آخر مُتَحَرِّك فوق الأرض مُختَصٌّ بمُواجهة العالَم الخفى تحت سَطحها.

وفى التَصَوُّر الشائع أن مُكافَحة الجريمة الدولية ـ سياسية كانت أو غير سياسية ـ مُهِمَّة البوليس الدولى «الإنتربول» ـ لكن المسئول السابق فى المخابرات المركزية (مازجاً بين الخيال الملتَبس بالحقيقة أو الحقيقة الملتَبسة بالخيال) يُشير إلى أجهزة لا تَظهَر للناس عَلَناً، مُهِمَّتها مُتابعة ذلك النوع من الجرائم. ثم إن قيادة هذه الأجهزة فى يَدِ مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى .F.B.I، وهو إدارة لها ارتباطاتها مع أجهزة الأمن فى كل مكان من العالَم ـ ولها مَكاتِبها الخاصة تُوَجِّه وتُدير من عَواصِم مُنتَشِرة على خريطة القارات.

....

....

[فى عالَم الواقع وبعيداً عن القصَص الروائى وفنونه فإن الـ F.B.I. لديها مكاتب كبيرة فى خمس عَواصِم عَرَبية على الأقل، ولها مُمَثلون رسميون ضمن هيئة كل سفارة أمريكية فى العالَم العَرَبى.]

....

....

وكان من الواضح أن المكَلَّفين بقضية قَتل «سورنسون» (المحَقِّق البلجيكى بحُكم مكان الجريمة، والمحَقِّق الأمريكى بحُكم جنسية الضَّحِية) أدركوا من النظرة الأولى على مكان الجريمة أن وراءها امرأة وَصلَت بـ«الجنس العميق» إلى نقيضه الأكثر عُمقاً وهو الموت الأبَدى!

ويَتَّضح من السَّرد أن مكتب التحقيقات الفيدرالى عَهَدَ بالقضية إلى واحدة من الأنشَط والأكفأ بين أفراده، وفى القِصَّة فإنها مُحَقِّقة اسمها «بريندا شتراوس» وهى يهودية غير صهيونية فيما يَظهَر من تَصَرُّفها، ففى أحد المشاهد تشعُر بالصدمة أثناء قراءة تسجيل تليفونى تَعرف منه أن «والدها» على اتصال سِرِّى بسفارة إسرائيل فى واشنطن، وتَكتَشف مُستاءة أن «ولاءه للدولة اليهودية أكثر منه للدولة الأمريكية التى وَجَدَ فيها فرصته مُهاجراً يَبحَث عن مُستقبل»!

□

ويَستَدعى التأمُّل ما يَظهَر فى ثنايا السَّرد من أن كل الأجهزة السِّرِّية المكَلَّفة فوق الأرض بمتابعة الحَرَكة تحت الأرض - لها سياساتها الخاصة إلى جانب ما هى مُكَلَّفة به رسمياً من حكوماتها.

فهذه الأجهزة ليست لها بالطبع مَصالح مادية، لكن لها - كما هو واضح - «تَحَيُّزات» سياسية، وهى فى أدائها لدَورها وفى مُمارَسة مسئوليتها تَلعَب دوراً قد يكون له تأثيره المدَمِّر. فهى تُبرز من الحوادث وتُوارى - وتَكشِف من التفاصيل أو تُغطِّى - ما يَخدم «تَحَيُّزاتها» المسبقة بحيث يَتَأكَّد صدقها فيما أشارت به ونَصَحَت مُبَكِّراً (وها هى النتائج الموَثقة تُبَيِّن صِحَّة وسلامة التَقديرات المعروضة من زَمَن طويل).

ومع بداية التحقيق فى قتل السفير «سورنسون» بكأس مَسمومة من «الشمبانيا»

فى لحظة «جنس عميق»، تَدافَعَت الشكوك إلى اتهام المخابرات الليبية بقتل السفير الأمريكى بقرينة علاقاته بالسفير الليبى فى بروكسل «بن فزانى»، لكن مكتب التحقيقات الفيدرالى وَجَدَ نفسه مُضطرًا إلى تغيير رأيه بعد أن قامت «وكالة الأمن القومى» .N.S.A (وهى جهاز آخر للمخابرات الأمريكية يَعمَل مُستقِلاً عن وكالة المخابرات المركزية) بالتقاط رسالة شفرية صادرة من السفارة الليبية فى بروكسل إلى وزير الخارجية فى طرابلس وفيها يُبدى السفير الليبى فَزَعاً حقيقياً من اغتيال صديقه «سورنسون». ثم تَكشِف رسائل مُلتَقَطة تالية أن «فزانى» فى حالة فَجيعة وانهيار لَمصرَع صديقه السفير الأمريكى، فقد كان ظنُّه أنه نَجَحَ فى فتح قناة اتصال مُباشرة مع الرئيس الأمريكى «دوجلاس»، وكان صَديقه الحَميم المقَرَّب والواصِل إلى البيت الأبيض أمَلَه وأمَل حكومته فى إمكانية رَفع الحِصار عن ليبيا!

٤ـ حكايات أصحاب البلايين العرب:

الفصل الثامن من قصَّة «العملية هبرون» (صفحة ١٢٠) واحد من أمتَع فصول القصَّة، والبَطَل الذى يَظهَر على مَسرَح هذا الفصل بليونير عَرَبى : «منصور شريف» (وذلك هو الاسم الذى اختاره المؤلِّف «إريك جوردان»)، وهو فى القِصَّة مغربى الأصل يُشار إليه فى الحوار أحياناً بوَصف «باشا مراكش»!

ومن حول هذا البليونير يَرسِم «إريك جوردان» ما يمكن اعتباره لوحة فنية نابضة بالحياة - صادقة وكاشفة إلى أبعَد حَد فى تَصويرها لمعيشة عَدَد من أصحاب «البلايين العَرَب» وطريقة حياتهم حيث اختاروا أن يعيشوا (فى أوروبا غالباً).

وفى واقع الأمر وبنظرة لا تحتاج إلى مَشَقَّة التفكير الطويل - فإن الوصف الذى يُقَدِّمه «إريك جوردان» لحياة «أصحاب البلايين العَرَب» - هو فى جُزء كبير منه وَصف لطبيعة «الشخصية السياسية» العَرَبية فى الزمن الراهن، وذلك مَنطِق أشياء.

وفى وَصف «إريك جوردان» لحياة أصحاب البلايين العَرَب - وعلى عُهدَته - تَظهَر تَصَرُّفاتهم وسلوكهم فى نَمَط من السلوك مُتَكَرِّر :

○ أصحاب البلايين العَرَب مجموعة من الرجال اقتربوا على نَحوٍ أو آخر من دوائر السُّلطة فى العالم العَرَبى، وحَقَّقوا ثروات طائلة عن طريق المثَلَّث الذهَبى : نشاط

المخابرات - عمليات البترول - تجارة السلاح. وبنفس هذا الترتيب، فكلهم بدءوا على نَحوٍ أو آخر فى المخابرات أو على صلة بأجهزتها (خصوصاً فى بلدان النفط) - وكلهم اقتربوا على نَحوٍ أو آخر من عمليات البترول أو فوائض أموالها الهائلة - وكلهم وَصَلوا على نَحوٍ أو آخر إلى تجارة السلاح وأرباحها الخُرافية.

○ وفى طريقهم من المخابرات إلى البترول إلى السلاح - عَرَف هؤلاء واتصلوا فى أمريكا وأوروبا مع إدارات مخابرات، ومَندوبى شركات، ومُمَثلى حكومات، وأحيانا رجال إعلام من الدرجة الثانية أو الثالثة فى الصُحُف والإذاعات ومحطات التليفزيون - وقد تَصَوَّر أصحاب البلايين العَرَب أنهم بهؤلاء - الأصدقاء! - الذين اتصلوا بهم وعَرَفوهم وتعاملوا معهم - نَفَذوا إلى الدائرة المؤثرة فى عَواصِم بلدان هؤلاء «الأصدقاء»، ومن ثم فإن نفاذهم تَحَوَّل إلى نفوذ، يَظهَر خارج أوطانهم ويَرتَد ليُؤثر داخلها وبالعكس!

○ وبطبيعة العلاقة بين العناصر المكَوِّنة لـ: نَمَط أصحاب البلايين العَرَب (المثَلَّث الذهَبى للمخابرات والبترول والسلاح) زائداً عليها الثراء والغِنى - فإن أصحاب البلايين العَرَب أصبحت لهم علاقات سارية إلى بعيد فى عَواصم العالَم العَرَبى، فهُم يَعرفون حُكّامه ويَعرفون خَواصهم، وقد نشأت بين الجميع صِلة «اعتماد مُتَبادَل» يَختَلِط فيها المال بالسياسة، والغِنى بالسُلطة. وكان أن عَواصِم الغرب الكبرى (لندن - باريس - فيينا - مَدريد - وغيرها) - ومَغانى الريفييرا الفرنسية، ومُنتَجَعات الألب السويسرية، وشواطئ إسبانيا وإيطاليا - تَرى مَشاهِد تَسقُط فيها القيود وتَختَلِط الحدود بين السُلطة فى الداخل والثروة فى الخارج.

○ وفى أجواء الاعتماد المتبادَل بين «الأقوى» و«الأغنى» قام المال فى بعض الأوقات بمهام سياسية تَنقل رسائل تُشير برأى أو صياغات تَحلُّ عُقَداً - كما أن السُلطة فى بعض الأحيان تَتَقَدَّم لتسهيل صفقات وإنهاء عُقود - وفى بعض المرات يُصبح بعض أصحاب البلايين العَرَب مَداخِل إلى دوائر القرار السياسى فى عَواصِم عَرَبية مُختلفة - كما أن دائرة القرار السياسى يُصبح لها دَلال على أصحاب البلايين العَرَب يُشير دون أن يَطلب، ويُستجاب له قبل أن يَلتَفِت.

□

ومع مرور السنين تُصبح حياة «أصحاب البلايين» العَرَب حالة لها مَناظرها ومَظاهِرها :

ـ قصورٌ في المصايف والمشاتي وعَواصِم المُدُن الكبرى، جرى شراء مُعظمها بأثاثه وتُحَفه ضماناً للمستوى وتَثَبُّتاً من القيمة.

ـ حاشية مُتَنوِّعة الجنسيات تَسبق أو تَلحَق، وتُرتِّب هنا وتُهَيِّئ هناك حسب الطلب.

ـ وحَرَس شخصي، غالباً من العسكريين الأمريكيين السابقين الذين خَدَموا في قوات البَحرية (المارينز)، وهُم يُسيطرون على الأبواب الإلكترونية عند مَداخل القصور وفي أيديهم أجهزة الاتصال اللاسلكي، وبالقرب منهم رشاشات «أوزي» الإسرائيلية، يَعتَبرونها (دون حساسية !) أقوى سِلاح للدفاع الشخصي! ـ وبعض الحُرَّاس مَوجودون في الداخل يَرون دون أن يراهم أحد، سواء عن طريق الكاميرات الخفيَّة أو عن طريق النظارات المقَرِّبة، خصوصاً إذا كان القَصر قُرب شاطئ بحر أو على مُنحَدَر جَبَل!

ـ وفي الانتظار أساطيل من السيارات مُستعِدَّة، ويُخوت في الماء جاهزة، وطائرات كبيرة وأخرى مُتَوسِّطة ـ تُعاونها طائرات هليوكوبتر للمسافات القصيرة.

ـ ورؤساء خَدَم في القصور من الإنجليز (بعضهم عَمَلوا في القصور الملَكية البريطانية)، أو من الفرنسيين (بعضهم التحقوا زَمَناً بقُصور عائلات أوروبية باذِخة الغِنى : «روتشيلد» ـ «آنيللي» ـ «تايسين» .. وغيرها).

ـ وهناك باستمرار كهف للنبيذ المعَتَّق (فرنسي في الغالب)، ومطبخ مُتَعَدِّد الجنسيات (عَرَبي، وغربي، وصيني من باب الاحتياط) مع خِدمة دائمة لأجنحة «السادة» و«ضيوفهم» تقوم عليها مُشرفات مُدَرَّبات (إسبانيات أو برتغاليات في العادة).

ـ وهناك سكرتارية خاصة موكَلة بمُتابَعة المناسبات جنوباً في الأوطان وهي تَبعَث بالتهاني والهدايا في المواسم والأعياد. كما تَنتَظر وتَتَرَقَّب مواعيد وصول

الكبار إلى أوروبا وأمريكا تأهُّباً واستعدادا للقائهم وخِدمتهم بما يريدون هُم وأسَرُهم ـ ومُساعدوهم ومرافقوهم ـ وكذلك عشيقاتهم إذا لـزم الأمر!

□

وفى ذلك الفصل الثامن من قِصَّة «العملية هيرون» يَظهَر الدكتور «ويليام رَسِل» (مُستشار الأمن القومى لرئيس الولايات المتحدة) قادِماً إلى مطار جنيف قاصِداً لزيارة البليونير «منصور شريف» (باشا مَراكِش).

وفى انتظار «ويليام رَسِل» عند نزوله من الطائرة إحدى سيارات «منصور شريف» وهى من طراز «مرسيدس ٦٠٠» ـ وعليها سائق خاص يَعرفه «رَسِل» من زيارات سابقة. والسائق إيطالى اسمه «ألفريدو»، وقد رَكِب معه «رَسِل»، وسأله إلى أين: إلى «فيزينيز» (البيت المطِل على بحيرة «ليمان» على طريق «فرناى») أو إلى القصر الكبير فى «ميجيف» (وَسَط جبال الألب بين فرنسا وسويسرا)؟ ويَرُدُّ «ألفريدو»: «سوف نَذهَب للباشا فى ميجيف «يا سيدى»».

وعندما يدخل الدكتور «رَسِل» من الباب يَستَقبله «جان بيير» رئيس الخدَم الفرنسى ـ يُرَحِّب به فى حرارة ـ وتبدأ تجربة «ويليام رَسِل» فى العالَم المسحور الذى لا يَعرفه فى حياته العادية ـ ولا حتى فى البيت الأبيض. و«جان بيير» جاهِز بكأس من «الكير الملكى» (شمبانيا فوقها قطرات من مشروب الكسيس). الكأس مُثلَّجة، و«رَسِل» يَرشف منها بشهيَّة رَجُل مُصَمِّم على أن يَستَمتع بكل ما هو مُتاح له اليوم ـ ولن يكون كذلك غداً. ويجىء «منصور شريف» للقائه قادماً إليه فى تُؤدَة يُرَحِّب به مُبتَسِماً، ثم يَجلسان، ويجىء «جان بيير» رئيس الخدَم يُقَدِّم للضيف كأساً أخرى من «الكير الملكى»، ويُقَدِّم لسَيِّده كأساً أخرى لكن البليونير العَرَبى يَرُدُّ رئيس خَدَمِه الفرنسى قائلاً: «ماء فقط يا جان بيير»!

يَلتَفِت «منصور» لضيفه ويقول بحِكمة (تَتَقصَّد إظهار الحِكمة): «لا يَصح لأحد أن يَنسى جذوره. نحن بَدو. ولا بد أن نكون على استعداد للعَودة للصحراء فى أى وقت. ففى واحات الصحراء ليس هناك غير الماء، وليس يَصح أن نَتَعَوَّد على غيره لأننا لا نضمَن ماذا تَفعَل معنا الحياة وإلى أين تَذهَب بنا».

يَرُدُّ «رَسِل» مُجامِلاً (تَظهَر كلماته مُجامِلة حتى وإن لم يَقصِد) قائلاً لـ«منصور» : «أنت دائماً الفيلسوف «الحكيم».».

ويَسأل «منصور» ضيفه : «قل لى أى أمر يشغلكم الآن ؟ ما الذى تَنوون عَمَله بالدنيا هذا الصيف ؟ هل تَنوون تَدمير الهند وباكستان بعد تَحَدِّيهما لكم بصُنع قنابل نووية ؟ هل أعمل حِسابى من الآن لأقضى الصيف لاجئاً فى خَلاء الصحراء ؟».

ويَنتَهزها «رَسِل» فرصة ليدخل فى الموضوع الذى جاء من أجله إلى «ميجيف» : «تشغلنا الانتخابات القادمة لرئاسة الولايات المتحدة. هذا الرجُل السناتور «ويستليك». يشغلنا ولا بُد أن يشغلكم أنتم أيضاً. أقصد العَرَب. هو على وشك أن يَحصُل على ترشيح الحِزب الديمقراطى لانتخابات الرئاسة. وأنت تَعرف بالطبع أنه مُوالى إسرائيل. وأنه رَجُل خطر. لا بُد من إيقافه».

يَتَّضح بالتلميح أن «رَسِل» يريد تَمويلاً «ناعِماً» (لا يَرصده أحد) من مَوارد عَرَبية تُسانَده المرشَّح الجمهورى.

وأول رَد فِعل لـ«منصور» قوله : «بصراحة يا صديقى العزيز يَصعُب علىَّ أن أرى الفارق بين المرشَّحين عندكم. فيما يَتَعَلَّق بموقفهم من إسرائيل، كلهم يَخضعون أو سوف يَخضعون لإملاء «اللوبى الصهيونى» وأنت تَعرف ذلك. أنت تَعرف أيضاً أننا ساعدنا كثيرين من قبل ليَنجَحوا على أمَل أن يَتَذَكَّرونا بعد النجاح، لكنهم جميعاً بعد النجاح نَسونا ودَخَلوا فى سباق لإرضاء إسرائيل. هذا ما حَدَث ويَحدُث. أحياناً نشعر أن المرشحين عندكم يطلبون رئاسة دولة إسرائيل وليس رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية».

يَستَدرك «منصور» ويقول لـ«رَسِل» :

«لاحِظ يا صديقى أننى لست مُعادياً لليهود. ولا للصهيونية. تَذكَّر أنهم جميعاً (اليهود والصهيونية) قَدَّموا لى خدمة لا تُنسى عندما عارضوا فى الكونجرس صفقة أسلحة أمريكية (طائرات ف ـ ١٥) للسعودية. وبسبب هذه المعارضة استطعت مع شركائى من السعودية أن نُرَتِّب صفقة شراء طائرات «تورنيدو» (أوروبية). عمولاتنا فيها ٢٠ بليون دولار. مَن يُصَدِّق ؟ ـ مَن يُصَدِّق أن عمولات قِطع الغيار سوف تَظل

واصلة إلينا لعشرين سنة قادمة. أيُّ ضمان أكثر من ذلك ولمدى الحياة تقريباً ؟ كلما اطلعت على حساباتى فى البَنك دَعَوتُ لليهود وللصهيونية ولإسرائيل، ورَجَوت الله أن يُبارك لنا فيهم».

□

يَصحب البليونير العَرَبى «منصور شريف» - ضيفه الأمريكى «ويليام رَسِل» (مستشار الرئيس) إلى قاعة العشاء، ويَجلسان وحدهما إلى المائدة، والقائم على الخِدمة رئيس الخَدَم «جيمس»، وهو هذه المرة إنجليزي سَبَقَ له العَمَل فى قصر «باكنجهام» الملكى!

وعلى العشاء يَعود «رَسِل» إلى حديث انتخابات الرئاسة الأمريكية مُلِحًا على أن : «هذا الرجل السناتور «ويستليك» إسرائيلي أكثر من الإسرائيليين، وإذا وَصَلَ إلى المكتب البيضاوى فإن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط سوف تصبح «صناعة إسرائيلية» .. يبدو أنكم لا تُقَدِّرون الخطر ؟»

يتساءل «منصور» : «هل هو خطر إلى هذا الحَد ؟ - ما هى فرصته للنجاح ؟»

يَرُدُّ «رَسِل» : «لقد اكتسح طريقه فى الانتخابات التمهيدية فى كل الولايات الغربية. ونحن الآن فى بداية المعركة - مارس - وإذا واصَلَ «ويستليك» تَقَدُّمَه على هذا النحو فسوف يدخل مؤتمر حِزبه والترشيح فى جيبه. وإذا لم يَتَحَقَّق إيقافه مبكراً أو تَعويقه فسوف يفوز فى نوفمبر». (الثلاثاء الأول من شهر نوفمبر - كل أربع سنوات - هو مَوعِد التصويت فى انتخابات الرئاسة).

يقترب رئيس الخَدَم «جيمس» من سَيِّده ويهمس فى أذنه بشىء، ويَرُدُّ عليه «منصور شريف» قائلاً : «دَعهما تَدخلان .. لا يَصِح للفِتنة أن تَنتظر».

يُحاول «رَسِل» أن يقاوم وهو على وشك الاستسلام قائلاً : «منصور.. ليس الليلة فأنا مُتعَب من السفر، وكنت أريدها سهرة سياسية إذا كان لا بد من السهر».

ويَرُدُّ «منصور» : «أنت بعد هذا السفر المرهِق تحتاج أن ترتاح. النوم لا يكون عميقاً خصوصاً على هذا الارتفاع من جبال الألب إلا عندما تكون الأعصاب مُستَرخِية».

وتَدخل إلى غرفة الطعام امرأتان تَتَّجه إحداهما إلى «منصور» والأخرى إلى «رَسِل» تُقَدِّم له نفسها : «أورسولا». ويَعرف «رَسِل» من نظرة واحدة أنه استسلم فعلاً، ويقول لـ«منصور» : «تَذكَّر أننا يجب أن نُركِّز جهدنا كله على السياسة.. غداً».

ويَلتَفِت «منصور» إلى رئيس الخَدَم - وهو الفرنسى «جان بيير» هذه المرة - ويُشير إليه بأن يأخذ «أورسولا» إلى الجناح المخَصَّص لضيفه، وهو سيلحق بها بعد القهوة. والدكتور «رَسِل» يَتَناول فنجانه بسرعة يُقَرِّبه من شَفَتَيه، ويَستَشعِر بُخاره الساخن ويلمسه لرَشفة واحدة بسرعة، ثم يَقوم مَلهوفاً و«منصور» يُلاحِقه بضحكة عالية!

□

فى اليوم التالى قبل الظهر يلتقى «منصور» و«رَسِل» قبل أن يُغادر «رَسِل» «ميجيف» قاصداً إلى وجهته التالية على الطريق إلى واشنطن. وخُلاصة اللقاء السريع أن «منصور» مُستَعِدٌّ هو وأصدقاؤه لمساعدة الرئيس «دوجلاس» وحتى يَضمَنوا عَدَم فَوز المرشح الديمقراطى «ويستليك». وهو سيُقَدِّم لصَديقه الدكتور «رَسِل» «مُقَدَّماً» دفعة على الحساب. يقول «منصور شريف» ذلك وهو يُناول ضيفه مَلَفاً كبيراً مَحشواً بالأوراق والصوَر مكتوب عليه بالخَط الكبير: «الحياة الخاصة للسناتور ويستليك وغرامياته».

ويُبدى «رَسِل» دَهشته، وتعليقه لنفسه: «منصور يَعرف دائماً طريقه إلى ما يهمه. يَستَخدم مكاتب خاصة للتَحَرِّى تَجيئه بمعلومات يطلبها لعِلمه أو لعِلم أصدقائه. ويَستَخدمها أو يَسمح لهم باستخدامها».

ويُهَنِّئ «رَسِل» نفسه، ويَفرك كَفَّيه، لأنها بداية طيبة!

وكذلك يبدأ الدور العَرَبى - أو الظهور العَرَبى فى «العملية هِبرون» التى تَقصِد إسرائيل منها وضع رئيس يَحكُم لحسابها وباسمها فى المكتب البيضاوى داخل البيت الأبيض!

٥. قوة عظمى فــــى التيه:

وَقائع كثيرة ومُثيرة من قِصَّة «العملية هِبرون» تَجرى فى روسيا، وخلال مَشاهِدها وحَرَكة أبطالها وحواراتهم تَتَبَدَّى على نحوٍ صارخ مفارقات الخيال الملتَبس بالحقيقة، أو الحقيقة الملتَبسة بالخيال.

والمشهَد الأول الذى يَظهَر فيه الدور الروسى - يَجرى داخل بيت ريفى فى مزرعة بعيدة (سِتين كيلومترا عن موسكو) على أطراف قَرية «جوكوفكا»، وهى منطقة مُنعَزلة عن العُمران وَسَط الغابات يَهرَع إليها قادة روسيا هَرَباً من موسكو التى زَحَمَها جواسيس العالَم كلٌّ منهم يَبحث عن شىء وَسَط الأطلال التى خَلَّفها «جورباتشوف ويلتسين» بَقايا من قُوَّة إمبراطورية عُظمى كان اسمها الاتحاد السوفيتى.

وفى ذلك المشهَد الأول يَظهَر رئيس روسيا واسمه فى القِصَّة «بوبوف» جالساً فى مكتبه ومعه «أندريه ستراف ينسكى» وزير الخارجية، و«أندريه ألكسندروفيتش» رئيس لجنة مُتابعة النشاط الخارجى والمعلومات - والثلاثة فى انتظار الجنرال «يورى إيفانوفيتش بروزوف» الذى عُيِّن حديثاً مديراً للمخابرات الروسية «سى. فى. آر.» (C. V. R.)

والجنرال «يورى» قادم من أمريكا حيث كان مَسئولاً عن النشاط الروسى الخَفى هناك لعِدَّة سنوات حَقَّق فيها نجاحات تَشهَد له وتُزَكِّيه ليكون مَسئولاً عن جهاز المخابرات الروسية فى عَهد تحاول فيه «روسيا» لَملَمَة شَملها والعودة إلى ممارسة دور فى السياسة الدولية «مُتَماسِك» - على الأقل - ذلك أنه من الخطر أن تستمر روسيا على هذا الوضع الذى «تَركوها» فيه مثل «عَجوز ثريَّة ماتَت دون وَريث معروف، والمعَزُّون يَقصِدون إلى بيتها وكل منهم يُصَلى إلى جوار سريرها ولا يَنسى قبل الخروج أن يأخذ معه مُحتَوَيات دولاب يُفرغها فى مِلاءة، أو قطعة أثاث يَحملها على ظهره، أو تُحفة يَدُسُّها فى جيبه. وعندما يَجىء آخر المعَزِّين ويَجد البيت عارياً يَتَرَدَّدُ قليلاً ثم يَخلَع باب البيت ويَحمله معه».

وفى اجتماع القيادة الروسية العليا فى مزرعة «جوكوفكا» يبدو الرئيس «بوبوف»

مُصَمِّماً على أن هذه الأوضاع المتردِّية فى «الوطن» يجب أن يُوضَع لها حَد، وأن روسيا لا بد أن تُثبت نفسها لنفسها أولاً ثم لبقية العالَم. وحين يَدخل الجنرال «يورى» إلى الغرفة حيث كان الرئيس ووزير الخارجية ومسئول النشاط الخارجي يَحتَسون كئوس «الفودكا» - يبدو لهم مدير المخابرات الجديد رَجُلاً يَصلح بهَيئته لأداء دوره فى عَصر جديد. الحَيَوية فيه ظاهرة - وحَرَكَته تُوحى بشباب فى مُنتصف العُمر - وتَقاطيع وَجهه تُنبئ بذكاء ، وعَيناه تَلمَعان كأن فيهما سِرًا. لكنه على نحوٍ ما - بطريقة غامضة - يُثير هَواجسهم.

وقد بدأ حديثه أمامهم بإشارة إلى تجربته الأمريكية قائلاً : إنه هناك تأثر بشعار تَضعه وكالة المخابرات المركزية مَحفوراً على الرخام فى مَدخل مقرها، والشعار يقول : «لا بد أن نعرف كل شىء .. وإذا عَرَفنا، حينئذ ننتَصِر».

ويَتَحَمَّس القادة الروس لما سمعوا، لكن إلحاح الجنرال «يورى» كان زائداً فى الموضع الذى ضَغَط عليه وهو يَذكر لهم شعار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. أحَسُّوا أنه ضَغَطَ على عبارة «كل شىء»، وحَيَّرَهم وأثار هَواجسهم إذا كان الجنرال يَقصِد «كل شىء هنا» كما يَقصِد «كل شىء هناك» - وأين تقف بالضبط هذه الحدود لـ«كل شىء» ؟!

ثم يَدخل الجنرال «يورى» إلى عَرض تَصَوُّره لأداء مُهِمَّته. وهو فيما يبدو فاهِمٌ مُستَوعب، مُقَدِّرٌ للحقائق، عارفٌ بالظروف، مُدركٌ كما يَظهَر أن روسيا لديها قُدرات عالية لكنها غير قابلة للاستعمال. لديها مثلاً أقوى قوة صواريخ بعيدة المدى، ولكن المشكلة هى كيف تستعملها ؟ ولأى هَدَف ؟ وضِدَّ أى عَدُو؟

ثم إن روسيا وَرِثَت عن الاتحاد السوفيتى أقوى جهاز مخابرات فى العالَم، وهذا الجهاز قادر أن يَضَع قيادة البلد السياسية فى صورة ما يجرى فى أى مكان، لكن هناك مشكلة أن روسيا لا تَملك اعتمادات مالية تَكفى لتَشغيله بكامل طاقته. ثم إنه على فرض تَوَفُّر الموارد فإن المعلومات لا بد أن تكون فى خدمة سياسة، والسياسة رُؤية كاملة فيها اقتصاد قوى، ومجتمع مُتَماسِك، وهَويَّة مُحَدَّدة، ومَطلب مشروع، وتَهديد مُحتَمَل - وبهذه المعايير فإن روسيا كانت لها سياسة أيام كان

الاتحاد السوفيتى دَولة عُظمى - لكنها الآن فى عهد الاتحاد الروسى تَقِف فى مكانها جامِدة، وتَتَلَفَّت حولها حائرة، وتَتَقَدَّم خطوة وتَتَراجَع خطوة - مُحاذِرة!

على أنه مهما كان فإن روسيا لها الحَق أن تَعرف. على الأقل تَعرف. مجرد المعرفة تكفيها الآن حتى بغير نَصر!

ويَعرض الجنرال «يورى» أسلوب عَمَل يراه قادِراً على مَعرفة كل شىء دون أعباء يَعلَم قبل غيره أن من الصَعب توفيرها. وكذلك فهو يقترح التركيز على إسرائيل، وأسبابه كما يلى :

١ - إن كل كلمة تُقال فى واشنطن طول النهار ترشح قبل نزول الليل فى تل أبيب. وهكذا فإن أفضل مكان - وأرخص مكان - لمتابعة فِكر وفِعل الإدارة الأمريكية هو تل أبيب وليس واشنطن!

٢ - إن إسرائيل لديها شَبَكة مُخابرات عالية الكفاءة - يُساعِد فيها يَهود العالَم - ومعنى ذلك أنها خَزَّان مُمتلئ دَواماً بأخبار ما يَجرى فى كل القارات خصوصاً آسيا وأفريقيا - وإذا كَشفَت روسيا نشاطها فى تل أبيب فإنها تُعطى نفسها مَورداً للمخابرات واسعاً وعميقاً يَتَجَمَّع فيه كل ما تعرفه أمريكا، وكل ما يَعرفه يهود العالَم، وكل ما تَعرفه إسرائيل.

٣ - إن روسيا لديها فى إسرائيل إمكانيات لا يَتَصَوَّرها أحد، ففى مَوجات الهجرة الروسية استطاعت الـ«كى. جى. بى.» (K. G. B. مخابرات الاتحاد السوفيتى) أن تَسوق مئات ومئات من جواسيسها ضمن المهاجرين. هناك أيضاً أن عِصابات المافيا الروسية شَحَنَت عَناصر منها بسرعة إلى إسرائيل، وقد نَشَطت هذه العَناصر من عِصابات المافيا على جَبهات عريضة من تجارة الماس إلى استيراد اليورانيوم، ومن تهريب المخَدِّرات إلى تَصدير العاهِرات - ولأن هذه العصابات تريد أن تظلَّ صِلتها مع روسيا قائمة فهى تَتَعاوَن مع المخابرات الروسية، وتَتَعاوَن بمَقدِرة.

٤ - هناك أيضاً إمكانية ثالثة - غير العُملاء المدسوسين وغير عصابات المافيا - يمكن تَوظيفها لحساب المخابرات الروسية، وهُم هؤلاء الذين غادَروا روسيا إلى إسرائيل ثم اكتشفوا بعد أن وَقَعَت الواقِعة أن الجحيم الروسى أفضل من الفردوس

الإسرائيلى، والآن فإن معظم هؤلاء على استعداد أن يَفتحوا طريق عَودتهم - بتقديم خَدَماتهم للوَطَن الأصيل!

وتَنبَهِر القيادة الروسية بما سمعته ويَصيح «ألكسندروفيتش» بزملائه قائلاً : «هل ترون ؟ كان هذا الكنز من وسائل العَمَل لدينا دائماً ونحن لا ندرى، ولكن «يورى» هو الذى لَفَت أنظارنا إليه وإلى إمكانية استخدامه».

□

ويأخذ الجنرال «يورى» سامعيه المبهورين به خطوة بعد خطوة إلى «الحَلّ العَبقرى» الذى يَعرفه ولا يعرفونه لكنهم يَتَشَوَّقون إلى سَماع «كل شىء عنه».

يُفاجئهم «يورى» - فوق كل ما قال وزيادة عليه - بسِرٍّ تَوَصَّل إليه وهو سِرُّ «العملية هِبرون».

يبدو الذهول على الرئيس الروسى وزملائه المجتَمعين معه فى مزرعة «جوكوفكا» لأنهم لا يُصَدِّقون أن مثل ذلك ممكن، ولا يَتَصَوَّرون أن إسرائيل تَصِل بالمغامرة إلى هذا الحَد. لكن الجنرال «يورى» يبدو واثقاً مما يقول مُعتَمِداً فيه كما هو ظاهِر على «شبكَة معلومات» لا مثيل لها فى العالَم كله مَوجودة فى إسرائيل.

يَتَساءل الرئيس «بوبوف» :

- «هل تَعرف مَن هو «هِبرون» الذى يُريدونه «رئيساً» لأمريكا والذى هو «عَميلهم» فى الحقيقة ؟»

ويَرُدُّ الجنرال «يورى» بلَهجة تُوحى بالاقتدار:

- «لم نستطع تحديد شخصيته حتى الآن لكننا سوف نعرف بالتأكيد مع مواصلة البحث».

ويَتَدَخَّل وزير الخارجية «سترافينسكى» فيقول :

- «هناك على الساحة أربعة مُرَشَّحين :

عن الحِزب الجمهورى يَتَنافَس نائب الرئيس «هين». لكن الرئيس «دوجلاس» يَظُنُّه

ضعيفاً وغير قادر على إدارة مرحلة يَحسبونها مرحلة سيادة أمريكية مُطلَقة فى العالَم، ولذلك فهو يُساعِد سِرًا حتى الآن صديقه السناتور «جونسون» الذى يَحظى باحترام كبير.

هناك عن الحزب الديمقراطى مُرَشَّح واحد هو السناتور «ويستليك».

من المستقلين هناك «كرامر» وهو رَجُل لا يبدو منه خطر، وسوف تُزيحه الانتخابات الأوَّلية من الساحة إلى الهامِش كما حَدَث مع غيره ممن دَخلوا الانتخابات مُستَقِلين، أو ممن راوَدَهم حلم إقامة حِزب ثالث فى الولايات المتحدة.

عميلهم الذى يَسعون إلى تَنصيبه رئيساً لا بد أن يكون السناتور «ويستليك»، فهو الصديق المخلص إلى النهاية. سِجلُّه فى التصويت على كل مشروع قرار يَخُصُّ إسرائيل معها ولصالحها دائماً وأبداً.

لا أظنهم يُعَلِّقون خُطَّة كبيرة بهذا الحجم على نائب الرئيس «هين» لأنه شخصية مَهزوزة وسوف يَكشِف نفسه ويَكشِفهم معه بسرعة.

السناتور «جونسون» ليس رَجُلهم. سِجِلُّه فى التصويت مُعارِض دائما لإسرائيل سواء فيما يَخُصها مباشرة أو لا يَخُصها.

وإذن فهو «ويستليك» - أراهِن».

لكن الجنرال «يورى» «حريص» لا يَقبَل الرهان. وتَقديره بالصمت أن قضية بهذا الحجم لا يَعتَمِد فيها على الاستنتاج حتى لو سانده المنطِق فبَدا معقولاً - مُحتَمَلاً أكثر من غيره.

والجنرال «يورى» لا يَدخل فى مباراة حماسة أو تَخمين، وإنما يقول فى غموض: «الأفضل أن ننتظر حتى نعرف .. حتى نعرف كل شىء .. وسوف نعرفه».

□

لكن الجنرال «يورى» لا يبوح لرؤسائه «بكل شىء» يعرفه. لا يقول لهم إنه على علاقة مَشبوبة باللهَب مع امرأة صربيَّة شديدة الجمال اسمها «جاكى ماركوفيتش». وهو يَعرف أنها على صِلة بأجهزة مُخابرات تَستَعملها عن بُعد. وأنها قاتلة مُحترفة فى مهام خاصة يكون طَغيان الجَمال فيها سابقاً على سَفح الدَم أو دَسِّ السم. على

أنه برغم ما يَعرفه عن سِرِّها يَجد سِحرَها طاغياً، وهو قبل وبعد كل شيء رَجُل يَعرف كيف يُحَصِّن نفسه. يمسك بالوَردة ويَتَجَنَّب شوكها. والوَردة لا تُقاومه، بل هى معه تَنزع شوكها مُطمَئِنَّة إلى أنها علاقة جَسَدين يَتَشَوَّق كل منهما إلى الآخر، مع بقاء العقول فى مكانها، وبقاء القلوب بَعيدة عن الموضوع. فهى ليلة واحدة - ما بين فترة وأخرى فى تلك العاصمة أو تلك لساعة من اللهَب، وفى الغَد كأن شيئاً لم يكن، مثل بواخِر تَقابَلَت بالليل فى عَرض المحيط وتَلألأت أنوار كل واحدة أمام الأخرى، لكنها لحظات على الموج ثم تَمضى كل باخِرة نحو مَقصدِها إلى ميناء بعيد!

والجنرال «يورى» يَعرف. وقد تَرَك «جاكى» تَعرف أنه يَعرف - إنها هى التى قامت بعملية تَصفية السفير «سورنسون» فى بروكسل.

وأبعَد من ذلك فإن الجنرال «يورى» أوحى لعَشيقته الدورية أنه «يَعرف» أنها مَخدوعة رغم تَمَرُّسِها فى عِوالِم الظلام.

وقد جَعَلها الجنرال «يورى» تَفهَم دون أن يُصَرِّح بأنهم «الإسرائيليون» وليس «الإيرانيون». «الموساد» الإسرائيلى حَصلَ على الرمز الإيرانى وحَوَّلَه إلى إشارة لها وإلى عَقدِ عَمَل. وقد وَجَدوا الخديعة مُغرية : لا يَتَحَمَّلون مسئولية إشارة بعَمَلية خطرة - ولا يَدفَعون أجر تنفيذ العَمَلية - ثم يَجعَلون الاتهام مُوَجَّهاً إلى غيرهم.

وفَكَّرَت «جاكى» فيما أوحى به «يورى»، ثم تَوَصَّلَت إلى تَصديق ما فهمته منه!

وإذن فقد خَدَعوها. خَدَعَتها المخابرات الإسرائيلية. خَدَعَها الرَّجُل الذى تَعامَلَت معه بثقة لزمان طويل وهو «تيرون» مدير محطة «الموساد» الرئيسية فى واشنطن .. «تيرون» وليس غيره - ولم يَقُل لها يورى ما هو أكثر لا بالتصريح ولا بالتلميح.

وتَصَمَّم «جاكى» على أن تَنتَقِم. ففى هذا العالَم الخفى تتعلق سُمعة الأطراف بقدرتهم - على الفِعل عندما يُكَلَّفون به - «بأمانة». وعلى الانتقام عندما يُحاول أحد أن يَتَلاعَب بهم ويَغِش - بحَزم. فهذا العالَم الخفى يَقوم كله على الثقة والحَسم، فإذا اهتزت الثقة - أو انكشف التلاعُب - حَدَث فى عالَم الجريمة كما يَحدُث فى عالَم البنوك، إفلاس وخَراب.

□

بعد أيام يُفاجأ الجنرال «يورى» بدعوة إلى اجتماع للقيادة الروسية العليا مع الرئيس «فلاديمير بوبوف»، ليَجد كتلة من المفاجآت تنتظره. ففى القاعة الخارجية لمكتب الرئيس «بوبوف» كان فى انتظاره مسئوله السياسى المشرف على النشاط الخارجى والمعلومات الذى بَادَرَه بغير مُقَدِّمات :

«عليك أن تنقذنا من كارثة. رئيسنا «بوبوف» طرأت له فكرة لتحسين علاقته بالأمريكان وكسب نقطة عند الرئيس «دوجلاس». وهو يريد أن يُبلغه بسِرٍّ «العملية هبرون»، وأنا أعارض، ولكن وزير الخارجية المنبطح أرضاً «سترافينسكى» يُؤيِّد الفكرة ويراها «ضَربة معلِّم». نحن أمام موقف خطير وعليك أن تَثبَت فيه، وإذا مَنَعتَ الرئيس من تنفيذ خُطَّته المجنونة فسوف تَدخُل تاريخ روسيا من أوسع باب. وَسيلَتُك لمنعه أن تُحَذره. حاولت أنا أن أحَذره لكنه لم يَلتَفت إلى ما قلت. أما أنت وباعتبارك المسئول العَمَلى فى ميدان الأمن فإنه سوف يأخذ كلامك أكثر جَدًّا».

ويَدخل الجنرال «يورى» مكتب الرئيس «بوبوف»، وكان الآخرون فى انتظاره، وانقض عليه السؤال قبل أن يَتَّخِذ مقعَده:

«ما رأيك يا يورى إيفانوفيتش فى أن نقوم بإخطار الرئيس الأمريكى «دوجلاس» بسِرٍّ «العملية هِبرون» ؟»

ثم يَروح الرئيس «بوبوف» يَشرَح :

«نحن فى حاجة إلى«دوجلاس» لضَرورتين عاجلتين : نريد تأييده لانضمامنا إلى مجموعة الدول السبعة التى تُدير سياسة واقتصاد العالَم، ونحلم بأن يَتَحَوَّل السبع بنا إلى ثمانى. هذه هى الضرورة الأولى. والضَرورة الثانية أننا طلبنا من صندوق النقد الدولى قَرضاً كبيراً لتثبيت الروبل، ولا أمَل لنا فى الحصول عليه دون تأييد «دوجلاس».»

يَستَطرد «بوبوف» :

«والسؤال هو ماذا لدينا لنُقَدِّمه إلى «دوجلاس» عَربوناً على حُسن نيَّتنا وحِرصِنا على أمن الولايات المتحدة ؟»

ويَرُدُّ الجنرال «يورى» مُعارضاً يُعَدِّد أسبابه بهُدوء :

« ١ ـ إن تَسريب سِر «العملية هِبرون» للرئيس الأمريكى سوف يكشِف مَصدَراً فى إسـرائيل يَسـتَـحِق الحِرص عليه، بل يَلزَم الحِرص عليه لأن مـوقـعـه فى القـرار الإسرائيلى غير قابل للتَعويض.

٢ ـ ما سوف نقوله للأمريكان سوف «يرشح» كالعادة فى إسرائيل ومن ثم فسوف تَعرف إسرائيل، وهى لن تقوم بتَصفية مَصدَرنا فقط ولكنها سوف تَتَقَصَّد نشاطنا كله هناك وتُطارده.

٣ ـ إن الأمريكان لن يُصَدِّقوا ما نقوله إذا كانت إسرائيل طَرَفاً فيه لأن حُبَّهم لإسرائيل أعمى!

٤ ـ إن الأمريكان فى العادة يَتَشَكَّكون فى أية معلومات تصلهم تَطَوُّعاً. يَعتقدون أن تسليمها لهم لا يمكن أن يكون دليل حُسن نِيَّة، وظنهم أن التسريب سوء نِيَّة لها ما وراءها. وهذه عَقليَّتهم. لا يَفهَمون منطق أن يَحصلوا على شىء مقابل لا شىء!»

ويَظهَر أن اعتراضات «يورى» لم تَنجَح فى تغيير رأى الرئيس. لأن «بوبوف» مُصَمِّم، وهو يُطلق حُجَّته النهائية قائلاً للجميع :

«أريد أن ألفت نظركم إلى أن هناك ما هو أكثر من رَغبتى فى مُجاملة الرئيس «دوجلاس». وهنا فإننى أرجوكم أن تَتَصَوَّروا صعوبة موقفنا إذا أصبح رئيس الولايات المتحدة عَميلاً لإسرائيل - وتحت تَصَرُّفه ترسانتها كلها بما فيها الأسلحة النووية.

أسوأ الشَرَّين أن نَذهَب إلى هذا المدى فى مُجامَلة الولايات المتحدة - لكن أسوأ الشرور كلها أن نَقِف ساكِتين حتى نرى روسيا خاضِعة لإسرائيل إذا تمكنت من وَضع عميلها فى البيت الأبيض!»

ويَنتَهِز «بوبوف» تأثير كلامه المعَبَّأ بنُذُر الشُؤم ثم يَتَّخِذ قراره ويُكَلِّف وزير خارجيته المؤتَمَن «سترافينسكى» بأن يَتَوَلى مُهِمَّة إبلاغ رئيس الولايات المتحدة بـ«العملية هِبرون» - ويَلتَفِت «بوبوف» إلى الجنرال «يورى» ويقول :

«يورى إيفانوفيتش.. عليك أن تَسبق إلى واشنطن. وتكون جاهِزاً هناك لكل الاحتمالات بما فيها تقليل حجم الخسائر المحتَمَلة فى مصادِرك».

ويَنتهى الاجتماع بهذه النبرة الحازمة، ويَهِمُّ الجنرال «يورى» خارجاً من القاعة، ويَلحَق به وزير الخارجية الروسى يحاول تَنويم شكوكه قائلاً له :

«لا ينبغى لك أن تَجعَل عقلية الحَرب الباردة تَحكُم تَصَرُّفاتك أو مشاعِرك. هذا الآن عالَم مُختلف وملىء بالاحتمالات».

ويَرُدُّ الجنرال الخبير العارف قائلاً :

«إنك سوف ترى بنفسك. الأمريكان لن يُصَدِّقوك. عندما يجيئهم التحذير من روسيا فأول رَد فعلهم الشك. عندما تَجيئهم المعلومات مَجَّاناً فإنها إذن رخيصة، وهى بالتالى مما لا يُمكن الوثوق به».

ويُطَمئنه وزير الخارجية بقوله :

«إن خَطَر «العملية هِبرون» على مستقبل روسيا أكبر من خَطَره على أى طَرَف فى العالَم حتى على العَرَب .. فَكِّر كيف تَحمى مَصادِرك، فهذا أَوْلى الآن بجهدك من القَلَق بسبب فكرة «بوبوف» !»

٦ـ متغيرات الموازين بين قوتين !

فى الفصل الخامس عشر من قِصَّة «إريك جوردان» «العملية هبرون» والتى كَتَبَها، ومخزون تجربته كمسئول كبير فى وكالة المخابرات المركزية لمدَّة ثلاثين سنة عماد مَعرفته ومَصدَر ثقافته ـ تَصِل القِصَّة ـ الخيال الملتَبس بالحقيقة والحقيقة الملتَبسة بالخيال ـ إلى مكتب مستشار الأمن القومى للرئيس ـ وهو نفسه الدكتور «ويليام رَسِل».

تليفونه الخاص يَدُق وهو ما زال فى بيته. والمكالمة من موسكو، ويَفهَم «رَسِل» أن مكتب وزير خارجية روسيا «أندريه سترافينسكى» على الخط ـ ثم يَسمَع صوتاً يقول له : «إنه هو نفسه سترافينسكى يَتَحَدَّث إليه مباشرة ودون مدير مكتب يَطلب له الرَقَم ويُعطيه جهاز التليفون». ويتأكد «رَسِل» أنه بالفعل صوت «سترافينسكى»، وتُدهشه المكالمة، ولا يَتَذَكَّر سبباً ظاهراً يَستَدعى تَوَقُّعها. ويُجيب «سترافينسكى» عن تساؤله وكأنه أحسَّ بخواطره قائلاً له : «هناك رسالة سِرِّية وعاجلة من الرئيس

«بوبوف»، وقد كُلِّفت أن أنقلها إليكم، وهى لعِلم الرئيس شخصياً، ولا يجب أن يعرف بها أحد من مُساعِديه غيرك، ولا من سكرتيريه مهما كانت دَرَجة قُربهم»!

ويَسمَع «رَسِل» وهو يُهَمهِم بأصوات لا معنى لها إلا استعجال الحديث إلى غايته. ويُواصل «سترافينسكى» كلامه : «لا أريد أن أجىء إلى واشنطن بنفسى وأقابل الرئيس فى البيت الأبيض لأن ذلك سوف يُلفِت الأنظار. رأينا أن تكون أنت الرجُل الذى نفضى إليه بالرسالة ينقلها إلى الرئيس. وأنا قادِم إلى نيويورك بعد غد، وهو يوم السبت، وأستطيع أن ألقاك فى فندق «والدورف أستوريا» فى الجناح الذى التقينا فيه من قبل وأنت تعرفه. سوف يكون هَدَفى المعلَن من زيارة الولايات المتحدة هو الاجتماع بالسكرتير العام للأمم المتحدة فى نيويورك لبحث التطورات فى البلقان، لكن مُهِمَّتى الحقيقية معك».

يرُدُّ «رَسِل» : «ألا تستطيع التلميح لى بشىء عن الموضوع من غير تفاصيل ؟ الحقيقة أننى سوف أجد صعباً علىَّ أن أعرض على رئيس الولايات المتحدة موضوعاً لا عنوان له ؟»

ويَرُدُّ «سترافينسكى» بسرعة : «مُستحيل. الموضوع لا يُناقَش ولا حتى بالإشارة عبر الأجواء - مع أنى أعرف أن تليفونك آمن وتليفونى كذلك، ولكن إجراءات الحماية الإلكترونية للمحادثات التليفونية تَظَل مُعَرَّضة حتى على مستوى البيت الأبيض والكرملين»!

□

المشهد التالى فى هذا الفصل يَقَع خارج مكتب الرئيس «دوجلاس»، حين يَدخل مستشاره للأمن القومى ينتظره فى مكتب السكرتيرة الخاصة. والرئيس كان يَزور «مَلعَب جولف» يُمارس فيه رياضته المفضلة كلما واتته فرصة. وقد وَصَلَ الرئيس الآن فعلاً إلى البيت الأبيض، لكنه دَخَلَ الجناح الخاص لحَمَّام سريع (بعد الرياضة)، قبل أن يَتَوَجَّه إلى المكتب البيضاوى ليُقابل مستشاره للأمن القومى، ويَعرف منه ما هى الضرورة العاجلة التى استوجبت طلب مقابلته على الفور.

يَصِل الرئيس «دوجلاس». ويَعبُر مكتب سكرتيرته داخِلاً إلى المكتب البيضاوى،

ويَمشى وراءه الدكتور «رَسِل». ويَستَمع «دوجلاس» إلى مستشاره للأمن القومى يَحكى ما لديه. ومع أن الرئيس استغرب الملابسات والتوقيت، فإنه يَقول لـ«رَسِل» :

«ليس أمامنا غير أن نسمع ما عندهم. ولكنى أريدك من باب الاحتياط أن تَطلب إلى وكالة الأمن القومى (.N.S.A وهى تتولى التَجَسُّس الإلكتروني كله على مستوى العالَم) أن تَجىء بالشريط الذى سَجَّلوا عليه مكالمة «سترافينسكى» معك، وأن يَضَعوه فى ظرف مختوم وأن يبعثوا به إلى البيت الأبيض، وسوف نَرُدُّه إليهم للحِفظ فيما بعد طبقاً للأصول».

يُضيف الرئيس : «أريد أن أجعل هذا الاتصال محصوراً بحيث لا يُوَزَّع نَصُّه ضِمن ما يُوَزَّع من التسجيلات كل يوم على المسئولين الذين لهم حَق الاطلاع. أريد ذلك حتى نَفهَم بالضبط ما هو الموضوع.

أرى من باب الاحتياط أن لا تَذهَب إلى أى مطار لتأخذ منه طائرة إلى نيويورك - ظهورك فى أى مطار يُلفِت النظر. خُذ سيارة واذهب بها إلى نيويورك، ولا تَذهَب بسيارة من البيت الأبيض، وإنما استأجر سيارة تَذهَب بك وتَعود.

لا أعرف ماذا يُريدون؟ وما إذا كان ما عندهم يُساوى الاحتياط إلى هذه الدرَجة ؟ - لكننا سوف نَحكُم بأنفسنا بعد أن نعرف».

□

المشهَد الثالث فى هذا الفصل يَقَع فى جناح وزير الخارجية الروسى داخل فندق «والدورف أستوريا» فى قلب نيويورك. الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء الأحد، والكل فى إجازة، وليس هناك «مخلوق» فى ممرات الـ«والدورف». وجناح وزير الخارجية الروسى عليه لوحة تقول «رجاء عَدَم الإزعاج». لكن الدكتور «رَسِل» يَعرف أن ساكن الجناح الذى وَضَع بيده لوحة «عَدَم الإزعاج» ينتظره بلَهفة وراء الباب المغلق.

ويلتقى الرَّجُلان وَجهاً لوَجه، ووزير الخارجية الروسى لا يضَيِّع وقتاً، وإنما يبدأ على الفور :

«لدينا رسالة من الرئيس للرئيس. الرسالة بالغة الأهمية !»

يقول له «رَسِل» :

«جئت بأمر رئيسى لأسمعها منك!»

يَستأنف الروسى كلامه :

«كل الأجهزة عندنا كانت تعارض قيامنا بإخباركم بما سوف أقوله لك الآن. فى الكرملين كانوا يعارضون. فى المخابرات (الـ«كى. جى. بى.») أصابهم الجنون تقريباً لأن الرئيس قَرَّرَ إبلاغكم بما سوف أقوله لك. إنما الرئيس «بوبوف» من باب «تأكيد الثقة» و«اعتبار الصداقة» بينه وبين الرئيس «دوجلاس» - أسقَط اعتراضات الجميع وقَرَّرَ أن أقوم بإبلاغِك بما سوف تَسمَعه الآن».

ويبدو على الدكتور «رَسِل» نوع من الضيق بكل هذه المقدِّمات «عما سوف يسمعه الآن».

ويَشعُر «سترافينسكى» داخله بنوع من الحَرَج فيَهمس لنفسه : «هؤلاء الأمريكان ليس لديهم عِرفان بالجميل تجاه أحد»!

لكنه يَتَجاوَز حَرَجَه ويقول للدكتور «رَسِل» :

«لدينا معلومات مؤكَّدة - من مَصدَر لا يَرقى إليه شك - أن القيادة العليا الإسرائيلية اعتمدت تَنفيذ «عَمَلية» أطلقوا عليها الوصف الرمزى «هِبرون» - هَدَفها وَضع عميل لهم فوق مِقعَد الرئاسة الأمريكية. و«هِبرون» كما يَظهَر لنا واحدٌ من المشاركين فعلاً فى السباق إلى الترشيح الرئاسى. معلوماتنا فوق ذلك تُؤكِّد أن المسئول عن إدارة «العملية هِبرون» هو «دافيد تيرون» مدير محطة «الموساد» فى واشنطن. وتلاحظون أن «تيرون» سافر إلى إسرائيل خمس مرات فى ظرف شهر واحد. السفير الإسرائيلى فى واشنطن لا يَعرف فى الغالب، لأن «العَمَلية» مَحصورة ومباشرة بين رئاسة الوزارة فى إسرائيل وبين مدير محطة «الموساد» فى واشنطن ...»

يَتَوَقَّف وزير الخارجية الروسى - ومستشار الأمن القومى يُحاول السيطرة على مشاعره، وبعد لحظةِ صَمت يسأله : «أهذا هو الموضوع السرِّى العاجل والخطير ؟»!

يُعاود وزير الخارجية الروسى شعوره بالحَرَج مَمزوجاً هذه المرة بلمسة من

النـدَم علـى أنهم قَـرَّروا «إبلاغ هؤلاء الناس عـديمى العِـرفـان بسِـرٍّ يُؤثـر علـى بَلَدهم وهُم لا يُقَدِّرون ولا يَشكرون» !

لكن وزير الخارجية الروسـى يُغالب مَشاعره ويقـول :

«أفهـم أن لديكم شكوكاً - أوَّلها ما هى مَصلحتنا فى إبلاغكم ؟ - ونحـن نعرف أنكم لا تُؤمِنـون بالمشـاعـر بما فى ذلك الصـداقـة والثـقـة بين الأصـدقـاء. أنتـم لا تقـتنعـون بشـىء إلا إذا أخذتموه بأيديكم أو إذا بَدَت لكم وراءه مصلحة ظاهرة لأصـحابه. ليكن. روسـيـا لهـا مـصلحـة أمنية، لا تُريد أن تَرى عـمـيـلاً إسـرائيلياً جـالسـاً فى المكتب البيضـاوى وفى يَدِه قرار الولايات المتحدة الأمريكية وقُوَّتها».

ولا يُعَلِّق الدكـتـور «رَسِـل»، لكنـه «يَشـفـط» آخـر قطرة فى كـأسـه ويقـول لـ«سترافينسكى» :

«علـىَّ الآن أن أعـود إلى واشنطن قـبل أن يَطلـع نور الـصـبح وأكـون فـى مَكتـبى كالعادة مع بداية الأسبوع دون أن يَلحَظ أحد غيابى. فليس هناك من يعرف أننى هنا غير الرئيس».

□

المشـهَـد الرابع فى هذا الفـصل يَقَـع بين جُـدران المكتب البـيـضـاوى والرئيس «دوجلاس» على مِقعَده وأمامه مُستشاره للأمـن القومـى ومعه السـر.

يَسمَـع الرئيس مستشاره وهو لا يكاد يُصَدِّق، وتَعليقه تلقائياً :

«أهذا معقول ؟ - هل تستطيع إسرائيل أن تُفَكِّر فى عَمَل من هذا النوع وهـى تَعرف مخـاطر انكشـافـه ؟ - أظن أن «الروس» مُخطئون. هُم ليسـوا سَيِّئى النِيَّة فيما أظن، لكنهم فـى الغـالب يلعبـون على مـا نعرفـه جمـيعـاً من قُرب السنـاتور «ويستليك» من اللوبى الإسرائيلى.

ومع ذلك (يَتَرَدَّد الرئيس لحظة) لا نستطيع أن نَتَجاهَل ما سمعناه حتى وإن لم نأخذه جَدًّا إلى الآخر. (يَتَرَدَّد الرئيس مرة أخرى) أظن أن الحَلَّ المنطقى أمامنا إدخال مكتب التحقيقات الفيدرالى فى الموضوع. نحن لا نستطيع من البيت الأبيض أن نتابع،

ولكن مكتب التحقيقات الفيدرالى يستطيع. وفى إمكاننا أن نعتَمد على حِكمة رئيسه القاضى «بيكر»، وسوف أطلب منه أن يُكَلِّف بالمهِمَّة عميلاً واحداً من أعوانه. (يَتَذَكَّر الرئيس «دوجلاس» شيئاً ويُضيف) هذه الفتاة التى قامت بالتحقيق فى عَمَلية قتل المسكين «سورنسون». اسمها «بريندا» أليس كذلك ؟ - كانت فى منتهى الذكاء والنشاط فى عَمَلها لأنى تابَعت التحقيق. قتلوا «سورنسون» لأنه كان صديقى، ولن أغفر للذين فَعَلوها مهما طالَ الزمَن».

وتَجرى دعوة القاضى «بيكر» على الفور، ويجىء لمقابلة الرئيس ومعه معاونته «بريندا». ويَسمع الاثنان رواية مستشار الأمن القومى فى حضور رئيس الولايات المتحدة، وعلى وَجه كل منهما تعبيرات مُحايدة لا تكشف مشاعره (وذلك تَدريب له قواعده).

ويَطلب القاضى «بيكر» تفويضاً رئاسياً يُعطيه الحق فى استعمال أجهزة حسَّاسة داخل السفارة الإسرائيلية، ولا يحتاج إلى إذن بمراقبة تليفوناتها لأن تليفونات كل السفارات فى واشنطن تحت الرقابة بطريقة «اعتيادية»!

وآخر تَوصية من الرئيس «دوجلاس» قبل أن يَنصَرف رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى مُهِمَّته الخطيرة الجديدة هى قوله : «إذا كانت حكاية الروس صحيحة فأظن أن تركيزكم يجب أن ينصَب على السناتور «ويستليك» فهو بالتأكيد رَجُلكم (يُكَرِّر مرة ثانية) هذا إذا كانت الحكاية الروسية صحيحة».

□

وتَقتَرب قِصَّة «إريك جوردان» من ذروَتها وكأن مُؤَلِّفها يَقرأ من كتاب مَفتوح أمامه :

فى الأسبوعين السابقين على يوم الاقتراع - زادَت حَرارة السباق الانتخابي إلى دَرَجة الحُمَّى، وتَوَتَّرَت الأعصاب إلى حَدِّ الانفجار!

كان السباق بين المرشحين لعبة قمار، والرهان على أصوات اليهود يَرتَفع، ونفوذ اللوبى الصهيونى عالى الرنين والطنين لدَرَجة مُزعِجة وإلى حَدٍّ أن السناتور «ويستليك» تَعَهَّدَ بأنه غداة دخوله المكتب البيضاوى فسوف تكون أولى مهامه

كرئيس هو توقيع قرار بإشراك إسرائيل فى صناعة الطائرة «ى. ف. ٢٢» التى تُعتَبَر الطائرة المقاتلة للقرن الواحد والعشرين.

ومع أن الشكوك حول السناتور «ويستليك» تَزيد إلا أن مكتب التحقيقات الفيدرالى رغم كل ما بذله القاضى «بيكر» ومساعدته «بريندا» من جهد - لا يَصِل إلى دليل قاطع. وقد تَمَكَّنَت «بريندا» عن طريق الرقابة المكثفة بما فيها الرقابة المباشرة على مكتب السفير الإسرائيلى فى واشنطن ومكتب مدير محطة «الموساد» - من العثور على قرينة تشير إلى أن هناك بالفعل عملية يُطلَق عليها اسم «هِبرون» - لكنها لم تَتَوَصَّل هى أو غيرها إلى شىء بعد ذلك. وحتى تلك القرينة التى وَصَلَت إلى «بريندا» جاءتها بالمصادَفة حين كانت تَتَسَمَّع بنفسها على ما يجرى فى مكاتب السفارة الإسرائيلية بفضل وسائل جديدة «مُذهلة فى دِقَّتها وتعقيدها» يستعملها مكتب التحقيقات الفيدرالى. وكانت «بريندا» تُفَضِّل هذه الوسائل لأنها تَجعلها مُستَمِعة - كأنها ترى ما يجرى داخل السفارة وفى أى مكتب. وكانت تُفَضِّل وهى تَسمع أن يكون أمامها جهاز خاص يقوم بتحليل نَبرات كل صوت تَسمَعه حتى تستطيع بلوغ أعماقه: تَكتَشِف مَدى المجاملة فيه - مَدى الجِدِّية - مَدى الصدق - مَدى الكَذب!

وقد استمعت «بريندا» إلى «تيرون» (مدير محطة «الموساد» فى واشنطن) مرة وهو يُوقِف صوتاً ينطق بكلمة «هِبرون» ويُقاطعه «تيرون» قبل أن يُكمِل النطق قائلاً له: «أنت تَقصِد تلك البلدة فى الضفة الغربية؟» («هِبرون» هى الخليل).

لكن تلك القرينة لا تكفى، وتقترح «بريندا» على رئيسها القاضى «بيكر» أن يقوما معاً بزيارة للمرَشَّحين الثلاثة: الجمهورى «جونسون» - الديمقراطى «ويستليك» - المستقل «كرامر» - ثم يُشيران بطرف خَفى لكل منهم إيحاءً بـ«تَدَخُّل أجنبى فى الانتخابات الأمريكية»، ثم يَرصُدان ردَّة الفِعل ويقيسان مَضمونها على جهاز تسجيل (لا يَعرف سِرَّه أحد) سوف تَخفيه «بريندا» فى حقيبة يَدها (وهو يُؤدى دوره مُستَعصياً تماماً على الكشف) - وكان جل اعتماد القاضى «بيكر» و«بريندا» على لحظة تَسأل فيها «بريندا» كل واحد من المرشحين الثلاثة: «هل تعرف رَجُلاً اسمه «تيرون»؟» (والمقصود هو مدير محطة «الموساد» فى واشنطن) - ولحظتها مع المفاجأة قد تَلمَع على الجهاز إشارة تَظهَر مُسَجِّلة!

ولسـوء الحظ فـإن المحـاولـة لا تكشـف دَليلاً يُعتَـمَد عليـه، لكن «هـِبرون» نفسـه يُصاب بنَوبة من الرُعب تُهَيِّئ له أن أمره على وشك أن يَفتَضح!

٧ـ المفاجأة الكبرى قبل أن ينـزل الستار:

تَصِل قِصَّة «إريك جوردان» إلى الذروة، وأحداثها تَتَصاعَد بسرعة خاطفة:

الحقيقة لا تبدأ فى الظهور إلا ليلة إعلان نتيجة الانتخابات، وهى ليلة ليلاء.

تُصبح عملية عَد الأصوات سِباقاً مَحموماً لأن الأرقام ظَلَّت حتى اللحظة الأخيرة شديدة القُرب ما بين السناتور «جونسون» (الذى ساعده الرئيس «دوجلاس» على النجاح) وبين السناتور «ويستليك» (القريب من إسرائيل بما يُرَكِّز الشبهات عليه). وفى نهاية ساعات من التَوَتُّر العَصَبى تَميل الأرقام لصالح «جونسون» بفارق يَقِل عن خمسة آلاف صوت، ويشيع أن «ويستليك» سوف يَطلب إعادة فَرز وعَدِّ الأصوات من جديد فى ولاية «نيو هامبشَير».

وعند منتصف الليل يبدو وكأن العاصمة الأمريكية فَقَدَت توازنها.

الرئيس «دوجلاس» فى البيت الأبيض فى حالة نشوة لأن مُرَشَّحه المُفَضَّل «جونسون» فاز وإن بأغلبية صغيرة، وحتى إذا طلب «ويستليك» إعادة فَرز وعَدِّ صَناديق ولاية «نيو هامبشَير»، فإن معلومات الرئيس «دوجلاس» أن إعادة الفَرز إذا أخَذَت وأعطَت هنا وهناك عشرة أصوات أو عشرين صوتاً لن تُغَيِّر شيئاً فى تشكيل المجمع الانتخابي للولاية، وسوف يَحصُل «جونسون» على أصواتها ويَنجَح، وسوف يَسقُط «ويستليك» صديق إسرائيل (عميلها «هِبرون» ؟!)

□

وفى السفارة الإسرائيلية تَثور عاصِفة غَضَب، بعد أن سَمَع السفير نفسه على الوكالة الإخبارية الشهيرة «سى. إن. إن.» إعلانها بفوز «جونسون» على «ويستليك»، ومعنى ذلك فى تقدير السفير أن كل استثمار إسرائيل فى «ويستليك» ضاعَ، ولا بُد أن هناك تقصيراً من جانبهم، والمسئول عن الحملة الانتخابية «تيرون» مدير محطة «الموساد»، وسوف يبدأ باتهامه قبل أن تبدأ تل أبيب باتهامه هو (السفير)، وكذلك

يَستَدعيه على عَجَل إلى مكتبه ويَصُبُّ عليه جام غضبه، لكن «تيرون» لا يقول له شيئاً مُقنِعاً، وبالعكس فإنه يتظاهر بتماسك لا مُبَرِّرٌ له.

«تيرون» يعرف أكثر. وهو فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ذاهِبٌ إلى مقابلة مع «هِبرون» طلبها عَميله بإلحاح مَلهوف فى هذه الساعات المجنونة لأن لديه نَوبة ذُعر أصابته فى اللحظة الحاسمة بشَكٍّ يُهَيِّئ له افتضاح أمره - بانكشاف سِرِّه بعد ما سَمَع من القاضى «بيكر» ومُساعِدته «بريندا» التى سألته : «هل تَعرف رَجُلاً اسمه «تيرون» ؟»

ويَتَوَجَّه «تيرون» إلى موعده مع «هِبرون» فى فندق بعيد على أطراف واشنطن وهو لا يَشعُر أن امرأة غامضة هى «جاكى ماركوفيتش» فى أثره - تُطارده لأنها تعتقد أنه خدعها، وتَتَّهِمه بأنه استعملها لتحقيق هَدَف أراده ثم أنكَرَ، وأسوَأ من ذلك فهو لم يدفع لها أجرها حين طالَبَت به، وهى مُصَمِّمة على القصاص - ثم أنها فى هذه اللحظة بالذات وراءه، وهو فى غَفلة بسبب العَجَلة.

ويدخل «تيرون» على «هِبرون» فى الفندق الذى اتفقا على الاجتماع سِرًا فيه، ونِيَّتُه أن يَلومَه على إلحاحه فى طَلَب اجتماع بينهما تلك الليلة بالذات. وفى ثوان تقتحم «جاكى» غرفة اجتماعهما السرِّى، وتُطلق النار بمُسَدَّس كاتِم للصوت وتُصيب وتَقتُل الاثنين. أحدهما: وهو «تيرون» أرادَت قتله، والثانى: لم تكن تعرف من هو ولا كانت تَقصد قتله لكنه وَقَع فى مرمى النار وسَقَط غارقاً فى دَمِه.

ويَتَّضح أن «هِبرون» القتيل بالمصادفة - هو السناتور «جونسون»، الرجُل الذى ساعَده الرئيس «دوجلاس» لينجح، والرجُل الذى يَملك سِجِلا مُبرأ من الانصياع للوبى الإسرائيلى عند التصويت على مشروعات القوانين فى الكونجرس، وأهَم من ذلك فهو - وليس غيره - الرجُل الذى نَجَحَ بفارق ضئيل قبل ساعات ليكون رئيساً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية.

□

وتَنتَهى قِصَّة عميلة جميلة. قاتلة مُحترفة. امرأة خَدَعوها فى أجرها وصَمَّمَت على الانتقام. وفى سورة غَضَبها غَيَّرَت مَجرى التاريخ - وحَقَّقَت مفاجأة المفاجآت

عن غير قَصد، لكنها فى المشهَد الأخير من القِصَّة تَدفَع الثمَن، لأن «بريندا» عميلة مكتب التحقيقات الفيدرالى طارَدَتها إلى أركان الأرض وفَجَّرَتها بقُنبُلة رَتَّبَت وَضعَها فى القارب الذى خَرَجَت به «جاكى» إلى أحد خلجان جزيرة «مايوركا» الإسبانية تَحسب نفسها آمنة فى فضاء البحر. وتَقَيَّدَت الحادثة ضِدَّ مجهول لأن سِرَّها لم يَظهَر له أثر. فهو عالَم مَجهول فوق الأرض يُطارد عالَماً تحت الأرض!!

....

....

وبالفعل فإن مَشاهِد ووَقائع القِصَّة مثيرة للخيال - لكن الخيال الملتَبس بالحقيقة أو الحقيقة الملتَبسة بالخيال أكثر إثارة!



أيام وليال فى لندن

١ ـ موعد مع الهموم العربية فى قلب العاصمة البريطانية!

« الأربعـــاء »:

مشيت من ميدان «سلون» (قلب لندن الشاب) نحو حدائق «لينوكس» إلى شارع «ويلتون» لموعد مع صديقين قديمين كل منهما جاء من طريق ويَمضى إلى طريق، لكن الهموم واحدة، فكلنا مسكون بأحوال الأمة، مَشغولٌ بأمرها، قلق عليها، شأن آخرين بلا عَدَد.

الصديقان هما «الأخضر الإبراهيمى» (وزير خارجية الجزائر سابقاً وهو الآن مساعد خاص للأمين العام للأمم المتحدة «كوفى عنان»، مكلف بمسئوليات خاصة كلها مُعَقَّدة ومُستَعصية، من أفغانستان إلى الكونجو) ـ والثانى هو «إدوارد سعيد» (أستاذ الأدب المقارن فى جامعة «كولومبيا»، وصاحب أهم المراجع عن «الاستشراق» ـ إلى جانب أنه وَجه عربى مقبول هذه اللحظة فى الغرب بمَلامح وصوت المفكر الإنسانى بعد أن فَقَدَ السياسى العربى كل شىء ـ مَلامحه وصوته ـ وأحياناً ملابسه!)

□

شارع «ويلتون» هادئ هذه الساعة (الثامنة مساءً)، وحدائق لندن وشوارعها فى أحلى مواسمها، لأن بوادر الربيع تطل، والشتاء لم يغب. والهواء بارد لكن أزهار الـ«دافوديل» المبكرة فى شهر أبريل طالِعة فى وجهه تُذكِّره أن ندى الصباح ينتظرها، لأن درجة الحرارة فى ارتفاع مهما عاند الشتاء!

أفكر فى الصديقين اللذين ينتظران فى مطعم «توتو» الذى يتوارى فى منحنى على شارع «ويلتون» ويكاد يخفى بابه وراء شجَرة مُثقلة بزهور صفراء ما زالت زاهية بأضواء المساء لأن الليل ينزاح كل يوم إلى الوراء، فالربيع يُطيل النهار، والشتاء يختصره بغروب مُبَكِّر.

كان «الأخضر» هو صاحب اقتراح لقائنا على العشاء، وقبله وأثناءه وبعده يَتَواصَل حَديثنا. اتصل بى «الأخضر» فى القاهرة قبل أسبوع من سفرى يقترح الموعد. سيكون هو فى لندن قادماً من ناميبيا، و«إدوارد» قادمٌ من نيويورك، وحين عَرَف الاثنان أننى الآخر واصلٌ من القاهرة، فقد وَجَداها فرصة لحوار مفتوح وحُر، ليس فقط فى مداره وفى إطاره (فحوارنا كذلك دائماً)، ولكن أيضاً فى محيطه وفى جواره (لأن كل واحد منا على بُعد خمسة آلاف ميل من بلده ومحل عَمَله وإقامته).

اختيار ما نريد من قائمة الطعام لم يستغرق دقائق، لكن أدوات المائدة ظلت على الأطباق لم تُلامس شفاهنا غير مرة أو مرتين على الأكثر، لأن الحديث أخذنا بعيداً معه، حتى تنبهنا أخيراً إلى أنه منتصف الليل تقريباً، ومَطاعِم لندن فى العادة لا تَعرف طول السهر، وزادَ أنه لم يَبق فى القاعة الرئيسية للمكان غيرنا - وكذلك آن أن نَخرُج كل منا إلى وجهَته: «الأخضر» إلى باريس - «إدوارد» إلى نيويورك - وأنا باقٍ فى لندن لأسبوع قبل أن أغادرها عابراً المحيط الأطلسى قاصداً الولايات المتحدة.

□

فى غرفتى حيث أقيم فَكَّرتُ أن أسجل بعضاً من مَلامح الحوار قبل أن يبدأ صباح جديد معه ارتباطات أخرى، ووجوه مُتَغيِّرة، ولقاءات وموضوعات مختلفة.

لكن ما أسَجِّله هو ما تَرَسَّبَ فى ذاكرتى، وفيه ما سمعته، وفيه ما فهمته، وقد يكون فيه ما تَصَوَّرته، ولهذا فلست أريد أن أنسب قولاً بالذات لقائل بذاته وإلا تَجاوَزتُ. وإذن فكله على عُهدَتى ومسئوليتى، خطأ كان أو صواباً!

وعلى وجه المشاع بيننا - أشهَد أن «الأخضر» كان الأكثر تأنياً، و«إدوارد» كان الأعمَق تأمُّلاً، فى حين كنت الأشد اندفاعا، ربما لأنى كنت قادماً للتوِّ من الأجواء العربية، وبصفة عامة فقد كان ظاهراً لى مما استرجعته أو حاوَلتُ - أن مجمل حوارنا مشى وتَفَرَّعَ فى نَواحٍ شتى:

○ تَبَدَّى لنا أن هناك ظاهرة تهافت - إلى درجة التساقط - فى العالم العربى، ومن اللازم وقفها بأى وسيلة، وإلا فإن الأمة سوف تجد حاضرها يتآكل أمام عيونها، ومستقبلها يَضيع قبل أن تصل إليه. وإذا كان هناك من يحتاج إلى دليل فإن الأدِلَّة

طوفان أمام الكل فيما يجرى على أرض فلسطين هذه اللحظة، سواء ذلك الجَبَروت الذى تتصرف به إسرائيل - أو الوَجه الآخر لهذا الجَبَروت مُتَمَثِّلاً فى المحنة التى يَعيشها الشعب الفلسطينى - ثم أن يجرى ذلك وسط عَجز عربى مُهين يُغَطّى عليه خَلط عالمى مُريب!

○ وتَبَدَّى كذلك أن العالم العربى أصبح - مع بدايات قرن جديد - رَجُل الشرق المريض بمقدار ما كانت الخلافة العثمانية رَجُل أوروبا المريض قبل قرنين من الزمَن!- وكما حَدَث مع الخلافة العثمانية، فإن هناك قُوَى تريد أن تَرث رَجُل الشرق المريض، وبين هذه القُوَى ما هو عالمى، وما هو إقليمى، بل وما هو محلى يَتَصَوَّر أنه يقدر على النجاة من السقوط العربى، ويَرث البقايا بذريعة النسَب أو بشريعة الأخُوَّة، وهو خطأ لأن القوة الدولية التى تستطيع أن تَرث هى الولايات المتحدة، كما أن القُوَّة الإقليمية التى تستطيع بعدها هى إسرائيل، وغير ذلك سَرابٌ يَحسبه الرائى ماءً!

○ وتَبَدَّى أيضاً أن العالم العربى مُعَرَّضٌ لحالة اختراق عميق طالت كل ركن فيه، وعرضت أدق خصائصه وخصوصياته لانكشاف وَصَلَ أحياناً إلى درجة الانتهاك، وذلك يكاد يسلب الأمة فرصة استعادة التوازن، والمقاومة، والوقوف من جديد.

○ وأخيراً تَبَدَّى أن هناك «فيروساً» خطيراً أصاب الفكر العربى ومعه الإرادة والضمير، وأظهَر أعراض الإصابة بهذا «الفيروس» أن الوَهَن يَصِل بالمصابين به إلى حَدِّ «الهَلوَسة»، وبحيث يُهَيَّأ لهم أن شفاءهُم حاضرٌ بغير إرادتهم. وأنه بصرف النظر عن الشواهِد والتجارب والمشاعر فإن «الواقعية السياسية» وهى «التشخيص» المعتَمَد الآن فى العالم العربى، تَضَع فى يَد الولايات المتحدة وَحدها أمَل الشفاء. وأن الولايات المتحدة حتى وإن ظَهَرَ منها ما تَجزع له العُقول والقلوب - فإن ذلك الظاهر هو مما يجب احتماله كما تُحتَمَل مَرارة طَعم الدواء، فتلك ضرورة العِلاج!

○ ومع ذلك تَبَدَّى، وبالرغم من كل ما سبق، أن هناك إمكانية متاحة تَسمَح للأمَل أن يَغلب اليأس - لكن شرطها إدراك الحقيقة والتصرف وفق أحكامها دون ادعاءات لا تسندها حقيقة، وأوَّلها أن لا يَتَصَرَّف العَرَب وكأنهم ربحوا رهان المستقبل، لأنهم فى الواقع خسروه، وإذا كان عليهم أن يُعَوِّضوا فأول التعويض إدراك الحقيقة.

ثم إنه مع إدراك الحقيقة لا بد من استيعاب أن مجمل الظروف فى العالم العربى وحوله وعلى اتساع العالم تؤكد لمن يريد أن يُدَقِّق - أن ذلك الممكن المتاح مُعَلَّقٌ بسياسة نَفَس طويل - تَقدر على المثابرة، وعلى الصَّبر، وتُهَيِّئ نفسها لكل الأجواء دون أن تفقد اتجاهها مع أى ريح، أو تَترُك هَدَفها يَضيع من مَدى بَصَرها بعد أول مُنحَنى على الطريق!

□

وقد ظَهَرَت خلال المناقشة عدة تعبيرات فى توصيف ما يلزم عمله ابتداء من اللحظة الراهنة، أى من المشهد الفلسطينى بذاته، لأن نقطة الاشتباك مع الخطر يجب أن تكون نفسها نقطة تَوَقى السقوط فى غياهبه.

أولاً: ظهَرَ تَوصيف مضمونه أن «العَرَب عليهم أن يكفوا عن الصخب الفارغ بادعاء القوة، لأن ذلك الممكن المتاح لهم الآن يَتَطلَّب منهم أن يَضعوا أنفسهم فى «الموضع الأخلاقى الأعلى» high moral ground، وذلك مَوضع تساعدهم إسرائيل بتصرفاتها على الصعود إليه. واستنادا إليه، وليس إلى ادِّعاء القوة، فقد يستطيع العالم أن يرى بعينيه ما تَفعَله القوة الإسرائيلية بحياة الإنسان، وحرية الإنسان، وحق الإنسان، وكرامة الإنسان. وسوابق الالتجاء إلى «الموضع الأخلاقى الأعلى» مع الخلل فى موازين القوة والاعتراف به - عديدة فى التاريخ الحديث ابتداء من تجربة «غاندى» (أوائل القرن الماضى) ضِدَّ الإمبراطورية البريطانية فى الهند، وحتى تجربة «مانديلا» (أواخر القرن العشرين) ضِد نظام التمييز العُنصُرى فى جنوب أفريقيا.

....

....

[من اللافت للنظر أنه فيما بعد قَرَّرَ «شارون» أن لا يَرُدَّ بعُنف على عملية تفجير الملهى الليلى «دولفيناريَم» على شاطئ تل أبيب، رغم أن حوالى عشرين من الإسرائيليين قُتِلوا فيه. وقد امتنع «شارون» عن الرَدِّ بسرعة، آخذاً بنصيحة مُلِحَّة من وزير خارجية ألمانيا «جوشكا فيشر» - الذى تَصادَف وجوده زائراً لإسرائيل عندما وَقَعَ الانفجار - وتَمَكَّن من إقناع «شارون» أن إسرائيل تحتاج بعد كل العُنف الذى

مارَستَه إلى استراحة على «الموقع الأخلاقى الأعلى» كى يراها الناس فى إطاره حتى مع تسليمهم جميعاً بأنها تملك السلاح الأقوى. وفى نفس الوقت فإن الوزير الألمانى هَدَّدَ السُّلطة الفلسطينية بوقف المساعدات الأوروبية إذا لم تُعلن قبولها لوقف إطلاق النار فوراً ودون شروط - وكان هو الذى صاغ البيان الرسمى الذى صَدَرَ عن السُّلطة بالامتثال، ولم يَسمَح لأحد بتغيير حَرف فيه!]

....

....

ثانياً: وظهَرَ تَوصيف مضمونه أن «من الأفضل للعرب أن يَتَصَرَّفوا كما يَتَصَرَّف الضعفاء من أصحاب الحق (وليس المتخاذلين). والضعيف صاحب الحق (وليس المتخاذل) لا يستسلم، لكنه يَلتَجِئ إلى أسلحة الضعيف:

□ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يقرِّر لنفسه الحَدَّ الذى لا يستطيع أن يتنازل عنه - وأن يَرسِم عليه خطاً أحمر يُحَرِّم على نفسه تَعَدِّيه لأنه إذا فَعَل فرَّط، وإذا فَرَّط هان. ومؤدى ذلك عملياً أن يتفاوض أى طرَف مع نفسه قبل أن يتفاوض مع غيره، وأن يُقَدِّر لقضيته حَلَّها المعقول آخذاً فى اعتباره ما يشاء من حقائق الظروف، وموازين القوة الراهنة والتاريخية، وحقائق الأوضاع على الأرض، ثم يَلتزم بخطه الأحمر أمام نفسه وأمام الآخرين - واعياً لحقيقة أن احترامه لهذا الخط الأحمر، حتى وإن لم يُفصح عنه لأطراف أخرى، هو الذى يفرض احترامه أمام هذه الأطراف، لأن اتصال المبدأ بالموقف ضمان أن يعرف الناس حدود صاحبه وطاقته. وهو كذلك تَحصين للحقوق، فضرورات الأمَم - ضروراتها - ليست مَزادات ولا مُناقَصات!

والأطراف العربية فى العادة مُغرَمَة بأن تُظهر قوتها وتُبالغ فيها، وذلك يزيد تَوَقُّعات الآخرين وطَمَعَهم فيما يطلبونه، باعتبار أن القَوى يملك أن يُعطى (وحتى إذا كانت قُوَّته ادعاء فهو المكَلَّف بضريبة ما ادعى أنه يملكه!)

ومن سوء الحظ أنه حين يريد طرَف عربى إظهار محاذيره المانعة، فإنه يُقَدِّم هذه المحاذير مُرادِفة للموت، وبما يَعنى أن المطلوب منه بمثابة توقيع فتوى تهدر دَمَه.

وذلك مُنزلق يُحسن تَجَنبه لأن الحرص على المبدأ فى تَقدير الآخرين - حتى من الأعداء - غال، وأما الحرص على الحياة - بصرف النظر عن المبدأ - فهو فى تَقدير الآخرين - حتى من الأصدقاء - رَخيص!

□ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يتمسَّك باحترام حَقه الذى لا يستطيع التنازل عنه، وأن يَثبَت عليه ويُدافع عنه بمنطق الحق المستقيم وليس بعَوَج السياسة. وعندما يكون الحَق ملكَ وَطَن مُحتَل فإن شرعية المقاومة الوطنية لها أسبقية على أى شرعية غيرها. والأمم المتحدة نفسها تُبيح رُخصةً لمقاومة العدوان خصوصاً على الحقوق المعترف بها دولياً. ومثل هذه الحقوق لا تَتَغيَّر سنوياً أو شهرياً أو يومياً بهَوى الساسة أو الإدارات، فالحق المعترف به دولياً يَصعُب تغييره إلا عندما يتنازل أصحابه ويَقبَلون بأقل منه سواء بسبب وَهَن فى الإرادة يَستَهول التضحيات، أو يَستَسهل الغواية - سواء كانت الغواية انكسارا أمام قوى كبرى أو تَقَرُّباً إلى ساسة كبار - أو كانت الغواية طموحاً يَتَوَهَّم إمكانية اختزال الطريق قفزاً إلى مُستَقبَل يظنه هناك!

□ ضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يتمسَّك بلغته ولا يستبدلها بلغة يستعيرها من آخرين يريدون أن يسلبوه إرادته، وأول الاستلاب أن يَستَدرجوه إلى استعمال لغتهم!

وعلى سبيل المثال فإن المقاومة الفلسطينية إذا كان لها الحق أن تقاوم فليس يَجوز لها أن تخشى فى ذلك تُهمة «الإرهاب» - ذلك أن المقاومة الوطنية شىء مختلف. والشاهد أن تجربة أوروبا فى الحرب العالمية الثانية ما تزال مُرشداً ودليلاً، فالمقاومة ضدَّ الاحتلال الألمانى كانت واجبة، والعَمَل ضدَّ قواته لم يُعتَبَر «إرهاباً»، وحتى مُنشآته ذات الطابع غير العسكرى داخل مُدُن مثل باريس ووارسو وبراج كانت أهدافاً مشروعة لأنها أشكالٌ من الحياة المدنية أقيمَت على أرض مُغتَصَبة بالسلاح. وبالنسبة لأى فلسطينى فإن المستوطنات داخل خطوط ١٩٦٧ هى مُنشآت قامَت على أرض مُحتَلة كانت ولا تزال ملكه، وله فيها زرع وبيت ومَدرَسة، وقَبر أب وجد.

وعندما توضع المقاومة الفلسطينية أمام تَعَسُّف يَصِف أعمال المقاومة بـ«الإرهاب»، فذلك لا يَصح أن يُخيفها فتَرضخ له، أو تَخضع لابتزازه.

[ومن المحزن أن الوَطَنيـة الفلسطينيـة وهى نضـالٌ ليس له مـثـيل فى أصـالتـه وشـرعيته تتنـازل عن أسلحة الضـعيف، فى حين أن غيرها من الحَرَكات الوَطَنية على اتسـاع القـارات من أمريكا الشـمـالية وحتى أمريكا الجنوبية، ومن شرق أوروبا إلى جنوب أفـريقيا - مـارَسَت كلها هذا الحـق وتَمَسَّكت به. ويُلفت النظر مثـلاً أن الولايات المتحدة نفسها رَفَضَت أن تُدين بالإرهاب عمليات الجيش السِرى الأيرلندى فى قلب لنـدن رغم أن قضيـة أيرلندا لم تكن قضية تَحَرُّر وطنى أو قومـى.

وحـتى على مسـتـوى البـيت الأبيض ذاته فـإن الولايات المتـحـدة من أيام «كنيـدى» تَعـاطَفَت مـع الشعب الأيرلندى حتى عندمـا اسـتعمل الجيش السِـرى قنابلـه ومَدافعه الرشـاشـة فى قلب لندن، وقـيل فـى ذلك الوقت أن «كنيـدى» تَعـاطَفَ لأنه من الأصل أيرلندى، وكذلك كانت ولايته (مـاسـاتشـوستس) - لكن التَّعـاطُف الأمريكى مع الجيش السـرى الأيرلندى تَواصَل من إدارة «كنيدى» إلى إدارة «كلينتون»، وكان كل مـا تنازل به الرؤسـاء الأمريكيون بين مطالع الستينات من القرن الماضى إلى أوائل هذا القرن هو إبـداء اسـتـعـدادهم للوسـاطة بين الجـيش السـرى الأيرلندى وبين الحليف الأقـرب إلى الولايات المتحدة فى أوروبا وهو بريطانيا - وكانت الوسـاطة حقيقية، خـالصـة وغير مُتَحَيِّزة - بل لعله كان هناك مَيل عاطفى وإنسانى للجيش السرى الأيرلندى.]

....

....

[عندما جَلَستُ أستذكر حديث الليلة لأسـتعيد أجواءه، طرأ على بالـى أن إسـرائيل بالتـحـديد آخـر طرَف فى الدنيـا يَحِق له أن يَتَحَدَّث عن «الإرهاب» الفلسطينى. فـذلك «الإرهاب» الفلسطينى يأخذ أصحابه إلى نهاية الحياة، وأما فى الحالة الإسرائيلية فإن «الإرهاب» الصـهيونى يأخذ الذين يقومون به إلى رئاسـة الوزارة. ولن أشـير هنا إلى «دافـيـد بن جـوريون» ومـا خطط لـه وأمَرَ به من مَذابح، لأن ذلك الرجُل كـانت لديه ذريعة إقامة الدولة اليهودية - لكن من جاءوا بعده، وبدون استثناء تقريباً، وَصَلوا إلى

رئاسة الوزارة عن طريق «عمليات إرهابية» ـ لم تكن بالتأكيد عسكرية ـ لأنها بدون استثناء استهدفت مدنيين.

«مناحم بيجين» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق مَذبحة «دير ياسين».

و«إسحاق رابين» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق ذبح مئات وتهجير عشرات ألوف من أهل «اللد» و«الرملة».

و«إسحاق شامير» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق اغتيال وسيط الأمم المتحدة الأول الكونت «فولك برنادوت».

و«إيهود باراك» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق عمليات اغتيال، قَتَل فيها وخَنَق بأصابع يديه فى شوارع بيروت.

و«أرييل شارون» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق مَذبَحة «صبرا» و«شاتيلا»، وعشرات من المذابح غيرها لم يُضبَط فيها مُتَلَبِّساً والدم يُلطخ يديه ـ لكنه بالتأكيد كان هناك.

وحتى «حمامة السلام» الحالية ـ «شيمون بيرين» ـ لم يَجِد فُرصَة يُعَزِّز فيها بقاءه فى رئاسة الوزارة إلا عن طريق مَذبحَة «قانا».

إلى جانب ذلك نماذج مُدهِشة:

فالرجُل الذى قَتَل خمسين من المصلِّين المسلمين فى الحَرَم الإبراهيمى له الآن فى الخليل مَشهَد ومَزار.

والرجُل الذى أمَرَ بقتل ثلاثمائة أسير مصرى فى العريش، ووَقَفَ يَتَفَرَّج على دائرة نيران تُحاصرهم بإطلاق النار عليهم، ثم أمَرَ بدَفن بعضهم أحياء ـ هو الآن وزير الدفاع فى الحكومة الراهنة («بن إليعازار»).

وأكثر من ذلك ـ هكذا خَطَر لى فى هَدأة الليل ـ فإن جائزة «نوبل» للسلام مُنِحَت لخمسة رجال «إرهابيين» ـ! ـ كلٌ منهم أمَرَ بعملية قَتل أو شارك فيها:

«مناحم بيجين» ـ و«أنور السادات» أيضاً! ـ أولهما قَتَلَ، وثانيهما اغتال، ومع ذلك تَقاسَما جائزة «نوبل» للسلام.

«رابين» و«بيريز» و«عرفات» شاركوا أو أمَروا بعَمَليات بالسلاح - لكن حُكماء السلام في لجنة «نوبل» أخذوا في اعتبارهم أن هؤلاء جميعاً قَتَلوا أو شاركوا في القَتل «تحت دَوافع وطنية» - أو هكذا تَصَوَّروها.

ومن المفارقات أن إسرائيل لم تَتَنَصَّل من أي عَمَل «إرهابي» قام به رجالها ونساؤها. بل إنه حتى الشابين اللذين قَتَلا وزير الدولة البريطاني اللورد «مُوين» في القاهرة سنة ١٩٤٥ (قبل قيام الدولة اليهودية)، وجرى شنقهما بعد حُكم قضائي في مصر سنة ١٩٤٦ - أصَرَّت إسرائيل على أن تَضَع ضمن بنود اتفاقية فك الارتباط مع مصر سنة ١٩٧٣ شرطاً يقضي بإعادة رفاتهما، وفي القدس جَرَت للأكفان مَراسم «تحية البطولة». لكن بعض العَرَب الذين يريدون أن يمنحهم الغرب نياشين «التَحَضُّر والتَمَدُّن» على استعداد للشجب والاستنكار والإدانة، وتسمية رجالهم بـ«المنتحرين» وليس بـ«الفدائيين»، برغم أن ما قاموا به في البداية والنهاية كان أعمالاً قَدَّمَ أصحابُها حياتَهم مُقابل مُعتَقَداتهم وبغير دافِع آخر، فغواية المال لم تَكن مطروحة، وغواية الشهرة لم تَكن لديها فرصة، ثم إن رئاسة الوزارة لم تَكن في انتظار أيٍّ منهم!

....

....

ومع أني بالطبيعة والمزاج والاعتقاد أحسب نفسي ضمن هؤلاء الذين يَنفُرون من السلاح لغةً ووسيلة - إلا أنه ليس بمقدور أحد أن يكون انتقائيا إزاء القانون، وفي أسوأ الأحوال فإن ما يمكن تسميته بـ«الإرهاب» لا بد أن يُحكَم عليه وفق معيار واحد، وقاعِدة سارية في كل الأحوال!

خَطَرَ ذلك كله ببالي، ثم طَرَحتُه جانباً مُستَدعياً حقائق العصور والأزمنة: وأوَّلها أن القوة دائماً على حق - وأن الضعف محكوم عليه حتى وإن كانت القوانين والمواثيق كلها تُزَكِّيه وتَشهَد له!]

....

....

□ ضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يستعمل قوة الصورة في هذا العصر

بدلاً من قوة الدبابة، والمشكلة هنا هى: أى الصوَر؟ - وفى الانتفاضة أخيراً كادت الصورة المطلوبة أن تضيع وسط عشرات من الصوَر غير مطلوبة؟

كان هناك زحام من الصوَر:

صُوَر لطوابير ممن يقال إنهم فدائيون يضعون الأقنعة السوداء على رءوسهم لتغطى وجوههم، بينما يلفون حول بطونهم وظهورهم أحزمة من العبوات الناسفة تشير إلى استعدادهم طوابير بعد طوابير للشهادة.

وصُوَر لجموع مُحتَشِدة ترفع فوق رءوسها مدافع رشاشة وبنادق من كل عيار، وتُلَوِّح بها فى الهواء غضباً وتهديداً، بينما العيون يطق منها الشرَر!

وصُوَر تكاد أن تكون يومية لاستعراضات حَرَس شَرَف، إما أنها غير ضرورية، وإما أنها سابقة لأوانها - وفى الحالتين فهو الانطباع الخطأ!

وصُوَر .. وصُوَر - تنسى كلها أن الشهيد يَفعَل ولا يَستَعرض.

وأن الشهيد يُفارق الدنيا على موقع عطائه ولا يتلكأ أمام العدَسات ينظر إليها بزاوية حتى يَتَأكَّد أنها وَمَضَت!

وأن المراسِم تستطيع أن تنتظر حتى يَتَّسِق واقع الحال مع مُستوى الآمال!

وفى الواقع فإن الصورة الوحيدة التى غيرت مشهد الانتفاضة كله وأعطت وجهه المؤثر هى صورة الطفل «محمد الدرَّة» وهو يموت مُحاصَراً بالنار فى حُضن أبيه الذى لم يقتله الرصاص وإنما ذبَحَته الحَسرة!

كانت تلك صورة «الضعيف القادر» بينما كانت الصوَر غيرها «للقَوى العاجز»!

رأى أحدنا أن صورة «الدرَّة» ومثيلاتها من الصوَر زادَت تَعاطُف الرأى العام فى أوروبا من ثلاثين إلى خمسين فى المائة، وفى الولايات المتحدة من واحد إلى عشرة فى المائة.

لكن ما جاء بَعدها من صُوَر يوشك أن يَمحو أثرها!]

☐ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يمارس المقاطعة على كل مستوى:

من السياسى، إلى الاقتصادى، إلى الثقافى، إلى الاجتماعى. فهذه المقاطعة عَمَل من أعمال المقاومة لا يَتَعَرَّض للغير، وإنما هو إجراء لضبط التصرفات الذاتية يَتَّخِذه أصحابه حفاظاً على المصالح وعلى الأوطان وعلى العقائد عندما تَتَعَرَّض للعُدوان إلى درجة الاغتصاب.

وكان ذلك ما فعلته الأغلبية السوداء فى جنوب أفريقيا ضِدَّ الأغلبية البيضاء المستَبِدَّة بالثروة والسُّلطة، فقد قاطعَت ونجَحَت. ودَعَت القارة الأفريقية كلها أن تقاطع معها ونجَحَت. ثم دَعَت العالم الغربى نفسه أن يَتَضامَن معها بمقاطعة نظام الأقلية العنصرية ونجَحَت. حتى أن بريطانيا نفسها على عهد رئاسة «مارجريت ثاتشر» بالذات اضطرت سنة ١٩٨٤ أن تقاطع، وكانت قبل ذلك بأربع سنوات. ١٩٨٠. ترفض وتهاجم فكرة المقاطعة.

□

ثالثاً. كان هناك تَوصيفٌ ذهَبَ إلى أن «الديمقراطية هى الحل».

....

....

[على أن هذا التوصيف لَحق به تَحَفُّظٌ يَرى أن الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية الراهنة فى العالم العربى لم تَزَل بَعد غير قادرة على فَرض ديمقراطية حقيقية. والمشكلة أن النظُم المتَرَبِّعة على القِمَّة فى المنطقة تَملك «شَطارة» تَصنيع نوع من «الديمقراطية الرخيصة» مثل «أوراق النقد المزَيَّفة» تَقدر عليها الوسائل الجديدة فى تكنولوجيا الطباعة (والتصوير !).

وكذلك فقد تَقتَضى الضرورات العَمَلية إيجاد عامِل كيميائى يُمَكِّن من نضوج ديمقراطى حقيقى، وهذا العامِل المساعد. كيميائياً. هو الدَّعوة والعَمَل بإلحاح على حرية تَدَفُّق المعلومات بهَدَف تَوسيع دائرة المعرفة، وتكثيف حِدَّة الوَعى، بحيث يَرى الناس حقيقة ما يجرى حولهم بما فى ذلك حَرَكته ودلالاته.]

....

....

[وعلى سبيل المثال فإنه حين يُصبح المسئول عن المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو مُدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية («جورج تِنِت») - إذن فإن ألف جَرَس إنذار يجب أن تَدُق، وألف لَمبَة حمراء لا بُد أن تَشتَعِل!]

....

....

وأخيراً كان هناك تَوصيفٌ رابع يرى أنه بصَرف النظر عن «اتخاذ الموقع الأخلاقى الأعلى»، وبصَرف النظر عن ممارسة سياسة الضعيف (غير المتخاذل)، وبصَرف النظر عن حُرِّية تَدَفُّق المعلومات - فإن هناك إضافة ضرورية وهى استعادة مصداقية القيادات العربية أمام شعوبها - وأمام خصومها (أو حتى مفاوضيها من هؤلاء الخصوم على الجانب المقابل) - وأمام الأطراف الدولية المهتَمَّة.

ووفق هذا التوصيف «فإنه لا يمكن البدء «بموضع أخلاقى أعلى»، ولا بممارسة الحق فى مبدأ أو لغة إلا إذا كانت القيادات العربية مُهَيَّأة لما هو مطلوب، وإلا وقَعَ الصدام بين القيادات العربية وبين شعوبها».

والذى حَدَث أن هناك قُوَى دولية استخدمت واستهلكت مِصداقية القيادات العربية حتى استنفدتها!

وذلك بدَوره أنشأ حالة أمكن معها ابتزاز هذه القيادات العربية، فتلك القيادات صَوَّرَت لنفسها أمام جماهيرها نجاحاً لم يَتَحَقَّق، وتَستَّرَت القُوَى الخارجية على «هذا النجاح» غير المتَحَقِّق.

وهكذا فإنه إذا كان على القيادات العربية أن تستعيد مصداقيتها - فهذه القيادات أمام خطر مُؤَكَّد يُعَرِّضها لأن تَفقِد «حُباً» اشترته بقبول ما لا يُقبَل.

والحقيقة أن القيادات العربية تَحتاج من العالَم الخارجى إلى الاحترام أكثر مما تَحتاج إلى الحُب: ذلك أن «الحُب» كَسبٌ قصير الأمَد - وأما «الاحترام» فاستثمار بَعيد المدى.

لكن المشكلة المعَقَّدَة أن الأنظمة العربية ـ معظمها على الأقل ـ معنى ملهوف على الكسب السريع، بينما الاستثمار على المدى الطويل عُمرٌ لا يضمنه أحد، وذلك هو الفارق بين نظم مَوقوفة على أفراد، ونُظم «مَنذورة» لأوطان!

□

استعدت ذلك كله فى غرفتى بعد سَهَر طويل.

سألتُ نفسى قبل أن أطفئ نور الغرفة وأغمض عينى: هل لذلك كله أو شىء منه فائدة؟ وإذا لم تكن فأين هو الحل؟ ـ أو أين هى المعجزة إذا تَعَذَّر الحل؟!

مَرَّ بخيالى النَّعسان ـ ويَدى تَمتَدُّ لإطفاء نور الغرفة ـ رَجع صَدى يَسرى فى الأجواء العربية يُرَدِّدُ أن «أمريكا وَحدها تستطيع»، و«أمريكا بمفرَدها تَقدِر»، و«أمريكا عليها أن تَتَحَمَّل مسئوليتها»، و«أمريكا عليها أن تَرُدَّ وتَصُد، وتَمنَع وتَردَع»!

تذكرتُ ـ بين اليَقَظة والنَّوم ـ حكاية مشهورة فى تاريخ أوائل هذا القرن (١٩٠٣)، كان بطلها المعتَمَد البريطانى العتيد اللورد «كرومر».

حضر «كرومر» حفل زفاف لأسرة مصرية من كبار مُلاك الأرض، وكان الجالس بجواره «سعد زغلول» (باشا)، وكانت الصداقة بين الاثنين وَطيدة. وطبقاً للحكاية فإن المطرب الشهير «عبده الحامولى» كان يُغنى «طقطوقة» ذاعَ صيتُها فى ذلك الوقت تقول «حبيبى راح هاتوه لى يا ناس». وسأل اللورد «كرومر» عن مَعنى الكلمات التى يسمعها مُلَحَّنة، وحاوَلَ «سعد زغلول» أن يَشرحها له، وعَلَّق «كرومر» مُستَغرباً: «حتى فى العِشق لا يُكَلِّف المحِب عندكم خاطره بِفعل مباشر .. لا يُريد العاشق أن يسعى لحبيبه بنفسه، وإنما يَطلب من الناس أن يجيئوا له به؟»

وجاء النوم تُداخِله تهويمات راحت تَعبُر فراغ الوعى أطيافاً وظِلالاً: العَرَب ـ إسرائيل ـ أمريكا ـ «عبده الحامولى» ـ «سعد زغلول» ـ واللورد «كرومر»!

ودَخلتُ فى النوم!

٢ـ الماريشال «مونتجمرى»: هل كان أو لم يكن؟!

«الخميس»:

فنجان شاى بعد الظهر مع الليدى «أوليف هاملتون».

....

....

[هى أرملة السير «دنيس هاملتون» الذى كان رئيس مجلس إدارة مجموعة صُحُف «التيمس» و«الصنداى تيمس» ورئيس تحريرها العام طول فترةٍ مُهِمَّة من تاريخ الصحافة العالمية، وَقَعَ فيها انتقال «الخبر» من حَرَكة الصحفى الفرد إلى شبَكَة وكالة الأنباء الكبرى، وانتقال «المطبعة» من قوالب الرصاص المصبوب إلى الومضات الإلكترونية «للكومبيوتر». وقد اشتهر «دنيس» فى أوساط الصحافة الأوروبية بلقب «المجَدِّد» لأنه كان يملك خيالاً نافذاً وإرادة قادرة على تحقيق ما رآه من متغيرات عصور مُستَجَدَّة، وساعده على ذلك أنه وَجَدَ مجموعة من خيرة الصحفيين البريطانيين تصطف حوله وتساعده، ثم إنه كان محظوظاً فى الجزء الأكبر من عمله بمُلاك صُحُف يُقَدِّرون قيمته ويدعمون جهده، ولا يتدخلون فى عمله، ابتداء من اللورد «كيمزلى» صاحب «الصنداى تيمس» القديم، حتى اللورد «طومسون» المليونير الكَنَدى الذى اشترى تلك الجريدة العتيدة وضمها إلى «التيمس» وجعل من الاثنتين كياناً صحفياً واحداً ظل متماسكاً حتى اشتراه «روبرت مردوخ» سنة ١٩٧٤.

وبعدها بسنوات مات «دنيس» متأثراً بجرح قديم من شظية أصابته وظلَّت عشرات السنين كامنة فى رأسه، وقد أصابَته تلك الشظية عندما كان أول ضابط من أركان حرب الماريشال «مونتجمرى» ينزل على الشاطئ الفرنسى الشمالى فى عملية «أوفرلورد» لفك قبضة «هتلر» عن أوروبا الغربية، وتحريرها من عاصفة الجنون النازى التى اجتاحتها بلداً بعد بلد وعاصمة بعد عاصمة، حتى انطفأت الأنوار على اتساع قارة كانت طوال القرون الثلاثة الأخيرة من التاريخ الإنسانى مَوئلاً للحضارة العالمية ومُستقراً.]

....

....

لدىّ ضعف شديد إزاء الليدى «هاملتون» - «أوليف» - وهى قرب التسعين من عمرها - ولدت سنة ١٩١٥ - لكن حيويتها ما زالت متدفقة، تلمع فى عينيها زرقة شفافة لها عمق لا يَبين له قاع. وهى تتكلم حتى الآن بتلك اللهجة الضاغطة بالثقة على كل حرف تنطق به، وكأنها حالة تأكيد مستمر لأى شىء تقوله.

كانت «أوليف» هذه المرة كما هى دائماً فيما عدا انحناءة بسيطة مالت بقامتها إلى أمام، لكن رأسها بقى مرفوعاً بنوع من الاطمئنان لمجمل ما اعتنقته من آراء كلها محافظة، شديدة المحافظة فى بعض الأحيان إلى درجة التزمُّت.

وقد ظلَّت «أوليف» بعد وفاة «دنيس» تعيش فى بيتها، محاطة بكل ذكريات «الأعز» (dearest) كما تسميه، وضمنه تلك المقتنيات التى جمعها الزوجان معاً عندما حملهما عمله الصحفى وزياراته المهنية إلى أركان الأرض القصية: قطع نسيج من التبت، أطباق صينية من عهد المينج، فُخار إسلامى مَصنوع لسَلاطين المغول، نابان من العاج لفيل أفريقى، مشغولات ذهبية من حيدر أباد فى الهند تعود للقرن الثامن عشر. وحول ذلك صُوَر لـ«دنيس» فى مواقع مختلفة من حياته أكبرها صورة له مع الماريشال «مونتجمرى» - «مونتى» - تعود لأيام الحرب عندما كان «دنيس» أقرب الناس إلى الماريشال الذائع الصيت والغريب الأطوار.

كانت «أوليف» - نفسها - شديدة الإعجاب بـ«مونتى» وبدوره. وكان «مونتى» شديد القُرب من أسرة «هاملتون»، وأظنه وَجَدَ مع هذه العائلة ألفة عَوَّضَت عليه حياته مُنفرداً بعد وفاة زوجته «بيتى»، وبعد أن خَفَّ الوَهج الذى أحاط بالقادة المنتصرين فى الحرب ضِدَّ «هتلر» بمرور السنين، ثم مَشوا جميعاً فى «شارع الغروب» ذاهبين إلى نوع من النسيان يعودون منه بين فترة وأخرى كاستعادة لذكريات مجد تباعَدَت عنه الأيام، لكنه حاضِر فى المناسبات وفى الاحتفالات إشارة إلى أيام لها مَعنى ومواقع لها قيمة (وتلك من ضرورات الحفاظ على ذاكرة - وهَويَّة - الأمم والشعوب).

أقبلَت «أوليف» كالعادة وألوان مَلابسها كما هى مُعظم الأوقات زاهية كأنها تقصد إلى تحدى العُمر (فستانها اليوم أزرق أحمر) - صوتها المتهلل يَسبق يدها الممدودة وابتسامتها العريضة وقُبلتها التقليدية على الخَدَّين. وحين خطونا إلى غرفة المكتبة، وهى على حالها كما تَركها «دنيس» - توقفتُ أمام «أوليف» وفاجأتُها بسؤال يلح على خواطرى منذ أسابيع: «والآن.. ليدى هاملتون (تَعَمَّدتُ أن أناديها بلقبها الرسمى) قولى لى صراحة هل كان أو لم يكن؟»

وفاجأها سؤالى ورَدَّت عليه: «مَن هو؟ .. ماذا تقصد؟»

قلتُ بسرعة: «مونتى» . «مونتجمرى». ماريشال العَلَمين!

وفَهمَت «أوليف» بسرعة ما قصدتُ، وقالت: «أوه .. أنت تريد أن تعود إلى هذه الحكاية؟»

وقلتُ: «لم تَعُد حكاية .. فهذا كلام كتبه «نيجيل» (ابنها «نيجيل هاملتون») قبل أسابيع، وقد أثار ضجة فى بريطانيا وخارجها. ليس بسيطاً أن يقول ابنك وهو المؤرخ الرسمى الذى اعتمده «مونتجمرى» ليكتب قصة حياته أن الماريشال كان «رجلاً معكوساً (شاذاً) جنسياً» رغم أنه ألزم نفسه بكبت غرائزه، وأن هذا الكَبت - أو محاولته - أثرَت، وكان لا بد أن تؤثر، على شخصية الرجُل - الماريشال - وعلى عَمَله وعلى قراراته!»

وقالت «أوليف» بطريقة متأنية: «هذه حكاية ليس لها لزوم. لم تكن لها ضرورة، ولست متأكدة منها. «نيجيل» (ابنها ومؤرخ «مونتجمرى») لديه كل الأوراق. كانت فى الأصل عند «دنيس». «دنيس» أعطاها له كما تذكر و«مونتى» وافق. و«نيجيل» قام بجهد خارق كى يؤدى مُهِمَّته بكفاءة المؤرخ وأمانته. وأنا لم أشأ أن أسأله كيف تَوَصَّل إلى ما تَوَصَّل إليه رغم أن كثيرين سألونى».

قاطعتُها قائلاً: «أوليف .. لا بُد أنك تَعرفين أكثر من ذلك. والمسألة الآن سِرٌّ ذائِع!. فقولى لى أنت: هل كان أو لم يكن .. نعم - أو لا؟»

تَعَمَّدتُ أن أوَجِّه لها السؤال ضاحكاً مُحتَرِماً عُمق ولائها لصداقاتها، وشِدَّة

محافظتها الإنجليزية التقليدية إلى درجة التَّزَمُّت أحياناً ـ ومَضيتُ أكثر فطوَّقتها بذراعي قاصِداً ـ حتى لا يخطر لها أن تكرار السؤال حصار.

وقالت هي: «صَدِّقني لا أعرف؟ لماذا لا تسأل «نيجيل» نفسه؟

....

....

كان ما نشره «نيجيل هاملتون» قبل أسابيع عن «الجنس في حياة الماريشال» مثيراً للجَدَل في لندن وما زال. فالرأى العام البريطاني ليس مُستَعداً لأن يَقبَل شيئاً عن أشهَر قادته العسكريين، وخصوصاً «مونتي» وهو صاحب أول انتصار بريطاني في الحرب العالمية الثانية، وهو انتصار «العَلَمين» الذي جاء بعد سِلسِلة طويلة من الهَزائم. ثم إن الباقين على قيد الحياة من ضباط وجنود الجيش الثامن ـ جيش «مونتجمري» في حالة غَضَب. وزادَ من حِدَّة الجَدَل أن كاتب القصة ليس مؤرخاً عادياً، وإنما هو كاتب أتيح له ما لم يُتَح لغيره في الموضوع الذي كتب فيه.

□

كان «دنيس» (والده) من أركان حرب «مونتجمري»، وعندما عاد إلى بريطانيا جريحاً بتلك الشظية التي استقرت في رأسه، كان قائده دائم السؤال عنه، وبَقي كذلك بعد أن صَفَّى الماريشال قيادته في أوروبا وعاد إلى إنجلترا لتولى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية.

ثم كان أن قضى الماريشال مدة خدمته في رئاسة أركان حرب الإمبراطورية قبل أسابيع قليلة من حرب السويس ١٩٥٦ ـ تاركاً مكانه للورد «مونتباتن». وقبل أن تهديه المِلكة بيتاً يقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع ـ كان الماريشال يُوَزِّع عطلاته على بيتين في الريف: بيت «دنيس هاملتون» (ضابط أركان الحرب السابق للماريشال ورئيس تحرير «الصنداى تيمس» الآن)، وبيت «ونستون تشرشل» (على حافة «ووركشير») حيث كان رئيس الوزراء السابق والقائد العسكرى السابق يجلسان معاً لساعات طويلة قال لي عنها «مونتجمري» نفسه ذات مرة: «كانت بينها ساعات نتحدث فيها بالصمت، نشعر أن خواطرنا تتلاقى دون حاجة لكلام». ويُضيف الماريشال: «أعمق

الصداقات ما يستطيع فيه صديقان أن يتواصلا بعمق حميم دون حاجة للقول بالألفاظ».

ولم ألتق بالماريشال «مونتجمرى» فى البيت الريفى لـ«دنيس هاملتون» فى تلك المزرعة، القريبة من ميناء «بورتسموث» رغم أن كلينا كان يتردد عليه فى نفس السنوات. لكننى بعد ذلك قابلته عن طريق «دنيس» ضمن مشروع مشترك بين «الصنداى تيمس» و«الأهرام» تلك الأيام من مُنتَصَف الستينات، وكان المشروع «استذكارا يعود به ماريشال العلمين إلى ميدان معركته فى الصحراء المصرية، ومعه عَدَد من كبار قادته، ثم يكتب سلسلة مقالات تنشرها «الصنداى تيمس» مع «الأهرام» فى نفس الوقت، وتكون التكلفة شركة بين الجريدتين. تتحَمَّل «الصنداى تيمس» بالتكاليف الأجنبية كلها، ويَتَحَمَّل «الأهرام» بالتكلفة فى مصر. وقَضى الماريشال عشرة أيام ما بين الصحراء الغربية والعاصمة المصرية، وخلال هذه الأيام العشرة عرفتُ «مونتجمرى» عن قُرب، ولمستُ فى نفس الوقت عُمق صِلَته بـ«دنيس»، وأحسَستُ فى بعض الأحيان أنها ليست علاقة ضابط سابق مع قائد سابق، ولا علاقة رَجُل مُتَحَمِّس لبَطَل أسطورى أتاحَت له الظروف أن يَعمَل معه، وإنما بَدَت لى العلاقة أحياناً وكأنها علاقة تلميذ بأستاذ ـ أكبرهما يرى «الوَعد» فى الأصغر، والأصغر يرى «المَثَل» فى الأكبر.

□

كان «دنيس هاملتون» هو الذى ابتدع فى الصحافة البريطانية ـ وفى الصحافة العالمية فيما أعرف ـ فكرة عرض الكتب السياسية الكبرى سلاسل فى الصحافة الأسبوعية ـ أو فى اليومية مرات. والحقيقة أن تلك كانت نقلة ضخمة فى صناعة الكتاب السياسى (لأن دخل النشر مسلسلاً فى الصحافة أصبح يحقق ٦٠ ٪ من إيراد الكتاب السياسى، فى مقابل ٤٠ ٪ يحققها نشره داخل غُلاف كتاب).

وكذلك فإن «دنيس» ذهب إلى تحريض كثيرين من الساسة والقادة ـ خصوصاً من الحرب العالمية الثانية ـ على كتابة مذكراتهم لكى تَتَحَوَّل إلى «سلاسل أسبوعية» على صفحات «الصنداى تيمس»، وتَحَمَّس كثيرون منهم خصوصاً أن النشر السياسى أصبح مغرياً لرجال ساهموا فى صنع تاريخ مشهود، ثم أنهوا مدة خدمتهم بمعاش

محدود (معاش الماريشال «مونتجمرى» مثلاً كان ٦٤٠ جنيهاً إسترلينياً فى الشهر، ونصيبه المقدم له قبل نشر مذكراته كان قرابة مليون جنيه إسترلينى، وكان فى مقدوره أن يحصل على أكثر، لكنه لم يشأ أن يكتب مذكراته بنفسه).

كان الذى حَدَث أن «مونتجمرى» اقتنع بما عرضه عليه «دنيس هاملتون» فى شأن كتابة مذكراته، لكنه لم يكن يريد أن يكتبها بنفسه، ولا كان يريد أن يستعين بكاتب محترف يملى عليه ما يريد. وبدلاً من ذلك كان رأى الماريشال - وقد صَمَّم عليه، أن يعطى أوراقه كاملة إلى «دنيس هاملتون»، وفيها سجلات قيادته ويومياته الشخصية (التى راحَ يكتبها قبل أن ينام كل مساء ابتداء من يوم ١٠ مايو ١٩٤٠، وعندما كانت معركة فرنسا التى انتهت بسقوطها أمام قوات «هتلر» على وشك أن تبدأ) - وكان المتَوافَق عليه أن يتولى «دنيس» بنفسه كتابة قصة حياة «مونتجمرى»، وتقدير «مونتجمرى» أن «أركان حربه السابق» يعرف عنه ما فيه الكفاية - وأنه بتجربة مباشرة تَسندها خِبرة صحفية نادرة - يستطيع أن يَكتُب القِصَّة أحسَن من الماريشال الذى أصبح صبره نافداً يوماً بعد يوم وهو يرى «هذا المنحَدَر السياسى الحزين الذى تَدَحرَجَت عليه الإمبراطورية بعد الحرب»! (حسب قوله). وفى البداية قَبل «دنيس» - وللحقيقة على مَضَض - لأنه كان شبه واثق مقدماً أن شواغل عمله كرئيس لتحرير «الصنداى تيمس» - و«التيمس» بعدها - لن تسمح له بوقتٍ كافٍ يكتب فيه قصة حياة «مونتجمرى»!

□

ووَقَعَ ما كان «دنيس» يخشاه، لأن وقته كان بالفعل ضيقاً بمشاغل عَمَله الأصلى. ثم كان أن أحد أبناء «دنيس» الأربعة - وهو «نيجيل» - بدأ يظهر ككاتب صحفى مقتدر ميال إلى الكتابة التاريخية المعاصرة. وكان «نيجيل» قد رأى صناديق الملفات والأوراق التى بعث بها الماريشال إلى والده، ثم لاحَظ أنها راقِدة حيث هى لشهور ولسنين. وراوده أمَل أن «الابن» يستطيع أن يقوم بما لم يَسمَح به وقت «الأب». وعلى استحياء عَرَضَ «الابن» استعداده على «الأب». ومع أن «دنيس» أحَسَّ أن دخول «نيجيل» يعطيه مخرجاً، خصوصاً وهو يثق فى كفاءته، فإنه بعد أن فكر طويلاً (كعادته) طلب إلى «نيجيل» أن يفاتح صاحب الشأن الأصلى (وهو الماريشال «مونتجمرى») فى الموضوع

ويرى ردَّة فعله. وكانت المفاجأة للجميع أن الماريشال الذى أعجب بكتابات قرأها لـ«نيجيل» - وافق على الاقتراح، وتَحَمَّس، لكنه سأل «إذا لم يكن ذلك مُحرجاً لـ«دنيس» مع أنه عاتب عليه تأخره فى الكتابة؟» - لكن الاقتراح كان حَلاً سعيداً للجميع!

وكتب «نيجيل» بالفعل ثلاثة أجزاء تروى قصة حياة وعمل الفيلد مارشال «مونتجمرى» فيكونت العلمين (لحظة المجد التى اختارها «مونتجمرى» للقب الملكى الذى مُنِحَ له بعد النصر تعظيماً وإجلالاً). وكانت الأجزاء الثلاثة تحمل عنوان «مونتى»، وتحته عنوان فرعى يخص كل جزء:

الجزء الأول: «صناعة جنرال» من ١٨٨٧ إلى ١٩٤٢

الجزء الثانى: «سَيِّد ميدان القتال» من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤

الجزء الثالث: «ماريشال الإمبراطورية» من ١٩٤٤ - ١٩٧٦.

وكان نجاح كتاب «حياة مونتجمرى» مُدَوياً، ولم يكن سراً على أحد أن الأب («دنيس») لم يُعط لابنه أوراق «مونتجمرى» - فقط، وإنما قَدَّم له مع الأوراق خبرة لا تُعَوَّض - خصوصاً أن «دنيس» كان قد تقاعَد أثناء إعداد الكتاب، بعد خلافات بينه وبين «روبرت مردوخ» المالِك الجديد لمجموعة «التيمس» و«الصنداى تيمس».

وعندما صَدَرَ الجزء الأول من الكتاب سنة ١٩٨١ كان الذى أهدانى نسخة منه هو «دنيس» قبل أن تصلنى نسخة ثانية وَقَّعَ عليها «نيجيل».

ولم يبعث إلىَّ «دنيس» بنسخة من الكتاب المطبوع وحده، وإنما أضاف إليها زيادة كان يعرف أنها تهمنى، وهى صُوَر من مجموعة الأوراق الأصلية «للماريشال» تتصل بأيام خدمته فى مصر ما بين سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٣٥، حين كان قائداً لمعسكر «مصطفى باشا» فى الإسكندرية، ثم فى فلسطين عندما كان قائد القوات البريطانية فيها من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨. وفوق هديته كتب «دنيس» بخط يده على بطاقة منه عبارة نصها: «إلى محمد الذى كان مونتى يحتفظ له بإعجاب كبير - من صديقه دنيس».

وعلى أى حال فإننى بالفعل وَجَدتُ نفسى مرات عديدة فى إطار الجو الودِّى الذى كانت أسرة «هاملتون» تحيط به صديقها الكبير الفيلد مارشال «مونتجمرى»،

وبالذات فى الفترة ما بين زيارته لمصر سنة ١٩٦٧ وحتى وفاته بعدها بعشر سنوات سنة ١٩٧٦.

فى تلك السنوات العشرة قابلتُ الماريشال مرات عديدة، سواء فى بيت «دنيس» فى لندن، أو فى البيت الريفى الصغير (فى «هامبشير») الذى أهدته الملكة «إليزابيث» لقائدها فى سنوات عمره الأخيرة.

وطوال هذه السنوات العشرة سمعتُ من «مونتجمرى» فيضاً من قصص ذلك الزمن الأسطورى ورجاله من «تشرشل» إلى «أيزنهاور»، ومن «ستالين» إلى «روزفلت»، وحتى من «روميل» إلى «بن جوريون» الذى تعامل معه «مونتجمرى» بـ«الشك» أثناء خدمته فى فلسطين، حين كان «بن جوريون» رئيساً «للوكالة اليهودية» التى سبقت قيام دولة إسرائيل!

ثم مضت السنوات حتى كتب «نيجيل» فى بداية سنة ٢٠٠١ ذلك الذى كتبه عن الحياة الجنسية للماريشال، ومؤداه أنه كان «معكوساً» (شاذاً) جنسياً لكنه بذل جهداً خارقاً كى يكبت غرائزه.

والآن - أبريل ٢٠٠١ - كنت فى بيت «دنيس هاملتون» - أسأل «أوليف» (ليدى «هاملتون»): «هل كان أو لم يكن؟»

كنت أسأل ضاحكاً، ورَدَّت هى بلهجة تمتزج فيها الحَيرة بظِلٍّ من أسى:

«محمد. ماذا يفيد ذلك كله الآن؟ .. ذلك زمان مضى؟»

وقلتُ لـ«أوليف» (ليدى «هاملتون»):

«أوليف .. هل أترجم لك بيتاً من الشعر العربى؟»

قالت:

«سمعت منك ترجمات شِعر عربى من قبل. والآن قُل لى كيف استطاع الشعر العربى أن يعرف شيئاً عن حياة «عزيزنا مونتى»؟»

وترجَمتُ لها بيتاً من الشعر العربى يقول:

«قد كان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ولا تسأل الخبر »

واستمعت «أوليف» باهتمام للكلمات، ثم استفسرت مُستَوضِحة للمعانى، وقالت مبتسمة:

«بالضبط .. الشعر العربى كما يبدو لى مما أسمعه منك - بحور من الحِكمة»!

٣ - متى يتكلم الناس ومتى يُؤثِرون الصمت؟

« الجمعـــة »:

العشاء مع صديق قديم هو «أيان جيلمور» - اللورد «أيان جيلمور»، وكان وزيراً للدولة فى وزارة الخارجية البريطانية ضمن التشكيل الأول والثانى لوزارات «مارجريت ثاتشر»، لكنه بعد ذلك اختلف معها وأبعَدَته من وزارتها. كان وقتها يحمل لقب «سير» رغم أنه من أسرة لها صفحات فى التاريخ البريطانى. وكان المفروض أن تضعه «مارجريت ثاتشر» فى قوائم الألقاب التى يقدمها رؤساء الوزارات للقصر تقديراً لجهد الذين أسهموا بقسط فى خدمة الدولة البريطانية، لكن «مارجريت ثاتشر» لم تضع اسمه فى قائمتها بسبب انتقاده الدائم لسياساتها، ثم كان أن ظهَر اسمه فى قائمة الملكة تقديراً لجهوده فى سبيل «الكومنولث»، وذلك حق العرش.

«أيان» كان واحداً من المهتمين بالقضايا العربية لزمَن طويل، والحقيقة أنه صوت نادر فى التصدى بمصداقية ودون تردد للدعاوى الصهيونية - الإسرائيلية. «أيان» له ابن («دافيد») يعمل فى إحدى وكالات الأمم المتحدة الناشطة فى قطاع غزة. فى حين أن ابنه الثانى («كريستوفر») اختار اتجاها مخالفاً، فافتتح مطعماً يحمل اسمه فى حَى «تشِلسى» وهو آخر صيحة الآن فى مطاعم لندن.

قال لى «أيان» ضاحكاً أنه يجب أن يَتَصَوَّر أن له تأثيراً على كل من وَلَدَيه «دافيد» و«كريستوفر»، فهو من المتحَمِّسين للقضية الفلسطينية وهو ما انتقل منه إلى «دافيد»، ثم هو من هواة مطبخ راق، وقد نقل عنه «كريستوفر» هوايَته وحَوَّلها إلى مشروع ناجح.

سألنى «أيان جيلمور» ثلاثة أسئلة:

ـ«هل تستطيع أن تُفَسِّر لى الصمت العربى عما تقوم به إسرائيل فى الأراضى التى تحتلها؟»

قلت: «لا؟» (باختصار، ولم أزد).

ـ«هل هناك طرَف عربى أو دولة عربية لديها تَصَوُّر معقول وعادل لإمكانية حل؟»

قلت: «لا؟» (باختصار، ولم أزد).

ـ هل تنوى مقابلة أحد من المسئولين فى لندن هذه المرة؟

قلت: «لا».

ولم يتركها «أيان» باختصار أو بدون زيادة، وإنما سألنى: «لماذا؟ ـ عندك بالتأكيد كثيرٌ يَصح أن يسمعوه. أخشى أنهم لا يعرفون ما هو كاف عما يجرى فى المنطقة. هُم يفهمون أكثر من الأمريكان بالطبع، لكنكم تتركونهم للأمريكان ولإسرائيل».

قلت: «لدىَّ مائة سَبَب تُحَرِّضنى على أن لا أطلب مقابلة أحد من الرسميين ـ فيها سَبَب يَجُبُّ غيره من الأسباب، وهو أننى أراهم جميعاً مشغولين فى الانتخابات القادمة، وكل من أريد مقابلته مُنهمِك فى تحضير دائرته، وقد قرأت أن «تونى بلير» طلب من وزرائه أن لا يجلسوا فى مكاتبهم أو يناموا فى بيوتهم، وإنما أن يبقوا وسط الناس فى دوائرهم باستمرار.

فى تقديره وتقدير الكل أن نجاح «العُمال» أو فشلهم فى الانتخابات مسألة مفروغ منها ومحسومة، وبالتالى فإن معيار النجاح أصبح مُعَلَّقاً بحجم المشاركة فى الانتخابات، خصوصاً أن «تونى بلير» يريد حضوراً كثيفاً يُؤَيِّده ليكون منه مَدخلَه إلى الاستفتاء على انضمام بريطانيا إلى العُملة الأوروبية الموحَّدة (اليورو)، وتلك ضرورة مُلِحَّة لم يَعُد فى مَقدور بريطانيا أن تتأخَّر عنها».

....

....

[ظهَرَ فيما بعد أن نسبة الحضور لم تكن كما تَمَنَّى «تونى بلير». لم تَزد على ٦٠٪ وهى أدنى نسبة مُشاركة ديمقراطية فى الانتخابات منذ انتهت الحرب العالمية الثانية - أى منذ أكثر من نصف قرن].

....

....

لم يقتنع «أيان» بما قلته، ورأيه أنه برغم كل الشواغل فإن اللقاء مع «بعضهم» لا يمكن إلا أن يكون مفيداً للطرفين.

قلت له: «إننى متنازل عن حقى فى الفائدة»؟

نظر إلىَّ باستغراب مُضيفاً أنه لا يفهمنى؟

قلت له: «إنه برغم معرفته الوثيقة بالعالم العربى لا يَعرف مناخه الآن.

أحواله لسوء الحظ مُتَرَدِّية، وأسوأ من تَرَدِّيها فى حَدِّ ذاته - ما يحيط بهذه الأحوال من أجواء ومُلابسات.

ومن ذلك مثلاً أن أى مُهتَم بالشأن العام يَجِد نفسه أسير مأزق مُزعج سواء كان داخل وَطنه أو خارجه.

- داخل وطنه يجد نفسه حائراً بين الكلام وبين الصمت. يسأل نفسه إذا كان الكلام مُجدياً، مع يقينه بأن الصمت لا أخلاقى؟

- فى الخارج تنعكس الآية: الصمت يكون غليظاً لأن الحقائق ظاهرة - لكن الكلام يمكن أن يكون ثقيلاً حتى بدواعى الكبرياء!»

قلتُ لـ «أيان جيلمور»:

«أظن أن كثيرين - أجد نفسى بينهم - يَشعرون بالمأزَق، ومع ذلك يُحاولون:

- فى الداخل يرون أن الكلام يَجوز حتى وإن تضاءل الأمَل.

- وفى الخارج يَرون أن الكلام لا يجوز حتى وإن كانت حقائق ما يجرى على رءوس الأشهاد.

هناك مسألة كرامة لأوطان ولمواطنين ـ لكن ممارسة هذا النوع من الكرامة مَسألة حساسة، لأن من تتحدث إليهم ـ من الرسميين وغير الرسميين ـ يعرفون. وتكتشف أنك لا تستطيع أن تُدارى، لكنك قبل ذلك تكتشف أنك غير قادر على البوح!

ثم يكون الحل «اللائق» تفادى الكلام أصلاً: سؤالاً وجواباً. ذلك لأننا حين نتكلم مع أصدقائنا فى الخارج ـ رسميين وغير رسميين ـ نسأل ويجيبون، ويسألون ونجيب، فإذا لم نكن نريد أن نجيب فأفضل الصمت أن لا ندع للكلام مناسبة من الأصل والأساس!»

ولم ييأس «أيان» وإنما قال:

«هل هذا يتعارض مع ضرورة أن تتحدث هناك عن أشياء يجب أن يفعلوها؟»

قلتُ: «وإذا أجابنى أحدهم سائلاً لماذا لا تفعلون ذلك أنتم قبل أن تدعوا غيركم إليه؟ ـ ماذا أقول؟»

سكت «أيان جيلمور» يفكر ـ وغَيَّرتُ الموضوع!

هنَّأت «أيان» على خطاب بعث به لجريدة «الإندبندنت» وانتقد فيه بشدة «أيان بلاك» صاحب دار «التلجراف» لاتهامه أحد كُتَّاب إحدى جرائده («الاسبكتاتور») بالعداء للسامية.

قال لى «أيان»: «تَتَذكَّر .. كانت مجلة الاسبكتاتور فى يوم من الأيام ملكى، وكنت مُولعاً بالعَمَل فيها ـ ولسوء الحظ بعتُها، ثم «تَبادَلَتها الأيدى» حتى وَصلَت إلى «كونراد بلاك» ـ «كونراد بلاك» ليس يهودياً، ولكنه صهيونى .. أكثر صهيونية من أى رَجُل عَرَفته».

سألتُ «أيان» إذا كان ذلك تأثير زوجته «آمييل».

....

....

[وهى كاتبة يهودية كانت تكتب من قبل فى «الصنداى تيمس»، وهناك التقيتها مرة واحدة أثارت فيها دهشتى. كانت جميلة وجريئة، وأتذكر أننى قلتُ لرئيسها وهو

وقتها «فرانك جايلز»: «هذه السيدة تعمل فى الصحافة محطة، وليس نقطة وصول نهائية». ووافق على رأيى. وبعد سنوات وَقَع «كونراد بلاك» الذى اشترى مؤسسة «التلجراف» فى غرامها، وطَلَّق من أجلها زوجته الكَنَدية وتَزَوَّج منها، وأكثر من ذلك جَعَلها رئيسة تحرير لإحدى جرائده.]

....

....

سألتُ «أيان»: «ما الذى جرى للصحافة البريطانية حتى أصبح مُلاكها جميعاً من الأجانب؟

مجموعة «التيمس» يملكها «مردوخ» (أسترالى)

مجموعة «التلجراف» يملكها «بلاك» (كَنَدى)

مجموعة «الميرور» كانت مِلكاً لـ«ماكسويل» (مُهاجر من تشيكوسلوفاكيا القديمة)

دار «ويندنفيلد» للنشر يملكها «ويندنفيلد» (مُهاجر من المجَر)».

قال «أيان»: «الإندبندنت هى الجريدة البريطانية الوحيدة الآن».

قلتُ: «إننى غير متأكد لأن «إيفلين روتشيلد» مُساهِم فيها.

قال «أيان»: «لكن إيفلين إنجليزى».

قلتُ: «إن اسم «روتشيلد» وحده جنسية مستقلة .. دولية؟!»

سألتُ «أيان» عن أحوال حزب المحافظين؟ ـ وكان رَدُّه: «كما ترى».

سألته «إذا كان يشعر بشىء من الحنين ـ وشىء من النَّدَم ـ لأيام كانت فيها «مارجريت ثاتشر» تقود الحِزب من نجاح إلى نجاح فى الانتخابات العامة ـ ثلاث مرات متوالية، وكانت المرة الرابعة فى الطريق لولا أن عارضها أقطاب حزبها وضمنهم هو ـ «أيان جيلمور» نفسه، ثم ظلوا يضغطون عليها حتى دفعوها إلى الاستقالة من رئاسة الحِزب ورئاسة الحكومة دامعة العينين كسيرة القلب؟!»

لم يُجب «أيان» مباشرة وإنما سألنى هل رأيتها هذه المرة؟ ـ وأجبتُ بالنفى،

وأضفتُ: «ولكنى رأيتُ زوجها «دنيس ثاتشر» (وهو الآن أيضاً وبسبب زوجته أصبح «اللورد دنيس ثاتشر»)، كان أمامى على العشاء وقد حَسَدتُه على شهيته المفتوحة. بدأ طعامه بالكنتالوب (شمَّام)، ثم انتقل إلى الإسباجيتى، وبعدهما قطعة من سَمَك السلمون لا بأس بها، وخَتَمَ بفنجان قهوة معه عدة قطع من حلوى «الفريانديز». تابَعتُه وهو يأكل وسألتُ نفسى بعد أن نظرتُ إلى ساعتى وتَعَجَّبتُ كيف يستطيع رجل فى سِنِّه (٨٦ سنة) أن يأكل ذلك كله على العشاء وينام الليل؟»

يبدو أن فكر «أيان» كان يعمل لا يزال عند السؤال الأصلى الذى وَجَّهتُه له عن سقوط أو إسقاط «مارجريت ثاتشر». وهكذا عاد يقول:

«مارجريت ثاتشر فَقَدَت صلتها بالواقع، وذلك هو الذى قضى عليها وليس تآمُر عدد من وزرائها وأقطاب حزبها كما يحلو لها أن تظن. هى لم تَعُد تظن وإنما اقتناعها الآن كامل بأننا جميعاً أمسكنا بالخناجر وراء ظهورنا ثم انتهزنا لحظة غفلة منها وغرزنا الخناجر كلٌّ منا حيث طال. وذلك غير صحيح بالطبع. يُحِب بعض الساسة أن يُصَوِّروا أنفسهم ضحايا. ليس هناك سياسى قابل للاقتناع بأن زمانه انتهى، وأن عُمره الافتراضى انقضى، وأنه لم يَعُد قادراً على الاستيعاب والاستجابة».

استطرد «أيان» يقول:

«لاحظ أننى أعتقد أنها أقوى زعيم للمحافظين منذ أيام «تشرشل». هى امرأة قادرة، ولم يُخطئ ذلك الذى وصفها بالمرأة الحديدية - لكن حتى الحديد له عُمر افتراضى.

مارجريت أعطت الحِزب دَفعة قوية. شَكَّلَت وزارات للمحافظين من أحسن ما عَرَفته بريطانيا بعد الحرب. قامت بتَحَوُّلات اقتصادية أساسية. أضافت بشخصيتها إلى السياسة البريطانية فى زمانها مذاقاً خاصاً - لكن ليس هناك «سياسى إلى الأبد». السياسى الحقيقى رَجُل يعرف متى يجيء أوانه، ومتى تنتهى صلاحيته، وعليه أن يبتعد قبل أن تزيحه الضرورات، وذلك أذكى قرار يستطيع أى سياسى أن يتخذه. أى سياسى. أى مشتغل بالشأن العام. أى رَجُل أو امرأة يكون تقدير عمله وحجم سُلطته مرهوناً بقبول الناس، عليه أن يَعرف متى يغادر خشبة المسرح، وإلا

فإنه سوف يغامر بموقف كوميدى يَصعَد فيه الجمهور إليه على المسرح، ويَحمله من يديه وقدميه ويلقيه بعيداً فى الخارج. أكبر إهانة لرَجُل أو امرأة فى ساحة الأداء العام - سياسة، ثقافة، فَناً - أن ينتظر حتى يلقى به فى العراء!»

سألنى «أيان»: «هل قابلت «تيد» (يقصد «إدوارد هيث» رئيس وزراء المحافظين الأسبق والرجل الذى أعطى منصباً وزارياً أول مرة لـ«مارجريت ثاتشر»، وكانت تلك هى البداية التى تقدمت منها «مارجريت» من وزارة التعليم فأزاحَت «هيث» وأخذت رئاسة الحزب، ثم رئاسة الوزارة).

قلت: «سوف أقابل «تيد» غداً».

قال: «اسأله كما سألتنى إذا كان آسفاً على أيام «مارجريت ثاتشر»؟»

قلت: «لا داعى لأن أسأله لأنى أعرف رأيه، وهو لا يخفيه، بل إنه قاله لأحد ملوك السعودية (الملِك «خالد»)».

....

....

[كان «هيث» يزور السعودية، وراح الملِك خالد» يُحَدِّثه عن نهضة المملكة فى عهده بما فيها التوسع فى تعليم البنات، وقاطعه رئيس وزراء بريطانيا السابق قائلاً له: «لماذا تعلمونهن؟ تعليم المرأة خطر .. الأفضل تَركها حيث هى!» - ولم يُدرك الملِك «خالد» أن «هيث» لا يتحدث عن المرأة السعودية، وإنما يتحدث عن المرأة الحديدية التى انتزعت منه رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة.]

....

....

وقلت لـ«أيان»: «سوف أسأل «هيث» عن «هيج» رئيس الحِزب الحالى الذى يقوده الآن فى معركة الانتخابات».

وأغرق «أيان جيلمور» فى الضحك - قائلاً:

«أعرف ما سوف يقوله لك «تيد» مقدماً عن «هيج». سوف يقول لك أنه رَجُل قام بقَفزة تَصَوَّر فيها أنه يَملأ فراغاً فى زعامة حزب المحافظين، وهو فى الحقيقة لم يكن قادراً عليه. وفى النهاية فليس أمامه غير ما ينتظره عند نهاية قَفزة أوسَع من طاقته - الوقوع !»

....

....

[حَدَث ذلك فعلاً - وأعلَن «هيج» استقالته من الحِزب بعد ساعة واحدة من ظهور نتائج الانتخابات.]

....

....

سكت «أيان»، واستطرد:

«حِزب المحافظين فى أزمة. إن العُمال سرقوا برامجه أو معظمها. «تونى بلير» أعطى وجهاً اشتراكيا مُستَعاراً من تاريخ حِزب العُمال - لسياسة ليبرالية صاحِبها حِزب المحافظين، ثم قَدَّم هذا المزيج السحرى إلى الناخِب البريطانى باعتباره «مَطلب عُصور جديدة».

....

....

[أظنها ظاهِرة عالمية جديدة تَختَطُّ مَجرى للسياسات يَلتَزم الوَسَط، وفى الغالب يسار الوَسَط. والأرجَح أنه التأثير المباشر لتكنولوجيا الإنتاج وتكنولوجيا المعلومات .. والظاهِرة فى كل الأحوال تَستَحِق المتابعة - وهى فى العالم الثالث تَحتاج مع المتابعة إلى شىء من المراجَعة!]

....

....

واصَلَ «أيان»:

«نحن (حزب المحافظين) لم نستطع مجاراة متغيرات العصور. مارجريت فى البداية استطاعت، لكنها اندفعت إلى بعيد مُعتمدة على شخصيتها أكثر من اعتمادها على فكرةٍ وبرنامجٍ وحركةٍ تُقيم وتُجَدِّد حزباً سياسياً. أظنها كذلك بطول بقائها أضاعَت الفرصة على غيرها كانوا يصلحون، لكنها لم تفسح لهم الطريق».

قلت: «لم أجد أحداً فاتته فرصة رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة مع طول فترة ما بعد الحرب العالمية غير «أنتونى ناتنج» (الذى اختلف مع «إيدن» واستقال إبان أزمة السويس سنة ١٩٥٦).

تَمتَم «أيان» وهو يهز رأسه بقوله: «لا أعرف».

قلت: «كثيرون من المحافظين يقولون أن «بَتلر» ضاعَت منه الفرصة لأن «ماكميلان» عندما قَدَّم استقالته اقترح على الملكة أن تَستَدعى اللورد «هيوم» لرئاسة الوزارة رغم أن «بَتلر» أقدَم منه - وكان أصلَح. لست مُتَأكِّداً أن «بَتلر» فاتته الفرصة. فى حِزب العُمال كثيرون أظن أن الفرصة ضاعَت منهم. فى ذاكرتى ثلاثة رجال أو أربعة ظننتُ أن زعامة حزبهم ورئاسة الوزارة فى انتظارهم، لكن ظنى لم يتحقق».

عددتهم له: «جورج براون»، و«دنيس هيلى»، و«روى جينكينز»، و«دافيد أوين».

علق «أيان»: «جورج براون كان على وشك، لكن إدمانه على الشراب ضَيَّعَ فرصته ومكَّن «ويلسون» من الإجهاز عليه..

«دنيس هيلى» كان يمكن أن يكون رئيساً ممتازاً للوزراء، لكن عَدَداً من زملائه كانوا يَخشون قُوَّته، وذهَبَت أصواتهم إلى «جيم كالاهان» الذى بدا لهم طيِّعاً أكثر من «هيلى».

«روى جينكينز».. لا أعرف. «روى» مثقف، والمثقف مع السُّلطة مشكلة. هو مشكلة للسُّلطة والسُّلطة مشكلة له.

«دافيد أوين» لم تكن لديه تلك الجذور أو القواعد فى الحِزب .. هو طارئ جديد على حِزب العُمال فى وزارة «كالاهان»، وكان الذى قدمه لرئيس الوزراء هو زوج ابنته

«بيتر جاى»، وأعجب به «كالاهان» وعَيَّنَه (وهو الطبيب أصلاً) وزيراً للخارجية مرة واحدة».

سكَتُّ قليلاً ثم قلتُ لـ«أيان»:

«لاحظتُ هذه المرة فى الحملة الانتخابية لـ«تونى بلير» أنها تدور على نقطة «الهوية» البريطانية.

نفس الموضوع تبناه «هيج» لكنه حَوَّله إلى عنصرية على طريقة الزعيم المحافظ القديم «إينوك باول» الذى طالب بطرد كل الملوَّنين من بريطانيا لكى تحتفظ الجزر بنقائها العنصرى.

لفت نظرى موضوع «الهوية» كمسألة مركزية فى الحملة الانتخابية هنا. عندنا هناك - فى العالم العربى - كثيرون «طَقَّ» فى رأسهم أن «العَولمة» تقتضى الاستغناء عن «هوية».

أضفتُ:

«قليلاً ما نعرف - كثيراً ما نتكلم».

وكان فكرى قد ذهب بعيداً إلى العالم العربى.

٤ - أساطير صحفية وفنية وسط الريف البريطانى!

« السـبت »:

موعد لقضاء نهاية الأسبوع فى بيت «أندرو نايت». «أندرو» قصة صعود مذهل - صاروخى - فى الصحافة البريطانية. جاء إلى لندن من نيوزيلندا حيث كان والده يَعمَل. تَعَلَّم «أندرو» فى «أوكسفورد»، واتجه إلى الصحافة، وأصبح مراسلاً لجريدة «الأيكونوميست» الشهيرة فى نيويورك، ثم فى بروكسل عندما أصبحت عاصمة بلجيكا - عاصمة للسوق الأوروبية كلها. وبعد ثلاث سنوات فى بروكسل استدعى «أندرو» للعَمَل فى المقَرّ الرئيسى لـ«الإيكونوميست» على حافة طريق «هوايتهول» فى قلب لندن. بعد خمس سنوات أصبح «أندرو» رئيساً لتحرير المجلة الاقتصادية الأشهر

فى أوروبا كلها، وفيها حقق مجده الصحفى خلال إحدى عشرة سنة قضاها على رأس «الإيكونوميست». ثم بدا لكل الناس - إلا لـ«أندرو» نفسه - أن طاقته أصبحت أكبر من منصبه الحالى، وأنه إذا لم يجد فرصة جديدة فإن منصبه الحالى سوف يَتَحَوَّل إلى قَفَص يحبسه.

□

على مائدة الإفطار فى فندق «كلاريدج» ذات صباح - ومعنا صديق مصرى لى وله كان هو داعينا - سألنى «تاينى رولاند» المليونير البريطانى الشهير الذى مات بحسرة عجزه عن استرداد محلات «هارودز» (وكان قد باع نصيباً منها إلى المليونير المصرى «محمد فايد» مع تفاهم بينهما - كما قال «تاينى» - أن تعود إليه عندما يُسَوِّى أموره فى إدارة الشركات البريطانية - لكن ذلك التَّفاهُم انكفأ على وجهه ووَقَع على الأرض - وتلك حِكاية أخرى). سألنى «تاينى رولاند» عما إذا كنت أظن أن «أندرو نايت» مُستعدٌ للعَمَل معه رئيساً لتحرير جريدة «الأوبزرفر» التى اشتراها هو قبل شهور وتُقلقه أحوالها لأن رئيس تحريرها («تريلفورد») غير قادر على تطويرها بما يوقف خسائرها رغم سُمعتها العريقة؟

وأضاف «تاينى رولاند»: «إنه يعرف أن «أندرو نايت» صديق مُقَرَّب لى، فهل أستطيع مفاتحته؟»

وقلتُ لـ«تاينى رولاند» ما مؤداه «أننى لست الشخص المناسب لمفاتحة «أندرو نايت» لأنى إذا فاتحته سألنى عن رأيى، وإذا سألنى فسوف أقول له إن بقاءه فى «الإيكونوميست» أفضل له!»

وضاقت عينا «تاينى رولاند» وهو ينظر إلىَّ محاولاً استقراء دلالة ما قلته، ويسألنى: «هل ذلك رأىٌ فى «الأوبزرفر» أو رأىٌ فىَّ شخصياً؟»

وقلتُ بصِدق: «بل هو رأىٌ فى «أندرو نايت» نفسه». ثم أضفتُ محاولاً أن لا أسبب حَرَجاً لأحَد: «لا أخفى عليك أن بى خشية من رأس المال على الصحافة، تزعجنى دائماً مِلكية رَجُل فرد لجريدة كبرى - مع أننى لا أومِن بتأميم الصحُف، ولا تأميم الإعلام بصفة عامة - والحقيقة أننى أحس بالحاجة إلى صيغة أخرى لملكية هذه الوسائل الخطيرة والخطرة على الأفكار والناس والأوطان فى أحوال وطنية وعالمية

لا تَظهَر لها حدود أو ضوابط. ولأنى أُقَدِّر كفاءات «أندرو» فإننى أُفَضِّل أن يَتَجَنَّب التجربة .. الإيكونوميست كما تَعرف شركة مُساهِمة وليست مِلكية فَرد ـ المساهِم الأكبر فيها شركة «بيرسون» ـ شركة أيضاً».

□

وافقنى «أندرو نايت» تماماً عندما عَرَف بما دار بينى وبين «تاينى رولاند» من حِوار. على أنه لم تَمض شهور حتى كان «أندرو» قد ترك «الإيكونوميست» إلى «التلجراف» وسط موقعة دَوَّت أصداؤها فى الصحافة البريطانية كلها.

كان «أندرو» صديقاً لـ«كونراد بلاك» صاحب مجموعة الصُحُف الكندية الكبرى، وكان «كونراد» يَطمح إلى تَواجُدٍ فى لندن بمثل ما فَعَل «روى طومسون» (مليونير كندى) قبله حين استطاع شراء «التيمس» و«الصنداى تيمس». وتمكن «أندرو» من إتمام الصفقة عارفاً أن اللورد «مايكل هارتويل» آخر البارونات من أسرة «برى» يريد أن يبيع. وكان أن «بلاك» اشترى مجموعة «التلجراف»، وأصبح «أندرو نايت» بعدها رئيساً للتحرير العام لهذه المجموعة الصحفية الكبرى.

كان «بلاك» حتى ذلك الوقت يعيش فى كندا رغم مِلكيَّته لمجموعة من أكبر الصحف البريطانية وأعرقها ـ وكان «أندرو نايت» مُفَوَّضه العام. وأعاد «أندرو» تنظيم «التلجراف»، ومع أن أرباحها حين قام على مسئوليتها كانت مَعقولة (٣٦ مليون جنيه إسترلينى سنة الشراء) فإن «أندرو» دَفَعَ بالأرباح عن طريق إعادة التنظيم فى التحرير والتوزيع والإعلان بما رَفَعَ الأرباح فى ظرف ثلاث سنوات (٢٧٠ مليون جنيه إسترلينى). وإزاء هذا النجاح الساحق قرَّر «كونراد بلاك» أن الفرصة حانت لنقل «عاصمته» إلى لندن، وكان أن أدرك «أندرو نايت» أن دَولته المستقلة فى «التلجراف» وَلى زَمَنُها، لأن مجيء صاحب الجريدة للجلوس والعَمَل من مَقَرِّها سوف ينزع عنها صفتها المؤسسية ويؤكد ملكيتها الفردية (كذلك قال لى «أندرو» بنفسه) ـ والنتيجة أن «أندرو» سَوَّى أموره مع «كونراد بلاك» وخَرَجَ من «التلجراف» ومعه حصة نصيب فى الأرباح (مُتَّفَق عليها) بَلَغَت خمسة عشر مليون جنيه إسترلينى.

□

المدهش أن «أندرو» كرَّرَ نفس التجربة تقريباً مع «روبرت مردوخ»، فقد خرج من «التلجراف» إلى «التيمس»، ثم تركها بعد ستِ سنوات ومعه نصيب أرباح بلغ ثمانية عشر مليون جنيه إسترليني.

وفاجأني «أندرو» حين جاء إلى مصر يقضي أياماً معنا في الغردقة، عندما أبلغني في اليوم الأخير من زيارته أنه «قرَّرَ ترك التيمس»، مضيفاً أن «رأيه مثل رأيي» بعد التجربة العملية، فهو الآن مُقتنع بأن الملكية الفردية للصحُف قضية مُعَقَّدة لم يعثر أحد على حَلٍّ لها حتى الآن. وعلى أى حال فقد اتخذ قراره بأن يترك «التيمس». وسألته «إلى أين؟» وأدهشني حين قال: «إلى مزرعة سوف أشتريها في الريف الإنجليزي»!

ولم تمض غير شهور حتى تلقيت من «أندرو» أنه اشترى البيت الريفي الذى حلم به طول عمره. وهو وسط مزرعة في مقاطعة «ووركشير»، وتلك أحلى منطقة من قلب الريف البريطاني وهى منطقة «كوت فولد». البيت فيها بناه سَيِّد إنجليزى من القرن الثامن عشر، وتَوارَثته أسرته، ثم تَغيَّرَت الظروف وعَرَضَته للبيع. وبعثَ إليَّ «أندرو» بصُوَر وتفاصيل عن «بيت الأحلام»، فهو واقع على تلٍّ عال أخضر وسط ستمائة هكتار (حوالى ألف وخمسمائة فدان)، وفى وسط الأرض نهر صغير يتدفق من أعلى إلى وادٍ تمتد بعده المروج إلى مدى البصر. وتَحَوَّل «أندرو» إلى شاعر وهو يكتب لى عن بيته الجديد في الريف، ولاحظت أن الخطاب نفسه ورق مطبوع باسم المزرعة مع رَسم لخطوط البيت.

وبدا لى البيت أساساً بديعاً - حسب ما قرأت ورأيت من الخطابات والرسوم - لكنه كان يحتاج إلى عملية تجديد شاملة لغرف النوم وحماماتها، وصالونات الاستقبال والمعيشة وأثاثها، لأن «أندرو» يريد غرفة مدفأة، ويريد المدفأة بعرض ستة أمتار، كما أنه يريد حمَّام سباحة نصفه مغطى ونصفه مفتوح، ويريد ملعب تنس، ويريد ويريد .. تَجديدات سوف تزيد تكاليفها على ثلاثة ملايين جنيه إسترليني.

كانت صديقته التى تقدم لخطبتها «مريتا» سليلة أسرة من أعرق الأسر البريطانية، وشقيقتها هى «دوقة وستمنستر» وزوجها ليس عريق النَّسَب واللقب

فحسب وإنما هو أغنى رَجُل فى بريطانيا لأنه يملك أكبر دائرة عقار فى قلب لندن، وهى تحمل اسم أسرته ولقبها الموروث (وستمنستر).

كان «أندرو» قد طلَّق زوجتين سابقتين، وكانت «مريتا» متزوجة من قبل «أندرو» لكن زوجها مات فى حادث طائرة تاركاً لها ثلاثة أطفال، ولم تكن لديها مشكلة غير شجَن خَلَّفَته الأحزان، وهكذا فإنها حين التقت بـ«أندرو» كان كلاهما مهيأ لحياة جديدة ـ لكنها ظلت لسنوات تعتذر عن يده الممدودة لطلب خطبتها. وأتذكر أننى تحدثت إليها مرة فى علاقتها بـ«أندرو» وكان ردها: «أن أندرو إنسان يستحق كل خير، وأنها بالفعل بدأت تنشغل به، لكنها تشعر أن زوجها الراحل ما زال يسكن قلبها، وهنا فهى لا تستطيع أن تقف على مَذبَح الكنيسة يوم عَقد القران وتُقسِم يَمين الولاء فى السرَّاء والضرَّاء لرَجُل دون أن تتأكَّد أن قلبها أصبح حُراً من رباط الماضى».

وكان على «أندرو» أن ينتظر قبولها لعرضه بالزواج، وقد ظلت تمانع رغم أنها تَوَلَّت أمر تجديد البيت الريفى الذى اشتراه، وأكثر من ذلك أخَذت أطفالها الثلاثة وذهبت للحياة فيه «لأن ذلك البيت على الربوة فى «الكوت فولد» خطف خَيالها من بيت أسرتها القديم وسط اسكتلندا وحملها جنوباً إلى وسط إنجلترا»!

وكنت رأيت البيت والمزرعة مرة وسط عملية إعادة البناء والترتيب. فقد عرف «أندرو» ـ مرة أثناء زيارة قُمتُ بها لإنجلترا ـ أننى ذاهب لعطلة نهاية الأسبوع فى مدينة «باث»، واقترح أن أمُرَّ عليه فى «مَوطنه الجديد» وهو قريب من «باث».

لكنها هذه المرة ليست دعوة غداء، وإنما هى دعوة قضاء عطلة نهاية الأسبوع!

وذهبنا وفى حسبانى أنها ليلة فى الريف البريطانى. فنجان من الشاى بعد الوصول عصر السبت. نصف ساعة أو أكثر من المشى وسط الوديان والمروج. قبل أن ينزل المساء سوف نَذهَب إلى القرية العتيقة القريبة نستكشف معالمها ومعظمها مما بُنى فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. وعندما ينزل المساء سوف نعود إلى البيت. وعندما نعود فإن «مريتا» و«أندرو» سوف يأخذاننا إلى جولة فى غرف البيت (القصر فى الواقع) ـ وبعدها عشاء خفيف مع صوت موسيقى (كنت واثقاً أنه سيكون لـ«جون فيلدن» الذى اكتشفته لأول مرة عن طريق «أندرو» و«مريتا») ـ ثم النوم بالتأكيد قبل العاشرة.

فوجئت بأن ما تَوَقَّعتُه لم يَحصل، وإنما حَصَل ما لم أكن أتَوَقَّع.

كنت أعرف - من قبل - أن «مريتا» تَتَمَلَّكها فكرة أن تكتب مسرحية غنائية عن الشاعر الروسى العبقرى «بوشكين»، لأنها تَعتَقد فى شِبه يقين بأن عروقها تَحمل بعضاً من دَم ذلك الشاعر، وأن ذلك الدم وَصَلَ إليها عن طريق جدَّة لها هامَت به حُباً أثناء زيارة قامت بها فى شبابها للعاصمة الروسية القيصرية «سان بيترسبورج». وكان اعتقاد «مريتا» أنه حتى إذا لم تكن دماء «بوشكين» فى عروقها بقوة الطبيعة فإن هذه الدماء موجودة فى عروقها بقوة العاطفة التى تحس بها إزاء «شاعرها» الذى تقوم وتنام معه (على حَدِّ تعبيرها).

وكانت «مريتا» قد كتبت لنا مرة تقول أنها أعطت نصوصاً مما كتبته إلى موسيقى روسى يُلحِّنها. وفى خطابها أبدَت دهشتها وتفاؤلها من أن الموسيقى الذى رَشحوه لها كان من «سان بيترسبورج» (ستالينجراد طول فترة الحكم الشيوعى) - اسمه «تشايكوفسكى» (على اسم العبقرى الأشهر).

وهذه المرة عندما وصلنا إلى مزرعة «سكوربى» (مزرعة «أندرو» وبيته الريفى) وجلسنا إلى فنجان الشاى التقليدى بعد الوصول، كان أول ما قالته لنا «مريتا»: «هل تعرف من سيكون معنا على العشاء الليلة؟ «تشايكوفسكى» الموسيقى الروسى الذى يقوم على تلحين المسرحية الغنائية التى كتبتها عن «بوشكين» وأتَشَوَّق إلى أن أراها حَيَّة ذات يوم على خَشَبَة مَسرَح. جاء «تشايكوفسكى» إلى هنا بالأمس، واليوم ذهب إلى لندن ليرى صديقة له عازفة «كمان» جاءت مع فرقة «كيروف» للباليه التى تزور العاصمة البريطانية لمدة شهر تقدم فيه بعض عروضها. «تشايكوفسكى» قادم قبل العشاء».

تأخر «تشايكوفسكى» عن موعد العشاء ربع ساعة، وجاء، ولكنه جاء ومعه صديقته «أولجا» عازفة الكمان التى اعتذرت ليلتها عن العمل مع فرقة «كيروف». وكان «تشايكوفسكى» يحمل معه اقتراحا مثيراً. فقد فَرَغ من تلحين فصل كامل من الرواية الغنائية التى أعطتها له «مريتا» قبل شهور، وهو يَقتَرح أن يَعرض ألحانه الليلة على صاحبة الرواية، وسوف يجلس إلى البيانو وصديقته «أولجا» إلى جواره وفى

حضنها الكمان. وكانت «مريتا» مأخوذة بما سمعت، وحماستها تَتَحَوَّل إلى شعلة لهب.

ومضى العشاء بسرعة لم يستغرق غير دقائق، وانتقلنا جميعاً إلى قاعة الاستقبال الرئيسية والمدفأة فيها بعرض ستة أمتار، والضوء حَنون على ألوان الأثاث العتيق، واللوحات اختيار بَديع، وهى تُغَطِّى الجدران بين الستائر نصف المسدَلة على النوافذ، ومن الستائر نصف المفتوحة تظهر أضواء الحديقة، وكذلك تَلوح من بَعيد أضواء قرية تَقبَع على الناحية الأخرى من التَّلِّ القريب.

وأمام البيانو جلس «تشايكوفسكى»، وبجواره جلست «أولجا» و«كمانها» بين يديها ووجهها، ووراء الاثنين وقفت «مريتا» وفى يدها النص الذى كتبته.

ثم انطلقت الأصوات والألحان والكلمات فيضاً. رُؤى ومَشاعر وخيالات امتزجت مع بعضها وذابَت.

كان عَدَد المشاهدين موازيا لعَدَد المؤدين. قرينتى وأنا ـ و«أندرو» ـ وأمامنا ثلاثة غيرنا معهم النص واللحن والأداء. والجو شبه أسطورى.

صباح اليوم التالى ـ الأحد ـ استيقظت مبكراً ونزلت إلى غرفة الإفطار تُحيط بها الحديقة، وجاءت مديرة البيت بوجهها الأحمر وشعرها الأبيض وملامح وجهها التى تشى بزمان جميل مضى، وعافية ما تزال حاضرة ومُتَحَفِّزة، تسألنى عما أريد ـ ولحق بى «أندرو» يأخذ لنفسه فنجاناً يملؤه بالقهوة ثم يسألنى: «ما رأيك فى اللحن الذى سمعناه أمس؟ «مريتا» كانت تريد أن تسمع رأيك تَفصيلاً ـ لكن الوقت تَأخَّر بنا كثيراً».

وسألته وهو لا ينتظر سؤالى بما مؤداه: «أندرو .. ماذا تنوى أن تفعل؟»

ورَدَّ باسماً: «سألتنى هذا السؤال مرة وأجبتُ عنه، وما زالت إجابتى كما كانت عندما سألتنى أول مرة: سوف أفعل ما أفعله الآن».

وسألته: «تعنى أنك ستبقى هنا فى «كوت فولد»؟»

قال: «هذا هو البيت الذى حلمت به، وقد تحقق حلمى، وأنا هنا أعمل عدة ساعات فى الصباح أتابع فيها مَصالِحى - حتى أضمَن حَقى فى أن أعيش عُمرى»!

وسألته: «والمهنة؟»..

وقال: «هل تَتَصوَّر أننى على استعداد لأن أذهب إلى مؤسسة صحفية وأبدأ من جديد؟ - لقد عملت بما يكفينى، ولا أجد منطقاً يقنعنى بأن أترك حياتى هنا كما حلمت بها وحققتها لكى أذهب إلى لندن وأعود إلى «المهنة» كما تقول أنت».

واستطرد: «تعال معى بعد الإفطار، أريد أن أريك قطعة أرض جديدة اشتريتها لتوسيع المزرعة .. رَتِّب نفسك لصُعود تَلٍّ عال .. مائتى متر تقريباً، لكنك من هناك سوف ترى مَشهد «بانوراما» تَخطف البصر!»

بعد الغداء كان علينا أن نعود إلى لندن. وركب «أندرو» معنا إلى باب المزرعة الخارجى على الطريق الرئيسى من «وريك» إلى «باث»، ثم نزل إلى سيارة جيب انتظرته ليعود بها.

والتفت إلى المشهد الذى تركته ورائى، وكانت المزرعة وبيت «سكوربى» العالى على التل وسطها، وسألتُ نفسى دون كلام: «هل يعقل أن يقرر أهم صحفى بريطانى ظهر فى الثمانينات والتسعينات بسرعة صاروخ أن يعتزل ووراءه سِجِلٌّ هائل - وناجح بكل المعايير؟ - لست متأكداً لأنى فى ظروف سابقة لَمَحتُ وأحسَستُ بجذوة النار المقَدَّسة فى قلبه، ولولا هذه الجذوة لما نجح إلى هذا المقدار - فهل يَقدر على البعاد والفراق؟

طول الطريق إلى لندن كان «أندرو» فى خواطرى - أسأل نفسى هل وَجَدَ «سَعادَته النهائية» كما يقول، أم أن «السعادة الحقيقية» سوف تُناديه مرة أخرى إلى مَوقع آخر؟

طرأت على فكرى مَقولة أتذكَّرها لفيلسوف (أظنه «باسكال»): «السعادة مثل الكرة، نجرى إليها، فإذا وَصَلنا رَكَلناها بأقدامنا إلى بَعيد، ثم عُدنا نَلهَث وراءها حتى نَلحقها، ثم نَركلها من جديد». هل تَوَقَّف «أندرو» عن اللعب؟.. وَصَلَ إلى الكرة فى مَلعَب الطموح الكبير ثم قَرَّرَ أن السَعادة فى التَوَقُّف. يمسك بالكرة فى يَدِه - ولا يَركلها بقَدَمِه!! - وإذا كان ذلك فما هى اللعبة إذن؟ - لستُ واثقاً!؟

٥ـ كتب وخرائط ورحالة وملوك!

« الاثنــــــين »:

ذهبتُ لأشترى ربطات عنق، لكنى فى منتصف الطريق نسيت مقصدى.

مشيت من فندق «كلاريدج» فى شارع «بروك» ـ متَّجهاً نحو «بوند ستريت» وفيه مجموعة من أشهر المحلات، ورُحتُ أتطلع إلى بعض واجهات العرض على مَهل. ولمحتُ على الجانب الأيسر من الطريق لوحة شدَّتنى إليها كعادتها، وعَبَرتُ الشارع فى منتصفه قاصداً إليها ـ دار «سوذبى» الشهيرة للمَزادات، وهى متخصصة فى أشياء نادرة: من تُحَف تَنتَمى إلى كل العصور والمعادن والمدارس ـ إلى الأثاث المنسوب لعصوره الملَكية والإمبراطورية، وحتى الاستعمارية ـ إلى الخرائط والكتُب القديمة ـ تلك التى لا بد أن يكون عمرها قرناً أو قرب القرن على الأقل ـ ثم أن تكون بالشرط طبعة أولى وليست تكراراً من طبعات.

والتحَف والأثاث ليست شواغلى. ولكن الخرائط القديمة والكتب المطبوعة قبل قرن أو قرون مَضَت لم يبطل سحرها علىَّ!

وفى الحقيقة فأنا أتوقى هذا النوع من المعارض وصالات المزادات، لكن صالات دور من وَزن «سوذبى» و«كريستى» مسألة أخرى لأن الكتُب والخرائط عندها، وأصحاب المجموعات النادرة لا يبيعون ما عندهم إلا هناك.

بين أسباب التَرَدُّد أننى أعرف ـ مما أقرأ ـ أن ذلك سوق «ملعوب فيه» ـ فالمعروضات فى هذه الدور بالطبيعة نادرة، ثم إن توافرها ليس حركة سوق عادية تُلَبِّى طلبات الراغبين بانتظام مُنتَج مَوصول بالسوق، وإنما الحركة مُعظمها مُصادَفات حتى وإن حاوَلَت هذه الدور («سوذبى» و«كريستى» وغيرهما) أن تتحكم فى المصادفات بإدارتها عن طريق ترتيب المواقيت والمواسم ـ بظن أن ذلك يتيح نوعاً من «التحكُّم» أو «التلاعُب» فى الأسعار ـ وهو صحيح. وكانت الشكوك فى «التحكُّم» و«التلاعُب» تُطارد الدارين الشهيرتين («سوذبى» و«كريستى» معاً) وحاوَلَت كلتاهما أن تَرُدَّ الشكوك بمظلات وواجهات من «الاحترام» تضعها على رأسها أو تحتمى وراءها.

وفى وقت من الأوقات نجَحَت دار «كريستى» حين عَرضَت على اللورد «بيتر كارينجتون» نائب رئيس حزب المحافظين ووزير الخارجية السابق، وقريبٌ للملكة مسموح له بوضع التاج على أوراق مراسلاته الخاصة - أن يرأس مجلس إدارتها.

....

....

[تذكرتُ أننى فى ذلك الوقت - قبل أكثر من عشرة أعوام - سألتُ اللورد «كارينجتون» لماذا قَبِل؟ - وكان رَدُّه: «ذلك مجالٌ أعرف شيئاً عنه، وأحبه - هذا سَبَب. وسَبَب آخر أنه يتعين علىَّ أن أجد عملا يجيئنى منه إيراد منظم».

ذكرنى رَدُّ «بيتر كارينجتون» برَدٍّ من نوعٍ آخر على سؤال وَجَّهتُه إلى «جورج براون» نائب رئيس حزب العُمال ورئيس الوزراء السابق فى وزارة «هارولد ويلسون» - عندما خرج من الحُكم ثم قَبَلَ أن تَمنَحه الملكة لَقَب «لورد». وسألته وقتها: «كيف رَضيت وأنت الزعيم العمالى اليسارى أن تقبَل لقباً يُوحى - حتى باللفظ - أنك التحقت بالأرستقراطية؟!»

وكان رَدُّه: «لم أتخَل عن شىء، ولم ألتَحِق بشىء، لكنى أريد منبراً (منبر مجلس اللوردات) أتكلم من فوقه ليظل رأيى مسموعاً فى الساحة السياسية!»

ثم مضى «جورج براون» يقول: «لم أكن أريد لقباً ولكنى أردتُ منبراً. لقد «شِختُ» بالنسبة لمجلس العموم ولم يعد فى مقدورى أن أذهب إلى دائرتى الانتخابية وأتابع أحوال أهلها وأخوض المعارك لأفوز بأصواتهم - وإذا كان ذلك فكيف أجد لنفسى منبراً أطلُّ منه على الناس غير مجلس اللوردات؟»

وكذلك مقارقات الظروف:

أصحاب الألقاب يبحثون عن عَمَل ودخل..

وعامة الناس يبحثون عن منبر لا سَبيل إليه بغير لقب! (أو هكذا يقولون!)]

....

....

«بيتر كارينجتون» بالفعل كان رَجُلاً مُحتَرَماً، لكنه لم يبق مع «كريستى» غير أربع سنوات، ثم انسحب من رئاسة مجلس إدارتها. وكان ذلك من حُسن حظه لأن هناك - هذه الأيام - تحقيقات مع كل من رئيس مجلس إدارة «سوذبى»: السير «أنتونى تنانت»، ورئيس مجلس إدارة «كريستى»: «آل توبمان» (وهو أمريكى متزوج من ملكة جمال سابقة لإسرائيل اسمها «جودى»!) - والتُّهَم الموَجَّهة إلى الاثنين هى «التعاون» أو «التواطؤ» على رفع الأسعار والعمولات - وهذه تُهَم توشك أن تَضَع الاثنين فى السجن!

□

كانت المصادفات موَفَّقة ذلك اليوم، فعندما عَبَرتُ رصيف «بوند ستريت» لمحتُ فى لوحة إعلانات «سوذبى» إشارة إلى مَزاد على خرائط قديمة فيها ما يعنينى من خرائط قديمة لمصر (وتلك بالذات هوايتى الوحيدة فى جمع الأشياء).

فى الإشارة التى لمحتها كانت هناك إضافة أخرى عن كُتُب قديمة، وعن «مجموعات أوراق» من الشرق الأدنى. ولم أستطع أن أقاوم، ودخلت.

دخلتُ أولاً قاعة العرض التى غطت الخرائط القديمة جدرانها - وبدأت بها ليس فقط لأنها «هواية»، ولكن أيضاً لأن أسعارها فى العادة معقولة.

فى ربع ساعة غطيت قاعة العرض كلها: خرائط مصر التى رأيتها لدَىَّ مثلها وأحسن منها، ولم تكن هناك فى القائمة - مما يَستَحِق الاهتمام - غير خريطة واحدة توقفتُ أمامها لبعض الوقت متَأمِّلاً ودارساً - كانت خريطة للعالم مطبوعة على الحجر سنة ١٦٤٨ - لكن سعرها التقديرى الذى وضع تحتها ليبدأ منه المزاد بدا لى عالياً: ما بين ٢٥ إلى ٣٥ ألف جنيه!

توجهتُ إلى القاعة التى تعرض الكتب القديمة المعروضة للبيع. استوقفنى بعضها. وأول ما استوقفنى كتاب مطبوع فى باريس سنة ١٨١٤ بعنوان «رحلات على بك العباسى»، وتصفحتُ الكتاب لأعرف أن ذلك اسم مُستعار لرحَّالة إسبانى اسمه «باديا دومنجو» اتخذ لنفسه اسم «العباسى» وطاف بالعالم العربى، وسافر إلى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة، ورَسَمَ ووَصَف وسَجَّلَ ما رأى وسمع، ثم نشر كتابه فى أربعة أجزاء بالرسوم والخرائط.

لاحظتُ على الرفوف كتباً كثيرة قريبة شَبَه به، وجميعها تَشى بأنه على مساحة الزمن الممتَد بين القرن السابع عشر والثامن عشر كان رَحَّالة الغرب (إنجلترا، وفرنسا، وأسبانيا، وألمانيا) فى سياحة لا تتوقف إلى كل أرجاء العالم العربى، حتى تلك المحظورة عليهم وأولها مكة والمدينة. والظاهرة بالفعل لافتة يؤكِّدها مرة أخرى حجم الكتُب المعروضة.

أخذتُ ورقة ومَضَيتُ أدَوِّن عناوين بعض الكتُب، ولَفَتَ ذلك نظر السيدة المشرفة على قاعة العرض، وتَصَوَرَت بالطبع أننى مُتَفَرِّج مُهتم ومُشتَر مُحتَمَل، فجاءت تُقَدِّم لى إيضاحات إضافية لعلها تثير وتغرى.

وقَدَّمَت لى نفسها باعتبارها المسئولة عن القاعة.

وسألتها إذا كنتُ أخطأتُ بأن أخذتُ كتاباً وفتحتُ غلافه؟ - وكان رَدُّها «أن تلك هى القاعدة المتَّبَعة عادة، بمعنى أن غلاف الكتاب وعنوانه فيهما الكفاية لأى زائر، لكنه عندما تتضح جدِّية أحدهم فمن المعقول أن يُسمح له بالتأكد من «سلامة الأوراق»، و«تسلسُل الصفحات»، و«الحالة العامة للكتاب».

تطلَّعَت السيدة إلىَّ وقالت بأدب: «أظنك من الشرق الأدنى - أليس كذلك يا سيدى؟ وأظن أن لك اهتماما خاصاً بموضوعات هذه الكتُب؟»

ورَدَدتُ بأن «ما ظنَّته صحيح فى المرتين: أننى من المنطقة، وأننى مُهتَم بصفة خاصة».

وذهَبَت السيدة الكريمة فجاءت إلىَّ بأوراق إضافية وبقلم أكثر سيولة إذ لاحَظَت أن القلم الذى أمسكه بين أصابعى قارَبَ الجفاف ولذلك يَتَعَثر على الورق ويَتَعَطَّل. وأفضل من ذلك فإن السيدة ظلَّت قريبة منى تتابع مَواقِع تركيزى تَدُلُّ عليها وقفاتى الطويلة بين وقتٍ وآخر.

□

كانت وقفتى الأطول فى قاعة مجموعات الأوراق الخاصة، فهناك وَجَدتُ مجموعتين:

○ المجموعة الأولى: تحت رقم ٢٠٦ ـ تحتوى على ١٨ خطاباً بخط يد «جون فيلبى» المستشار الشهير للملك «عبد العزيز آل سعود»، وكان فى الأصل ضابطاً سياسياً تابعاً لحكومة الهند كلف بأن يكون «مركز اتصال» بين حاكم الرياض والأحساء الوهابى: «عبد العزيز آل سعود» (قبل أن يصبح أميراً، ثم سلطاناً، ثم ملكاً) ـ والخطابات الثمانية عشر لم تُنشر من قبل ـ وكلها مكتوبة بخط اليد ومُوَجَّهة إلى السير «بيرسى كوكس» وهو المقيم البريطانى العام فى منطقة الخليج مكلفاً بهذه المسئولية من حكومة الهند وكان مَقَره فى «البَصرة» ثم فى «بغداد» بعد دخول قوات الجنرال «مود» إليها ضمن وقائع الحرب العالمية الأولى (وفيما بعد وحين أصبح «عبدالعزيز» سُلطاناً على «نجد» ثم على «الحجاز»، ثم ملكاً بتوحيد القطرين ـ ظَهَرَ «فيلبى» مستشاراً مُقَرَّباً من الملك «عبد العزيز» ونجماً ظاهراً فى بلاطه).

○ والمجموعة الثانية: ملف واحد فيه سبع أوراق، وهو قائم وحده على الهامش وكأن من عَرَضَه يائسٌ من بَيعِه، ولدهشتى فإن ذلك الملف كان يَحمل خطابات كلها بخط وتوقيع اللورد «كرومر»، وهو الرَّجُل الذى كان حاكماً بأمره لمصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع بداية الاستعمار البريطانى لمصر. بل إنه ـ «كرومر» ـ كان الرَّجُل الأشهر، والأبعَد نفوذاً، والأكثر تأثيراً، فى قصة الاحتلال البريطانى على مدى سبعين عاماً لوادى النيل: شماله وجنوبه!

....

....

كانت السيدة المسئولة عن القاعة قريبة منى، والتفت أسألها «هل يمكن فتح الأوراق والاطلاع عليها ـ أو أن الأوراق غير الكُتُب عليها قيود؟»

وقالت: «إن تلك بالضبط هى الحالة، لكنها تستطيع (وهى تَلمَح اهتمامى المتزايد) أن تضع الأوراق أمامى بنفسها، وأن تفتح لى باحتياط زائد بعض الصفحات أطل عليها دون لمس».

وأضافت: «تعرف يا سيدى أن كل هذه الأوراق هَشَّة بسبب طول السنين، والذين كتبوها فعلوا ذلك على أى ورق وجدوه أمامهم، لم تكن لديهم الفرصة للبحث عن وَرَق

يَقدر على مقاومة عوامل الزَّمَن، ولو أننا تركنا مثل هذه الأوراق لكل مُهتَمٍّ بها يُقَلِّب كما يشاء لأصابها التَّلَف، ولما بقى منها شىء يشتريه أحد!».

وافَقتُها، ومن جانبها تَحَمَّسَت، ونادَت مساعِدة لها أسَرَّت إليها بأمر، ثم التفتت إلىَّ تقول:

«طلبتُ لك من الإدارة تفاصيل عن أهم ما يحتويه كل خطاب؟ ـ هل يكفيك ذلك؟»

ورَدَدتُ بأنه «يكفى وزيادة».

□

خطابات «فيلبى» الثمانية عشر إلى رئيسه السير «بيرسى كوكس» تساوى القراءة على وجه اليقين، فهى لمحات كاشفة لجوانب من التاريخ العربى سياسية وإنسانية لها دلالاتها. والسبب أن مُهمَّة «فيلبى» الأساسية كانت «العَمَل على تصفية وجود الخلافة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية بما يُمَهِّد للعَمَل ضِدَّها (ضِدَّ الخلافة) وهزيمتها فى منطقة الشام، باعتقاد أن ذلك مُؤدٍّ إلى سقوطها فى عُقر دارها» (وهو ما حَدَث فعلاً).

ـ وكان تكليف «فيلبى» الأول هو «توجيه عبد العزيز آل سعود لمهاجمة أمير «حايل» الموالى للأتراك حتى تَنكَشِف القوة العثمانية فى «نجد»..»..

ـ ثم العَمَل على «منع عبد العزيز آل سعود من مهاجمة الهاشميين (الشريف حسين وأبنائه) فى «مكة»، لأن هؤلاء الهاشميين الحلفاء لبريطانيا سوف يقودون ثورة العَرَب ضِدَّ الأتراك، مُعتمدين على وَلاءات وتحالفات وصداقات لهم فى الشام تَحمل الثورة ضِدَّ الخلافة إلى قُرب معقلها الداخلى فى تركيا!»

تَوَقَّفتُ قرابة نصف الساعة أقرأ الخطاب الأول لأنه تقرير واف كتبه «فيلبى» بعد إقامة طالت ثلاثة شهور فى معسكر حاكم الرياض والأحساء.

الخطاب فى ٣٢ صفحة ـ بتاريخ ٢ يونيو ١٩١٨ ـ من «وادى الدواسر» ـ مكتوب بالقلم الرصاص، وأول سطر فيه اعتذار عن «أننى كتبتُ بالقلم الرصاص لأنى لم أجد غيره فى بلاد لم تصل إليها بعد أدوات المدنية الحديثة». ثم يستطرد «فيلبى» إلى وصف

تفصيلى لرحلته إلى معسكر «ابن سعود»، والمشاكل التى لاقاها فى طريقه، والمخاطر التى كادت تودى به، وضمنها صراعات القبائل والمشايخ. ثم يصل إلى القول:

«ابن سعود رَجُل يحتاج إلى صداقة بريطانيا وتأييدها حتى يستطيع أن يُساعِد أهدافها ومطالبها، مع العلم أن أول ما يحتاج إليه هو السلاح والمال. والحقيقة أن المال له عنده اعتبار كبير لإيمانه بأن حصوله عليه وعطاياه منه لأنصاره هو المبَرِّر لسياسته أمام هؤلاء الأنصار حتى يقبلوا العَمَل مع الأجانب (الإنجليز) ضِدَّ المسلمين (دولة الخلافة). وهذه مسألة حساسة جداً».

يضيف «فيلبى» بالنص:

«طبقاً للقرآن فلا يَنبَغى أن يكون هناك قتال بين أخيار المسلمين - أى الوهابيين (هكذا يقول «فيلبى») - وبين المسيحيين لأنهم من أهل كتاب، والتسامح معهم تَوجيه من الله. أما قتال المسلمين الأخيار وجِهادهم فلا يكون إلا مع المشركين والكُفار، وأول الكُفَّار والمشركين هم الأتراك العثمانيون - وأيضاً الأشراف الهاشميون - وباختصار كل «المحمديين فيما عدا الوَهَّابيين» !»

ويضيف «فيلبى» عبارة لها رنين (ما تزال أصداؤه سارية حتى الآن):

«ليس من شأننا تصحيح الخطأ فى هذا الموضوع، بل على العكس علينا تعميق كراهية «ابن سعود» لكل المسلِمين من غير الوَهَّابيين، فكلما زادت هذه الكراهية للجميع كلما كان ذلك متوافقاً أكثر مع مصالحنا !»

ويستطرد «فيلبى»:

«قدمتُ لابن سعود مبلغ الخمسة وعشرين ألف جنيه ذهباً التى حملتها معى بتكليف منكم (السير «بيرسى كوكس»)، وأفهمته أنها دُفعة مقدمة لتمويل حملته ضِدَّ «حايل». طلب ابن سعود وألَحَّ للحُصول على «زيادة» لأن مصاريفه كثيرة، والكل يطلب «الذهب»».

□

كنت مُستغرقاً فى القراءة، وفى تسجيل بعض الفقرات، وانتبهت إلى أن السيدة

المسئولة عن القاعة تَحَمَّلَت منى أكثر مما هو جائز. نصف ساعة أمام خطاب واحد، وإذا فعلتُ ذلك مع ١٨ خطاباً إذن فعليها أن تظل هنا حتى صباح اليوم التالى، وهو شىء غير معقول. وَجَّهتُ حديثى إليها مُعتَذِراً، وكانت كريمة فى القبول، وقالت «إنها تفهم أننى شديد الاهتمام».

سألتها عن الثمن المقَدَّر لبيع مجموعة «فيلبى»، وكانت تحفظ الرقم عن ظهر قلب: «ما بين ٨٠ ألفا إلى مائة ألف جنيه إسترلينى».

قلتُ: «أليس ذلك تقديراً مبالغاً فيه؟»

رَدَّت بابتسامة: «بالعكس .. كل توقعاتنا أن المزاد على هذه الخطابات سوف يحقق أكثر. بعضهم جاء إلى هنا من قبل وأبدى اهتماما لا يقل عما أبديتَه أنت».

وقلتُ: «ربما .. فهناك من يهمه الأمر أكثر منى. وربما لأسباب تختلف عن أسبابى».

....

....

[ما زلتُ معجباً بالملك «عبد العزيز آل سعود». أراه حتى فى البداوة رَجُل دولة من طراز مثير للاهتمام. وبرغم السيف والذهب، وبرغم الإنجليز والأمريكان، فإن ذلك البَدَوى استجاب لضرورات العصور. ففى الفضاء الجغرافى والتاريخى لشبه الجزيرة العربية على أيامه، كان ذلك الفضاء فراغاً سياسياً ينادى من يملؤه، وتَقَدَّم الرَّجُل لأداء المهمة، وقد رآها وأمسك بها.

لستُ متأكداً أن لدىَّ إعجابا بأبناء «عبدالعزيز» الأربعة الذين خلفوه على العرش منذ رَحيله قبل نصف قرن.

ومع ذلك فهناك بقية من أبناء «عبدالعزيز» ما زالوا ينتظرون. ومَن يَدرى؟ فربما استطاع أحدهم أن يستجيب لدواعى زمانه ولضرورات العصور].

....

....

تركتُ مجموعة أوراق «فيلبى» فى مكانها، وانتقلت إلى ملف أوراق «كرومر» (من الغريب أننى تذكرتُ «كرومر» قبل النوم من أيام - والآن أمامى بعض أوراقه بخط يده وكما لَمسَها آخر مرة ووَقَّعَ عليها بإمضائه!!)

خمسة خطابات بإمضاء «العميد العتيد» - على وصف «سعد زغلول» له.

ثلاثة منها بخط اليد - وكذلك الإمضاء.

واثنان بالآلة الكاتبة فى بداية اختراعها - ولكن الإمضاء بخط «كرومر».

واحدٌ منها على وَرَق دار المعتَمَد البريطانى فى القاهرة - كله بخط اليد نَصّاً وإمضاء - وهو بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٨٩٦.

والأربعة الباقية بعنوان بيت «كرومر» فى لندن وهو «٣٦ شارع ويمبول».

والخطاب الأول (المكتوب على الوَرَق الرسمى لدار المعتَمَد البريطانى) له أهمية خاصة لأن «كرومر» يُوَجِّهه إلى مهندس الرى البريطانى الشهير «مونكريف»، وفيه يتحدث عن موضوعين: ضرورة العودة إلى السودان بعد الانسحاب البريطانى المصرى منه أمام ثورة «المهدى» و«التعايشى» - ثم أهمية بناء خزان على النيل عند أسوان (خزان أسوان القديم). وفى هذا الخطاب يكتب «كرومر» بخط يده وإمضائه ما نصه:

«القاهــرة

٢٠ نوفمبر ١٨٩٦

عزيزى مونكريــف

حين أرى «ماشيل» فى المرة القادمة سوف أسأله إذا كانت هناك فرصة لابن السير «ألكسندر كريسترفار» (يبدو أن «كرومر» يستجيب لوساطة بطلب وظيفة فى الإدارة البريطانية فى مصر قام بها «مونكريف»).

لقد تأثرتُ بعُمق بملاحظاتك الكريمة. والحقيقة أنه لا يسعدنى أكثر من أن أجد التقدير من هؤلاء الذين خدموا فى مصر، ويعرفون كل الصعوبات التى تكتنف الموقف فيها.

أظن أننى سوف أحرز اختراقات عظيمة هذه السنة بالنسبة للخزان (خزان أسوان).

ففى السنوات الماضية وَضَعتُ أمامى هدفين أريد تحقيقهما قبل أن أترك مكانى هنا لرَجُل أصغر منى سِناً: الأول: أن أرَتِّب للعودة للخرطوم دون أن أتَسَبَّب فى عِبء مالى يؤدى إلى انهيار هنا (فى مصر) - والثانى: أن أتَمِّم هذا العَمَل الكبير على النيل، وكنت أنت الذى بدأتَ فيه بجدية.

المخلص لك دائماً

كرومر»

□

وكانت خطابات «كرومر» فى إطار ما أستطيع أن أدفعه. وقد سعدت حين حصلت عليها تَنضَم لمجموعة أوراقى. لكنى عائد إلى فندق «كلاريدج» ماشياً فى «بوند ستريت» - تذكرتُ أننى لم أشتر ربطات عُنق - وإنما اشتريت مجموعات وَرَق.

٦- البحث عن معاقل الإمبراطورية فى لندن!

« الثلاثاء »:

لم يبق لى فى لندن سوى يومين اثنين قررتُ أن أخصصهما للثقافة، مُتَحَسِّباً أننى بعد غد سأجد نفسى على طائرة تَشُقُّ السُّحُب فوق المحيط إلى الشاطئ الآخر من الأطلسى. وفى الولايات المتحدة بالطبع مَوارد ومَعالم ومَشاهد ثقافية بغير حساب - لكنى فى مجالات الثقافة أشعر بالألفة أكثر فى أوروبا (بصفة عامة).

بدأتُ اليوم بالمتحف البريطانى وسط «بلومسبرى»، وذلك هو حَى المتاحف ودور النشر العريقة بمقدار ما أن «شافتسبرى» هو حَى المسارح ودور العرض فى لندن.

حَى «بلومسبرى» هو المثيل الإنجليزى لـ«الحَى اللاتينى»، لكن قارئ اللغة العربية يعرف عن «الحَى اللاتينى» أكثر من الكفاية، ولا يعرف عن «بلومسبرى»

ما هو ضرورى، والسبب أن معظم أدَباء مرحلة التَعَرُّف على فكر الغرب وأدبه ذهبوا إلى باريس - وكان رفاعة الطهطاوى هو لحظة الانبهار - جاءت بعده لحظة التَعَرُّف، ومعها ذهب كثيرون: من «أحمد لطفى السيد» وحتى «توفيق الحكيم». وأما لندن فقد جاء دورها مُتَأخراً عندما حان الوقت لبعثات العلوم: الطِب، والاقتصاد، والهندسة، والسياسة. حتى حَدَث أخيراً أن أتى زمان مُختلف، وتَحَوَّلَ مقصد الجميع إلى نيويورك وسان فرانسيسكو، وأصبحت باريس ولندن خياراً من الدرجة الثانية مقبولاً إذا لم يكن منه بُد!

والمتحَف البريطانى الشهير أهم مَعالم «بلومسبرى» - هو اليوم مقصدى لمشاهدة معرض «كليوباتره» الذى ما زال الحديث عنه ملء صفحات الجرائد والمجلات، وشاشات التليفزيون كذلك.

□

كلما قصدتُ إلى المتحف البريطانى تذكرت زعيم الثورة الشيوعية الأكبر «لينين» وتذكرتُ حكايته مع زميله فى قيادة الثورة الشيوعية «ليون تروتسكى»!

كان «لينين» - سنة ١٩١٠ - لاجئاً سياسياً يعيش فى لندن خائفاً أن يقبض عليه عُمَلاء «الأوخرانا» (البوليس السرِّى القيصرى) - لكن القيادة الشيوعية فى داخل روسيا بدأت تسىء الظن به وتَتَصَوَّر أنه استمرأ حياة المنفى «مُستَريحاً»، ومُكتفياً بما تبعث به قيادة الداخل إليه من مبالغ مُهَرَّبة بين الحين والآخر - وكذلك فهو لا يتحرك سياسياً بما هو لازم، ولا يُساهم - حتى - بالكتابة فى «أسكرا» وهى النشرة السرِّية التى تُحَرِّض على الثورة فى الداخل.

وفى أوساط الحركة الشيوعية فى الداخل كان هناك نجم صاعد لَفَتَ إليه الأنظار وهو «تروتسكى»، وكانت مقالاته النارية تظهر بانتظام فى «أسكرا»، وكان «لينين» مُعجباً بهذه المقالات من بعيد، ومُقَدِّراً من خلالها (كما كَتَب) لـ: ثورية «تروتسكى» وطاقته الهائلة.

ثم جاء يومٌ قَرَّرَت فيه قيادة الداخل أن تبعث إلى لندن برسول يمثلها «ليطلّ» على نشاط الزعيم الذى يعيش فى المنفى («لينين»)، ويتأكد أن قِلَّة نشاطه ليست تآكلاً فى

ثوريته بفعل «تَرَهُّل أصابه» فى وَطَن البورجوازية الأول. فى ذلك الوقت. وهو بريطانيا. وكان ذلك الرسول المختار «ليطلّ» على «لينين» هو «تروتسكى»!

وعلى نحو ما جرى إخطار «لينين» بأن ينتظر رسولاً قادماً إليه. وبشكل ما فإنه عَرَف أن ذلك الرسول هو نفسه كاتب تلك المقالات النارية «تروتسكى»، وراح «لينين» يَتَحَسَّب ليوم يظهر فيه «تروتسكى» أمام بيته فى حَى «هامبشير». ثم جاء المنتَظَر ودَقَّ جَرَس باب البيت ذات صباح. وفتَحَت زوجة «لينين» «تروبسكايا»، وقبل أن يُقَدِّم لها الطارق نفسه كانت قد تَعَرَّفَت عليه بالوصف.

والتقى الرجُلان أخيراً. «لينين» الذى يعيش فى المنفى، و«تروتسكى» القادم من قلب «المعمَعَة» فى الداخل إلى الغرب لأول مرة. وبعد أن اطمأن «لينين» على أن زائره نامَ وأفطر، اقترح عليه أن يخرج معه إلى جولة فى لندن يَتَعَرَّف فيها على «مَعاقِل الإمبريالية».

كان «لينين» يريد أن يكسب وقتاً تهدأ فيه أعصاب «تروتسكى» فلا ينطق بما عنده دفعة واحدة مكثفة تسبب حَرَجاً!. ومن ناحيته كان «تروتسكى» مُتَشَوِّقاً إلى التَعَرُّف على ذلك العالَم الغريب الذى جاء إليه.

وسأله «لينين»: «من أين تريد أن نبدأ؟»

وقال «تروتسكى»: «من القلعة الأكبر للإمبراطورية»!

وفيما بعد كتَبَ «تروتسكى» يقول إنه تَصَوَّر أن «لينين» سوف يذهب به إلى قصر «باكنجهام» حيث يقيم الملِك («جورج» الخامس وقتها)، أو إلى قيادة القوات الإمبراطورية، أو إلى وزارة المستعمرات فى «هوايتهول». لكن «تروتسكى» فوجئ بأن «لينين» يأخذه إلى المتحف البريطانى.

ويكتُب «تروتسكى» أنه عندما فَرَغ من زيارة المتحف البريطانى فَهِم عبقرية «لينين». «فأى رَجُل غيره كان يمكن أن يأخذنى إلى مراكز الحكم المشهورة ويقول لى: هنا معقل الإمبراطورية. «لينين» أكَّدَ لى عبقريته حين أخذنى إلى المتحف البريطانى لأنه بالفعل المكان الوحيد الذى يمكن فيه أن ترى «الفعل الإمبريالى» فى حالة تَلَبُّس. كنوز مَنهوبة من أرجاء الدنيا الواسعة. كل حجرة «مُنتَزَعة» من بلد. كل

طابق مَخطوف من قارة. المتحف كله على بعضه هو الكنز الإمبراطورى الكبير الذى استولى عليه الاستعمار من كل مكان ذهَبَ إليه. من اليونان القديمة إلى مصر الفرعونية ـ من الهند الإسلامية إلى أطراف الصين ـ من أعماق أفريقيا إلى غابات أمريكا ـ كله هنا دليل حَى على الغلبة والغزو».

وبأثر رجعى فإن أى زائر للمتحف البريطانى يستطيع أن يفهم «لينين» و«تروتسكى»، وربما كان «تروتسكى» قاسياً فيما كتَب، لكن المتحف البريطانى فعلاً هو «معقل الإمبراطورية» ـ مع العلم أن نظرة أكثر تَسامُحاً تستطيع أن تَعتَبره ـ ربما! ـ «مدرسة» الإمبراطورية و«جامعتها». فهُنا روائع كان يمكن أن تضيع فى أوطانها، لكنه أمكن الحفاظ عليها فى مكان آمن تَحكى منه تجربتها وتُعلِّم حِكمتَها!

□

وكانت مشروعات «تونى بلير» لتخليد اللحظة النادرة للألفية الجديدة ـ ثلاثة: القُبَّة وقد فَشلَت ـ والعَجَلة الدَّوَّارة وهى نصف نجاح ـ وتجديد المتحف البريطانى، وظنى أن النجاح هنا كان ضخماً يستحق الإشادة.

فى اللحظة التى دخلتُ فيها من باب المتحف (دخلتُ عشرات المرات من قبل) طالعَتنى رَوعَة التجديد، وهى الصرح الضخم على شكل واجهة دائرية مهيبة تلف محيطها سلالم صاعِدة إلى أعلى. وأرضية المدخل وساحَته والسلالم الصاعِدة كلها من الحَجَر. وبعد الباب مُباشرة نَقشٌ على الأرض بحَفرٍ لا يكاد يَبين لبيت من الشعر كَتَبَه «تنيسون» الشاعر الرومانسى الشامخ، وفيه يقول: «أيها الساعون للحُرِّية الحَقَّة .. تَذكَّروا أن المعرفة هى الطريق الصحيح إلى مُبتَغاكم».

رحتُ أتأمَّل حولى قطعة معمار مَهولة وباهِرة تكاد تذوب من الرقة والجلال فى آن معاً. وكنت أريد أن أتوقف طويلاً وأتأمَّل ما حولى، لكنى آثرتُ أن أتوجَّه مباشرة إلى «كليوباتره» ومَعرضها الذى ذاع صيتُه، حتى أنه أعاد إلى الحياة أسطورتها حَيَّة، وغرامياتها بالتفاصيل ـ!ـ صاخبة، ونهايتها بالانتحار مأساوية.

متحف «كليوباتره» كله قاعة واحدة فسيحة ـ وواجهات العَرض هى الصفوف التى تَصنَع مَمَرَّات القاعة، وهذه الممرات تقود الزائر انسيابيا إلى مواضع الاهتمام.

وبالطبع فإن التركيز الإعلامى كله أصبح على جَمال «كليوباتره»: هل كانت فادحة الجمال كما تروى قصص التاريخ؟ أو كانت قصيرة كئيبة كما يظهر من بعض تماثيلها التى وُجِدَت فى بقايا قصرها الذى كان راقداً تحت سطح البحر فى الميناء الشرقى بالإسكندرية حتى سنوات قليلة. والتماثيل بالفعل تقول أن «كليوباتره» لم تكن على تلك الدرجة من الجمال الأسطورى الذى تتحدث عنه القصَص. لكن التاريخ يذكرنا أن هذه التماثيل ـ معظمها ـ صُنِعَت لـ«كليوباتره» بعد انتحارها، وقد جرى نَحتُها بأثر رجعى لأن «أوكتافيوس» الغازى الغاضب عليها لأنها أغوَت خاله «يوليوس قيصر» ـ ثم خانته مع تلميذه «مارك أنتونى» ـ صَمَّم على الانتقام من الملكة التى آثرَت أن تَحفظ كرامتها وحُرِّيتها بسُمٍّ حَيَّة وَضَعَتها على صَدرها قبل أن يَطالها الانتقام. وقد بَلَغَ الغَضَب بـ«أوكتافيوس» إلى الأمر بتحطيم كل تماثيل آخر ملكات مصر البطلمية (وهى السابعة بينهم)، وكان أن صُنِعَت فى عهده تماثيل ـ شبه كاريكاتورية ـ تُسىء إلى الجمال وتطغى على مفاتنه (ربما).

....

....

[صورة «كليوباتره» فى الذاكرة المعاصرة مقترنة باستمرار بصورة آخر ممثلة قامت بدَورها على الشاشة وهى «إليزابيث تايلور»، وكان ذلك رأى الرئيس «أنور السادات»، فعندما قامت «إليزابيث تايلور» بزيارة مصر ضمن عملية «الترويج للسلام!» أمَرَ الرئيس «السادات» أن تُستَقبَل فى المطار بطابور شرَف من الحَرَس الجُمهورى، وحين التقته مباشرة وحاوَلَت أن تقدم له شكرها كان قوله على طريقته المَسرَحة أحياناً: «يا صاحِبة الجلالة.. ألستِ ملكة مصر؟.. هكذا استقبلناك»!]

....

....

رُحتُ أتَجَوَّل فى ممرات العرض، وأتوقف بين حينٍ وآخر، لكن السياسة كانت شاغلى، ولسوء الحظ فإنها طغت على الفن وعلى التاريخ كليهما.

عَبَرَت فى خواطرى قصة «البطالسة»، وأولهم «بطلَيموس» الكبير، وهو واحد من

قُوَّاد «الإسكندر» الذين قَسَّم بينهم إمبراطوريته كأنما مقادير الشعوب إرثاً لفاتح لم يترك نَسلاً من صُلبه فقرَّرَ تَوريث قُوَّاده (ما دام لم يستطع تَوريث أبنائه)!

«كليوباتره» نفسها («كليوباتره» السابعة)، صنعَت تَحَوُّلاً فى مَقادير مصر ما زالت تَداعياته واصلة إلى الزمَن المعاصر، ذلك أنه بعد تدمير الأسطول المصرى فى معركة «أكتيوم» (شرقى البحر الأبيض قرب «كريت») أمام أسطول روما، فإن القائد الرومانى لهذا الأسطول وهو نفسه العاشق المهزوم «مارك أنتونى»، تَرَك مراكبه تحترق وبَحَّارَته يَغرَقون، وهرَب إلى أحضان عشيقته الملكية («كليوباتره») للقاء أخير ـ ومن ذلك اليوم (يوم «أكتيوم») كَفَّت مصر لسوء الحظ عن أن تُصبح دولة بَحر، وتَحَوَّلَت إلى دولة بَر رغم إطلالها على شاطئين من أهم شواطئ الدنيا القديمة: البحر الأبيض والبحر الأحمر.

لم أبق فى قاعة «كليوباتره» أكثر من ساعة، ذلك أن شخصية «كليوباتره» كانت أهم من كل المعروضات رغم قيمة بعضها فنياً وتاريخياً ـ لكنى سألتُ نفسى لماذا لم يبدأ عرض الأسطورة الغارقة فى الميناء الشرقى للإسكندرية فى تلك المدينة قبل أن تجىء إلى «بلومسبرى»؟!

تَركتُ قاعة «كليوباتره» قاصداً إلى مدخل المكتبة الشهيرة للمتحف البريطانى، وتطلعتُ إلى دائرتها الواسعة، وقُبَّتها الشَهيرة، وأدوارها العامرة بالمعرفة صاعدة إلى أعلى نحو أشعَّة الشمس الواصلة إليها من الدائرة الشفَّافة لوَسَط القُبَّة ـ وبَقيتُ ساكناً أتأمَّل لعِدَّة دقائق كأنما هو مِحرابٌ للنور.

□

مساء نفس اليوم ذهبتُ إلى المسرح الملَكى «درورى لين» أحضر حفل الباليه الأول لفرقة «البولشوى» (المسرح الكبير) الشهيرة فى موسكو. فهذا المسرح العتيد جاء إلى لندن فى عيد ميلاده الخامس والعشرين بعد المائتين وكأنه يريد أن يُعلن على نحوٍ ما أن «روسيا» تُحاول استعادة عافيتها.

وكان بعض الأصدقاء من الروس، وبينهم آخر رئيس للدولة السوفيتية الكُبرى ـ «أندريه جروميكو» ـ يَندَهِشون حين يسمعوننى أقول أن لدىَّ مقياساً لا يخيب فى

حساب أحوال روسيا. ملخص رأيي أنه في مجالات العلوم والاقتصاد والسياسة فإن تَقدير أحوال المجتمعات يحتاج إلى قواعد مُعَقَّدة وإجراءات طويلة. لكن من يهمه قياس أحوال روسيا (بالذات) يستطيع أن ينظر إلى ناحيتين: الوُجود الروسي في بحار العالَم ومُحيطاته، فذلك دَليلٌ على مَدى استطاعة روسيا أن تَخرُج من حِصار الثلج - ذلك من ناحية - ومن الناحية الأخرى راقصات باليه على مُستوى رفيع على مسرح «البولشوى» - فذلك مَعناه استطاعة روسيا أن تُحَلِّق بالفن مُتَحَرِّرةً من أثقال التاريخ السلافي وعُقَدِه!

وعندما تقف على المسرح راقصة من مستوى «إيلينا إيلانوفا» أو «تمارا تومانوفا» أو «مايا بليستسكايا»، فذلك معناه أن هناك حيوية خلق جديد، وطاقة إبداع لا يصنعها غير مجتمع حَي.

وفي رُبع القرن الأخير كان مسرح «البولشوى» رُكناً مُهمَلاً. تَكَوَّمَت أطلال مَجد عفى عليه الزمَن وجار. وبالفعل لم يظهر أستاذ. ولم يخرج عرض. ولم يسطع نجم.

لكن «البولشوى» هذه الأيام تَجَرَّأ واستجمع شجاعته وقَرَّرَ أن يعود للعالم الخارجي، واختار مديره الفني الجديد «بوريس أكيموف» أن يطلَّ بمسرحه على العالم مرة أخرى من نافذة لندن. ولعله أراد أن يثبت قدرته، فوضَعَ برنامجاً للعرض على المسرح الملَكي «دروري لين» يشتمل على مُختارات من أشهَر الباليهات. لم يقتصر على باليه واحد ليقول المتفرِّجون أنه رَكَّزَ عليه وأتقنه، وحفظه حركةً وموسيقى وضَوءاً ولوناً، ثم جاء إلى لندن «يرُصُّه رَصّاً» مثل قوالب مصبوبة بإتقان - وإنما اختار «أكيموف» أن يعرض فن مسرحه تحت إدارته، وبنجومه الجُدُد، بواسطة اختيارات مُتَنَوِّعة وعريضة.

وجلستُ في مَسرح مُكتمل العَدَد تماماً، أتابع مع غيري برنامجاً بادي الإحكام، رفيع المستوى، مُتألِّقٌ بنجومه وكواكبه.

وراوَدَني إحساسٌ بأن روسيا أمامي تُحاول استجماع قواها لتَخرُج من وسط حريق تَرَك رُكامَه ورَمادَه على كل أرجائها. وبدون أن أذهب إلى موسكو فإني من

المسرح الملَكى «درورى لين» ظنَنتُ أننى لَمَحتُ بَوادِر تُومِئ وتُشير إلى تغيير تَظهَر وَمَضاته مع إيقاع وخُطى راقِصات وراقِصى باليه جُدُد مثل «آنا أنتونيتشيفا» و«أناستاسيا جورياتشيفا» و«ديمترى جودانوف».

الفن يَسبق الصَّحوة دائماً، ويُبَشِّر بالقوة عادة.

كذلك ظنى!

....

....

[فى لقاء طويل جرى بعد عَودَتى إلى القاهرة مع رئيس وزراء روسيا السابق «إيفجينى بريماكوف»، فى بيت السفير الروسى على شاطئ النيل، ذكَرتُ مُلاحَظتى عن بَوادر الصحوة فى روسيا، وكان رأيه أنه: «ربما .. لكننا ما زلنا عند البدايات، وأصعب مراحل الطرُق بداياتها!»]

....

....

٧- أزمات هذا الزمان وحروبه!

« الخميس »:

قضيتُ الصباح فى دار «هاربر كولينز» - الناشر الدولى لكتُبى. ما زال الخلافُ بيننا مُعَلَّقاً حول كتابى القادم لهم. فمازال هناك من يَتَحَمَّس لضرورة أن يكون موضوعه هو الموضوع الذى اتفقنا عليه من قبل ثم غَيَّرتُ رأيى فيه وهو «الإسلام السياسى». لقد قضيتُ أكثر من سنة فى الإعداد لهذا الكتاب (وكانت سَنَة دراسة مُفيدة بالنسبة لى)، لكنى بعد هذه المدَّة الطويلة وَجَدتُ أن غيرى قد يستطيع أن يَقوم على هذا الموضوع خيراً منى.

عندما بدأتُ العَمَل فى هذا الكتاب كان هناك ظن شاعَ فى الغرب بأن «الإسلام

السياسى» هو شكل المستقبل فى المنطقة. ولم يكن لدىَّ رأى قاطع فى الموضوع، ولذلك قبلتُ أن أوَقِّع عَقداً. وفى منتصف الطريق أصبحتُ على اقتناع كامل بأن «الإسلام السياسى» ليس شكل المستقبل فى المنطقة. وكان فى عَزمى هذه الزيارة أن أجَرِّب إقناع «إيدى بل» رئيس مجلس إدارة «هاربر كولينز» بوجهة نظرى، لكنى وَجَدتُ مكتب «إيدى بل» شاغراً لأن صاحبه، ذلك الإسكتلندى القدير الذى يمضُغ سيجاره طول الوقت، ويَلمَح الكتُب وهى بَعد أفكاراً طائرة فى الهواء و«يَلقطها» بأصابعه - لم يَعُد هناك، فقد قَرَّرَ برغبته أن يعتزل ويبحث لنفسه عن عَمَل جديد فى سِن السبعين. وهكذا كانت مُؤسَّسة «هاربر كولينز» تَعيش فترة انتقالية من عصر «إيدى بل» الذى استمر ١٨ سنة - إلى عصر آخر سوف تَتَوَلاه فيما يظهر مديرة فرع نيويورك، وهى أمريكية قيل أن «إيدى» اختارها بنفسه لتَحِل محله.

مَرَرتُ بثلاثة أو أربعة مكاتب لأصدقاء قدامى من المحررين الرئيسيين. تحدثوا معى جميعاً، وأكَّدَت قوائم النشر الجديد حديثهم - بأن «الكتاب السياسى» يعود مرة أخرى إلى الصدارة. ففى السنوات الخمس الأخيرة كانت الأعمال الروائية صاحبة الغلبة بكل تأكيد، لكن هناك الآن تَحَوُّلاً يُحاول الجميع دراسة أسبابه. فخلال السنوات الخمس الماضية كان القارئ الإنجليزى - والأوروبى بصفة عامة - يَتَجَنَّب «الكتاب السياسى». والآن حَدَث تَغَيُّر واضح. وأمسَكَ «لوى بريدجن» قائمة المنشورات الجديدة يقرأ لى ويُكرِّر ويعد موضوعات الكتب الأكثر مبيعاً حتى الآن: «إنديرا غاندى: قصة حياتها» - «آلان بروك: مذكراته الأصلية» - «هيروهيتو: صُنع اليابان الجديدة» - وهكذا وهكذا..

حاوَلَ «لوى» أن يُعيدنى إلى مشروع كتاب «الإسلام السياسى» فقال: «ألا تظن أن هناك مليون قارئ يريدون أن يعرفوا كل شىء عن «أسامة بن لادن»؟» - وقلتُ: «ربما، لكنى أفَضِّل أن يعرفوه من غيرى».

اتفقنا على أن نواصِل المناقشة بعد عودتى من الولايات المتحدة.

□

ذهبتُ إلى سينما «أوديون» (قرب رُكن «هايد بارك») أشاهد فيلماً جديداً عن

سـيناريو للكاتب الشـهـيـر «لو كـاريه»، وهـو الذى تَخَـصَّصَ فى كـتـابة قـصَص الجـاسـوسـيـة عن زمَـن الـحـرب البـاردة، وتَحَوَّل الكثيـر من تلك القصَص إلى أفـلام سينما ناجحة .. لافتة فى نجاحها .

بعد انتهاء الحرب الباردة كَتَبَ «لو كاريه» ثلاث أو أربع روايات تَحَوَّلَت إلى أفلام لكنها لم تَنجَح. وكـان رأى النُقَّـاد أن «لو كـاريه» أضـاعَ مَـوهبـتـه مع نـهـاية الـحـرب الباردة، وأنه كان فى الواقع سـلاحاً من أسلحتها، فلما انتهت تَعَطَّل سـلاحه ـ أى فَقَدَ مَوهِبَته.

فى هذا الفيلم الذى رأيته اليوم أحسَستُ أن «لو كاريه» يَرُدُّ على ناقديه. ذلك أن سـيناريو الفـيلم واسـمـه «خَيَّـاط بناما» يَحكى قِصَّة أزمـة دولية تَـحَوَّلَت إلى حَرب خاطفة شَنَّتها الولايات المتحدة على إحدى جاراتها فى أمريكا الوسطى لأن «ترزياً» خَطَرَ له أن يجتَذِب عَميلاً أنيقاً (لم يكن يعرف أنه جاسوس) عن طريق اختراع حِكايات لا أصـل لهـا فى الـحقيـقـة عن رئيس لبناما يسـتعد للاسـتيلاء على قناتها المشـهـورة وحِرمان أمريكا من ميزاتها الإستراتيجية. وصَدَّقَ الجاسوس الأمريكى. وصَدَّقَت الـحكومة الأمـريكية: من البيت الأبيض إلى رئاسة أركان الـحـرب المشتركة إلى وكالة المخـابرات المركزية الأمـريكيـة ـ وكـان أن اتخـذ الرئيس الأمـريكى قـراراً بالـغـزو دون انتظار، وبعد إتمام الغَزو تَكَشَّفَ السرُّ الحقيقى الذى أدَّى إليه !

لعل «لو كاريه» وهو يُواجِه نُقَّاده أراد أن يقول لهم أنه بعد انتهاء الحرب الباردة لم تَعُد هنـاك أسـرار خطيرة تُؤدِّى إلى أزمـات دولية ـ لكنهـا الآن أكـاذيب صـغيـرة تُشـعِل نيران الحـروب.

□

السَّـهـرة فى مَـسـرَح «ليـريـك» مع رواية لـ«نويل كـاورد» أشـهـَر كُـتَّـاب الـروايـة الإنجليزية بعد «برنارد شـو» طوال القرن العشرين، والرواية عنوانها «نصف دُنيـا». وعلى نَحو مـا أحـسـستُ طوال مُشـاهَدَتى لفصـولها الثـلاثة أنها مَوصـولة بفيلم «لو كـاريه». مَسـرَحـية «نصف دُنيـا» تَجرى فى باريس منتـصف الثـلاثينـات من القـرن العـشـرين، وبالتـحديد فى فتـرة مـا بين الحـرب العالمية الأولى التى انتـهت (١٩١٨)،

ومَرَّت بالأزمة الاقتصادية الخانقة سنة ١٩٢٩ ـ وبين نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، وما صاحَبَها من انفجار القنبلة الذرِّية التى أنهَت الحرب وأنهَت عصر الحروب العالمية ـ على الأقل حتى هذه اللحظة.

فى فترة الرواية فى الثلاثينات يبدو مُجتَمَع باريس فى حالة انتظار ـ خَرَجَ من كارثة ويَشعُر أنه داخل إلى كارثة أكبر، وتلك الحالة ما بين كارثتين عالميتين: أولاهما وَقَعَت، والثانية مُتَوَقَّعة ـ تُحدث تأثيراتها على الطبَقة «البورجوازية» فى باريس وفرنسا وأوروبا، فإذا هذه الطبَقة تعيش يومها إلى آخره وتأخذ من مُتَع الحياة مُنتَهاها، وتَتَصَرَّف وكأن كل الرواسى الممسكة بالمجتمعات من الدين، والأخلاق، والتقاليد، وحتى القوانين ـ أعباء يَصح أن يَتَخَفَّف منها البَشر، ويَتَحَرَّروا، ويعيشوا كما يحلو لهم اليوم والليلة، وأما الغد وما بعده ففى الإمكان مواجَهة مَشاكلهما عندما تجىء إذا جاءت، وحلها إذا كانت قابلة للحَل فى وَقتها. أما الآن فهو يومٌ قد لا يَتَكَرَّر وليلةٌ قد لا تَعود.

كذلك كانت أحوال العالَم مُوَزَّعة بين رؤية كاتبين:

واحد على الشاشة يرى أن نصف العالَم يَكذب على نفسه هَرَباً من الواقع..

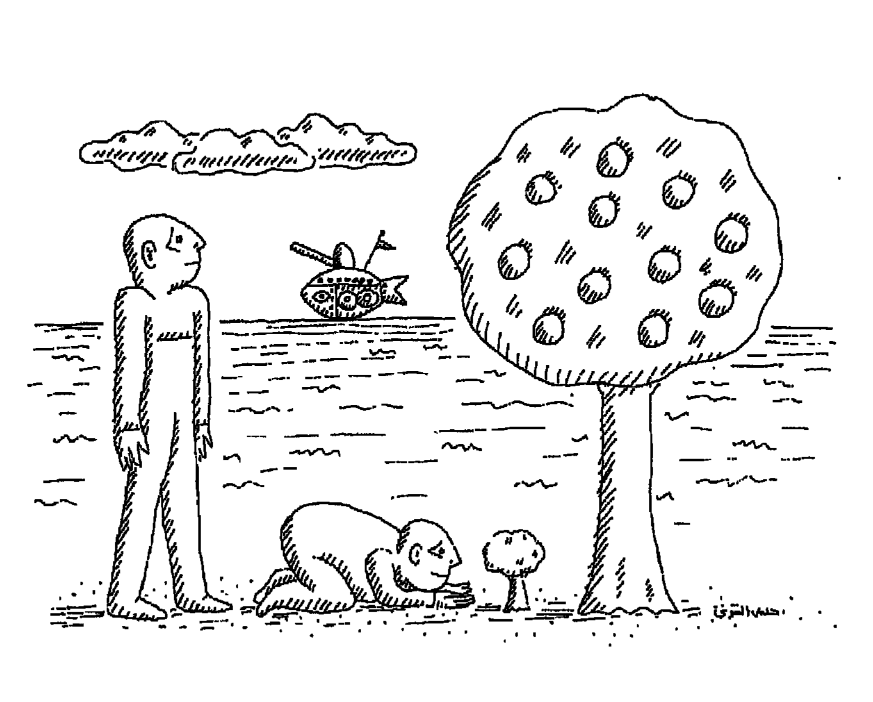
وواحد على المسرح يرى أن نصفه الآخر يَلهو غافِلاً بالعَمدِ هَرَباً من الحقيقة.

....

....

بدا لى الاثنان ـ الشاشة والمسرَح ـ بَعيدَين عن دُنيا جديدة تَطرَح على التاريخ حياة تملك طاقات لم يَستَطع الأدَب والفن بَعد أن يَغوصا فى أعماقها لاستجلاء دَلالاتها واحتمالاتها. بدا لى أن الخيال العلمى عادة «يَسبق» بالتَصَوُّر والتَجريب ـ وأما الخيال الأدَبى والفنى فدَوره أن «يلحق» بالشرح والتحليل ـ لكن السؤال: هل نحن بالفعل أمام دُنيا جديدة؟ ـ وإذا كنا بالفعل أمام دُنيا جديدة، فالأسئلة القديمة كلها لاتزال واردة: متى؟ وكيف؟ ومَن؟ وأين؟ .. إلى آخره.

لم أجِد جَواباً فى العالم القديم (أوروبا) ـ وغداً سَفَرى عبر المحيط غرباً ـ فهل لدى العالَم الجديد (أمريكا) جواب؟ ـ لا أعرف؟!



السياسة بين الحلم والإرادة!

كان هذا الحديث مكتوبا فى الأصل لعدد أكتوبر ٢٠٠١ من «وجهات نظر» وعندما وقع ما وقع فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الأخير، واندلع الحريق فى «أمريكا والعالم» ـ وجدت مناسبا أن أقف مع الواقفين على ناصية دنيا تتغير أحوالها تحت بصر أهلها جميعا من خلال صور ومشاهد لا يستغرق زمنها أكثر من ثوان ـ لكنها تستولى على الحس والعقل والخيال.

وظننت أن ذلك الحديث الذى كتبته قبل ١١ سبتمبر فات أوانه بانتمائه إلى عصر ما قبل الحريق، وألقيت نظرة أخرى عليه قبل أن أودعه سجل المحفوظات، ثم خطر لى ـ والصفحات مازالت أمامى ـ أن موضوعه مازال موصولا بما هو جار من الأحداث خصوصا مع كلام يتردد عن «تعاون» أو «ائتلاف» أو «تحالف» يدخل فيه العرب مع الولايات المتحدة فى حرب يسمونها: «الحرب الأولى فى القرن الواحد والعشرين».

ومر بخاطرى أن السياسة العربية المعاصرة قد يفيدها أن تقرأ ـ إذا كان يهمها ـ تجربة عن فكر وفلسفة وشروط «التعاون» أو «الائتلاف» أو «التحالف» بين أطراف تتفاوت بينها عوامل القوة والضعف بما يميل بالموازين «نظريا» إلى ناحية الأقوياء ـ إلا إذا أدرك الضعفاء أن ما هو «نظرى» له جانب آخر «عملى»!

ذلك أنه عندما يحتاج القوى إلى الضعيف فى درجة من درجات «التعاون» أو «الائتلاف» أو «التحالف» ـ فمعنى ذلك أن القوى يستشعر «الحاجة» إلى الضعيف، لأن ذلك الضعيف يملك شيئا مرغوبا فيه ومطلوبا، وفى الغالب فإن هذا المرغوب فيه والمطلوب يكون من الموارد المعنوية أو الأخلاقية أو القانونية يراد لها أن تضفى صفة المشروعية على نوايا الأقوياء وخططهم وأفعالهم، وذلك هو المبرر المنطقى الذى يخلق لدى الأقوياء حاجتهم إلى الضعفاء!

أى أن «حاجة» الأقوياء إلى الضعفاء قادرة على تعويض النقص فى القوة

وتحقيق قدر من المساواة بين الأطراف، بمعنى أنه إذا كانت القوة المادية تصب فى حساب طرف، فإن القوة «المعنوية» و«الأخلاقية» و«القانونية» تضيف إلى أرصدة الطرف الآخر، وبالتالى فإن ذلك التعويض يصنع تكافؤا سياسيا يحفظ العلاقة بين الطرفين أن تتحول إلى تبعية (وربما عبودية!).

لكن هذه العملية ـ تعويض المادى بالمعنوى ـ لا تحدث تلقائيا وإنما هى تحتاج إلى فهم للحقائق بدقة، وإلى استعمال للإرادة بحساب لأنها عملية شديدة التعقيد.

□

وعندما مالت بى الظنون إلى إمكانية نشر هذا الحديث فقد آثرت أن أتركه على حاله كما كتبته باعتقاد أن كل حديث وحدة كاملة متوازنة فى الموضوع والمناخ والتأثير. وبرغم إحساسى أن الواقع الراهن بعيد عن كلام البحر والموج والرمل ـ فقد تصورت أننى خلال الشهور الأخيرة وفيما كتبته فى هذه المجلة وقفت طويلا أمام مقدمات الواقع الراهن وعرضت مبكرا لاحتمالاته، وكذلك جازفت ـ وأملى ألا أكون أخطأت ـ وشردت قريبا أو بعيدا.

هـ

١ ـ عن البحر والحرب والزمان الجديد:

فى الطريق إلى الساحل الشمالى لإجازة صيف على شاطئ البحر، صحبت معى عدة كتب. وإجازات الصيف عادة فرصة حرة للقراءة. والقراءة فى هذه الأوقات متأنية، لأنها ليست محصورة ولا محاصرة، وكذلك فهى فسحة مفتوحة للتأمل والتحليق فى سماء عريضة، بشراع عال، على موج وريح كلاهما يحمل الشاطئ ومن فيه إلى سفر بغير قيد نحو أفق بغير حد.

وكان «صحابى» من الكتب هذا الصيف مجموعة من منشورات ربيع سنة ٢٠٠١، ومعظمها مما أستبقيه عادة لقراءات الصيف المسترخية. وبالطبع، فإن أول هذا النوع من الكتب هو «السِّير» كتبها أصحابها بأنفسهم (سيرة ذاتية)، أو كتبها آخرون غير أصحابها بعد أن تقابلوا مع قصص (حياة) تستحق التسجيل لرجال ونساء تركوا فى الدنيا ذكرا وأثرا.

بعد كتب السِّير ـ ذاتية وغير ذاتية ـ أحمل معى فى العادة ضمن قراءات الصيف أعمالا فى التاريخ والسياسة والحرب، فتلك ـ إلى جانب أسباب المهنة ـ هواية مبهورة دائما بحكاية الصراع الإنسانى ودخائلها.

ثم يجىء بعد ذلك نوع ثالث من الكتب يتصل بالفلسفة والفكر. وعادة ما تكون الكتب من هذا النوع آخر قراءات الصيف فى دورها، وعادة ما ينتهى الموسم بتأجيل قراءتها ـ مع غيرها ـ إلى فصل الشتاء حيث تصح قراءتها أكثر داخل جدران غرفة، وأمام مكتب، وفى اليد قلم بالقرب منه ورق، وتلك حوافظ تمكن من التركيز فلا تشرد نظرة أو خاطر وراء شعاع شمس أو حبة رمل أو طائر نورس ينزلق بجناحيه مع الريح!

وكان «صحابى» من الكتب هذا الصيف عشرة:

ـ «صنع اليابان الحديثة» لـ: «هربرت بيكس».

- «حياة أنديرا غاندى» لـ: «كاترين فرانك».

- «بيت الأسرار» (عن وكالة الأمن القومى الأمريكى) لـ«جيمس بامفورد».

- «شخصية الملكة فيكتوريا» لـ: «كريستوفر هيبرت».

- «صليب الفارس» (عن الماريشال الألمانى إروين روميل) لـ: «دافيد فريزر».

- «يوميات الحرب الكاملة» لـ: «الماريشال آلان بروك».

- «فرنسا سنوات الظلام (١٩٤٠ ـ ١٩٤٤)» لـ: «جوليان جاكسون».

- «تكوين العقل الحديث» لـ: «بيتر واطسون».

- «الطلسم» (السباق إلى حل الشفرات السرية للدول الكبرى) لـ: «سيباج مونتفيورى».

- «ميزان القوى العسكرية فى الشرق الأوسط ٢٠٠١» لـ: «أنتونى كوردسمان».

....

....

فى الصباح الباكر من أول يوم على الساحل، مشيت فوق الرمل نصف ساعة، ثم سبحت وسط الموج نصف ساعة أخرى، ثم ذهبت أجىء بواحد من «صحابى» أقضى معه بقية الصباح حتى الظهر إذا لم يطرأ ما يلفت أو يشغل!

وألقيت نظرة عابرة على كتبى العشرة وقد اتخذت مكانا منفردا وسط رفوف كتب سبقتها إلى الساحل وبقيت هناك، لأن عودتها إلى القاهرة لم تكن ضرورية. وبدا لى أن تلك النظرة العابرة على صف الكتب تريد أن تستوثق أن ما جئت به من «صحابى» كان اختيارا معقولا لم تفرضه عجلة السفر.

بدت لى قائمة «صحابى» من الكتب مقبولة، وإن لاحظت أننى مازلت مفتونا بالحرب العالمية الثانية؛ فأربعة ضمن عشرة كتب ـ جئت بها معى ـ كانت عن تلك الحرب أو متصلة بوقائعها، ولم أجد فى ذلك ما أستغربه، بل وجدته بالنسبة لى طبيعيا ومنطقيا، لأسباب يطول شرحها وإن حاولت الإجمال والاختصار:

□ إن تلك الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) كانت آخر مواقع الصراع الكبرى

على مسرح التاريخ الإنسانى. كانت بالفعل آخر حرب إنسانية: بشر أمام بشر، وجيوش أمام جيوش، وسلاح يستعمله رجال أمام سلاح يستعمله رجال، ومواقع القتال ظاهرة، فيها نار ودم ولحم وعظم، وأهم من ذلك كله عواطف ومشاعر وغرائز وهواجس حية ويقظى ومؤثرة.

فى حروب السلاح فيما بعد شحبت صورة البشر، بل ولم تعد للقتال ميادين ولا ساحات ولا مواقع، فإمكانية الحرب النووية حياة تتحول فى لمحة بصر إلى رماد، وإمكانية الحرب الإلكترونية صور أمام المشاهد تلهيه، وإمكانية الحرب الكيماوية أو البيولوجية موت مهين لا شجاعة أو بطولة، ولا شهيد أو نشيد!

□ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت مختبرا هائلا لكل العلوم الحديثة، من الفضاء والذرة إلى الطبيعة والكيمياء إلى المعلومات والذكاء الصناعى إلى التخطيط والتنظيم والإدارة والمتابعة. والحروب باستمرار هى أكبر دافع لاختراقات العلم فى كل المجالات. ففى غمار مخاطرها تتحفز العقول، وتنفتح الخزائن، وتنطلق روح المغامرة خارجة عن المألوف والمعروف باحثة عن مكامن التقدم حيث تكون.

وكانت اختراقات العلم التى جرت فى الحرب العالمية الثانية وتحت إلحاح ضروراتها هى التى فتحت الأبواب لثورة اجتماعية غير مسبوقة فى التاريخ الإنسانى، أتاحت السلع والخدمات من كل الأنواع وكل المستويات لمن يطلبها. ثم إنها أحدثت نقلة تشبه الخيال فى مجال تلاقى الناس والثقافات والفنون، وكان مثل ذلك التلاقى من قبل ضروبا من أوهام الخيال. والحقيقة أنه خلال نيران تلك الحرب العالمية الثانية جرى صهر وسبك العالم كما نعرفه الآن ماشيا من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين، وهى رحلة وصلت من سطح الأرض إلى سطح النجوم.

□ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت البيئة التى ظهرت فيها القوى الغالبة فى هذا العصر لأنها القادرة عليه. كان ذلك العصر هو الذى صنع تلك القوى، وقد حاولت بما اكتسبته أن تصنع العصر كما صنعها.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة التى انتصرت فى تلك الحرب، وكان شريكها الأكبر فى تحقيق النصر هو الاتحاد السوفيتى، لكن وسيلة النصر لدى كل منهما حددت وحسمت أيهما يملك الزمان الجديد أو على الأقل يسيطر عليه.

فالاتحاد السوفيتى حقق نصيبه فى النصر بعطاء من الدم غزير (كان ضحايا الحرب العالمية الثانية فى كل ميادينها ٦٨ مليون إنسان - لكنه كان بينهم ٢٥ مليونا من السوفييت - أى أكثر من ثلث شلال الدم.

وأما الولايات المتحدة فقد حققت نصيبها من النصر بعطاء مختلف: وفرة فى الموارد مهولة، ومعها ثروة طائلة تستطيع أن تمنح وهى أيضا تستطيع أن تستحوذ وتلك طبيعة الأشياء. وهكذا فإن وفرة الموارد ومعها الثروة الهائلة لم تأخذ فقط كل منجزات العلم، لكنها أخذت أيضا كل غنائم النصر.

وكانت النتيجة فى نهاية الحرب الباردة أن الذى أعطى الروح والدم أخذ بعدهما الشعر، وأن الذى أعطى الموارد والثروة أخذ بعدهما القوة ووجد فيها ما يغنيه عن القصائد والعقائد!

وتلك هى الحقيقة العارية فى شأن هذه الحقبة من التاريخ الإنسانى التى نعيشها الآن، وذلك هو واقعها الراهن بصرف النظر عن معانٍ وقيم وحقوق تطالب للحياة بكرامتها، بعيدا عن أوهام البطولة والشعر والقصائد، وبعيدا عن هيمنة القوة وغرورها وجنونها فى بعض الأحيان!

□ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت نوعا من العودة إلى مجرى التاريخ الإنسانى بالنسبة لشعوب وأمم وأوطان ودول فيما أصبح يسمى بالعالم الثالث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. والشاهد أن مجرى التاريخ تلازم مع مجرى الحضارة كأنهما صفان من العجلات على شريط للسكة الحديد، وكذلك تذهب مراكز الحضارة إلى حيث تذهب مراحل التاريخ. أى أنه حين تغيب شمس الحضارة تنام حركة التاريخ.

وكان هدير مدافع الحرب العالمية الثانية هو الصوت الذى وصلت أصداؤه إلى العالم الثالث وأيقظته. ثم إن الذين لم يوقظهم الصدى هزتهم حركة الجيوش المتحاربة فوق أرض أوطانهم أو بالقرب منها، وقد هبوا ليجدوا النار من حولهم وكان عليهم أن يهموا بسرعة. وذلك بالضبط ما حدث لشعوب الأمة العربية التى راحت تفتش وسط الحرب العالمية الثانية - وفى أعقابها - وما زالت تفتش لنفسها عن شكل يناسبها وهيئة تشارك بها فى مجرى التاريخ ومجرى الحضارة معا.

□ ونتيجة لذلك، وتواصلا طبيعيا معه، فإن تلك الحرب العالمية الثانية أصبحت بالنسبة لذلك الجيل الذى أنتسب إليه بداية للوعى بالعالم والتنبه للعصر. فقد كانت أجواء تلك الحرب - قرب ميادين القتال أو بعيداعنها - صراع معارف وثقافات وخبرات ألهمت ووجّهت وحرّكت وفتّحت، على حد تعبير أشهر مؤرخى القرن العشرين، وهو «أرنولد توينبى»: «مائة عام من المستقبل على الأقل».

ويظهر الآن بعد أكثر من نصف قرن من سكوت مدافع تلك الحرب العالمية الثانية أن نبوءة «توينبى» صحيحة، وأكثر من ذلك، فإن أعقاب تلك الحرب كانت بالنسبة لى - شخصيا - بداية طريق. ذلك أنه حين شاءت لى الظروف والحظوظ أن أبدأ رحلة الحياة، كان الأفق الذى سرت نحوه هو وهج تلك الحرب. ثم كان أن دواعى المهنة وضعتنى - حتى بعد أن شحب الوهج - وسط عواقب تلك الحرب وتداعياتها وتوابعها مما لا يزال يجرى حتى الآن وإلى أى مدى يمكن استشرافه من هنا!

□

لم يكن غريبا إذن - وتلك خواطرى - أن تمتد أصابعى لتدعو واحدا من «الصحاب» معى إلى شاطئ البحر، ثم يكون هذا «الصاحب» الأول - من بين العشرة - هو كتاب: «فرنسا (١٩٤٠ - ١٩٤٤): سنوات الظلام» ومؤلفه هو «جوليان جاكسون»، أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة «ويلز» البريطانية، وتخصصه هو التاريخ الفرنسى الحديث، وله فيه خمسة مؤلفات كل منها مرجع لا يستغنى عنه فى موضوعه!

و«سنوات الظلام» التى قصدها الأستاذ «جوليان جاكسون» بعنوان كتابه هى تلك السنوات التى عاشتها فرنسا تحت الاحتلال الألمانى من ساعة دخلتها قوات الاحتلال فى يونية سنة ١٩٤٠، إلى ساعة تحررت باريس فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعاصفة من قوات الحلفاء نزلت على شواطئ «نورماندى» تحت قيادة «أيزنهاور»، وشقت طريقها إلى المدينة التى اعتبرها العالم - قبل الحرب العالمية الثانية - عاصمة للنور!

وقصدت بالكتاب إلى مقعدى فوق الرمل وقرب حافة الماء وعلى مسمع من صوت حكايا الموج للشاطئ. وفتحت كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» واجتزت عدة صفحات من الكتاب فيها المقدمة والفهرس والخرائط، ثم توقفت.

راودنى على نحو ما شعور بأن ما أقرؤه ليس غريبا عنى. ربما قرأت شيئا مشابها له من قبل لكن شعورى كان أننى عشت ما فيه على نحو ما وعرفته بتجربة الحياة وليس بمعرفة المطالعة مما سبق!

ساءلت نفسى: كيف؟ ولم أجد سببا قاطعا، لكنى كنت على شبه يقين بأن ما أقرؤه الآن، عشته، رأيته وسمعته وتفاعلت وانفعلت مع مشاهده وحواراته وأجوائه وأحاسيسه.

طرأ على بالى - ونظرى يمتد إلى مدى البصر حيث لقاء البحر والأفق - أنه تأثير البحر الأبيض وذلك التواصل بين شمال هذا البحر (جنوب أوربا وفيه فرنسا) وبين جنوبه وشرقه (المشرق العربى وفيه مصر).

وعاد إلى ذاكرتى وصف سمعته يوما من «كوف دى مورفيل» - وكان وزير الخارجية المستديم للجنرال «ديجول» ورئيس وزرائه أواخر عهده - وفى ذلك الوصف كان «دى مورفيل» يرسم صورة حية لحوار التاريخ والحضارة والسياسة حول البحر الأبيض.

وبشكل عام كان «دى مورفيل» يقول: «إن الناس يتصورون أحيانا أن البحر الأبيض عازل لكنى أتصوره واصلا، بمعنى أنه ليس فضاءً خاليا وإنما هو أشبه ما يكون بسطح مائدة أحاطت بها مقاعد تجلس عليها ثقافات متنوعة تمثل حصة الأغلبية فى شراكة الحضارة العالمية».

ويمضى «كوف دى مورفيل» إلى أبعد ويقول: «البحر الأبيض مائدة مستطيلة حولها من الشمال و الجنوب ومن الشرق والغرب مواقع ظهرت واستقرت عليها ثقافات المصريين والآشوريين واليونان والرومان واللاتين والعرب من دمشق حتى قرطبة».

ويستطرد «كوف دى مورفيل»: «من مواقعنا حول البحر الأبيض تحاورنا، ومن هذه المواقع تأثر كل منا بالآخر، مع ملاحظة أن البحر الأبيض مستطيل شبه مغلق، يبدأ المسافر من أى بقعة فيه ويمشى على شاطئه فيجد نفسه حيث بدأ دورة كاملة».

ومع أن بين الشعوب فوارق فى مراحل التطور، ومع أن الظروف تتفاوت بين

شمال وجنوب وشرق وغرب. إلا أن هناك سمات مشتركة لأن البحر الأبيض بالفعل دائرة واحدة متصلة: سماء صافية وشمس طالعة ومناخ معتدل، وكل ذلك يغرى بالحياة وبالفكر وبالذوق وبالأدب، وبالفن وحتى بالأكل. وكل ذلك حى على شواطئ البحر الأبيض متداخل ومتفاعل، مما يجعل لكل موقع فيه نسمة وعطرا ولونا لا تخطئه الحواس.

....

....

[والمدهش أن محيط البحر الأبيض كله حزام من شجرتين اثنتين: واحدة مثمرة هى شجرة الزيتون الوقورة، والثانية مزهرة هى شجرة «البوجينفيليا» اللعوب (التى يسميها المصريون «الجهنمية» بسبب لونها الشائع (أحمر متوهج) وهو ظلم لأن أوراق هذه الشجرة فى الواقع عيد من الألوان).

وكان فيلسوف الألمان الأكبر «هيجل» هو أول من قرأت له تعبير «إن التاريخ ظل الإنسان على الجغرافيا»، وربما إنه على نفس المنوال يمكن القول: «إن خصوصية أى شعب بصمة الطبيعة على طبعه».

وهنا فإنه إذا كان البحر الأبيض «طبيعة» فهو فى الوقت نفسه «طبع»، وكذلك فإنه يمكن لما حدث ذات يوم فى فرنسا أن يتشابه على نحو ما مع أيام فى العالم العربى مع الاعتراف بمساحات للاختلاف هى من قوانين الحياة.]

....

....

وقفت مع الصفحات الأولى لكتاب «سنوات الظلام» ثم ذهبت معه مرتحلا فوق موج البحر، وعبر مساحة الزمن!

٢ ـ سنوات الظلام: بدايتها ونهايتها؟!

يبدأ كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» بمشهد يحترم «المعنى» دون أن يتوقف كثيرا أمام «الشكل»!

والمشهد اجتماع لهيئة الوزارة الفرنسية المؤقتة التى دخلت باريس بعد تحريرها من قبضة الاحتلال الألمانى، والاجتماع برئاسة قائد «فرنسا الحرة» الجنرال «شارل ديجول».

كان جو باريس حارا فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٤، وكذلك قلقا لأن المعارك ما تزال دائرة على ساحات من الأرض الفرنسية، وكان الموضوع المطروح على هيئة الوزارة المؤقتة، وبأحكام الواقع، محفوفا بتعقيدات شائكة ومعبأ بمشكلات صعبة، لأن جدول أعمال الاجتماع حوى بندا واحدا تقدم به الجنرال «ديجول» ملخصه: «ضرورة صدور إعلان رسمى بأن كافة التشريعات والتنظيمات التى أقرت أو وضعت طوال السنوات الأربع التى تولت المسئولية فيها تلك الحكومة التى رأسها الماريشال «بيتان» بعد استسلام فرنسا ودخول الجيش الألمانى إلى باريس - كلها ملغاة ومعدومة الأثر null and void».

وكان ذلك إجراءً كاسحا. ذلك، أن الماريشال «بيتان» كان قد وقع اتفاقية صلح مع ألمانيا سمحت باحتلال نصف فرنسا - وفيها باريس - وسمحت فى الوقت نفسه ببقاء نصف فرنسا الآخر بغير احتلال تتولى أموره حكومة فرنسية برئاسته «بيتان» تباشر سلطتها من مدينة «فيشى» (جنوب غربى فرنسا). وهذه الحكومة قامت خلال سنوات ولايتها الأربع بإعادة بناء دستورى وقانونى وإدارى واسع قيل فى تبريره إنه «الاستفادة من درس الهزيمة التى منيت بها فرنسا من جانب ألمانيا».

وكانت عملية إعادة البناء الدستورى والقانونى والإدارى استيعاباً للدرس - كما قيل فى تبريرها - قد طالت كل مرافق الحياة فى فرنسا، لكن «ديجول» جاء الآن فى لحظة التحرير ليسقط هذا البناء كله.

كان منطق «ديجول» أن حكومة «فيشى» ورئيسها الماريشال «بيتان» (وهو أبرز أبطال فرنسا فى الحرب العالمية الأولى) لم تكن حكومة شرعية لأنها رضيت أن تتعامل مع الاحتلال وتتفاوض تحت ظل مدافعه.

وافقت هيئة الوزارة المؤقتة بالإجماع على مطلب «ديجول»، مع أن كل أعضائها كانوا يعرفون ويقدرون حجم التعقيدات والمشكلات التى سوف تطرأ فور صدور هذا الإعلان.

وبرغم ذلك فإن كل أعضاء الوزارة كانوا فى الوقت نفسه يدركون أهمية تلك اللحظة الفارقة فى «المعنى» على مسار التاريخ الفرنسى.

وفى أثناء المناقشة، اقترح أحد الوزراء: «أن يعلن قائد فرنسا الحرة عودة الجمهورية الفرنسية».

ورد «ديجول»: «إن الجمهورية الفرنسية لم تغب عن الوجود قط، حتى وإن كان بعض الأفراد قد انتحلوا سلطتها واستعملوها فى توقيع ورقة بإملاء السلاح».

وتساءل وزير آخر: «عما إذا كان مناسبا إسقاط فترة الاستسلام (السنوات الأربع ما بين يونية ١٩٤٠ إلى أغسطس ١٩٤٤) من تاريخ فرنسا باعتبارها زمنا خارج الشرعية».

ومرة ثانية رفض «ديجول»، ورأيه «أن الشرعية الفرنسية تلك السنوات تمثلت فى المقاومة (حركة فرنسا الحرة) بصرف النظر عن وجود حكومة على بقعة من أرض فرنسا فى فيشى». وتقديره أن «الشرعية» أساسها «الإرادة الوطنية»، وفى غياب الإرادة الوطنية فليست هناك شرعية وخصوصا أن تلك الحكومة فى «فيشى» وقّعت «ورقة» الاستسلام دون معرفة رأى فرنسا ودون سندٍ من إرادة شعبها.

وكان قرار «ديجول» أن تلك السنوات التى لا يمكن إسقاطها من التاريخ الفرنسى يمكن اعتبارها سنوات «ظلام نزل على فرنسا»!

وبرز سؤال طرح نفسه هنا، «ما هو حساب سنوات الظلام؟ ومن أين تبدأ؟ وأين تنتهى»؟

وكانت إجابة «ديجول»: «من ساعة وضع «بيتان» توقيعه على «ورقة الاستسلام» وحتى ساعة إعلان دخول حكومة فرنسا الحرة إلى باريس».

وتولى «هنرى فريناى»، وهو أحد زعماء المقاومة البارزين، مهمة تفصيل ما أجمله «ديجول»، فأعلن بالنص: «إن حكومة «بيتان» كانت ظرفا ساد فيه الجنون. لقد هزمنا عسكريا أمام الألمان، إن ذلك صحيح لسوء الحظ، لكنه ليس سببا كافيا يدعونا لأن نقبل كحقيقة ثابتة ما هو حادثة عارضة. لقد كان قبول التعامل مع ألمانيا هو الهزيمة ذاتها. السلاح ينهزم، وهنا «الحادثة»، لكنه إذا انهزمت الإرادة فهناك «النهاية».»

وهكذا اعتبر انكسار الجيوش حادثة هى من طبائع صراعات التاريخ، وأما القبول والتوقيع على ورقة تنازل بإملاء السلاح، فتلك هى الكارثة!

□

كان انكسار الجيوش الفرنسية مذهلا. فالهجوم الألمانى على فرنسا بدأ يوم ٩ من مايو سنة ١٩٤٠، وكان تقدمه من الجهة غير المتوقعة أو على الأقل الجهة التى لم يحسب حسابها بالقدر الكافى. والحاصل أن فرنسا كانت تنتظر الهجوم القادم من الشرق على أى بقعة من خط حدودها مع ألمانيا. وقد تصورت أنها استعدت لهذا الاحتمال، وكانت واثقة أن الخط الدفاعى الأسطورى الذى بنته أمام ألمانيا والذى اشتهر باسم خط «ماجينو» - على اسم وزير الدفاع الفرنسى الذى أعد له وأشرف على بنائه - سدا لا يقهر من التحصينات المنيعة وأبراج المدافع ومرابض الدبابات ومراكز القيادة ومخزونات من الأسلحة والذخائر والمؤن يمكن أن تعين المدافعين عن الخط وعن تراب الوطن الفرنسى لشهور بل لسنوات. لكن الهجوم الألمانى عندما جاء أتى من الشمال، لأن خطة «هتلر» لغزو فرنسا كررت مرة أخرى خطة قديمة وضعها الماريشال «فون شليفن» من أيام حرب السبعين (١٨٧٠)، ومقتضى الخطة ترك الحدود الفرنسية وخطوطها وتحصيناتها والدوران حولها عن طريق بلجيكا وهولندا وعبور نهر «الموس» والنفاذ فى مناطق «الأردين»، ثم عبور نهر «اللوار» والاندفاع نحو «باريس» وتحقيق الفصل الكامل بين الجيوش الفرنسية على خطوط الحدود فى الجنوب وبين الجهة الأكثر حساسية والأشد خطرا فى الشمال والغرب.

وفى ظرف أيام قليلة كانت مدرعات الجنرالات «جودريان» و«روميل» و«فون بيك» تسابق بعضها بعضا فى شمال فرنسا، وغربها، مندفعة إلى قلبها.

ومن المصادفات صباح يوم بدء الهجوم الألمانى على فرنسا (فجر ٩ من مايو). أن القيادة العليا الفرنسية كانت معطلة، لأن رئيس الوزراء الفرنسى «بول رينو» لم يعجبه أداء القائد العام للجيش الفرنسى الماريشال «موريس جاملان» فيما سبق من معارك. فقرر إحالته إلى الاستيداع مساء يوم ٨ مايو. لكنه فجر اليوم التالى (٩ من مايو) ومع بدء الهجوم الألمانى الشامل عبر هولندا وبلجيكا، والالتفاف حول خط «ماجينو» لم يكن أمام «بول رينو» إلا العدول عن قراره بإحالة قائده العام إلى

الاستيداع، وهكذا فإن الماريشال «جاملان» الذى وقع طرده فى المساء أعيد تثبيته على منصبه عند الصباح. والواقع أن الجبهة الفرنسية كانت قد انهارت تماما فى حضور الماريشال «جاملان»، ثم فى غيبته بالطرد فى المساء، وكذلك بعد عودته بالتثبيت فى الصباح!

□

وكان حلفاء فرنسا البريطانيون الذين جاءوا إليها بجيوشهم فى «نورماندى» (شمالى فرنسا) قد رأوا الانهيار مبكرا وقرروا الانسحاب من المعركة وترك فرنسا تواجه العاصفة وتقرر لنفسها ماترى وعندما عبرت القوات الألمانية نهر «اللوار» والطريق إلى باريس مفتوح كان مجموع خسائر فرنسا من البشر:

○ مليون وربع مليون قتيل.

○ مليون ونصف مليون أسير.

○ ثمانية ملايين مواطن فرنسى تحولوا إلى لاجئين (إلى درجة أن مدينة مثل «شارتر» لم يعد فيها غير ٨٠٠ مواطن فى حين أن تعدادها الأصلى ثلاثة وعشرون ألفا، ثم إن قرية مثل «بوسيلانج» هرب سكانها ولم يتبق منهم غير عائلة واحدة ما لبث أفرادها جميعا - وعددهم خمسة - أن قرروا الانتحار جماعيا قبل أن تدهمهم القوات الألمانية.

ومساء يوم «٢٥ من مايو» قام الماريشال «موريس جاملان» (القائد العام للجيش الفرنسى) بإبلاغ الحكومة فى باريس رسميا بأن عليها «أن تجد وسيلة لوقف القتال والتوصل إلى هدنة مع الألمان. لكن الحكومة قامت بعزل الماريشال «جاملان» وعينت بدله الماريشال «ماكسيم ويجاند»، وحاول القائد العام الجديد أن ينقذ الموقف لكنه يوم «١٢ يونية» حل عليه الدور لكى يطلب من الحكومة أن تجد وسيلة لوقف القتال والتوصل إلى هدنة مع الألمان.

وأكثر من ذلك، فإن الماريشال «ويجاند» وجه إلى رئيس الوزراء تحذيرا قال فيه، «إن التوصل إلى اتفاق بأى شكل مع الألمان لابد أن يتم بسرعة وقبل أن تنفرط الجيوش الفرنسية وتذوب فى فوضى الهزيمة، ثم لا تجد الحكومة فى باريس أى

قوات تحمى بها الداخل الفرنسى من «حركة شيوعية» تحاول استغلال الكارثة وتستولى على السلطة»!

□

كانت باريس تعيش أقسى الساعات فى تاريخها الحافل، لكن العاصمة كانت منقسمة بين الذين يرون استمرار مقاومة فرنسا حتى من خارج التراب الفرنسى كله إذا أدى الأمر - وبالتحديد من المستعمرات فى شمالى أفريقيا (تونس والجزائر ومراكش) - وبين الذين يرون أن «الواقعية» لابد لها الآن أن تسود وأنه ليس أمام فرنسا غير أن تسأل الألمان عن شروطهم لوقف القتال، فالحرب انتهت عمليا بانتصار الألمان ليس على فرنسا فقط، وإنما على بريطانيا أيضا، لأن فلول الجيوش البريطانية التى انسحبت من فرنسا تحت النار فى «دنكرك» أفلتت محطمة الأعصاب تاركة أسلحتها الثقيلة غنيمة لقوات الجنرال «جورديان» التى طاردتها وطردتها من «نورماندى»، والنتيجة - وذلك هو القدر المحتوم - أن الجزر البريطانية نفسها سوف تصبح مكشوفة أمام غزو ألمانى عبر بحر الشمال، لأن بريطانيا ببساطة لا تستطيع فى أيام ولا أسابيع ولا شهور أن تعد دفاعات عن شواطئها تقدر على الصمود.

كان الشعب الفرنسى فى حالة ذهول مما حل به، فقد انقضّت عليه عاصفة الحرب وهو يعيش أزمة سياسية ضاعت فيها ثقته بمؤسساته السياسية والفكرية والثقافية، والشك فى النفس أخطر ما يصيب الشعوب لأنه ينزع مناعتها ويضرب إرادتها بنوع من الحيرة تصل بها إلى الضياع.

وفى تلك اللحظات المثقلة بالهم تقرر دعوة الماريشال «بيتان» (الذى كان يعمل سفيرا لدى إسبانيا) كى يعود بسرعة لعل لديه دواء لعلل فرنسا، وهو البطل الذى حقق لها النصر فى الحرب العالمية السابقة (١٩١٤-١٩١٨).

لكن الماريشال - الذى استدعى على عجل - كان قد ترك آخر جذوة فى أسطورته تنطفئ بدعوى أن ساسة فرنسا تخلوا عن «القيم والأخلاق والمثل العليا التى قام عليها تماسك فرنسا».

وهكذا فإن «بيتان» «بطل الحرب» كان هو الرجل الذى طلب من الألمان «شروط السلم»!

ويوم «٢١ يونية» قدم الألمان شروطهم لمبعوث خاص بعث به الماريشال «بيتان» الذى تسلم رئاسة الوزارة من «بول رينو» قبلها بأيام. والغريب أن القائد الألمانى الماريشال «فون رونشتد» قدم تلك الشروط لمبعوث «بيتان» وهو الجنرال «هونتزيجر» فى عربة قطار سحبت إلى محطة «كومبين»، وكانت نفس العربة إلى نفس المحطة التى وقعت فيها ألمانيا شروط الاستسلام فى الحرب العالمية الأولى قبل ٢٢ سنة!

وكانت شروط الألمان كما يلى:

١ ـ يتم تقسيم فرنسا بالعرض إلى منطقتين: فى الشمال منطقة احتلال ألمانى، فيها باريس، ومنطقة فى الجنوب تقوم فيها دولة فرنسية «مستقلة» تختار لنفسها عاصمة حسبما ترى سلطاتها.

٢ ـ الدولة الفرنسية تباشر تسريح جيشها وتحتفظ بقوة أمن لا يزيد تعداد أفرادها على مائة ألف رجل.

٣ ـ الأسرى الفرنسيون لدى الجيش الألمانى (مليون ونصف المليون) يبقون فى الأسر حتى تنتهى الحرب العالمية وتوقع معاهدة للصلح بين جميع الأطراف (وبعد شهور قليلة كان نصف هؤلاء الأسرى (٨٠٠ ألف) عمال سخرة فى خدمة الإنتاج الحربى الألمانى).

٤ ـ تتكفل الحكومة الفرنسية بدفع تكاليف وتتحمل نفقات الجيش الألمانى فى منطقة الاحتلال (شمالى فرنسا وفيها باريس).

وحين قام الجنرال «هونتزيجر» بنقل هذه الشروط الألمانية إلى الماريشال «بيتان» طلب الماريشال فى مقابل قبوله بها ثلاثة شروط:

١ ـ أن تتعهد ألمانيا بعدم احتلال أرض الدولة الفرنسية المستقلة (جنوب فرنسا).

٢ ـ ألا تحتل ألمانيا أيا من مستعمرات فرنسا الإمبراطورية، وإنما تترك هذه المستعمرات تابعة لهذه الحكومة الفرنسية المستقلة التى اتخذت من مدينة فيشى عاصمة لها، وذلك حتى تجرى تسوية عامة فى مؤتمر الصلح بعد نهاية الحرب.

٣ ـ أن تتعهد ألمانيا بألا تستولى، ولا تحاول الاستيلاء على الأسطول الفرنسى فى موانئ «مارسيليا» و«طولون»، لأن البحرية الفرنسية سوف يقع عليها وحدها عبء الدفاع عن المستعمرات الفرنسية إزاء أطراف محتملة (بريطانيا).

ووافقت ألمانيا على هذه الشروط، وكان البند الوحيد المعلق قبل وقف القتال هو الاتفاق على المبلغ المقدر لتكاليف ونفقات جيش الاحتلال الفرنسى.

ولساعات دارت مساومات، وعرض المفاوض الفرنسى دفع مبلغ عشرين مليون فرنك يوميا، لكن المفاوض الألمانى لم يكن لديه وقت لطول الجدل، كما أن المفاوض الفرنسى كان يشعر دقيقة بعد دقيقة أن الأرض تقع من تحته والسقف يهوى منقضا عليه. وهكذا تم الاتفاق على أن «تتعهد فرنسا بأن تدفع تكاليف ونفقات جيش الاحتلال الألمانى وتقدر بمبلغ ٤٠٠ مليون فرنك كل يوم مع احتساب قيمة الفرنك الفرنسى إلى المارك الألمانى بنسبة ٢٠:١ أى أن عشرين فرنكا تساوى ماركا ألمانيا واحدا»!

ووضع الماريشال «بيتان» إمضاءه على اتفاق سلام ينهى الحرب ويبدأ تجربة جديدة للتوافق مع «الآخر» الألمانى، مع العلم بأن هذا «الآخر» كان «جارا» لفرنسا طول التاريخ وليس «آخر» انقض من الفراغ على التاريخ وعلى الجغرافيا معا!

وقد رأى «بيتان» من باب استيفاء الإجراءات أن يعرض الاتفاق على الجمعية الوطنية، وكان الجيش الألمانى على أبواب باريس فعلا ووافقت الجمعية الوطنية على الاتفاق بأغلبية ٦٢٤ صوتا ضد أربعة أصوات.

وتستوقف النظر وتستدعى التأمل مجموعة الإجراءات التى بدأ بها الماريشال «بيتان» حكمه لفرنسا. ومؤلف كتاب سنوات الظلام يوردها فى صفحة ١٥٤ من كتابه:

١ ـ طلب وحصل على تفويض دستورى جعل سلطته فى فرنسا أقوى من السلطة التى كانت فى يد الملك «لويس الرابع عشر» عندما كان يلقب بـ«الملك الشمس»، وعندما قال قولته المأثورة يوما: «أنا الدولة».

٢ ـ قرر تغيير النشيد الوطنى إلى نشيد آخر مختلف عن نشيد «إلى السلاح أيها المواطنون»، لأن النشيد القديم فيه تحريض على الحرب.

٣ ـ وجه نداءً إلى الأمة الفرنسية لتعود إلى أيام كانت العائلة فيها أساس المجتمع ورابط علاقاته ومحدد قيمه.

٤ ـ أشار أو أشير عليه بوضع رسم يوضح صورة جانبية له محل وجه «ماريان» التى كانت بشبابها ترمز إلى حيوية الثورة الفرنسية.

٥ ـ وافق على كتابة شعارات الثورة عن: «الحرية والإخاء والمساواة» فوق كل المراسيم والقوانين والتنظيمات التى وضعتها حكومة فيشى، مع أن الإجراءات كلها تكاد توحى بأنه «نظام ملكى يتخفى وراء شارات ثورية»!

□

لكن رجلا واحدا رفع صوته ورفض هذا الاتفاق من باريس، وكان ذلك الرجل هو الجنرال «شارل ديجول» نائب وزير الدفاع فى وزارة «بول رينو».

وأمر الماريشال الأسطورى بالقبض على الجنرال المغمور، لكن «ديجول» الذى كان بين مهامه أن ينسق العمليات على جبهة «نورماندى» بين الجيوش الفرنسية والجيوش البريطانية قرر أن يتوجه إلى «لندن» ليقود من هناك حركة مقاومة باسم «فرنسا الحرة».

وكان يقينه الذى لم يتزعزع أن كل دعاوى «الواقعية» هى استسلام لضغوط لحظة تنسى التاريخ، وتتنازل عن الحقيقة، وتتهاون فى المستقبل.

ويقينه أن الثلاثة: التاريخ والحقيقة والمستقبل أهم وأبقى من صدمة حادثة ومن «لحظة ضعف» لا يجوز التأسيس عليها ثم البداية منها ونسيان ما عداها!

وفى لندن بدأ «ديجول» يتصرف على أنه الممثل لإرادة فرنسا، ومن ثم الشرعية الفرنسية، وفى رأيه كانت حكومة «بيتان» «الواقعية» حكومة غير شرعية ـ ليل من الظلام نزل على فرنسا!

٢ـ الخيال ـ الحلم ـ الواقعية!

كان «شارل ديجول» ـ الذى ترك باريس قبل سقوطها ـ رافضا استسلام فرنسا وداعيا إلى استمرار الحرب ضد ألمانيا حتى من خارج التراب الفرنسى كله إذا اقتضى الأمر ـ رجلا يملك «حلما»، لكنه لم يكن رجلا «خياليًا».

....

....

[والفارق شاسع بين «الحلم»(الأمل) وبين «الخيال»، كما أن الفارق شاسع بنفس المقدار بين «الحلم» وبين «الواقعية».

والحقيقة أن تلك كلها: «الخيال»، و«الحلم»، و«الواقعية» ظلال لمواقف من الضرورى توضيحها بإضاءة معانيها وليس بمجرد النظر إلى سطحها، وإذا وقعت تلك الإضاءة الضرورية ونزلت على مكانها فسوف تشحب الظلال وتتضح المشاهد بما تعنيه:

□ مشهد «الخيال» هو الجموح فى طلب «المستحيل» بصرف النظر عن حدود الطاقة الحالية والمحتملة للطالب، لأن الجموح إلى الخيال رغبة أقرب إلى الغريزة مستغنية عن الحساب، والمشهد على هذا النحو نوع من المقامرة خطرة العواقب على طالبها قبل غيره من الأطراف.

□ ومشهد «الحلم» هو «المشروع» القادر على تصور المستقبل وهو بالتالى طلب «الممكن كله» إذا وضعت «الإرادة كلها» فى خدمته، وذلك جوهر «المشروع السياسى» وبالتالى فإن «الحلم» مشروع سياسى يحقق كل المقدور عليه فكرا وفعلا إذا استعملت الإرادة كل وسائلها بقوة وذكاء.

□ وأما مشهد «الواقعية» فهو القبول «بالمتاح»، أى المأذون والمسموح به كما هو ظاهر فى لحظة معينة، واعتبار أن صورة هذه اللحظة هى الحقيقة الراهنة والدائمة، وهنا فإن «الواقعية» تصبح أبعد ما تكون عن «السياسة» بمعناها وأقرب ما تكون إلى الوظيفة بحدودها، فالسياسة تصوغ مطالبها مهما كانت صعبة وبعيدة، والواقعية تنفذ لوائحها كارهة لها أو سعيدة.

والسياسة ملزمة بإطار من دستور وقانون لكن «الواقعية» لا تسائل نفسها عن شرعية ما تلتزم بتنفيذه، فهى تنفذ فقط ما تجده مكتوبا فى لوائحها (واللوائح - بل وحتى الدساتير والقوانين - يمكن أن تكتب بواسطة قوة غير شرعية،لأن سلطة هذه القوة تفرض تنفيذها قسرا، وذلك ما فعله الاحتلال الألمانى لفرنسا فى المنطقة التى دخلتها جيوشه، وذلك أيضا ما فعلته حكومة الماريشال «بيتان» فى الدولة الفرنسية المستقلة - !- التى سمحت بها اتفاقية السلام بين ألمانيا وفرنسا !).]

....

....

[وعلى سبيل الاستدلال بنماذج من الحرب العالمية الثانية، فإن «هتلر» كان رجلا خياليا جمح خياله إلى حد تصور معه أنه يستطيع السيطرة على العالم بالسلاح، وكان ذلك منزلقه حتى فى ذروة قوته، وقد بنى حساباته على أساس قدرته على هزيمة الإمبراطوريتين الكبيرتين فى أوربا - فرنسا إلى جواره، وبريطانيا أمامه عبر القنال الإنجليزى (المانش).

وفى ذلك نسى «هتلر» قوتين صاعدتين:

- قوة اقتصادية مالية هى «الولايات المتحدة الأمريكية» تنتظره عبر المحيط حتى يستنزف قواه فى أوربا ثم تقرر كيف تواجهه.

- والقوة الثانية كتلة إنسانية ضخمة، إلى جانب أنها فكرة عقائدية نشطة تتحرك فى فضاء عالمى واسع. وهى تعتبر نفسها موقع اليسار. وتعتقد أن نازية «هتلر» أقصى اليمين والصراع بين الاثنين مهما تأخر «حتمية تاريخية».

وربما كان فى مقدور السلاح الألمانى أن يتحدى إمبراطوريات قديمة (بريطانيا وفرنسا)، أو يتحدى طاقة اقتصادية مالية هائلة (الولايات المتحدة)، أو يتحدى كتلة إنسانية وعقائدية ضخمة (الاتحاد السوفيتى) - لكنه كان من المستحيل ومن ضروب الخيال، أن يتحدى الثلاثة معا وفى وقت واحد.]

....

....

[وعندما استسلمت فرنسا ورفضت بريطانيا بقيادة «تشرشل» أن تستسلم برغم أنها فقدت حليفها الكبير فى القارة الأوربية (أى فرنسا)، وبرغم أن الجزء الأكبر من جيشها انسحب من القارة عن طريق «دنكرك» عاريا من سلاحه وشبه عارٍ من معنوياته، ورغم أن ما بقى تحت تصرف تشرشل من جيوش الإمبراطورية البريطانية كان شتاتاً لا يقدر أن يصد هجوما ألمانيا إذا أمر «هتلر» بعبور القنال الإنجليزى (وكانت تلك نيته فعلا بالخطة التى عرفت بالاسم الرمزى «سبع البحر»). إلا أن «تشرشل» «الحالم» قرر أن بريطانيا تستطيع الصمود وكان واثقا إن ذلك فى مقدوره وأنه فى حدود الممكن إذا استطاع أن يحشد كل طاقة الإرادة المتوافرة لدى الأمة البريطانية وراءه.

ولم يكن «تشرشل» فى ذلك «خياليا» برغم أن بعضا من أركان وزارته وأولهم وزير خارجيته اللورد «هاليفاكس» وجدوا أن «الواقعية» تقتضى جس نبض هتلر عن طريق حليفه موسولينى لمعرفة شروطه لوقف الحرب، ولكن «تشرشل» تصدى لـ«هاليفاكس» وللآخرين. وكان «تشرشل» فى ذلك «حالما» وليس «خياليا» بمعنى أنه صاغ لنفسه ولبريطانيا مشروعا سياسيا (إستراتيجية) رآه ممكنا، واستطاع - وهذا هو جوهر العمل السياسى - أن يقنع به وزارة الحرب وشريكه فيها «كليمنت آتلى» زعيم حزب العمال، كما استطاع أن يقنع بها رئاسة أركان حرب الإمبراطورية وعليها فى ذلك الوقت الفيلد مارشال «آلان بروك».

وأهم من ذلك فقد استطاع تشرشل أن يقنع الشعب البريطانى فى الجزيرة الأم ووراء البحار.

وكان - حلم - مشروع - تشرشل مؤسسا على حساب القوة والإرادة وليس مجرد اندفاع وراء الوطنية والكرامة وحدهما. وكان الحساب - وهنا المشروع السياسى - حساب المستقبل الآتى وليس حساب اللحظة الراهنة.

كان كل تفصيل فى صورة «الواقع» يدعو «تشرشل» إلى اللحاق ببيتان فى طلب شروط هتلر بمنطق الواقعية، ولكن الحلم - وبحساب المستقبل - كان هو الذى تجاوز

الواقع إلى ما وراءه، وترك المتاح المأذون به وتوجه إلى الممكن إذا وضعت الإرادة فى خدمته.]

....

....

□

وكان حساب «تشرشل» أنه بالنظر إلى خريطة العالم فإن «هتلر» غير قادر على النصر النهائى فى الحرب بالتحديد بسبب الولايات المتحدة - وبسبب الاتحاد السوفيتى:

كان تقدير «تشرشل» أن سقوط فرنسا هو المشهد الأخير فى الكابوس الألمانى الذى نزل على أوربا لأن ذلك المشهد سوف يستثير الولايات المتحدة.

والداعى أن سقوط فرنسا يعنى أن بريطانيا إذا ظلت وحيدة فهى مهددة بالسقوط، وإذا لحقت لندن بباريس فى طلب شروط «هتلر» فإن ذلك معناه أن ألمانيا هى الوريثة القادمة للإمبراطوريتين والمسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وهو قلب العالم، والمالك الجديد للمستعمرات الفرنسية والبريطانية فى آسيا وأفريقيا، وذلك شىء لا تستطيع الولايات المتحدة قبوله، وإذا قبلته فلن تكون آمنة وراء الأطلنطى وإنما هى معزولة وراء هذا المحيط. وعلى وجه اليقين فإن تعامل «هتلر» معها لن يخرج عن أحد احتمالين لا ثالث لهما:

- إما أن يعبر المحيط ليطولها.

- وإما أن يحوّل المحيط إلى سجن يحبسها وراء أسواره.

وكان تقدير «تشرشل» - أيضا - أن سقوط فرنسا سوف يهز الاتحاد السوفيتى، ويقنعه بسطحية التحليل الذى أغراه بـ«تجنب الحرب وترك الرأسماليات الكبرى تطحن بعضها»، لأن سقوط فرنسا (واحتمال غزو الجزر البريطانية) معناه انفراد «هتلر» (أقصى اليمين فى أوربا) بالسيطرة على القارة كلها، ونتيجته أن الهدف القادم لأقصى اليمين الأوربى (ألمانيا النازية) هو الهجوم على روسيا (موطن البلشفية) والحصول على ثرواتها الطبيعية الهائلة وتصفية معقل الثورة العالمية.

ومن النظر إلى خريطة المستقبل، كان «تشرشل» على يقين بأن «هتلر» لا يستطيع أن ينتصر فى الحرب.

والخلاصة التى توصل إليها هى: «إنه والأمر كذلك، فإن بريطانيا لابد أن تظل واقفة، ولابد أن تظل مشتبكة بالحرب مع ألمانيا، ولابد أن تكسب وقتا حتى تتنبه أمريكا وتتحرك، أو تتنبه روسيا وتتحرك، أو يقوم «هتلر» بحركة خاطئة يتعثر بها، خصوصا وقد احتل غربى القارة الأوربية كله وعليه أن يتقدم وراء ذلك وإلا وجد نفسه مقطوعا عن هدفه النهائى ووجد جيشه عاطلا فى نصف حرب لم تكتمل لأن أمريكا تراقب من وراء المحيط، كما أن الاتحاد السوفيتى يتربص على شرقى القارة نفسها لا يحجزه محيط!

وكان «تشرشل» سياسيا صاحب مشروع - صاحب حلم - حينما نادى على بريطانيا بأنه «ليس عندى غير العرق والدم والدموع، وبأنه علينا أن نقاتل على الشواطئ، ونقاتل فى الحقول، ونقاتل فى المدن، ونقاتل من بيت إلى بيت».

....

....

[ويكاد موقف إسرائيل فى الشرق الأوسط أن يكون صورة مكررة (بالاستنساخ وليس بالخلق!) لحالة ألمانيا النازية. بمعنى أن إسرائيل هى الأخرى تستطيع بتفوق السلاح أن تكسب المعارك والحروب، وتستطيع أن تحتل الأقاليم وتضم بعضا من أرضها، لكنها لا تستطيع ولا تملك إمكانية النصر النهائى لأنه أبعد من حدود التفوق فى السلاح. والواقع أمل إسرائيل الحقيقى فى انتصار نهائى معلق بتواضع الإرادة العربية إلى حد يقبل المأذون والمسموح به والمتاح - باسم «الواقعية» وهى ظاهرة متفشية فى دهاليز وأروقة السياسة العربية المعاصرة.

والحقيقة أن ظاهرة «الواقعية» الراهنة تحتاج إلى تفسير، ويمكن على الفور عرض ثلاثة أسباب رئيسية لها:

□ السبب الأول: إن مواقع القرار العربى لا تعرف كثيرين وصلوا إليها من وسط معمعان التاريخ أو من البوابات العريضة للاختيار الديمقراطى الحر وإنما تعرف

كثيرين وصلوا إليها بحكم الوظيفة (حتى وظيفة الإرث)، و«الوظيفة» لا تعرف لنفسها مشروعا تحلم به وإنما تعرف لنفسها لائحة تطبقها دون أن تسائل النصوص عن شرعيتها أو مشروعيتها.

☐ والسبب الثاني: إن ظروف الثراء العربي «الجاري» الآن في العالم العربي وضع هواجس «الحرص» سابقة على طموحات «الحلم».

وتلك حالة: أشار إليها «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة لأحوال الممالك عندما «يترهل» الأمراء بتخمة العز ومن ثم تتواضع «العزة» (وهي التي يسميها مؤسس علم الاجتماع بـ«العصبية»).

☐ والسبب الثالث: (وتلك محاولة في الإنصاف) إن مواقع القرار العربي ضاعت منها الخرائط الملاحية القديمة بسبب تغير المناخ العالمي على نحو لم يتحسب له أحد. ثم إنها لم تستطع - في ظروف مستجدة - أن تتوصل إلى رسم خرائط ملاحية جديدة للبحور العميقة والرياح العاصفة والصخور الغارقة تحت السطح وعندها آثرت مواقع القرار العربي أن يكون خط سيرها قريبا من الشواطئ حيث المياه ضحلة تمكن من رؤية القاع، وحيث الشاطئ القريب ساتر من عصف الرياح، وحيث النجاة ممكنة بالسباحة إلى اليابسة، لو وقع ما لم يكن منتظرا، أو تمرد «بحارة» السفن إذا اكتشفوا أن القباطنة ليسوا على ما ظنوه فيهم علما وخبرة ومقدرة على خوض العقبات والصعوبات إلى حيث الحلم المطلوب والممكن.

والراجح أن هناك أسبابا أخرى لزيادة جرعة «الواقعية» في تركيبة القرار السياسي العربي المعاصر، لكن ذلك على أي حال موضوع آخر مستقل بذاته.]

....

....

☐

كان الجنرال «شارل ديجول»، الذي هبط من آخر طائرة غادرت مطار «بوردو» الحربي قبل أن تشق القوات الألمانية طريقها إلى باريس، رجلا يمسك في يده «بحلم»،

ويرى لنفسه مشروعا سياسيا تصوغه حقائق مستقبل لا تقعدها «واقعية» اللحظة الراهنة.

والشاهد أنه بالشكل العام للصورة كان يمكن أن يبدو «ديجول» خياليا أكثر منه حالما.

فالدولة الفرنسية، والحكومة ضاعت منهما إرادة المقاومة، والشعب الفرنسى فى حالة ذهول يتابع مأخوذا حركة جيوش العدو الألمانى تنفذ إلى قلب الوطن، وجيوش فرنسا تتكسر شظايا، و«عاصمة النور» تنطفئ فيها الأضواء حيا بعد حى وشارعا بعد شارع وبيتا بعد بيت!

لكن ديجول كان قادرا على تجاوز «الواقعية» والنظر بالرؤيا إلى تخوم المستقبل، وقد اعتبر نفسه - ولو حتى وحيدا - رمزا لمستقبل فرنسا الحرة.

ولم يكن «تشرشل» الذى أذن لـ«ديجول» بأن يوجه نداءً بمواصلة المقاومة للشعب الفرنسى فوق موجات الإذاعة البريطانية مقتنعا بأن ديجول هو مستقبل فرنسا، إلا أنه فى تلك اللحظة كان «الفرنسى الأرفع رتبة» الذى ينادى بمواصلة الحرب ولو من خارج فرنسا.

وفى البداية، كان «تشرشل» يتصور أن نداء ديجول سوف يدعو كثيرين أكبر منه وأهم - على الأقل أشهر - كى يفعلوا مثله ويجيئوا إلى لندن وعزمهم مواصلة الحرب، لكن «تشرشل» فقد رجاءه من الانتظار وأدرك أن فرنسا سوف تظل ممثلة برجل واحد هو «شارل ديجول» حتى تتغير الظروف.

وكذلك طلب «تشرشل» إلى وزارة الخارجية البريطانية وإلى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية أن تنظم اتصالاتها مع الجنرال «ديجول» وأن تتعاون معه.

وفى أول تقرير كتبه السير «ألكسندر كادوجان» الوكيل الدائم للخارجية البريطانية كانت صورة «ديجول» كما بدت لعميد الدبلوماسية البريطانية هى: «رجل له رأس فى شكل فاكهة الأناناس الخشنة، وله جسم على هيئة خضار «الباذنجان» الطويلة، وإلى جانب ذلك فإن لديه شعورا متضخما دون سبب بدوره التاريخى!».

وفى أول تقرير كتبه الفيلد مارشال «ألان بروك» رئيس أركان حرب الإمبراطورية كتب لـ«تشرشل» فى تلخيص لقائه مع «ديجول». «هذا رجل لا يريد أن يحارب، ولا يريد أن يلم شراذم الجيش الفرنسى التى خرجت مع قواتنا من «دنكرك» ويصنع منها فرقة مقاتلة تثبت نفسها فى الحرب مع الألمان.

لقد حاورته طويلا، لكنه بدا لى وكأنه يريدنا أن نحارب، وأما هو قدوره أن يحكم ويقود. والمزعج أنه ليس لديه شىء يحكمه، لا دولة، ولا مدينة، ولا قرية، وليس لديه شىء يقوده لا فرقة ولا كتيبة ولا سرية من الرجال!».

لكن «شارل ديجول» كان «بالحلم» يعرف أكثر من موظف وصل بكفاءته الوظيفية إلى وكالة الخارجية البريطانية ولم ير فى اللاجئ الفرنسى غير رأس «الأناناس» وجسم «الباذنجان». وكان يعرف أكثر من موظف آخر وصل بعلمه العسكرى إلى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية - استغرب منه «ادعاء» الحكم ودعوى القيادة.

كان «ديجول» يعرف بالرؤية الإستراتيجية كيف يفكر «تشرشل» وكيف يخطط للنصر، وظل متنبها إلى أن العنصر الأهم فى خطة «تشرشل» هو كسب الوقت حتى تفيق روسيا من وهم الرأسمالية التى تحارب بعضها بعضا، ثم تتحرك أمريكا قبل أن يتحول المحيط إلى عازل ويتحول العازل إلى سجن!.. ومن ثم ينفرد «هتلر» بكل الإرث الإمبراطورى الذى تفتحت الطرق إليه بعد سقوط فرنسا، وعزلة بريطانيا فى الجزيرة التى تحولت إلى قلعة موحشة تنتظر الغزو أى يوم.

وعلى أساس المعرفة بهذه الرؤية الإستراتيجية لـ«تشرشل»، قدر «ديجول» ورسم.

هو الآخر سوف يلعب على الوقت ولن يجره سوء ظن الدبلوماسية البريطانية فى قدراته ولا إلحاح العسكرية البريطانية عليه ليجمع شراذم قوة عسكرية تستأنف حرب ألمانيا إلى جانب بريطانيا.

كان «ديجول» واثقا بأن معركة القتال محسومة دون أن يشارك فيها، ولم يكن متعجلا لتنظيم حركة مقاومة فى الداخل تجعل مهمة الاحتلال الألمانى صعبة (لأنه كان يقدر أن لحظة الذهول السائدة فى فرنسا ليست هى بالضبط لحظة الدعوة إلى المقاومة خصوصا وهناك فى «فيشى» رجل مثل «بيتان» بتاريخه المجيد يدعو إلى

«واقعية» يعطى لها فى خطابه مسحة من الحكمة تغطى بالرنين على الجوهر!. كذلك كان «ديجول» بالتوازى مع ذلك يدرك أنه لا يستطيع الآن يلملم من الشتات المبعثر للجيوش الفرنسية إلا قوة صغيرة تتنازل قياسا عليها - ولا تكبر - قيمة المشروع السياسى «الحلم» الذى يحمله).

□

ومع ثقة «ديجول» - اعتمادا على الزمن حسابه وفعله - بأن معركة تحرير أوربا قادمة بعد سنة.. سنتين.. ثلاث - لكنها «حتمية»..

ومع ثقة «ديجول» - بأن الانتصار النهائى فى الحرب لن يكون من نصيب «الخيال» - مهما عاند «هتلر»...

ومع ثقة «ديجول» بأن هناك جيوشا لمعركة تحرير أوربا سوف تتدفق من الشرق (من الاتحاد السوفيتى) وسوف تتدافع فوق أمواج المحيط من الغرب (من الولايات المتحدة) - فإن «فرنسا الحرة» ينبغى أن يكون لديها جدول أولويات يتسق مع «حلمه» - مشروعه السياسى.

وهنا يمكن فهم الإستراتيجية التى اعتمدها «ديجول» فى تلك الأيام المبكرة من يوليو وأغسطس سنة ١٩٤٠.

فى تلك الأوقات التى بدت فيها الصورة أشد كآبة من أى وقت مضى. وأشد ظلاما على فرنسا من أى وقت فى تاريخها كان «ديجول» يرسم لسياسته خطين:

الخط الأول: إن التراب الفرنسى سوف يتحرر بحقائق الأشياء.

الخط الثانى: إن الإمبراطورية الفرنسية - وليس التراب الفرنسى - هى المكشوفة الآن وغدا..

وهنا كانت صيحة:

فرنسا ليست فى خطر.

الإمبراطورية فى خطر.

إذا كان وجود فرنسا هو الوطن - فإن عظمة فرنسا هى الإمبراطورية!

□

والمدهش أن رؤية «ديجول» كانت واضحة فيما يتعلق بالخطر القادم على عظمة فرنسا - إمبراطوريتها القديمة - وقد رأى الخطر من مصدرين:

- «ألمانيا» كابوس وقع - و«أمريكا» كابوس يتشكل.

أى أن «ألمانيا» وريث يطالب الآن - بينما «أمريكا» وريث يهيئ المستندات الداعمة للمطالبة!

وكذلك فإن الحلم - المشروع السياسى لديجول - نظر إلى المستقبل فى عينيه وتمكن من تحديد مصادر الخطر على هذا المستقبل.

ولم تكن تلك قراءة فى الغيب وإنما نظر إلى الخريطة واطلاع على التاريخ. فألمانيا فى أوربا جار ومنافس وخصم وعدو فى فترات مختلفة من الجوار، ثم إن الولايات المتحدة هى الدولة التى أنشأت نفسها بطرد «الإمبراطوريات» من أمريكا بادئة بطرد بريطانيا مستعينة فى لحظة من اللحظات بفرنسا، ولما انتهت حرب الاستقلال عن بريطانيا ودخلت العلاقة بين المستعمرات القديمة والإمبراطورية المهزومة إلى مرحلة جديدة بحكم وحدة اللغة الإنجليزية - جاء الدور على الإمبراطورية الأخرى، فإذا الولايات المتحدة تطارد فرنسا إلى أقاصى القارة شمالا وجنوبا تخرجها من الجنوب حتى خليج المكسيك (نيو أورليانز) وتحصرها فى الشمال داخل جيب فى «كندا» تراجعت إليه كل المواريث الثقافية التى تركتها فرنسا فى العالم الجديد!

٤ - الثابت والمتغير فى أحوال الأمم:

عندما طرح الجنرال «شارل ديجول» «إستراتيجية» فرنسا الحرة على أساس أن التراب الوطنى الفرنسى سوف يتحرر بضرورة الأشياء، وأن الإمبراطورية الفرنسية (عظمة فرنسا) - هى التى سوف تصبح عرضة للخطر بسبب المطامع المتنافسة سابقا ولاحقا لم يكن يبتدع شيئا لم يُعرف قبله، ولا كان يخترع جديدا ليس له أصل قديم. والحقيقة أن إستراتيجيات الدول التى تحترم نفسها - وعالمها - لا تعرف سياسيا

يستيقظ من نومه بوحى تنزّل عليه يطلب إليه أن يفاجئ الكل بما لم يخطر لهم على بال، والسبب أن إستراتيجيات الدول مطالب جغرافيا وتاريخ نشأت وترتبت عليها دواعى مصلحة وضرورات أمن، وتلك مسائل لا دخل لها بالوحى ولا علاقة لها بالمفاجآت المثيرة مسرحية أو سينمائية.

والدول مطالبة بالتعبير عن نفسها مع تطورات الظروف فى كل عصر بما يناسب مقتضياته، لكن التجديد يكون فى الأسلوب وليس فى الهدف لأن أحدا لا يستطيع بأثر رجعى أن يعيد تركيب الطبيعة أو ينقل بلدا من موقعه على الخريطة المعروفة إلى موقع آخر يختاره. ثم إن أحدا لا يستطيع أن يغير مجرى التاريخ كما تدفق عبر القرون والعصور أو يعيد ترتيب سياقه كما يوافق هواه ورؤاه. ثم إن مصالح الدول وأمنها ليست قصصا يكون للمؤلف فيها حق رسم الشخصيات، وإجراء الحوار على ألسنتها معبرا عنه وشارحا لفكره!

ويكاد «جوليان جاكسون» أن يقول فى كتابه «فرنسا سنوات الظلام»: إن ديجول استأنف بحكومته فى المنفى نفس المناقشات التى قاطعتها أصوات المدافع الألمانية فى باريس وإن استراتيجية «فرنسا الحرة» تحت قيادته كانت اتصالا مباشرا بالخيارات الإستراتيجية التى كانت مطروحة فى فرنسا قبل دخول الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ - وقبل الاستسلام «لهتلر» فى يونية سنة ١٩٤٠.

كأن الزمن لم يتوقف.. وبالفعل فإن الزمن لا يتوقف.. وإن توقف بعض الساسة فى لحظة من اللحظات أو شردوا خارجين من ساعته يجربون معجزة خلق زمان جديد ناسين أن هناك فارقا بين حق البشر فى توجيه مقاديرهم وبين تجاسر البشر على توهم صنع الكون!

□

وقبل هبوب إعصار الحرب العالمية الثانية عاشت فرنسا حالة حيرة شاملة وعنيفة.

كانت فرنسا تشك فى الجمهورية الثالثة كلها من دستورها إلى مؤسساتها إلى رجالها.

وكانت فرنسا تعانى من انقسام داخلى بين اليمين واليسار وكلاهما يطرح نفسه بإلحاح باعتباره اليقين المؤدى إلى القوة.

وكانت فرنسا تتابع ما يجرى فى القارة حولها وتخشى سطوة ألمانيا النازية وهى تزيد كل يوم وتنتزع لنفسها مساحات من الأرض والنفوذ تمكن لها فى قلب أوربا:

- المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود بين ألمانيا وفرنسا بمقتضى «معاهدة فرساى» - وهى منطقة «السار» - دخلتها قوات «هتلر» بلا إنذار.

- النمسا جرى ضمها إلى ألمانيا بدون طلقة رصاص واحدة وأصبح الرايخ الثالث متحققا بـ«وحدة الأمة من وحدة اللغة».

- إقليم «السوديت» فى تشيكوسلوفاكيا جرى إلحاقه بألمانيا.

- والآن يطالب «هتلر» باستعادة منطقة «دانزيج» - بدعوى عرقية - من بولندا لتكتمل حدود الرايخ الثالث.

وكانت فرنسا ترى الخطر الألمانى يستشرى ويتفاقم لكنها لم تكن واثقة بقدرتها على إيقافه ورده، وفوق ذلك فهى تشعر أن بريطانيا تحرضها على التصدى لألمانيا وأن السياسة البريطانية هى هى لم تتغير تبغى تحقيق انتصارها بجنود غيرها ودمهم، أى أنها تريد محاربة «هتلر» إلى آخر قطرة دم فرنسى!

وفى ذلك المناخ ظهرت وانتشرت مقولة قابلة للتصديق مؤداها «أنه ليست هناك قضية تساوى من أجلها أن تنتحر فرنسا»!

....

....

وعندما ذهب رئيس الوزراء «إدوارد دالادييه» للمشاركة مع نظيره البريطانى «نيفل شمبرلين» فى مؤتمر دعى إليه «أدولف هتلر» على عجل فى ميونيخ - رجع «دالادييه» رافعا - مثل نظيره البريطانى - شعار أن «السلام تحقق فى زماننا» - لكن «دالادييه» فى أعماقه كان يشعر أن الاتفاق فسحة وقت لا تزيد على شهور لأن «هتلر» مصمم على خطته بأن تكون «ألمانيا فوق الجميع» داخل القارة الأوربية وخارجها. وأن

الحرب قادمة بلا شك لكن الكارثة أن فرنسا غير مستعدة وغير جاهزة لمقابلة العاصفة.

ورأى «دالادييه» أنه من الضرورى إعداد فرنسا للحرب وتهيئة فكرها لأن الحرب بالدرجة الأولى حالة «نفسية وعقلية».

لكن فرنسا ظلت حتى اللحظة الأخيرة مترددة. تدخل أو لا تدخل؟

○ «نفسيا» كانت فرنسا لا تريد لأنها مازالت تتذكر خنادق الحرب السابقة والمجازر التى شهدتها خنادق «السوم» والخسائر الهائلة التى ألحقتها الحرب بالاقتصاد الفرنسى ثم العبء النفسى المخيف لسنوات من القلق والضنى - والمقامرة على المجهول.

○ و«عقليا» كانت فرنسا لا تريد لأنها تخشى أن تخرج من الحرب خاسرة حتى ولو انهزم الألمان، وكانت الخشية أشد ما تكون على الإمبراطورية الفرنسية فى أفريقيا:

- الشاطئ الجنوبى الغربى للقارة («تونس»، و«الجزائر»، و«مراكش»).

- ووراء هذه المواجهة بالعمق - جنوب الصحراء حتى الكونجو.

- وعلى الشاطئ الشرقى العربى (سوريا ولبنان وحصة الثلث فى بترول العراق).

- وفى آسيا: شبه جزيرة الهند الصينية وفيها «فيتنام» و«كمبوديا» و«لاوس».

....

....

إلى جانب ذلك فقد كان هناك فى فرنسا «وطن الثورة الفرنسية»، إعجاب مكتوم بالنازية والفاشية، وقد ظهرت وسط الفوضى وساوس وشكوك بأن «الديمقراطية» فكت تماسك المجتمع الفرنسى (بموجة انحلال يستهولها اليمين) وبعجز فى السلطة (تأليف وإسقاط الوزارات) أدى إلى تردى الحكم، وفساد للنخبة أقعدها إلى درجة العفن! (رشوة فى جيب كل وزير وعشيقة «رسمية» معترف بها له) - وبدا للجميع أن «النازية» فى ألمانيا تحت زعامة «هتلر» و«الفاشية» فى إيطاليا تحت زعامة «موسولينى»

تحقق معجزات فى الأداء الاقتصادى والإدارى وفى استقرار السلطة ونزاهة الحكم، وفوق ذلك فى إعادة تنظيم وحشد عناصر القوة.

وتحت السطح فقد كان محسوسا أن المانع الأساسى الذى يرغم فرنسا على استمرار تحالفها الاضطرارى مع «بريطانيا» ويبعدها رغم الإعجاب عن ألمانيا وإيطاليا هو الخوف على الإمبراطورية، فثمن التقارب مع الدولتين الداخلتين بقوة إلى دائرة السيطرة العالمية هو صفقة جديدة لإعادة تقسيم المستعمرات، ولم يكن فى ذلك سر، فقد كانت ألمانيا تطالب بما كان لها فى أفريقيا (وفيه تانزانيا والكاميرون) قبل أن تتخلى عنه بمقتضى شروط معاهدة فرساى التى اضطرت لتوقيعها اعترافا بالهزيمة فى الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن «هتلر» هو وحده الذى يطالب بإعادة تقسيم المستعمرات وإنما كانت «إيطاليا» تطالب أيضا، وكانت «إيطاليا» تضع عينها بالفعل على «تونس» لتكون دفعة أولى ترضى بها وتكون امتدادا لوجودها فى «ليبيا» - وتسكت. والمدهش أن الحكومة الفرنسية تلقت نصيحة بريطانية تزكى التنازل عن تونس لإيطاليا لأن ذلك يمكن أن «يشترى موسولينى» ويبعده عن حلفه مع «هتلر»!

وكانت باريس مستفزة وردها «لماذا لا تعطونه «مصر» وهى على الناحية الأخرى امتداد لليبيا؟»

....

....

[وقد يتذكر البعض أن بريطانيا أشارت على مصر (سنة ١٩٣٥) بإعطاء جزء من الصحراء الغربية ملاصق لليبيا - وهى واحة «جغبوب» وما حولها - لكن شهية «موسولينى» للمستعمرات لم تكن تكفيها واحة وإنما كانت تطلب بلدانا وأقاليم.]

□

وهكذا كانت كل المناقشات حول دور فرنسا فى الحرب العالمية الثانية: وهل تدخلها أو لا تدخلها؟ يبدأ وينتهى «بالمستعمرات»، أو «بالامبراطورية» كما تسميها باريس.

ولعله من المفيد لبعض الناس فى العالم العربى أن يقرءوا فصلا بالذات من كتاب «جوليان جاكسون» «سنوات الظلام» وهو الفصل الذى يبدأ من صفحة ٨١ وعنوانه «المشكلة الألمانية». وهذا الفصل فى الواقع عرض للبدائل المتاحة لمستقبل فرنسا.

ملخص الفصل مجموعة واضحة من «شبه المسلمات»:

١ ـ فرنسا لا تستطيع أن تكون قوة عظمى فى أوربا وحدها والأسباب أنها فى أوربا تواجه ثلاث دول تتفوق عليها:

ـ ألمانيا: أكبر

ـ بريطانيا: أقوى

ـ روسيا: أضخم

٢ ـ إذا كان على فرنسا أن تكون قوة يحسب لها حساب، فعليها أن تبحث عن ذلك خارج أوربا، وفى اتجاه الجنوب بالذات لأن المتفوقين عليها يسدون كل اتجاه حولها: فوقها على الخريطة هناك بريطانيا ـ فى وسط أوربا بجوارها هناك ألمانيا ـ على الشرق خطوة واحدة هناك روسيا ـ وإذن طريق الجنوب وحده مفتوح وهو نفسه البحر الأبيض.

٣ ـ لكن بريطانيا تظل القوة البحرية المتنفذة فى البحر الأبيض بامتلاكها لقاعدتى السويس وجبل طارق على مداخل البحر ـ ولجزيرتى قبرص ومالطة وهما مواقع السيطرة على الخطوط الملاحية.

٤ ـ وإذن فإن الجزء الأهم من الإمبراطورية هو الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض حيث تونس والجزائر ومراكش ثم العمق الأفريقى وراء ساحل البحر حتى نهر الكونجو.

□

وعندما انزلقت فرنسا إلى الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها فإنها أقبلت مترددة، وقد حاربت بعض معاركها بنصف اقتناع ونصف عزم ونصف مجهود ـ وهنا كانت الهزيمة نتيجة بعد مقدمة، ولحظتها تنبهت فرنسا وأفاقت، وكذلك ظهر

الرأى الذى يرفض الاستسلام ويطالب بمواصلة القتال من فرنسا وراء البحر - من الإمبراطورية - بالتحديد من شمال أفريقيا.

كانت الإمبراطورية فى خيال فرنسا الرافضة للهزيمة هى الميدان الذى يتعين على حكومة باريس أن تنتقل إليه وأن تواصل الحرب منه وإلا فهى نهاية فرنسا حتى فى أوربا. بمعنى أن قوة فرنسا ليست تراب الوطن الفرنسى - وإنما هى الإمبراطورية التى تضيف للتراب تلك العظمة التى تنشأ للدول من نفوذها وهيبتها خارج حدود ولايتها. فما هو داخل الدولة تصنعه سلطتها، وأما الخارج فإن التواجد فيه هو المعيار الذى تقاس به القوة ويقوم على أساسه المجد!

وكانت تلك بالضبط هى النقطة التى بدأ منها «ديجول» مهمته فى حركة «فرنسا الحرة» عندما ذهب بها لاجئا إلى بريطانيا.

وقد وجه حديثا واحدا إلى الأمة الفرنسية من الإذاعة البريطانية، وأصدر بيانا وحيدا دعا فيه «الأمة الفرنسية» إلى رفض الاستسلام.

ولم يتأثر بضغوط الخارجية البريطانية حتى وإن وصفه كبار موظفيها برأس الأناناس وجسم الباذنجان، ولم يضعف أمام رئاسة الأركان الإمبراطورية البريطانية تحرضه على لم شتات جيش يحارب، وإنما كان همه هو «الإمبراطورية».

وفى الواقع فإن أول عمل حقيقى مارسه «ديجول»، وبعد شهر على خروجه من فرنسا (أغسطس ١٩٤٠) كان توجيه نداء إلى كل حكام المستعمرات الفرنسية يدعوهم - باسم فرنسا الحرة - إلى قبول حركة «فرنسا الحرة» تجسيدا لشرعية فرنسا بدلا من الحكومة التى استسلمت للألمان ووقعت معهم اتفاق سلام ثم «تكومت» على نفسها فى «فيشى».

وكان «ديجول» فى ذلك مدركا لحقيقة أن عددا من حكام المستعمرات الفرنسية ضباط من الجيش هو يعرفهم أو هم يعرفونه، وقد استجاب له بالفعل منهم ثلاثة هم: الحاكم العسكرى لـ«تشاد» والحاكم العسكرى لـ«الكونجو» الفرنسية (برازافيل) والحاكم العسكرى لـ «الكاميرون».

وهكذا وجد ديجول لحركته موضع قدم فرنسى: فى نطاق الإمبراطورية، ثم توجه

لزيارة هذه المستعمرات الثلاث بعد أن تأكد من حكامها العسكريين أنهم سوف يرتبون له هناك استقبالا يليق بعظمة فرنسا. وذهب ديجول إلى الإمبراطورية الفرنسية فى أفريقيا وعاد ليعلن تكوين «لجنة الدفاع الإمبراطورى» ومعها «حكومة مؤقتة لفرنسا الحرة».

□

وكان «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء البريطانى - وبتأثير البيروقراطية الدبلوماسية والعسكرية البريطانية - غير مرتاح لما يفعله «ديجول»، وتصوره أن «فرنسا الحرة» تحارب معركة التحرير بعيدا عن الميدان - لكن «ديجول» كان على يقين مما يفعل.

وفى مناقشة جرت تلك الأيام - أكتوبر ١٩٤٠ - ولم تكد تمضى شهور على استسلام فرنسا وقع حوار له معنى بين «تشرشل» وبين «ديجول».

قال «تشرشل» أثناء الحوار موجها كلامه لـ«ديجول»:

- أنت تترك ميدان الحرب الحقيقى فى أوربا - فى فرنسا - وتذهب إلى أفريقيا.

ورد «ديجول»:

- الذهاب إلى أفريقيا رسالة سوف تفهمها فرنسا.

وقال «تشرشل»:

- ولكن مؤسساتنا هنا وأنت تتعامل معها فى الخارجية وفى رئاسة الأركان لا يفهمونها وأخشى أن يتهموك يوما بأنك تعض اليد التى أطعمت حركتك - حركة «فرنسا الحرة».

ورد «ديجول»:

- إن «فرنسا الحرة» لا تعض صديقا لكنها لا تمانع أن يفهم من يهمهم الأمر أن فرنسا مازالت لها أسنان !».

□

ثم مضى «ديجول» يجرى تصرفاته وفق حلمه وبإملاء مطالب هذا الحلم بمنطق أن «مجد فرنسا» قبل «ترابها الوطنى» فى هذه اللحظة، وهكذا فإنه بعد إنشاء الحكومة المؤقتة لفرنسا الحرة سنة ١٩٤٠ - واصل طريقه:

○ سنة ١٩٤١ حاول الألمان - وبسكوت يعنى الرضا من جانب حكومة «فيشى» - أن يدخلوا إلى سوريا ولبنان لمساعدة جيش «روميل» المتقدم إلى مصر من الغرب، ورأت بريطانيا فى الدخول الألمانى إلى سوريا ولبنان خطرا طارئا من الشرق فقررت القتال فى ظروف صعبة رآها «ديجول» مبكرا وتقدم لاستغلالها فى اللحظة المناسبة، فأجرى اتصالات مع كبار الحكام العسكريين الفرنسيين لأملاك الإمبراطورية الفرنسية فى المشرق وقد حدث، وأمكن حصر القتال وحصل «ديجول» على جائزته بأن رفع علم «فرنسا الحرة» على دمشق وبيروت.

○ وسنة ١٩٤٢ كانت استراتيجية الحلفاء بعد اشتراك الولايات المتحدة فى الحرب أن يقوم الجيش الأمريكى بالنزول فى شمال أفريقيا - المغرب والجزائر - لكى يقوموا بحصر جيش «روميل» فى ليبيا، وبذلك يتم طرد ألمانيا وإيطاليا من أفريقيا ومن ثم تتركز الجهود على أوربا. وأحس «ديجول» أن الأمريكيين يخشون أول مخاطر عملية عسكرية لهم فى الحرب بعد ضربة «بيرل هاربور» (التى دمرت فيها الأساطيل اليابانية بقيادة الأميرال «ياماموتو» - كل أسطول أمريكا فى المحيط الهادى كله بضربة واحدة مفاجئة فى ديسمبر عام ١٩٤١).

ومرة ثانية، وفى إمبراطورية فرنسا المغربية (المغرب - الجزائر - تونس)، كما وقع من قبل فى إمبراطورية فرنسا المشرقية (سوريا - لبنان) تقدم «ديجول» يعرض تسهيل نزول القوات الأمريكية دون معارك - وقام بترتيب الأمور مع الحكام الفرنسيين فى شمال أفريقيا، وكان شرطه أن يرتفع علم «فرنسا الحرة» على أعلى الساريات فى «الرباط» و«الجزائر» و«تونس» لكى تكون إعلانا عن عودة كل الإمبراطورية الفرنسية (المجد الفرنسى) حول البحر الأبيض.

○ وفى سنة ١٩٤٣ - أى بعد ثلاث سنوات تقريبا - من استسلام فرنسا التفت «ديجول» إلى تنظيم المقاومة السرية ضد الاحتلال الألمانى على التراب الفرنسى وبدأ ينشئ الخلايا ويقيم التنظيمات ويرتب لعمليات «تخريبية» ضد الاحتلال الألمانى:

قواته - ثكناته - مواصلاته - تسهيلاته الإدارية - أفراده - وكذلك الفرنسيين المتعاونين مع الاحتلال وحتى «البغايا» !

وكان اهتمام القيادة المتحالفة بالمقاومة الفرنسية أكيدا لأنها اعتبرت نشاطها ضد الاحتلال الألمانى إزعاجا بالنهار، وأرقا بالليل - وتهديدا لمؤخرته فى كل الأوقات.

○ وسنة ١٩٤٤ كانت خطة تحرير أوربا بالنزول شمال فرنسا والتقدم منها لتوجيه ضربة قاضية إلى ألمانيا وفق عملية «أوفر لورد» Over lord - قد تم إعدادها وبدأ الترتيب لتنفيذها وتحدد بالفعل يوم اقتحام الشواطئ الفرنسية وعليها الخط الدفاعى المنيع الذى بناه «هتلر» للدفاع عن أوروبا وأسماه «حائط الأطلنطى».

وكانت قيادة الحلفاء تحتاج إلى المقاومة الفرنسية فى الداخل تراقب لها تحركات الألمان وتعرقل جهدهم وتثير الفوضى خلف الجبهة، وعلى طريق تقدم الجيوش المتحالفة إلى عمق فرنسا وعمق أوربا.

وطلبت قيادة «إيزنهاور» القائد العام لقوات الحلفاء والمسئول عن «أوفر لورد» من الجنرال «ديجول» طلبين:

- تنشيط عمليات المقاومة الفرنسية إلى أقصى حد ممكن فى توقيتات معينة تتناسب مع الخطط العسكرية.

- تسجيل بيان بصوت ديجول يذاع لحظة إنزال القوات ويحمل نداء منه إلى الشعب الفرنسى أن يقوم ضد الألمان بكل جهد يستطيعه وإلى المقاومة الفرنسية فى كل مكان لكى تخرج من مكامنها وتضرب بشجاعة.

وقبل ديجول لكنه إزاء طلبين من قيادة الحلفاء قدم إلى هذه القيادة ثلاثة طلبات:

- أن يطلع - وأركان قيادته - على الخطة العسكرية للحلفاء بالذات فيما يتعلق بالأرض الفرنسية.

- أن يتضمن الأمر اليومى للقائد العام للقوات المتحالفة القائمة وهو الجنرال «إيزنهاور» - ساعة بدء العملية - إشارة واضحة إلى دور فرنسا حليفة بين الحلفاء المشاركين فى الحرب.

- وأخيرا أن تكون أول قوات تدخل باريس عند تحريرها مجموعة لواء فرنسي مدرع يقوده مساعده الجنرال «ليكليرك».

وعندما علم الرئيس الأمريكي «روزفلت» بهذه الطلبات الثلاثة التي تقدم بها «ديجول» بعث برقية إلى رئيس الوزراء البريطاني يقول فيها «هذا الرجل أصابه مس من الجنون على وجه اليقين وتعليقي على طلباته هو إبلاغه فورا بطرده من الحركة التي يرأسها والبحث عن جنرال آخر «عاقل» (واقعي) يحل محله.

وعندما اطلع وزير الخارجية البريطاني - «أنتوني إيدن» - على هذه البرقية كتب إلى «تشرشل» يقول:

«من سوء الحظ أن الفرصة قد فاتت لمثل هذا الإجراء لأن الفرنسيين في الداخل لا يعرفون غير «ديجول» وأي تغيير في تركيبة «فرنسا الحرة» في هذه الساعة المتأخرة سوف يحدث ارتباكا في خطط التحرير. ولذلك فإنه من الأفضل الآن أن تسير الأمور كما هو مرسوم لها، وبعدها نرى ما يمكن عمله.

وعندما تحررت باريس هرع «ديجول» (أغسطس ١٩٤٤) يسعى في موكب حاشد من ميدان «الكونكورد» عبر شارع «الشانزليزيه» قاصدا إلى «قوس النصر» وسط تقاطع ميدان «الاتيوال»، وكان الآن قد دخل ومعه الإمبراطورية إلى موقع القلب من التراب الفرنسي.

كان ديجول ساعتها رجلا حقق حلمه الصعب بأن وضع وراءه كل إرادة فرنسا وإرادته، ولم يجنح إلى المستحيل وخياله بغير حسابات، ولم يسقط في «الواقعية» وهي بئر بغير قاع.

□

ومن مفارقات التاريخ أن الجنرال «شارل ديجول» وهو رئيس للجمهورية الفرنسية للمرة الثانية (١٩٥٨-١٩٦٥) -كان هو بذاته الرجل الذي تعين عليه أن يشرف على فك الإمبراطورية الأفريقية لفرنسا عبر البحر!

كان رئيس الوزراء الفرنسي «بير منديس فرانس» قد سبق إلى فك الإمبراطورية في آسيا بعد هزيمة فيتنام الأولى (معركة ديان بيان فو).

لكن ديجول - وبعد الهزيمة فى الجزائر سنة ١٩٦٠ - كان هو الرجل الذى تعين عليه فك الإمبراطورية فى أفريقيا.

والأهم أن ديجول كان لا يزال الرجل الذى يحمل معه الحلم - المشروع. وفى الوقت نفسه كان لديه ذلك القدر الضرورى من فهم متغيرات العصور بحيث فهم أن فرنسا تستطيع أن تستعيض عن الإمبراطورية فى صورتها التقليدية - بإمبراطورية من نوع جديد على نحو ما فعلت بريطانيا بإنشاء الكومنولث (والأساس فيه اقتصادى يعتمد على الإسترلينى).

ولم تكن لدى فرنسا قوة اقتصادية (إزاء بريطانيا والإسترلينى - ولا قوة مالية إزاء المارك الألمانى) وكان أن تحولت الإمبراطورية من دودة إلى شرنقة حرير على أساس من اللغة الفرنسية وحمولاتها الثقافية - وهكذا طرحت ونشأت فكرة «الفرانكفونية»، وهى فكرة سياسية وليست ثقافية لأنه فيما يتعلق بالجانب الثقافى قام العالم بتكريم الثقافة الفرنسية حين اتخذ من باريس عاصمة لليونسكو (المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة).

والحقيقة أن «الفرانكفونية» كانت الطبعة الأخيرة للحلم الإمبراطورى الفرنسى وهو حلم له مشروع.

□

وطويت صفحات كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» وفى خواطرى وأمام عينى «أن الإرادة تقدر أن تعيش حلمها (وتجدد وسائله)، وأما العجز فليس لديه غير أن يعيش حلم الآخرين (ويذوب فيه).

وقمت من مقعدى أمشى على الشاطئ وعليه الخطوط مما يرسم الموج على الرمل أو ما يلقى عليه من شظا حجر وبقايا صدف، متفكرا فى شأن هذا البحر الأبيض الذى تحلقت الحضارات حوله، وارتكز التاريخ على صخوره، وكتبت الإنسانية واقفة أمامه بعضا من أشهر الصفحات فى قصتها، تلك الأرفع قيمة - وتلك الأدنى تواضعا!

الفهــرس